

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

(المجلد: ١٠، العدد: ١)



مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية، الهند

بدأ صدورها في 2012م

الرقم الدولي: 2321-7928

مجلة الهند

مجلة فصلية محكمة

المجلد: 10 العدد: 1

يناير-مارس 2021م

مدير التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي

المشارك في التحرير

د. هيفاء شاكري

نائب مدير التحرير

د. محمد معتصم الأعظمي

تصدر عن

مولانا آزاد آئيديل إيجوكيشنال ترست

بولفور، بنغال الغربية

قواعد النشر في المجلة

بالنسبة للبحوث التي ترسل للنشر في المجلة، يرجى مراعاة القواعد الآتية:

1. تقبل المجلة نشر البحوث باللغة العربية، إذا توافرت فيها الشروط التالية:
 - أ. أن يتسم البحث بالأصالة والابتكار، والجدة العلمية والمنهجية، وسلامة الاتجاه.
 - ب. أن يلتزم بالمنهج والأدوات والوسائل العلمية والمعتبرة في مجاله.
 - ج. أن يكون البحث دقيقاً في التوثيق والتخريج.
 - د. أن يتسم بالسلامة اللغوية.
 - هـ. الأفضل أن يتناول البحث موضوعاً جديداً ذا صلة بالعلوم العربية والإسلامية ومساهمة الهند في مختلف العلوم والفنون والآداب وما إليها.
 2. ألا يزيد البحث عن خمسين صفحة، والرجاء من الباحثين استخدام (Amiri) على حجم 11.5.
 3. ألا يكون البحث قد سبق نشره أو قدّم لأي جهة أخرى من أجل النشر.
 4. يرفق بالبحث ملخص له في حدود صفحة.
 5. أن يقر صاحب البحث بأن بحثه عمل أصيل له.
 6. تخضع البحوث إلى تحكيم لجان علمية أكاديمية متخصصة وفق المعايير المعتبرة.
 7. تحتفظ المجلة بحقها في حذف أو إعادة صياغة بعض الكلمات والعبارات التي لا تناسب مع أسلوبها في النشر.
- تعبر الآراء العلمية المنشورة عن آراء كاتبها، واجتهاداتهم الشخصية

في هذا العدد

الصفحة

7	- د. أورنك زيب الأعظمي	الافتتاحية
		مقالات وبحوث:
11	- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي ترجمة: د. أورنك زيب الأعظمي	تفسير تدبر القرآن (17)
23	- يوسف عكراش	الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة المصطلح القرآني
74	- أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي ترجمة: د. محمد صادق أختر الندوي	الإحسان إلى الناس في القرآن الكريم
98	- د. محمد يوسف حافظ أبو طلحة	الحافظ زين الدين العراقي وكتابه: "تكملة شرح الترمذي"
154	- عمر يكن	تعدد أوجه القراءة وأثره في الحكم الفقهي
170	- د. أورنك زيب الأعظمي	دخول "الباء" على خبر "كان" وأخواتها
176	- د. عامر خليل الجراح	الأبعاد البيانية التداولية في نقد مدرسة الطبع
200	- د. خالد حسن العدواني	تمام حسن والدرس اللساني النصي العربي
222	- د. ضياء القمر آدم علي	جهود علماء شبه القارة الهندية في الدراسات الصوتية
250	- القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري ترجمة: د. سيد محامد الهاشمي	الشيخ غلام نقشبند الكهوسوي اللكنوي

272	- العلامة شبلي النعماني ترجمة: د. محمد معتمد الأعظمي	الملا نظام الدين مخطّطاً للنهـاج الدراسي النظامي
282	- أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي ترجمة: محمد شفاء الرحمن	مدرسة العلوم بعلي كره (3)
298	- عبد الغفار المدهولي ترجمة: د. هيفاء شاكري	الجامعة الملية الإسلامية (6)
312	- د. عظمت الله	الهند وثقافتها في كتابات جبرا إبراهيم جبرا
321	- د. محفوظ الرحمن	الهند وثقافتها في كتابات علي الطنطاوي
332	- حسام محمد عفيف الديرشوي	أساليب الحوار عند الشيخ أحمد ديدات
350	- د. حافظ غلام مصطفى ترجمة: الأستاذ أبو محفوظ الكريم معصومي	أبو عطاء السندي
		استعراض كتاب:
372	- د. محمد فضل الله شريف	القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري
381	- د. محمد البويسفي	
		ندوات علمية:
389	- د. عبید الرحمن ود. محمد أجمل	الندوة الدولية الافتراضية حول "أدب السيرة الذاتية"
		قصائد ومنظومات:
405	- الشيخ محمد حبيب الله الأعظمي المثوي	التاريخ الصغير للإمام البخاري

الافتتاحية

أعزائي القراء،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

يسرنا كثيراً أن نقدم إليكم العدد الأول للمجلد العاشر، وبهذا العدد دخلت المجلة سنتها العاشرة إذ أنها فتية دون المجلات العربية التي تصدر من الهند أو من البلدان المجاورة لها.

أعزائي، أطلقنا هذه المجلة للهدف وهو أن نعيد إلى صحافة الهند ماضيها الغابر الذي علا فيه نجمها واعترف فيه العالم بصحافتها العربية وغزارتها العلمية والأدبية وتعرف فيه العلماء والباحثون على ثقافة الهند العظيمة. بدأنا مجلتنا بهذا الهدف السامي الصعب بلوغه، ولكن في فترة وجيزة للغاية قطعنا شوطاً كبيراً اعترف بأهميته كل من له أدنى بصيرة للصحافة العربية أو له أدنى إلمام بتطورها في الهند. ونشرت مقالات وبحوث عن عظمتها ودورها الكبير في النهوض بالصحافة العربية في الوطن الهندي حتى بدأت الرسائل الجامعية تكتب عنها وعن القائمين بها. نشكر الله ﷻ على هذا التوفيق الذي لم نقدر على إتمامه إلا بعون منه وتأيد.

هذا، وفي الأيام الخالية فجعنا بوفاة ثلاثة أساتذة للغة العربية أولهم قضى نحبه من التدريس، وثانيهم كان ينتظر وأما الثالث فكان في طور التدريس وتربية الطلاب والباحثين؛ فشيخنا وأستاذنا فيضان الله الفاروقي الذي تقاعد عن مهنة التدريس في 2017م أصابه الكورونا الذي قضى عليه يوم 22/ يوليو 2020م والأستاذ ولي اختر الندوي أيضاً ذهب ضحيته يوم 9/ يونيو 2020م وأما أخي الفاضل محمد أيوب الندوي فأصيب بضربة الشمس يوم 6/ مايو 2019م فلم يفق منها وتوفي في نفس

اليوم. فب وفاة هؤلاء الأساتذة الثلاثة وقع فراغ علمي وتعليمي ندعو الله أن يملأه بما هو أفضل منه وأجلّ.

والعدد بين أيديكم يحتوي على 17 بحثاً، واستعراض لكاتب مطبوع، وتقرير عن ندوة دولية افتراضية، وقصيدة تقدّر كاتباً جليلاً اسمه "التاريخ الصغير" للإمام البخاري.

فالمقالة الأولى هي الحلقة الـ 17 للترجمة العربية لتفسير "تدبر قرآن" وتقدم تفسيراً للآيات الست الأولى من سورة آل عمران، والمقالة الثانية تناقش الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة المصطلح القرآني وتقدم سرداً لما أُلّف في الموضوع كما تبين أهمية هذا الموضوع بدلائل علمية وتاريخية قوية، والمقالة الثالثة شرح لفلسفة القرآن عن الإحسان إلى الناس وتدعو القراء إلى المعاملة الحسنة مع الكلّ مؤمنين كانوا أو كافرين إذ الكلّ خلق الله الرزاق العزيز، والمقالة الرابعة عن "تكملة شرح الترمذي" للحافظ زين الدين العراقي ففصل فيها الكاتب شروحاً وتكملات الترمذي بالتركيز على كتاب الحافظ العراقي، والمقالة الخامسة محاولة ناجحة لتأثير أوجه القراءة على الحكم الفقهي المستخرج من قوله تعالى: "لَمَسْتُمْ النِّسَاءَ"، والمقالة السادسة عن دخول "الباء" على خبر "كان" وأخواتها وهي تدعو الباحثين إلى إعادة النظر في الأصول النحوية المتعلقة بخبر "كان" وأخواتها وتقدم شيئاً بديعاً لعله ما لم يتطرق إليه النحويون وأصحاب اللغة، والمقالات السابعة والثامنة والتاسعة تتعلق بالبلاغة العربية فالأولى تكشف عن الأبعاد البيانية التداولية في نقد مدرسة الطبع بينما تشرح الثانية مساهمة تمام حسان في الدرس اللساني النصي العربي إذ أنّ الثالثة تعدد جهود علماء شبه القارة الهندية في الدراسات الصوتية وتقييمها خير تقدير، وأما المقالة العاشرة فتعرض ترجمة شاملة للشيخ غلام نقشبند الكهوسوي اللكنوي الذي كان شيخ الملائم نظام الدين السهالوي المخطّط الأوّل للمناهج الدراسي النظامي (درس نظامي)، فالمقالة عن

الملا نظام الدين تكلمة لهذه الحلقة التعليمية البيضاء التي مازالت ولا تزال تسيطر على المناهج الدراسية السائدة في الهند والبلاد المجاورة لها، والمقالة الـ12 هي الحلقة الثالثة للترجمة العربية لكتاب عن مدرسة العلوم بعلي كره التي كانت أول بذرة ذرّها السير سيد أحمد خان والتي نمت وازدهرت حتى برزت في شكل جامعة حكومية مركزية لها شأنها ودورها في رقيّ العلوم والفنون، وقفيّناها بحلقة سادسة للترجمة العربية لكتاب عبد الغفار المدهولي الذي يعتبر مصدراً أولياً عن الجامعة الملية الإسلامية، تقدّم هذه الحلقة تاريخ الجامعة في الفترة ما بين أغسطس 1928م إلى يوليو 1929م علماً بأنّ الجامعة الأخيرة نبتت من معين جامعة علي كره وقد مضى على إنشائها مئة عام، والمقالتان الـ14 والـ15 عن الهند وثقافتها التي وصفها كلُّ من جبرا إبراهيم جبرا والأستاذ علي الطنطاوي وأعجبا بها. والحقيقة أنّ الهند لم تزل ولا تزال موقِعاً يجذب أنظار الرحّالة منذ العصر الجاهلي للعرب فزارها أهلها إما للتجارة أو للدعوة أو للحكم والسياحة. والمقالة الـ16 عن جهود الشيخ أحمد ديدات في الدفاع عن الإسلام ثم الدعوة إليه وهي تركز على ميزته الحوارية ضد أعداء الإسلام ومعارضيه، وأما المقالة الـ17 والأخيرة لهذا العدد فهي عن شاعر عربي كبير أنجبته الهند غير المنقسمة واعترف بفضله الأدبي كلُّ من المترجمين والنقاد للشعر العربي ألا وهو أبو عطاء السندي. أتبعنا هذه البحوث العلمية استعراضاً لكتاب "القاضي أبو المعالي أظهر المباركفوري" وتقريراً عن ندوة دولية افتراضية عقدها مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو (نيو دلهي)، وينتهي هذا العدد على قصيدة رائعة تصف كتاباً جليلاً اسمه "التاريخ الصغير" للإمام البخاري.

هذا، وأجلنا نشر العدد الخالص بسيرة وأعمال شيخنا البروفيسور فيضان الله الفاروقي الذي أعلنّا عنه وسنشره في مارس لهذا العام إن شاء الله تعالى.

وأخيراً نشكر كلَّ من ساهم في هذا العدد من الباحثين والمترجمين وأعضاء هيئة التحرير، وكلَّ من كانت له جهود مضيئة في إخراج هذا العدد في صورته الحالية وتقديمه إليكم.

نسأل الله تعالى أن يجعله في ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

د. أورتك زيب الأعظمي

تفسير تدبر القرآن

(تفسير سورة آل عمران)

- الشيخ أمين أحسن الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. أورنك زيب الأعظمي²

﴿17﴾

أ- عمود السورة وربطها بالسورة السابقة

هذه السورة ترتبط بما سبقها من السورة من جوانب تالية:

1. موضوعهما واحد وهو إثبات رسالة النبي ﷺ للناس عامة ولأهل الكتاب خاصة.
2. وفي كليهما نوقشت أصول الدين بنفس الأسلوب للتوضيح والتفصيل.
3. وأسماءهما القرآنية واحد أي التّم.
4. وكتلتاهما تبدوان فرعين كبيرين انشقا من جذع واحد وقد شبهما النبي ﷺ بالشمس والقمر وقال إنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان فلا يخفى على من له أدنى بصيرة أنّ الاشتراك بين الوصف والمثل يطوي مناسبة شديدة.
5. وكتلتاهما مثل الزوجين فقد فُصِّلَ في الأخرى ما أجمَلَ في الأولى كما ملأت الأخرى ما وُجِدَ من الفراغ في الأولى فكأنهما باتحادهما تقدّمان هدفاً أعلى في صورته التامة بأحسن ما يكون.

ب- جوانب تميّز إحداهما عن الأخرى

وبجانب هذا الاتحاد والتشابه توجد لهما خصائص تميّز بعضهما عن البعض وهي كما يلي:

¹ كاتب ومفسر هندي له مؤلفات عديدة ترجم البعض منها إلى العربية والإنجليزية
² مدير تحرير المجلة وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

إن تفكر في سورة البقرة تجد أنها نزلت حينما شعر أهل الكتاب بأن الإسلام دين حق وأنه يرسو أصله شيئاً فشيئاً ولكنهم لم يرضوا عن قبوله حسداً وبعياً بينهم، وقد أوقعهم هذا الشعور في صراع شديد فلو أنّ عواطفهم قد جرتهم إلى أن شمروا عن ساقهم لخالفته ولكنهم لم يكادوا يفهمون كيف يخالفوه وعلى أي أساس يعارضوه فقد لفظ كلُّ منهم ما خطر بباله: قال بعضهم إنّ النبوة والرسالة تختص بعشائر بني إسرائيل فكيف لعشيرة أخرى دونها تجدر بها؟ إذ قال الآخر إنّ التوراة تكفي للهداية وبما أنّ أصحابها نحن أهل الكتاب أحياناً فهل نحتاج إلى هداية أخرى جديدة؟ ومن خلال هذا الغضب طعن بعضهم حتى جبريل (عليه السلام) قائلاً إنّ هذا الملك لم يزل يطوي العداوة تجاهنا. ومنهم من وضع جبهة موحدة من اليهود والنصارى واختاروا جانباً آخر للمخالفة بأنّ الهداية توجد إما في اليهودية أو في النصرانية فمن يرد أن يهتدي فليضمّ إلى إحداهما فلا سبيل آخر لنيل الهدى السماوية. ومنهم من اختار سبيل الخدع فقد ودوا أن يقنعوا المسلمين بأنهم أيضاً يؤمنون فلا يعتبر المسلمون أنفسهم وحدهم من يتمتع بالإيمان فإننا أيضاً تؤمن بالله وبالآخرة وبنبيّنا فلا يضربنا لو لم تؤمن بهذا النبي الجديد (محمد ﷺ) الذي يدعي النبوة. نزلت هذه السورة في مثل هذه الظروف ففي جانب ردّ بالتفصيل على كافة الاعتراضات التي أثارها أهل الكتاب وفي جانب آخر تم توضيح ما يوجد في صفحهم من الدلائل القوية على نبوة ورسالة هذا النبي الأُمّي ﷺ وفي جانب ثالث أرشد إلى ما حدث من إحياء الدين الحق وإتمامه من أجل رسالة النبي الأُمّي ﷺ فكانت هذه السورة دعوة إلى الإيمان وإثبات للرسالة كما هي دعوة إلى الجهاد لتحويل القبلة وغزوة بدر.

فإن تفكروا في سورة آل عمران تعلموا أنها نزلت بعد سورة البقرة بزمن قصير حينما برزت للأعين آثار فتح الإسلام وصدقه إلى حدّ لم يبق لأهل الكتاب أن يخالفوه علناً فقد قسم هذا الوضع أهل الكتاب في حزبين؛ حزب آمن للإسلام ولكن إسلامهم هذا لم يتجاوز حلقومهم فلم يتمكن من تجاوزها إلى قلوبهم وأما الحزب الثاني فإنهم ولو

لم يسلبوا ولكنهم حاولوا أن يعقدوا صلحاً مع المسلمين بشأن الدين ولذا فقد قدموا وجهة نظر بديعة بأن أتباع كل دين يحقّ دينهم فليتركوا المسلمون على يهوديتنا أو نصرانيتنا كما تركهم على إسلامهم وهكذا فليقم كل منا على دينه ويقض الحياة في دولة واحدة بكل أمن وهدوء.¹

وهكذا ولو تغيرت معاملة هذين الحزبين مع الإسلام ولكن هذا التغيير لم يكن من أعماق القلب بل كان نظراً للمكر والخديعة فإن أظهر الحزب الأول إسلامه ولكن لم يفعل إلا لمشاطرة المسلمين في إنجازاتهم المتوقعة وأما الحزب الآخر الذي فضل الموقف المسلم فقد فعل ذلك لصيانتته من الأخطار المتقدمة.

وفي أثناء ذلك وقعت غزوة أحد التي انهزم فيها المسلمون لأجل غفلة شرذمة من المسلمين عما أرشدهم النبي (ﷺ) إليه وقد أثر هذا الحدث في حزبي أهل الكتاب أنهما قد غيرا خططهما عن الإسلام مرة أخرى فالحزب الذي انضم إلى جماعة المسلمين لمجرد الحرص على الإنجازات الدنيوية أعلن عن برأته عنهم لما رأى إمكان تعرضه للأخطار في المشي على هذا الطريق ورفض اتباعه للإسلام ورجع إلى كفره السابق وأما الحزب الثاني الذي شهد هزيمة الإسلام ظنّ أنه قد أخطأ في القيام بالصلح معه نظراً لاتساع نطاق حكمه فأراد أن يتصل بالأحزاب المعارضة ليقوم باستتصال الإسلام مرة أخرى وعلى هذا فقد أعلن هذا الحزب عن عداوته للإسلام وأتباعه.

وهكذا فقد اختار هذان الحزبان سبيلَ عداوة الإسلام وأتباعه علناً وبدأوا يشككون المسلمين بمختلف تدابيرهم الخفية لكي يتشتت شمل المسلمين كما حدث معهم فيضيع المسلمون وحدتهم وتضامنهم ويقضى على قوتهم. ونظراً لهذه الظروف قد وجب توضيح حقيقة الدين لأهل الكتاب والمسلمين على السواء بأن الله لم ينزل أدياناً مختلفة على

¹ وقد أشير إلى هذا الحزب في بداية سورة البقرة ولكنه لما يبرز هذا الحزب للأعين كما قام في هذه السورة فظنّية هذا الحزب نفس ما يقدم اليوم باسم "وحدة الأديان".

الناس بل قد أعطاهم ديناً واحداً يسمّى بـ"الإسلام" ولا مجال في قسمة هذا الدين وتجزئته بأن يؤمن ببعض أجزائه ويكفر البعض منها بل يجب على الناس أن يؤمنوا بأسره أو يكفروه تماماً فهذا الدين يقتضي من أتباعه أن يطاع الله في كلّ حال وبكل لحظة وأن يمثل بأحكامه ولو كانت الظروف موالية أم مخالفة، ولو كان الطريق سهلاً أم حزيناً فالحق هو الحق، وعسى أن يختفي في بعض الأحيان كالمنخ في القشور ولكنه لا يعدم للأبد فلا يستقيم في مثل هذه الأوضاع إلا من كل إيمانه ورسخ علمه، وأما الذي غفل عن الحق فتزل قدماه في هذه الظروف المعارضة غير الموالية.

وهكذا فقد جاءت غزوة أحد في صورة امتحان للناس. فكما كانت غزوة بدر فرقاناً للناس بين الحق والباطل فكذلك كانت غزوة أحد مثل آية متشابهة كانت تطوي حكمة في داخلها ولكن ظاهرها قد أصبح بلاءً لمن ضعف إيماناً فقد ميّزت الغزوة المسلمين الذين رسخت فكرتهم وقوي إيمانهم عن زاعت قلوبهم وأحبت عقولهم التشابه فالفتنة.

في هذه الأحوال نزلت هذه السورة فاستعرضت فيها كافة المساوئ والضلالات التي ظهرت في تلك الأيام على أيدي المسلمين أو التي قام بها أهل الكآب، وكذا كُشِفَتْ ضلالة هذا الشك والتذبذب التي قد ابتلي بها أهل الكآب كما استعرضت عاقبة هذا الاختلاف والعدوان اللذين ارتكبهما المنافقون وضعفاء المسلمين وهكذا فقد نبّه المسلمون على كافة التدابير التي كان يتخذها أعداؤهم لهزيمتهم كما قضي بأسلوب مؤثر للغاية على فتور العزيمة الذي قد أصاب المسلمين بعد هزيمتهم في غزوة أحد. فإن تفكروا عن هذه الجهة تشعروا بأنّ سورة آل عمران سورة أحد كما أنّ سورة البقرة سورة بدر. وإن تمعنوا النظر فيها يتضح لكم أنّ سورة البقرة توضح حقيقة الإيمان بينما تكشف سورة آل عمران القناع عن حقيقة الإسلام، وبعبارة أخرى أنّ سورة البقرة دعي فيها إلى الإيمان بخاتم رسل الله كما قد دعي في هذه السورة إلى الدخول في النظام الإسلامي والحكومة الإلهية.

وما قدّمناه آنفاً عن موضوع هاتين السورتين وعمودهما زيد به توضيح أنّ سورة البقرة يغلبها جانب الإيمان بينما يغلب سورة آل عمران جانب الإسلام، وإليه الإشارة فيما سنّه النبي ﷺ من أنه كان يتلو، كما روي عنه، في إحدى ركعتيه آيات الإيمان من سورة البقرة بينما كان يتلو آيات الإسلام في أخراهما أخذاً من سورة آل عمران، وهذه إشارة لطيفة إلى الموضوعات التي تحتلّ الرئاسة والصدارة في هاتين السورتين. وزدّ على ذلك ختام سورة البقرة على الآية التي هي أجمع آية على الإيمان فقال تعالى "عَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِءِ وَالْمُؤْمِنُونَ"--- ثم انتهت هي على طاعة الله التامة لكي يتضح علينا أنّ الإسلام نتيجة لازمة للإيمان فالإسلام يبرز من حيث يوجد الإيمان الخالص وهكذا فقد أوضحت آية سورة البقرة النهائية ربطها من سورة آل عمران.

والجانب الآخر الذي يميّز بعضهما عن البعض هو أنّ سورة البقرة قد خوطب فيها اليهود عامة وذلك لأنهم كانوا هم المرادين عامة باسم أهل الكتاب فلم يكن النصرارى سوى فرقة منهم ولذا فإنّ خاطبهم القرآن في هذه السورة فقد جاء ذكرهم عرضاً مع أنهم قد خوطبوا في سورة آل عمران مباشرة ويتعلق بهم معظم الحديث فعلى الرغم من كون مدخل السورة جامعاً بينهما إلا أنّ ما تبعه من المقال جعل بين تدرجياً في ترديد النصرارى.

والجانب الثالث لهذا التمييز أنّ سورة البقرة قد استدلّ فيها بأمر الفطرة التي يمكن أن تكون حجة على الكفار وأهل الكتاب على السواء وبالعكس من ذلك فإنّ سورة آل عمران قد كثرت فيها الاستدلال بصفات الله أو الأمور المعترف بها التي تختص بأهل الكتاب.

والجانب الرابع لهذا التمييز أنه ولو أنّ أهل الكتاب قد قرّعوا في هاتين السورتين تقرّياً شديداً ولكن أسلوب التقرّيع يختلف في كلتا السورتين ففي سورة البقرة جاء التقرّيع مباشرة بينما قرّعوا في سورة آل عمران عن طريق النبي ﷺ فكانّ هذه إشارة إلى أنهم لا يجدرون بأن يخاطبهم الله بعد أن تمّت الحجّة عليهم منه سبحانه وتعالى فلا يليق

بالخطاب الآن سوى النبي وأتباعه رضوان الله تعالى عليه أجمعين.

ت- وجوه تقديم إحداهما على الأخرى

ومما كتبناه عن موضوع هاتين السورتين وخصائص زمن نزولهما وميزات أساليبيهما يتضح أنه ولو أنّ السورتين تتحدان معنيًا ولكنهما تستحقان نفس التقديم والتأخير الذي نراه الآن في المصحف، وفيما يلي وجوه جلية لتقديم سورة البقرة على سورة آل عمران:

1. الإيمان أساس الإسلام كما أنّ العلم أساس للعمل.
2. واليهود أقدم من النصارى ولذا فقد وجب أن تتم الحجة أولاً على اليهود.
3. والاستدلال بدلائل الفطرة أوضح وأقدم وأوسع من الاستدلال بصفات الله ولذا فقد فضّل هذا على ذلك.
4. وبما أنّ آدم وإبراهيم من أقدم الأنبياء فقد جعل بهما أن يحال إلى عهدهما وميثاقهما أولاً ويستدلّ بهما ولذا فقد أحيل إلى عهدهما في سورة البقرة ثم أحيل إلى الأنبياء الآخرين في السورة التابعة.

فظهر من هذا التفصيل أن لا يصحّ قول من يرى أنّ التقديم والتأخير بشأن السور وقع نظراً لطولها أو قصرها ولكننا نرى أنّ هذا حدث نظراً لمعانيها ومحتوياتها فما اقتضته الحكمة من النظام في ترتيب المعاني قد فضّل في القرآن إلا أنه لو كانت السورتان ذاتي درجة وفطرة نظراً للمعاني فيمكن أن قدّمتا أو أخرتا طبقاً لطولهما أو قصرهما ولكن هذا الرأي لا يسدّد سوى أنه عفو الخاطر وإلا فيذهب العقل في مثل هذه المواقع إلى أنّ هناك حكمة خفية سببت تقديمهما أو تأخيرهما ولو أنها ليست واضحة علينا.

ث- تحليل محتويات السورة

وما قدّمناه آنفاً يتعلق بموضوع السورة ونظامها الظاهري وربطها بما سبقها من

السورة، والآن نقول شيئاً عن نظامها الداخلي وارتباط أجزاءها بعضها ببعض.

من يتأمل هذه السورة يتضح له أنها مقسومة في جزئين كبيرين؛ ففي نصفها الأول أُثبتت طاعة الله وذكُرت ضلالات أهل الكتاب لاسيما النصارى وأما نصفها الآخر فقد نبه فيه المسلمون على تدابير أهل الكتاب المضلّة التي كانوا يتخذونها أو سيتخذونها في تضليلهم عن الصراط السوي كما أمروا بالتوكيد باستمساكهم الشديد بعروة الله الوثقى، واستقلالهم على عبادته، والخوض في الجهاد، والاجتناب عن الانتشار والاختلاف حين الامتحان فإنها تمدهم في أداء حق اتباع الإسلام وفي الثبات على طاعة الله في السراء والضراء فإن يخالفوا هذه الإرشادات فسواجهون نفس العاقبة التي عانى منها أمة موسى عليه السلام بأنهم خالفوا رسولهم فتاهوا في الصحراء لمدة أربعين سنة.

فإن تفكروا عن هذه الجهة فستعلمون أنّ نصفها الأوّل كمدخل بينما النصف الآخر هو المراد والمعنى. ففي ضوء ما قدمنا اتلوا السورة كلها يسهل لكم فهم نظم الآيات بعضها البعض، وأما توضيح المعاني فسيأتيكم حينما نحلل السورة فنقوم بشرح كلماتها وتوضيح آياتها كما فعلنا بسورة البقرة فنبداً بتفسير هذه السورة وبالله التوفيق وعليه التكلان؟

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدينة ----- آياتها: 200

الْمَ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ
وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ٢ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ٣ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ
اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ٤ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ٥ ؛ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا
فِي السَّمَاءِ ٦ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٧

1- تحقيق الكلمات وتوضيح الآيات

المّ: وقد قننا بحث جامع عن الأحرف المقطعة في تفسير سورة البقرة كما أوضحنا فيها وجهة نظر أستاذنا الإمام الفراهي عنها ولما نجد شيئاً جديداً عنها يليق بالذكر والبيان.

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ،

وقد مضى كذلك تحقيق كافة الأسماء الحسنى فقد قننا بتحقيق بعضها في سورة الفاتحة بينما حقّقنا البعض منها في سورة البقرة.

ولا ننس هنا أنّ هذه السورة كثر فيها الاحتجاج بصفات الله تعالى التي أخذت من بينها صفتا الحياة والقيام أولاً وقد تكلمنا عن أسرار هاتين الصفتين وحقائقهما ضمن بيان أسرار وحقائق آية الكرسي فإعادة ذلك الحديث يسبّب التطويل فالإجمال، وقد أحيل هنا إلى تينك الصفتين عن جهة إثبات الحاجة إلى الكتاب الإلهي ولذا فتشير إلى هذا الأمر ما يأتي من الآيات. وتفصيل هذا الإجمال هو أنه بما أن الله الذي لا إله إلا هو إله حيّ فيجب أنه يرى كلّ شيء ويسمعه فتصل إليه دعواتنا ونداءاتنا كما هو يرى أعمالنا وأفعالنا. وهذا كله يوجب أنه يستجيب على أدعيتنا حسب حكمته وهو سيجزينا على أعمالنا يوماً من الأيام، ومن ثم يلزم أن يختار العباد في حياتهم من المعاملات ما يرضى الله عنه، وأن يبحثوا عن الأعمال التي يرضى عنها الله والتي يغضب عليها لكي يختاروا سبيل طاعته وهداه ويبلغوا قمة السعادة ويتمتعوا بالحياة الأبدية الحقيقية.

وكان أهل الكتاب يعرفون تعبير "الله الأب، الله الحيّ" جيداً فقد كثر استخدام هذا التعبير في صحف أنبيائهم. عمّ مجيء التعبير "الله الحيّ" حيثما ذكرت قدرة الله، وعلمه، وغيرته. ولو أنّ النصراني كانوا يعبدون إلهاً مصلوباً حسب زعمهم الباطل ولكنهم أيضاً لم يكونوا جاهلين عن هذا التعبير. وعلى هذا فيخالقهم أنهم يتصورون إلهاً حياً في جانب وفي جانب آخر يعتقدون أنه مصلوب.

وهكذا فقد ذكر صفة "قيوم" في صحف الأنبياء ومعنى كون الله قيومًا أن كل ما في السماوات والأرض وما بينهما يقوم تحت حكمه وقدرته، وهذه الصفة من صفاته البديهية التي يجب الإيمان بها عقلاً كما يجب الإيمان به طبق ما جاء في صحف الأنبياء. والنصارى أيضاً يدعون بأنهم يؤمنون بهذه الصحف ولكنهم بالرغم من ذلك يقولون بألوهية المسيح عليه السلام. فإن طرح أمامهم سؤال: إذا أقررتم بأن المسيح كان يشعر بالجوع والعطش وكان يحتاج إلى الطعام والشراب ولم يكن قادراً على أن يحيى بدونهما فكيف هو أصبح إلهاً؟ والحال أن لا بد للإله، حسب إرشادات أنبيائكم، من أن يكون قيومًا. وكذا إن طرح أمامهم سؤال آخر: عندما يثبت من أناجيلكم أن المسيح بكما أصابه من المصائب والشدائد، وضاق صدره، وتضرع وهو كاد أن يصلب فكيف يمكن له أن يكون قيومًا بالسماء والأرض؟ فلا ردّ عندهم على هذين السؤالين سوى العناد والخصومة.

فالإحالة إلى صفة "القيوم" هنا دليل واضح على أن كون الله قيومًا يستلزم أن يهدينا وذلك أن الله الواحد ربنا كما خلقنا ونفخ فينا الروح فكذلك هو، كما ورد في آية الكرسي، يقوم بخلقه ولذا فقد خلق أسباباً ووسائل من كل نوع. ولما وفر هذه الأسباب لاقتصادنا فكيف لا يمكن أن يعطي لمجتمعنا ما يضمن قيامنا وبقائنا والحال أنه غاية خلقنا وهدف وجودنا في الأرض وعلى هذا فهذا تسبب أصلاً لقيام العدل والقسط، ولنزول الشرائع والأحكام من الله جلّ مجده وذلك لأنّ الفطرة البشرية لا تصعد بدونها في درجات الرقي التي تكمن في وجوده.

وكذا تقتضي هذه القيومية أن الله الخالق القيوم يراقب أنّ العباد كلها حاولوا محور نظامه العادل باستقلالهم وعدوانهم فيبعث عباده الذين سيبدلون جهودهم لإحيائه فيشهد تاريخ العالم بأن الله أرسل أنبياء ورسلاً لا تحصى لإقامة العالم على العدل والقسط والصراف السوي قبل بعثة النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم ولما أكمل

الدين على هذا النبي الخاتم وصان الكتاب الإلهي عن تصريفات كل نوع اعتنى لهذه الغاية بأنه لم يزل ولا يزال يخلق في كل عصر ومصر فئة ولو قليلة من بين هذه الأمة، تقوم على الحق والعدل وتدعو الآخرين على القيام على الحق والعدل. وقد أشير إلى هذا الواقع في الأحاديث كما تأتي إشارات لطيفة إليه في هذه السورة، سنلفت أنظار القراء إليها في المواضع الملائمة إن شاء الله تعالى.

نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ ۗ

وقد قننا بتحقيق كلمة "الحق" لدى تفسير سورة البقرة وأريد بها هنا "القول الفصل" أي القول الذي يقضي على الصراع والاختلاف، وقد جاء في غير موضع من القرآن أنّ الكتاب الذي أنزل إلى اليهود والنصارى قد أوجدوا فيه اختلافاً كثيراً أضاع الحق، ولاستعادة هذا الحق أنزل الله القرآن لكي يحظى الناس بدين الله ويخرجوا من هوة الاختلاف والصراع إلى الشارع العام للدين الحق.

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ: وقد فصلنا هذه الفقرة في تفسير سورة البقرة، ومن أشهر معاني كون القرآن "مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ" أنه أولاً يصدّق ما في الصحف الأولى من التعاليم الحقة ولا يردّد إلا ما قد التبس فيها واختلط بها على أيدي الناس فتوافق القرآن والصحف الأخرى هذا يشهد بالصرحة أنها أشعة من شمس واحدة للحق وانعكاسات من مصدر للأنوار، وثانياً أنّ أوصاف القرآن وحامله المذكورة في نبوءات الصحف الأولى فقد كانت هذه النبوءات تنتظر بمن أو بما يصدّقها فنزول القرآن وبعثة النبي محمد (ﷺ) قد صدّقها فهذه شهادة كبرى على أنّ القرآن حق كما أنها تصدّق تلك الصحف بأنّ ما جاء فيها من النبوءات قد ثبتت صادقة، وعلى هذا وذاك فكان القرآن حرياً أولاً بأول بأنّ يرحّب به من كان يدّعي الإيمان بالصحف الأولى بأنّ

نزول القرآن قد رفعهم ذكراً وأعلاهم قدراً ولكنهم أنكروه عناداً منهم وبعياً بينهم.

وَأَنْزَلَ الْقُرْآنَ وَالْإِنْجِيلَ ٢ مِنْ قَبْلِ هُدَىٰ لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ: هذه الفقرة تفصيل لما أجمَل في الفقرة الأولى التي تبين الحاجة إلى نزول القرآن، ومعناها أنه بما أن الله حيّ قيوم فقد أنزل القرآن قولاً فصلاً إلينا لنتدي في حياتنا ونقوم على العدل والقسط. وقد أنزل من قبل التوراة والإنجيل لهداية الناس ولكن أتباعهما قاموا بالتحريف فيهما ونسواً حظاً كبيراً منهما فاختلفوا اختلافاً كثيراً، الأمر الذي أشكل به التميز بين الحق والباطل فطلبت هذه الظاهرة أن ينزل الله القرآن فرقاناً بين الحق والباطل وعلى هذا فقد أنزل هذا الكتاب. والآن من يقم بإنكار هذا الكتاب فلهم عذاب شديد من الله تعالى وذلك لأن مثل هؤلاء الناس أعداء لنظام الله العادل والقاسط الذي لا بد منه لصلاح خلقه وفلاحهم، وسعادتهم في الدنيا والآخرة كليهما فإن لم يواخذهم الله ولم يعذبهم على عداوتهم للعدل فهذا يعني أنه قد ترك هذه الدنيا للخراب والدمار ولا يعبأ ببقائهما شيئاً والحق أن من صفاته "قَائِمًا بِالْقِسْطِ" كما سيأتي ذكرها في هذه السورة فالقيام بالقسط يتطلب أن ينتقم من أعداء هذا القسط ويعذبهم قدرما يستحقونه فإنه عزيز أي منيع وقادر فإنه ليس بضعيف ولا عاجز عن الانتقام من أحد وهكذا فهو منتقم أي غير بالنسبة للعدل والقسط وليس بكسلان ولا فاقد الوعي بأن يرضى عن دماره فهذا بروز صفاته تلك أن الأمم التي قامت بتدمير القسط الذي أقامه هو قد محاهها عن هذه الأرض بعدما أمهلها لأجل مسمى وكلما حاول الناس تدمير شرائعه وأحكامه اعتني بإحيائها ونشأتها، وهذه سنته لقيام العدل والقسط وبقائهما، التي عبر عنها بالانتقام هنا.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ . هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦

وهذا دليل على ما ذكر آنفاً من العذاب المخالفي لكتاب الله أو بعبارة أخرى لمدمري العدل

والقسط بأن لا يفهم أحد أنّ الله ليس بخبير بما يحدث في دنياه هذه فلا يخفى عليه شيء صغيراً كان أو كبيراً، في الأرض يقع أو في السماء فيحيط علم الله بكل شيء وبكل مكان ولم لا يكون محيطاً بها فإنه خلق كل شيء وهو الذي يصور في الأرحام فمن خلق وقام بالتصوير هل يكون جاهلاً عما خلق أو صور، أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ؟

ثم أحال إلى التوحيد و"الْعَزِيزُ" و"الْحَكِيمُ" من صفات الله، والهدف وراءهما أنه إذا لم يهتم من علمه يحيط بكل شيء بقيام العدل والقسط فإنه إما لا يقدر ولا يعزّ أو يقدر ويعزّ ولكنه لا يعبأ بحكمة أو مصلحة في أعماله فهذا مجرد عبث لم يعتن فيه بالخير أو بالشر، بالظلم أو بالعدل فكلا الأمرين؛ الخير أو الشر صيآن في أعينه ولكن هذه الفكرة باطلة بديهاً فإنّ الله عزيز وحكيم وقادر على كل شيء وكل عمل منه يتصف بالعدل والحكمة كما أنه خبير بكل شيء فلم لا ينتقم ممن ينكر كتابه هذا الذي أنزله للكشف من جديد عن آثار ومعالم الحق والعدل في الدنيا.

الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة المصطلح القرآني (مدخل تعريفي)

- يوسف عكراش¹

ملخص

لقد تعددت الدراسات التي اعتنت بالمصطلح القرآني وخصوصاً في الآونة الأخيرة، مع العلم بأن هذا الاهتمام ليس وليد العصر الحالي، بل هو متجذر في كتب التراث الإسلامي، وقد بين علماء هذا الشأن قاطبة أنّ الدراسات المصطلحية القرآنية هي السبيل الموصل لفهم مراد الله من كتابه، وبيان أحكامه وحكمه، كما أنها تقي الدارس لكتاب الله عزّ وجلّ من التفسيرات المذهبية، والتجاوزات العقديّة.

وفي هذا السياق ينطلق هذا البحث الذي لا يدعي الكمال أو الاكتمال بقدر ما يسعى لرسم إطار نظري لدراسة المصطلح القرآني، وذلك من خلال التعريف به، وبيان أهميته، ومشروعية دراسته وأنواعه، كما يسأط الضوء على أهم الأسس المعرفية والمنهجية التي سطرها رواد هذا الفن، والتي لا ينبغي للمشتغل بالمصطلح القرآني أن يعدل عنها.

كلمات مفتاحية: الأسس، المصطلح القرآني، الأسس المعرفية، الأسس المنهجية.

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على خير العباد، تبصرة لأولي الألباب، وأودعه من فنون العلوم والحكم العجب العجاب، وجعله أجلّ الكتبِ قدرًا، وأغزرها علمًا، وأعذبها

¹ أستاذ التعليم الثانوي، وباحث في الدراسات الإسلامية، ومهتم بقضايا الفكر والتربية.

نظماً، وأبلغها في الخطاب: قُرءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له رب الأرباب، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله المبعوث من أكرم الشعوب وأشرف الشعاب، إلى خير أمة بأفضل كتاب، صلى الله وسلّم عليه وعلى آله وصحبه الأنجاب صلاة وسلاماً دائماً إلى يوم المآب. وبعد:

فإنّ العلم بحر زخار، لا يدرك له قرار، وطود شاخ لا يسلك إلى قنته ولا يصار، من أراد السبيل إلى استقصائه لم يبلغ إلى ذلك وصولاً، ومن رام الوصول إلى إحصائه لم يجد إلى ذلك سبيلاً، كيف قال الحق سبحانه: وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

وأنّ القرآن العظيم هو مفجر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع الله فيه علم كلّ شيء، فترى كل ذي فن منه يستمد وعليه يعتمد، ومن أعظم ذلك علم التفسير الذي برزت معه أهمية دراسة المصطلح القرآني بمنهجية علمية دقيقة بحيث يعتبر المصطلح مفتاح كل علم ومعرفة، فإذا أردنا الغوص في أعماق العلوم والمعارف المختلفة، استعملنا مصطلحات محددة لتكون مفتاحاً موصولاً لها، وبوصلة تقود نحوها. وقد اعتنى القرآن العظيم بالمصطلحات عناية خاصة صناعة ودلالة وتوظيفاً، وذلك وفق ما يميزه عن غيره، إلا أنّ انحراف الفهم، واعوجاج القصد، وكثرة التسيب وقلة الانضباط، أثارت فوضى مصطلحية اتجهت عكس المقصود من المصطلح القرآني وفهمه فهماً صحيحاً سليماً.

وعطفاً على ما تقدم من الأهمية التي يتمتع بها المصطلح القرآني بين سائر العلوم والفنون كان بحثنا هذا موسوماً بالأسس المعرفية والمنهجية للتعامل مع مصطلحات القرآن. وقد تعددت الدوافع المحفزة لاشتغالنا على هذا البحث منها ما هي موضوعية ومنها ما هي شخصية ذاتية، فأما الذاتية فيعلو عرش تعلقنا بالقرآن الكريم أكثر من غير لمكانته المقدسة سواء في الجانب الديني أو الجانب العلمي، وكذلك السير على رسم طريق عام للاشتغال على الدراسات القرآنية أكثر من غيرها، أما الدوافع الموضوعية

فلحاجة الماسة لدراسة المصطلح القرآني وفق أسس معرفية ومنهجية تتميز بالدق والموضوعية والضبط، وذلك سيكون من خلال رسم إطار نظري للمعنى الأسس والمصطلح عامة والمصطلح القرآني خاصة وبيان أهميته، ومشروعية دراسته، وأنواعه، ثم الانتقال إلى بيان الأسس المعرفية والمنهجية للتعامل مع مصطلحات القرآن وذلك من خلال الإجابة على إشكالية هذا البحث التي تتمثل في:

ما هي الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة المصطلحات القرآنية؟

كما تظهر أهمية هذا البحث من خلال رصد وتحقيق مجموعة من الأهداف الرئيسية التي تتمثل فيما يلي:

- بيان مفهوم المصطلح القرآني وتقريبه بصورة مبسطة.
- بيان أهمية الدراسة للمصطلح القرآني والتفصيل في أنواعه.
- التعرف على الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة المصطلح القرآني.

خطة البحث

توطئة

الفصل الأول: الإطار النظري للأسس والمنهجية والمصطلح

المبحث الأول: تعريف الأساس

المبحث الثاني: تعريف المصطلح

المبحث الثالث: المصطلح القرآني

المطلب الأول: تعريف المصطلح القرآني وأهميته

المطلب الثاني: مشروعية دراسته المصطلح القرآني

المطلب الثالث: أنواع المصطلح القرآني

الفصل الثاني: الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة مصطلحات القرآن

المبحث الأول: الأسس المعرفية لدراسة مصطلحات القرآن

أولاً: الربانية.

ثانياً: القصدية.

ثالثاً: الاستمرارية.

رابعاً: الجامعة.

خامساً: الهيمنة والتصديق

سادساً: الشبابة والفتوة

سابعاً: التعاضد والتناسب

المبحث الثاني: الأسس المنهجية لدراسة المصطلحات القرآن

أولاً: الدراسة الإحصائية

ثانياً: الدراسة المعجمية

ثالثاً: الدراسة النصية

رابعاً: الدراسة المفهومية

خامساً: العرض المصطلحي

خاتمة: استنتاج وتوصيات

توطئة

إن القرآن العظيم كلام الله تعالى أنزله ليكون هداية للتي هي أقوم، وقد تكفل الله بحفظه لتستمر هدايته وبشارة للعالمين، وينعم بفضله كل من بلغه، وأدرك مفاتيحه، لكن الإنسان في تلازمه مع القرآن الكريم تتنازع مؤثرات متعددة جعلته أحياناً ينطلق في دراسة النص من مقدمات وأسبقيات ومحددات خارجية يريد أن يستدل لها أو عليها، فُفسر النص القرآني من خلال الزاوية المحدودة والضيقة للذهب أو الجماعة أو التيار الفكري، كما فُسر النص القرآني من قواعد فتحت الباب مصراعيه، فغلب التسبب وغاب الانضباط للقواعد والضوابط والأسس المعرفية والمنهجية.

وإن الاعتناء بمفهوم النص القرآني ومصطلحاته يعتبر النواة الأولى لفهم القرآن الكريم، والطريق الأقوم والسليم لبلوغ مراد الشارع الحكيم، لأنه منبع العلوم والمعارف على مرّ الأزمان والدهور، ولهذا خُصَّ بالرعاية الكاملة في فترات تنزيله، كما بلغ دروة الاعتناء به بعد تمام نزوله. ولا جرم أنّ الأمة الآن تشهد مستجدات لم يسبق لها مثيل في شتى المجالات، ولا سبيل إلى مواكبة هذه التطورات في ظل الشريعة الإسلامية إلا من خلال الانطلاق من مفهوم القرآن الكريم، بدء بمفرداته باعتبارها الحلقة الأولى لفهم الخطاب القرآني ومعرفة مقاصده ومراميه، كما تعتبر هذه المفردات يريد الاجتهاد، ومفتاح العلم الموصل إلى الصواب، وبوصلة المواكبة للتطور العلمي والثقافي للأمة، ومن لم يستوعب معناها أشكل عليه فهم الخطاب جملة فضلاً عن التفصيل. وخصوصاً أصبح التعاطي لدراسة المفاهيم القرآنية تتنازع مؤثرات مذهبية وتجاذبات عقدية، وقد أسس لمشروعيتها وأصالتها من مقولات فظفاظة جعلت من مفردات النص القرآني وعاءً عظيمًا يحتمل كلّ ما يقال فيه أو عنه، كقول أن القرآن حَمَلٌ أوجه، فصار سلطان الفهم والاعتبار هو منطلق النظر في النص لا النص نفسه، حتى تحول ما يعتبر إطار وحدة المسلمين قاطبة محلّ

تأويل. كما لا نضرب صفحاً أو نكر المساحات التي تحتل فيها المفردات القرآنية ومعانيها تنوع الفهم والتفسير.

ومع تزايد الهائل للاعتناء بالمفردات القرآنية فقد اعترتها تحولات وتغيرات مختلفة ومتنوعة على مدى أربعة عشر قرناً، حيث أفرغت من مضمونها ومحتواها القرآني إما بإسقاط معانيها، أو إدراج ما ليس فيها، أو حملها على غير مقصدها، وتضمنت دلالات تاريخية في كثير من الأحيان وصارت هي المؤطرة لفهم الأمة بدل المعاني القرآنية، وصارت هذه المفردات والمفاهيم مقيدة وموجهة بما أنتجه العقل البشري المحدود من تطورات علمية أو مذهبية أو فكرية، وغاب عنها لبّ الدلالة وروح المعاني القرآنية الربانية التي تسمو وترقى عن محددات الزمان والمكان والأشخاص باستمرارية متربط أكثر بالمقاصد والأهداف، الشيء الذي نتج عنه تراجع ملحوظ ومكشوف، وتعثر على مستوى استئناف السير الحضاري، وتبعثر في تحقيق استخلاف العمراني، وتقهر لدى البعض على مستوى التعامل مع النص القرآني.

وعطفاً على سياق حديثنا عن التعامل مع النص القرآني دون تضييع أو تمييع، فلا بد من وضع بعض الأسس المعرفية والمنهجية التي تكشف عن معطيات يمكنها أن تسهم في رسم إطار معرفي منهجي مستمد من القرآن العظيم نفسه ولغته، لكل من أقبل على دراسة مصطلحات القرآنية، وأراد فهم مدلولها ومعانيها ورام تنزيلها وفق مقاصدها.

ونحن نتحدث عن أسس التعامل مع مفردات النص القرآني، فنجد أن القرآن العظيم نفسه قد نهج هذا المنهج في التعامل مع مصطلحاته وعدم تنزيلها أو حملها على غير معانيها المقصودة منها، مع ضرورة استحضار أدق الفوارق بينها والمعاني العامة والخاصة، يقول الله ﷻ: "قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ

اللَّهُ عَفْوٌ رَّحِيمٌ" (سورة الحجرات: 14) ففي هذه الآيات وجهنا الله تبارك وتعالى إلى عدم استبدال ألفاظ بألفاظ أخرى وكذا إلى حسن الدقة والتمييز بينها.

أما أنّ السنة النبوية دلّت على ذلك من طرف خفي في العديد من المواضيع، فقد ورد في الحديث النبوي الشريف التأكيد على ضرورة تسميات الأشياء بمسمياتها حتى لا تخرج مضمونها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: "لَا تَسْمُوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ وَلَا تَقُولُوا حَبِيبَةَ الدَّهْرِ، فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الدَّهْرُ"¹ ونهى النبي صلى الله عليه وآله أن تسمى المغرب العشاء، فعن عبد الله بن مغفل المزني أن النبي صلى الله عليه وآله قال: "لَا تَغْلِبْنِ الْأَعْرَابُ عَلَى اسْمِ صَلَاتِكُمُ الْمَغْرِبِ قَالَ وَقَوْلُ الْأَعْرَابِ هِيَ الْعِشَاءُ"² وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وآله قال: "لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ حَبِيبَتِ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ لِقِسْتِ نَفْسِي"³.

على شمس هذا المنهج الرباني الساطعة تجند العلماء في كل العصور والأمصار قديماً وحديثاً، وبدلوا وسعهم قاصدين من ذلك السير على هذا المنهج الرباني في التعامل مع المصطلح القرآني، حيث بدأت الملامح الأولى لهذا الفن تظهر مع الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين، إذ شرحوا المفردات وتعاملوا معها معاملة خاصة، وقد أنتجت هذه المرحلة مصنفات الغريب وهي النواة الأولى للاعتناء بمصطلحات القرآن شرحاً وبيانياً، ثم برزت جهود المفسرين في هذا المضمار، خاصة اللغويين منهم، بحكم انطلاق الجهد التفسيري من البناء اللغوي للنص القرآني، ودلالات الألفاظ ومعانيها اللغوية والاصطلاحية، واستعمالاتها العرفية والتخصصية، ومرتابتها الشرعية والواقعية، سعياً لفهم كلام الله وكشف مراده بقدر الطاقة البشرية، ويمكن عدّ التفاسير اللغوية وكتب المعاني والإعراب

¹ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا تسبوا الدهر

² صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب: من كره أن يقال للمغرب العشاء

³ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب: لا يُقَلِّ حَبِيبَتِ نَفْسِي

والغريب وتأويل المشكل أسساً للدرس المصطلحي، ومؤدى ذلك أن القرآن له لغته الخاصة التي تميزت عن لغة العرب الجاهليين.¹

ولا تزال الجهود مبذولة من طرف العلماء في عصرنا الحديث، وتوالى تباعاً في خدمة المصطلح القرآني، ومحاولين الاعتناء به أكثر فأكثر من خلال زوايا ورؤى متعددة ومتنوعة ضمن مدارس ومؤسسات ومشاريع علمية، وقد عدت جهود العلامة فضيلة الدكتور الشاهد البوشيخي² في تأسيس مركز الدراسات المصطلحية بكلية الآداب بفاس، ومؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) أمودجاً ناجحاً للعمل المؤسساتي والأكاديمي في خدمة المصطلح القرآني تنظيراً وتطبيقاً، بحيث صارت أعماله هاته المؤسسات ممتدة وممتدة في العالم الإسلامي قاطبة. كما أسهم العلامة المغربي في تكوين عصابة من الباحثين المتخصصين في الدراسات المصطلحية.

ويخلص مما سبق أن جهود العلماء مبذولة من القدم في خدمة المصطلح القرآني، وازدادت في عصرنا الحديث أكثر من أي عصر مضى بحيث قدموا العديد من الدراسات الخاصة والمشاركة والتي لا يمكن الاستغناء عنها لمن رام إدراك هذا الفن والإحاطة به. وعلى هذا المنوال ينطلق هذا البحث الذي لا يدعي الكمال أو الاكتمال بقدر ما يسعى لرسم إطار نظري لدراسة المصطلح القرآني، وذلك من خلال التعريف بالمصطلح القرآني وأهميته ومشروعية دراسته وأنواعه، كما يسأط الضوء على الأسس المعرفية والمنهجية التي لا ينبغي للشغل بالمصطلح القرآني أن يعدل عنها.

¹ مفهوم القرآن والحديث: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 11

² الدكتور الشاهد محمد البوشيخي من مواليد سنة 1945م بالحريشة، بقرية با محمد المجاورة لمدينة فاس، تابعة مسيرته العلمية حتى أصبح معلماً حياً نابضة بهموم العلم والثقافة ليس في الواقع المغربي فقط، وإنما في واقع الأمة الإسلامية، وله عدة إسهامات متميزة في تحريك الحس الحضاري، وإيقاظ الشعور الجماعي للأمة من خلال ما يكتب وما يحاضر به في المحافل الثقافية والعلمية، ومن مؤلفاته الكثيرة: نظرات في المصطلح والمنهج، ونحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية المعرفية، والقرآن والدراسات المصطلحية، وغيرها.

الفصل الأول: الإطار النظري للأسس والمصطلح

وقبل الشروع في بيان الأسس المعرفية والمنهجية لا بد من الوقوف على إطار أهم مصطلحات البحث التي تعتبر المفتاح لهذا البحث، وهي الأسس والمصطلح، وذلك وفق ما هو متعارف عليه في حقل البحث العلمي، بدءاً بالشق اللغوي للمفرد ثم الانتقال إلى الاستعمال الاصطلاحي له، ثم عرض المفردة من خلال استعماله المركب وفق المقصود بها من البحث.

المبحث الأول: تعريف الأساس:

الأساس لغة: الأسس جمع أساس، "الأساس لأصل البناء، وجمع الأساس أسس".¹ وهذه المادة من الهمزة والسين تدل على الأصل والشيء الوطيد الثابت، فالأس أصل البناء، وجمعه أساس.² وكذلك الأساس، والأسس مقصور منه. وقد أسست البناء تأسيساً. وأس البناء يؤسه أساً، وأسسه تأسيساً، وأسست داراً إذا بنيت حدودها ورفعت من قواعدها.³ فالأس ما يبتنى عليه.

أما ما ذكر من تسوية بين القاعدة والأصل والأساس، إنما أخذ على عمومياته، مما دعا أبا هلال العسكري لبيان الفروق بين مدلولات هذه الالفاظ في الباب الحادي عشر فقال: وليس كل أصل أساً.⁴ وعلى كل حال فالأسس لغة ما يبتنى عليه الشيء بالجملة، ويستوي في هذا الأمور الحسية والمعنوية، فهي في كل شيء بحسبه،⁵ ومنه قوله تعالى: "لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى" (سورة التوبة: 108) وقوله تعالى: "أَقَمْنَ

¹ تهذيب اللغة، (96/13)

² معجم مقاييس اللغة، 14/1

³ الصحاح، 903/3 ولسان العرب، 6/6

⁴ الفروق اللغوية، ص 162

⁵ قواعد التفسير جمعاً ودراسة، 22/1

أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنَ أَسَسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شِقَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ" (سورة التوبة: 109) وفي هاتين الآيتين شاهد على صدق الأساس على الأمر الحسي والأمر المعنوي، فالبناء على التقوى معنوي والمشبّه به وهو البناء على جرف هار أمر حسي وفي كلا الحالتين يعتمد عليه البناء، إذ على قدر الأساس يشيد غلو صرح البناء- وهو المتقدم عليه زمنًا ورتبة- الأساس-، ولذا قيل "الأساس هو القاعدة التي يبني عليها"¹.

الأسس اصطلاحاً: قلما يطلق على لفظ الضوابط والقواعد ويراد بها مصطلح الأسس، بقدر ما أطلق عليها لفظ أصول، كما أن كلمة (أسس) وإن أطلقت في غير هذا المورد إلا أنها لم تحفظ بتعريف اصطلاحى بعد الإضافة والتركيب، فلا يكاد يجد الباحث تعريفاً اصطلاحياً للأسس ولعل مرجع ذلك يعود للكفاءة بالمعنى الدلالي اللغوي، والذي يطابق المعنى الاصطلاحى في كثير من الأحيان، إلا أن الباحث المتعمق يرى ذلك غير كاف، لأن المعنى اللغوي عام في دلالاته، وإن الاكتفاء بالمعنى العام أنتج التداخل في الدلالة بين الأسس وبين عدة مصطلحات أخرى كالقواعد والأصول، فيكون الباحث عرضة للخلط بين الدلالات عند الاستعمال، في حين أن القاعدة تستند إلى الأسس في وجودها، والأصل قد يكون منشأ لما يتولد عنه من فروع.

إذاً الأساس هو الأرضية التي تبنى عليها القواعد، وهو أيضاً الإطلاق الشامل للأمر الحسية كانت أو المعنوية، كما في بيان المعنى اللغوي، والأساس مما تقدم في بحثنا هو التعريف المعنوي لأنه يأخذ مجرى ما تم تقييده بما يتركب منه التعريف.

إذاً الأساس هو الأرضية المعرفية التي تبنى عليها حركة الفكر قبل الفعل، أو المنظومة الفكرية التي تسعى للوصول إلى إنتاج حقيقة فعلية أو الظن بها.

¹ التوقيف على مهمات التعريف، ص 47

الحاجة إلى الأساس: والحاجة إلى الأساس ضرورة، سواء في الأمور المعنوية والحسية، إذ أنه عبارة عن بناء رصين ثابت، ولا شك أنّ علوّ البنيان على قدر توثيق الأساس وإحكامه "ومتى كان الأساس وثيقاً حمل البنيان واعتلى عليه، وإذا تهدم شيء من البنيان سهل تداركه، وإذا كان الأساس غير وثيق لم يرتفع البنيان ولم يثبت، وإذا تهدم شيء من الأساس سقط البنيان أو كاد."¹ وكذا حال كل منظومة فكرية ما لم تبتن على أساس رصين ومتين تهاوت وأصبحت على شفا جرف هار، أساسها الخبرة العلمية والعملية وقبولها العامة التي لا غنى عنها للناشئ. ويخلص أنّ الأساس: هي مجموع ما تقوم به الأرضية التي تبتنى عليها أي قاعدة من الأمور الحسية والمعنوية. وتتنظم هذه الأسس في قالب يتمثل بالمنهجية.

المبحث الثاني: تعريف المصطلح

المصطلح لغة: جاء في مقاييس اللغة: مادة صلح الصاد واللام الحاء أصل يدل على خلاف الفساد يقال: صلح الشيء يصلح، ويقال صلح بفتح اللام.²

وقال الليث: الصلح: تصالح القوم بينهم، والصلاح نقيض الفساد، والإصلاح نقيض الإفساد، ورجل صالح: مصلح، والصلاح في نفسه والمصلح في أعماله، وأموره يقال: أصلحت إلى البداية إذا أحسنت إليها ويقال: صلح فلان وصلاًحاً.³

اصطلاحاً: هو الاصطلاح عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم ما ينتقل عن موضعه الأول، وإخراج اللفظ من المعنى اللغوي إلى آخر لمناسبة بينهما، كما أنه اتفاق طائفة معينة على وضع ألفاظ إزاء المعنى، وهو إخراج الشيء عن المعنى اللغوي إلى معنى آخر لبيان المراد، والاصطلاح أيضاً لفظ معين بين قوم معينين.⁴

¹ الفوائد، 1/156

² معجم مقاييس اللغة، 4/312

³ تهذيب اللغة، 40/243

⁴ التعريفات، ص 30

يقول التهانوي: الاصطلاح هو العرف الخاص، وهو عبارة عن اتفاق قوم على تسمية الشيء باسم بعد نقله عن الموضع الأول لمناسبة بينهما كالعوم والخصوص أو لمشاركتهما في أمر ومشابهتهما في وصف آخر أو غيرها.¹

المصطلح هو: "اللفظ الذي يُسمى مفهوماً معيناً داخل تخصص ما".²

ويستخلص مما سبق أن المصطلح هو اتفاق أفراد أو جماعات أو قوم على وضع اسم ما لشيء ما، مع ضرورة وجود المناسبة والمشاركة والاتفاق، بحيث يصبح هذا المصطلح متميزاً بالعديد من خصائص:

- تعريف المفهوم بحيث يسهم في بيانه بشكل دقيق وصحيح متناسب مع الموضوعات المرتبط بها.
- ارتباط المصطلحات بالبيئة التي برزت فيها، أي كل مصطلح يعتمد في وضعه على مجموعة من العوامل التي ساهمت في ظهوره ليتحول من مرور الوقت ليصبح مصطلحاً من المصطلحات العامة عند مستعمليه.
- يمكن جمع العديد من المصطلحات للغة معينة في مجال معين في كتب يمكن الرجوع إليه عند الحاجة، ويطلق على هاته الكتب باسم المعاجم.
- وتظهر أهمية المصطلح بأنه يمثل اللبنة الأولى من كل علم، بل هو مدار كل علم، به يبدأ وبه ينتهي،³ بأنه الطريق الموصل.

المصطلح والمفهوم: المفهوم هو عبارة مجموعة من الأفكار والتصورات ذات الصلة بشيء ما، وبالتالي يكون المفهوم هو حصول الشيء في العقل، ويعمل على وضع المفاهيم وانتقائها أصحاب الاختصاصات الأهلية بالاعتماد على تحليل مجموعة الأسس.

¹ موسوعة كشاف اصطلاح الفنون والعلوم، 212/1

² قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح، ص 10

³ الموافقات، 97/1

أما المصطلح هو اللفظ أو مادة الفكر بحيث يركز على المعاني اللفظية لتجسيد التصورات الفكرية.

وقد جاء في كتاب التعريفات للرجائي أنّ المفهوم هو حصول صورة الشيء في العقل، أما المصطلح عنده أيضاً فهو عبارة عن اتفاق قوم على تسمية باسم ينتقل عن موضعه الأول وإخراج اللفظ من المعنى اللغوي إلى معنى آخر لمناسبة بينهما.

المفاهيم هي عبارة عن تمثيلات ذهنية للمصطلحات، فكل مفهوم مصطلح وليس كل مصطلح مفهوم، إذ يعتبر المصطلح الدلالة اللفظية للمفهوم، فقول لفظ الدين مصطلح يُمثل مجموعة من الاعتقادات والعبادات والسلوكيات.

وُسِّتَتْجُ مما سبق أنّ المفهوم رُوح المصطلح ومضمونه، والمصطلح هو العنوان الرسمي والتسمية المتفق عليها الدالة على المفهوم، وعليه تظهر عدة فروقات بين المفهوم والمصطلح من بينها ما يلي:

- المفهوم يركز على الاستنتاجات الفكرية والتمثيلات التي تم الوصول إليها، في حين يمثل المصطلح تلك المعاني اللفظية للمفهوم بالحرص على توضيح مقصودها.
- لا يمكن الاتفاق على مفهوم ما في مجال معين، في حين يمكن الاتفاق على المصطلح ويصبح من الأمور المعروفة والمتداولة في مجال معين.
- لا يمكن الاحتفاظ بالمفاهيم إلا في مؤلفات أصحابها الخاصة، والذين عملوا على بلورتها، في حين يمكنك الاحتفاظ بالمصطلحات في مؤلفات عامة لتصبح مراجع لغوية ذات أهمية كبرى مثل المعاجم.

المبحث الثالث: المصطلح القرآني

لقد تضمن القرآن الكريم العديد من المفاهيم، وضبط معانيها وعبر عنها بمصطلحات دقيقة جداً بحسب مقتضيات والسياق، وبما أنّ القرآن أصل العلوم ومفجر

المعارف، فقد اعتبر المصطلح بأنه هو الأصل والنواة الذي يجب أن يكون عليه مدار ما سواه من مصطلحات في بقية العلوم، بحيث تكون تبعاً له.

المطلب الأول: تعريف المصطلح القرآني وأهميته:

أولاً: تعريفه: لقد بين الله ﷻ أنّ القرآن الكريم أنزل بلسان عربيّ مبين، كما أنّ ألفاظه المتضمنة فيه تنبع من أصل دلالتها في اللغة العربية، إلا أنها تضاف إليها أمور ترتبط بسياقات ومآلات ينبغي مراعاتها، بحيث حمل القرآن الكريم بعض الألفاظ العربية معاني ودلالات إما جديدة ابتداءً، أو نامية نحو التعميم أو التخصيص، وهذه الدلالات لم تكتسبها من قبل عن العرب فاتسع مدلولها فأصبح اللفظ القرآني له مفهوم غير الذي يتبادر إلى الذهن وغير الذي كان معروفاً سابقاً، وتركيزاً على ما سبق فإن المصطلح القرآني إجمالاً هو: كل لفظ قرآني عبّر عن مفهوم قرآني، وتفصيلاً: كل لفظ من ألفاظ القرآن الكريم، مفرداً كان أو مركباً، اكتسب داخل الاستعمال القرآني خصوصية دلالية قرآنية جعلت منه تعبيراً عن مفهوم معين له موقع خاص داخل الرؤية القرآنية ونسقتها المفهومي¹. فيدخل في ذلك كلّ أسماء المعاني وأسماء الصفات المشتقة منها في القرآن الكريم، مفردة أو مركبة، مطلقة كانت أو مقيدة، وعلى الصورة الاسمية الصريحة، أو على الصورة الفعلية التي تؤول بالاسمية².

وعرفته الدكتور فريدة زمرد بأنه كل لفظ دلّ على مفهوم قرآني خاص لم يكن متداولاً عند العرب قبل نزول القرآن الكريم³.

ويستخلص مما سبق أنّ كل لفظ سواء كلمة أو جملة له دلالة خاصة في نسق القرآن الكريم. وقد عبّر بعض العلماء عن المصطلحات القرآنية بالألفاظ الشرعية أو الألفاظ

¹ دراسات مصطلحية، ص 109

² القرآن الكريم والدراسة المصطلحية، ص 20

³ جهود العلماء في خدمة المصطلح القرآني المسار والمصير، ص 551

الإسلامية، إلا أنّ هذه التسمية تبعدها عن حقيقتها بعض الشيء، إذ توحي أنها وليدة الإسلام، في حين أنّ هاته المصطلحات ذات جذور تاريخية ولغوية قبل نزول القرآن، لذلك فإنّ التعبير عنها بالمصطلحات يبقى هو التعبير الأمثل.

ثانياً: أهميته: وتظهر أهمية المصطلح القرآني من خلال ما بينه العلامة الراغب الأصفهاني الذي عاش في حضن القرآن، وتحت ظلاله، وتجرى في علومه، وغاص في ألفاظه وآيه: وذكرت أن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن: العلوم اللفظية. ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة. فتحصيل معاني ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللب في كونه أول المعاون في بناء ما يمكن أن يبينه وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط، بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع. فألفاظ القرآن هي لبّ الكلام وزبدته وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكامهم وحكمهم، وإليها مفرع حذاق الشعر والبلغاء في نظمهم ونثرهم.¹

المطلب الثاني: مشروعية دراسته المصطلح القرآني:

لا شك أن تزايد الاعتناء بالمصطلح القرآني من مستجدات الساحة القرآنية، إلا أن معالمة وملاحظه ظهرت منذ عصر التنزيل حيث بين النبي ﷺ لأصحابه الكرام لما نزل قول الله تعالى: "الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ" (سورة الأنعام: 82). فمفسر فهم ذلك على أصحابه ﷺ، وقالوا: آينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال رسول الله ﷺ: إنه ليس بذلك، ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ، وهنا إرشاد لأهمية الدراسة النصية للمفردات القرآنية في مواطنها وموضوعها المختلفة وأثرها في فهم صحيح وسليم لكتاب الله ﷻ دون تضيق أو تميع، بحيث أن هذا النسق الذي اعتمده الرسول ﷺ هو الطريق القويم للوصول إلى فهم يطابق المقصد الرباني من الكلام القرآني، ومن هنا تعدّ الدراسة المصطلح القرآني أهم مداخل التفسير.

¹ المفردات في غريب القرآن، ص 6

المطلب الثالث: أنواع المصطلح القرآني:

لقد تعددت وتوّعت الدراسات التي تناول المصطلح القرآني حيث بينت أنّ المصطلح القرآني على ثلاثة أنواع هي:

أولاً: مصطلحات وافقت اللغة العربية و استقرت دلالتها: أي وافقت وتطابقت مع ما عرفته العرب قبل نزول القرآن الكريم، والمقصود من هذه أنها من حيث الشكل والمضمون أي قلباً وقالباً، وغيرها من المصطلحات القرآنية التي وافقت اللغة العربية، والمقصود بالمصطلحات التي وافقت اللغة العربية وحافظت على دلالاتها أي من حيث المحافظة الشكلية على معنى اللفظ اللغوي، وإلا فالقرآن قد أضفى عليه صفة القدسية والتأثير المعجز، ومن أمثلة ذلك:

- مصطلح (العبودية)، أصل العبودية الخضوع والتذلل، وكل خضوع ليس فوقه خضوع فهو عبادة، والعبادة نوع من الخضوع لا يستحقه إلا من كان له أعلى منزلة من الإنعام، ومفهوم المصطلح في القرآن لا يخرج عن المعنى اللغوي المعروف، فعناه العبادة من قبل العبد الخاضع لربه، المستسلم المنقاد لأمره، وبهذا المعنى استعمل اللفظ قبل نزول القرآن وبعده، فكان مفهومه واحداً ولكن القرآن أضاف عليه صفة التخصيص بعبادة الله ﷻ وحده.¹
- مصطلح (الكعبة)، وهي بيت الله الحرام، وقد أخذت تسميتها من شكلها الهندسي، فكل بناؤ مربع عند العرب فهو كعبة، والكعبة اسم عربي التصميم، وقد أطلقوه على هذا البناء لمكانته السامية، وهذا المعنى الذي دلّ عليه مصطلح (الكعبة) هو المعنى نفسه الذي ورد في القرآن الكريم فلم يطرأ عليه أيّ تطور دلالي في هاتين الفترتين.²

¹ التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالة مقارنة، ص 141-143

² المرجع نفسه، ص 243-146

ثانياً: مصطلحات خضعت للتغيير الدلالي إما بالتضييق أو الاتساع أو الانتقال: أي مصطلحات كانت معروفة في البيئة العربية قبل نزول القرآن بدلالات معينة ثم ضاقت هذه الدلالات أو اتسعت رقعتها، أو طرأ علينا انتقال أكسبها دلالات جديدة من خلال النص القرآني.

أ. مصطلحات ضاقت دلالاتها اللغوية: بمعنى أنّ هناك مصطلحات عامة الدلالة نخصّص القرآن مدلولها، وتخصيص الدلالة يعني أن تقتصر الدلالة العامة على بعض أجزائها فيضيق شمولها بحيث يصبح مدلول الكلمة مقصوراً على أشياء أقلّ عدداً مما كانت عليه في الأصل،¹ ومن الأمثلة على المصطلحات التي ضاقت مدلولها اللغوي ما يلي:

- مصطلح (الرسول)، في أصله اللغوي الانبعاث على التؤدة، ومنه الرسول المنبعث، ثم تطور اللفظ ليدل على الرفق تارة، والانبعاث تارة أخرى. و(الرسول) لفظ يصدق على كلام المرسل، وعلى حامل الخبر، وفي النص القرآني دلّ على الإنسان الذي يختاره الله عزّ وجلّ لينشر في الناس الرسالة، ويبلغ الناس دين ربه، فالقرآن خصّص معنى اللفظ الرسول وجعله مرتبطاً برسول الله الذي يبلغ عن ربه أحكامه ودينه وشرائعه.² وغيرها من المصطلحات التي ضاقت معناها اللغوي في القرآن بعد نزوله، كالشفاعة، والصلاة بحيث جعلها القرآن تدل على العبادة المعهودة التي علمنا إياها الرسول ﷺ.

ب. مصطلحات اتسعت دلالاتها اللغوية: وهذا الصنف هو ما كانت دلالاته اللغوية ضيقة ومحدودة في مدلولات معينة إلا أنّ النص القرآني أكسبها توسعة لتشمل العديد من المعاني والمدلولات أكثر مما كانت عليه، ومن نماذج هذه

¹ دلالة الألفاظ، ص 52

² التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، ص 130-131

المصطلحات ما يلي:

- مصطلح (الفسق)، العرب تقول إذا خرجت الرطبة عن قشرتها فقد فسقت الرطبة من قشرتها، وسميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها على الناس، وفي النص القرآني دل مصطلح (الفسق) على العصيان والترك لأمر الله ﷻ والخروج عن طريق الحق، وقيل الفسوق الخروج عن الدين، والميل إلى المعصية، مثلما فسق إبليس عن أمر ربه.¹ ومثل هذا المصطلح أيضاً (الكفر) و(النفاق).
- ت. مصطلحات انتقلت دلالاتها اللغوية: وهذا الصنف من المصطلحات يفارق دلالاته، حاملاً ومتصفاً دلالة جديدة أكساها إياه النص القرآني، ومن الأمثلة التي تخص هذا الصنف من المصطلحات ما يلي:
- مصطلح (الركوع)، معناه اللغوي هو (شدة الإيحاء)، ولكن المعنى الأول قد نسي ولم يعد يستعمل إلا عند اللزوم، ثم انتقل معناه ليصبح دالاً على الخضوع والتذلل وهو معنى مجازي متطور عن المعنى اللغوي الأساس وهو الانحناء الانخفاظ، ومن هذا المعنى تفرعت معان مجازية كثيرة فقالوا ركع الرجل إذا افتقر بعد غنى كأنما حني الفقر ظهره بعد أن كان مستوياً، ويبدو أن العرب ساروا خطوة ضيقة نحو معناه الاصطلاحي فكانوا الحنيف راععاً، ولم تنتشر دلالة المصطلح إلا بعد نزول القرآن فصار إذا أطلق فهو لا يعني إلا الركوع في الصلاة، وسميت أجزاء الصلاة بالركعات، لأنه يمثل الحد الفاصل بين كل قيامين أو وقتين يفهما الإنسان في صلاته.² ومثل هذا أيضاً من المصطلحات التي انتقلت دلالاتها اللغوية كالجنة، والطواف، والقرض، والغي، والمغفرة، والمناسك.

¹ الكلمات الإسلامية في الحق القرآني، ص 124

² التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، ص 189-190

ثالثاً: مصطلحات قرآنية جديدة: وهذا النوع من المصطلحات لم يكن مألوفاً أو معهوداً في البيئة العربية، كما أنه لم يكن أجزاء من كلمات أخرى معروفة في كلام العرب، إذ لم تعرفه العرب حتى ظهور شمس الإسلام، ومثل هذه المصطلحات استحدثها النص القرآني وأعطاه دلالات جديدة وخاصة لم تنطبق لها العرب من قبل، ومن أمثلة هذه المصطلحات:

- مصطلح (جاهلية)، بحيث لا يوجد لهذا المصطلح مثيل قبل نزول القرآن الكريم، وهي صيغة أوجدها القرآن الكريم وانتشرت فيما بعد لتكون علماً على الفترة التي سبقت نزول القرآن، وهو مستمد من دلالاته من الجهل بمعنى السفه والطيش والحمية والزائفة للتعبير عن الحياة التي كان يحياها الإنسان في العصر الجاهلي وليس من قبيل الجهل ضد العلم.¹

الفصل الثاني: الأسس المعرفية والمنهجية لدراسة مصطلحات القرآن

المبحث الأول: الأسس المعرفية لدراسة مصطلحات القرآن

إن هذه الأسس المعرفية² المتعلقة بدراسة مفردات القرآن الكريم تتنوع وتعدد بتعدد زوايا النظر، وتنوع المتدبرين، واختلاف الدارسين، وهي غير قابلة للخصر؛ لأن القرآن مطلق، وعلم الإنسان نسبي، وليس من شأن النسبي أن تكون له إحاطة بالمطلق، أو يحصر أسسه أو خصائصه، ولكل دارس ومتدبر وغواص في آيات الكتاب الكريم نصيب يحظى به، فكل أحد يتقيد بالخصائص التي يقارب القرآن المجيد من زاوية النظر إليها، ومن الأسس التي ينبغي أن يستحضرها الباحث في

¹ المرجع نفسه، ص 149 - 150

² الأسس العرفية: يدور معناها حول فلك أصل الكلمتين اللغوي، بحيث تعتبر هاته الأسس المعرفية هي الدعائم التي يطلق منها المصطلح المدروس، والتي شكلت دافعاً وعدفاً، وهدفاً في الوقت نفسه، وبيان هاته الأسس هو محاولة لكشف نظام المصطلح المدروس، وتنوع وتعدد بتعدد زوايا النظر، وتنوع المتدبرين، واختلاف الدارسين.

القرآن الكريم عموماً، والدارس المصطلحي خصوصاً ما يأتي:

أولاً: الربانية: والربانية- كما بين علماء العربية- مصدر صناعي منسوب إلى الرب، زيدت فيه الألف والنون، على غير قياس، ومعناه: الانتساب إلى الرب، وسبب إيراد هذا الأساس الكلي- الربانية- هو وجوب استحضاره من لدن الدارس لمفردات القرآن الكريم أثناء دراسته، ويدرك حقيقة الإدراك أن ما يشاغل عليه رباني المصدر في ألفاظه ومعانيه، قال تعالى: "يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا" (سورة النساء: 174)، وقال "يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" (سورة يونس: 57) وقال أيضاً: "وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّن أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ" (سورة الشورى: 52)، وغير ذلك من الآيات الماثلة في القرآن الكريم التي تدل على مصدرية، وأنه وحي من عند رب عز وجل، ومن ثم ينفرد عن غيره ويتميز عما سواه بالعديد من الميزات، يقول الدكتور فريد الأنصاري: إن الكلمات العربية في القرآن شمس، وهي في غير القرآن، من الخطاب البشري أفعال تدور حولها، طوعاً أو كرهاً. وإنما وظيفة الأفعال أن تعكس ضياء الشمس، فتصبح ماهيتها بها نوراً. أو بعبارة أدق: الكلمات في القرآن هي عين المثال فلها دلالة مطلقة على الكمال الإلهي، لكنها في سائر الكلام البشري محاولة امتثال ذلك المثال، ومن ثم- فإنه إذا نظرنا إلى المصدر المرجعي للفكر الإسلامي- المتمثل في الوحي، وتعاملنا معه في سياق النص؛ فإنه يتعين علينا مراجعة المدلول المعنوي والحقل المفهومي للمصطلح على نحو يخرج من الأطر الوضعية التي تحتزل وتقلص، وتخلط وتُسوي، ولا تميز بين النص الموحى، والنص البشري؛ من مدونات، ومؤلفات، ومحفوظات يتناقها أهل العلم وأرباب الصناعة الحضارية، وتمييز عليها النسبية البشري.

ثانياً: القصدية: تعتبر معرفة قصد النص القرآني جملة وإدراك غاياته، والوقوف على أهدافه ومرامييه ابتداء قبل الشروع في الدراسة، وخاصة إذا كان المصطلح المدروس ذا صلة وثيقة بقضايا التشريعات، إذ معرفة المقاصد تنمي للدارس تصوراً عاماً عن موضوعات النص القرآني، ومجالات اهتمامه التي لا ينبغي للباحث تجاوزها، فالمتبع للقرآن الكريم يلفيه كثير المقاصد ومُتنوع المرامي، وحسبُ الباحث في المصطلح القرآني أن يدرك أن للمقاصد دوراً عظيماً في التفهم لما يرمي إليه القرآن في كل سورة وفي كل قصة وفي كل آية وفي كل مفرد.

ومما يتضمنه أيضاً هذا الأساس المعرفي ألا تدرس المصطلحات القرآنية على ضوء أسس عقلية محضة أو تجاذبات مذهبية يُفقد معها الوصول للغاية المرجوة من دراسة اللفظ القرآني، وهي فهم مراد الله ﷻ من كلامه، واستخراج أحكامه وحكمه، ذلك أن القرآن العظيم هو واضع الأسس ومقرر الأحكام، ولا خلاف البتة بين العلماء قاطبة فضلاً على علماء هذا الشأن، أن القرآن الكريم منبع العقيدة ومفجر المعارف ومؤصل الأحكام، بعيداً كل البعد عن أسس الثقافات أو الموروثات أو الترجمات. وفي سياق ما ذكر يقول سيد قطب- رحمه الله- فيما معناه: "إن منهجنا في استلهام القرآن الكريم، ألا نتطرق لدراسته وتفسيره بمقررات سابقة، لا من الناحية العقلية ولا من الناحية الشعورية ولا من جهة رواسب الثقافات لم يكن منبعها القرآن ذاته نحاكم إليها نصوصه، إذ القرآن الكريم جاء ابتداء ينشئ مجموعة من المقررات والأسس الصحيحة التي يريد بها الرب سبحانه لتقوم عليها تصورات البشر وعمارتهم".¹

ثالثاً: الاستمرارية: على الرغم من أن نزول القرآن بمعنى الوحي قد انتهى، فإن استمراريته بالمعنى التشريعي فإنه ممتد عبر زمن التكليف، لأن النص القرآني يسمو على الزمان والمكان باستغراقه واستمراريته، وذلك لأن استنباط الهدى والمعرفة من أي

¹ خصائص التصور الإسلامي، ص 10-11

مصطلح قرآني يقتضي الأمر مراعاة سياق النزول واستحضار مناسبة سوار القبلية أو البعدية، وهذا ما أكده الشاطبي في المسألة الحادية عشرة من موافقاته بقوله: "المدني من السور ينبغي أن يكون منزلاً في الفهم على المكي، وكذلك المكي بعضه مع بعض، والمدني بعضه مع بعض، على حسب ترتيبه في التنزيل، وإلا لم يصح، والدليل على ذلك أنّ معنى الخطاب المدني في الغالب مبني على المكي، كما أنّ المتأخر من كل واحد منهما مبني على متقدمه، ودلّ على ذلك الاستقراء، وذلك إنما يكون ببيان مجمل، أو تخصيص عموم، أو تقييد مطلق، أو تفصيل ما لم يفصل، أو تكميل ما لم يظهر تكميله".

إذن فدراسة أيّ مصطلح قرآني لا بد من مراعاة مسألة الإنزال باعتبار القرآن الكريم نزل منجماً عبر ثلاث وعشرين سنة، ومسألة الاستمرارية لكون القرآن الكريم لا تحصره حدود الزمان والمكان والإنسان، بل يسائر زمن التكليف العمارة والاستخلاف.

رابعاً: الجامعة: لا مناص أنّ من أسس النص القرآني أنه جاء جامعاً في خطابه المستوعب للإنسان والمكان والزمان، يقول الله عزّ وجلّ "تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا" (سورة الفرقان: 1)، فتجاوز القرآن العظيم الحدود التي رسمها له بعض المنفلتين، إذ هو موسوعة كبرى استوعبت مختلف الشرائح والأجناس والألوان، حيث لم يقتصر خطابه على فئة معينة كما هو شأن الكتب السابقة، بل جاء للناس كافة، بهدف توجيههم وإمدادهم بمقومات الاستخلاف.

كما تتجلى أيضاً جامعة النص القرآني في مضمونه ومحتواه، فهي نسق مفتوح غير منغلق جامع لكل صغيرة وكبيرة في الحياة ويستدل لذلك بقوله تعالى: "مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ" (سورة الأنعام: 38)، وقوله تعالى: "وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ" (سورة النحل: 89)، ومن الشواهد على ذلك أنّ مُفسّري القرآن قبل أكثر من قرن من الزمان لم يكونوا ملتفتين إلى الآيات الكونية

الآفاقية ودقة التوصيفات القرآنية لها، وإن كانت مجملة، حتى جاء التفسير العلمي التجريبي ليفتح أمامنا آفاقاً جديدة في الفهم والتطبيق. ومن هنا تظهر لنا جامعية القرآن الكريم وسعته في الخطاب والمضمون التي يحظى بها في مقابل سائر الكتب السماوية الأخرى.

خامساً: الهيمنة والتصديق: إن التناج الفكري لبني البشر قاطبة يوصف بالنسبي تستضعفه طبيعة الإنسان الذي مهما امتلك من مهارات وذكاء ونوع، وبالتالي يبقى نظره قاصراً عاجزاً عن الهيمنة، في حين نزل القرآن الكريم مهيمناً على الكتب السابقة ومصداقاً عليها، والتصديق هو الإقرار والدلالة على التأكيد، أما الهيمنة فهي السيطرة والرقابة والشهادة، قال تعالى: "نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ" (سورة آل عمران:3)، وقال سبحانه: "وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ" (سورة المائدة: 48)، وقال تعالى: "وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ" (سورة فاطر: 31)، وقال أيضاً: "قَالُوا يَتَّقُونَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ" (سورة الأحقاف: 30)، والمتأمل لهذه الآيات الكريمة، يجد أن التصديق والهيمنة على ضربين:

أولاً: تصديق الكتب السابقة فاصح منها وإقرارها في مقاصد الدين وأصوله التي لا تختلف باختلاف الشرائع والرسالات، ثم الهيمنة عليها في نظام متكامل تام المراد.

ثانياً: تصديق ما لا تعتريه الشوائب والأغلاط فيما يدركه علم البشر، وهيمنته بالإحاطة الحقيقة على حقائق العلوم كلها.

وعلى هذا الأساس فلا يمكن لأي مصطلح من مصطلحات النص القرآني أن يتحيز في مرحلة زمنية معينة أو ينحاز إلى فئة دون أخرى، لأن المفهوم القرآني وإن كان

واحدًا فهو يسمد إطلاقته من الوحي نفسه، إذ القرآن الكريم خطاب إلهي شامل للجميع، ولكل العصور، والأحوال والظروف كافة، ومعانيه معان شاملة كلية متكاملة، وعامة لا تقتصر على طائفة معينة أو على معنى جزئي، بل يقدم أطيب الأغذية وألذها طعمًا إلى كل الطبقات المتباينة في كل عصر ومصر، فيوفي حاجة أفكارهم ويشبع عقولهم ويزكي قلوبهم وينمي أرواحهم، كل ما يليق به؛ وذلك لأنه وحي سماوي وخطاب رباني يخاطب الله سبحانه به جميع طبقات البشر المصطفين في كل عصر ومصر، فيجيب عن أسئلة واستفسارات جميع الطوائف ويلبي حاجاتهم كلها ويوكل مستجداتهم؛ فلا غرو أنه كلام رب العالمين، وصادر من أرفع مراتب الربوبية المطلقة، وله جامعية تحددت العالمين، فصار اللفظ القرآني ذلك النص المعجز من ألفاظه، والمعجز في معانيه، وفي أحكامه، وفي علمه، وفي مراميه ومقاصده.

وعليه تكون مصطلحات النص القرآني وحيًا مهمنًا ومصداقًا توجب على الباحث والدارس لها انحصار هاته الأسس كغيرهما من الأسس المعرفية، إذ هي بمثابة التضاريس الفكرية والنفسية والوجدانية التي من شأنها أن تمكن الدارس من التقاط ما يتعلق بالموضوع المبحوث فيها من إشارات؛ وإلا فسوف تغلب على البحث العمومية والسطحية.

سادسًا: الشبابة والفتوة: نقصد بها خصوبة مادة التنزيل، وتدقيقها الدلالي اللانهائي، وعطاءها الدائم والمتجدد كلما تقدم الزمان، وتوسعت دائرة المعارف الكونية والشرعية، قال سبحانه وتعالى: "كَلَّا نُمَدِّدُ هُوَآلَاءَ وَهَوَآلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا" (سورة الإسراء: 20)، أي العطاء على مستوى الاستجابة لكل القراءات الممكنة والعادلة، إذ في هذه الاستجابة ما يزيك صلاحية النص القرآني لكل زمان ومكان. أو على مستوى تطور الحضارة الانسانية.

إذا المصطلح القرآني يتضمن في طياته دلالات واسعة تفوق بكثرة ما هو متعارف عليه

عند بني البشر، وهذا يدل على ثراء معينه الفياض الذي كان متدفقاً يافعاً منذ الأزل إلى يوم القيامة، قال سبحانه: "وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" (سورة لقمان: 27).

كما يمكن أيضاً للمصطلح القرآني بفضل الشبابة والفتوة التي يتفرد بها القدرة على الاستجابة لكل ظرف تاريخي مهما كانت خصائصه، أو سقفه المعرفي، فيستوعبه، ويستمر في تجاوزه باتجاه المستقبل بعد أن يقوم بتلبية احتياجاته من الهداية والحقائق والنور.

إذاً تعتبر الشبابة والفتوة أساسين أزيلين للمصطلح القرآني، كما أنهما علامتان على غنى دلالاته التي تمكنه من استيعاب الواقع والتجاوز إلى غيره من مجالات متجدد ومستحدث.

سابعاً: التعاضد والتناسب: لا شك أن تضافر الألفاظ القرآن وتعاضدها وحسن انتظامها داخل نسق واحد أساسه التعاضد والتناسب، هو الذي يسهم في استثمار المعاني وإخراجها من سياجها وسجونها، ليحررها ويحرره ويعرضها إلى عالم المصطلح الإفادة، ولعل في هذا التناسب والتعاضد ما يدل على أن القرآن الكريم رغم أنه نزل متفرقاً لأسباب مختلفة، ولعلاج نوازل متباينة، وتحقيق مقاصد متفاوتة، ومخاطبة متلقين متفاوت مداركهم ودرجة استيعابهم، إلا أن هذا التباين ينصهر في فلك تعاضد النص القرآني وتناسبه.

أما إذا اختل التناسب وتغير ترتيب الذي به تشكل النص القرآني ذاك المعنى، انتقلت من تمام الفهم البيان إلى زلزلة الهذيان، وقد يصبح لتلك الألفاظ مدلولات أخرى في أحسن الأحوال، وللجرجاني كلام نفيس في هذا الباب حيث يقول: "الألفاظ لا تُنفيد حتى تُؤلف ضرباً خاصاً من التأليف، ويُعمد بها إلى وجه دون وجه من التركيب والترتيب، فلو أنك عمدت إلى بيت شعرٍ أو فصلٍ نثرٍ فعددت كلماته عدّاً كيف جاء وأتفق، وأبطلت نضده ونظامه الذي عليه بني، وفيه أفرغ المعنى وأجريت، وغيرت ترتيبه الذي بخصوصيته أفاد ما أفاد، وبسقه الخصوص أبان المراد.

إذا كان هذا ما ذكره الجرجاني ينطبق على أيّ كلام فما بالك بالكلام الذي فُصِّل أحسن تفصيل وأحكم أحسن إحكام، وكل لفظ له مكانه، إذ لا يقبل أن يحتلّ لفظ آخر ذلك الموضع، وبذلك ينفرد القرآن عن غيره، فهو منفصل عن سائر الكتب المنزلة وغير المنزلة، متفوق عليها- جميعاً- بخصائصه ومزاياه، ونظمه وبلاغته وفصاحته، وهو في الوقت ذاته واحد في داخله بهذه المزايا والخصائص، تنتظم حروفه وكلماته وآياته وسوره في سلك واحد. والقرآن واحد في كونه متفرداً من تلك الحيثية، ومن حيث الأهداف والمقاصد والغايات والآثار حتى لبيدو في ذلك- كله- كما لو كان كلمة واحدة، أو جملة واحدة؛ لأن الواحد- في الحقيقة- ما لا جزء له البتة؛ أي لا يقبل التقسيم إلى أعضاء قابلة للانفصال، ولا يقبل التحويل والتغيير والتبديل فيما يتألف منه.

فالقرآن في بنائته المثالية يماثل البنائية الكونية بحيث إذا زاح نجم عن موقعه اختل النظام الكوني كله، ولهذا قابل الله بين البنائية المثالية للقرآن ومواقع النجوم، فلم يقسم- سبحانه- بالنجم ولكن أقسم بمواقعها في سياق بيان بخصائص القرآن.

نَفَّهُمْ مِنْ هَذَا أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ مُحْكَمٌ بِنَاؤُهُ فِي غَايَةِ الْإِنْضِبَاطِ الْمُنْهَجِيِّ. فكما تخضع البنائية الكونية الطبيعية لضوابط المجموعة الشمسية كلها، فإن خرج نجم عن مداره واصطدم بغيره اختلت موازين الأجرام كله، فكذلك القرآن، بنائته منضبطة إلى مستوى الحرف وإعرابه وتشكيله، (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ). وعلى هذا الأساس يجب التعامل مع الكونية القرآنية. وهذا ما يميز الاستخدام الإلهي للغة عن الاستخدام البشري.

وهذا الانضباط المنهجي على مستوى الكلمة والحرف هو الذي يجعل مفردات القرآن الكريم في تعاضد وتماسك، بحيث لكل مفردة دورها الوظيفي داخل النسق الكلي للقرآن الكريم، ولا يمكن العروج إلى المعنى المقصود بالاستغناء عن أحد

ألفاظه، لأنَّ المعاني تتسق داخل النظم القرآني كما تتسق الحجرات في البنيان لا، بل إنها لتلتحم فيها كما تلتحم الأعضاء في جسم الإنسان، فبين كل قطعة وجارتها رباط موضعي من أنفسهما، كما يلتقي العظامان عند المفصل ومن فوقهما تمتد شبكة من الوشائح تحيط بهما عن كئيب، كما يشتبك العضوان بالشرابين والعروق والأعضاء؛ ومن وراء ذلك كله يسري في جملة السورة اتجاه معين، وتؤدي مجموعها غرضاً خاصاً، كما يأخذ الجسم قواماً واحداً، ويتعاون بمجملته على أداء غرض واحد، مع اختلاف وظائفه العضوية.

إذن فكل مفهوم قرآني له هذه الخاصية ضمن المجموع النسقي للمفاهيم، يشغل لذاته ولغيره في الوقت نفسه. وذلك أشبه ما يكون بعمل أعضاء الإنسان، فكل عضو له وظيفة خاصة لا يقوم بها غيره ووظيفة عامة يقوم بها مع غيره في شكل نظامي مطرد إذا تعطل وقع الخلل.

فالمفاهيم القرآنية ليست معزولة عن بعضها البعض، وليست منثورة كيفما اتفق، وإنما هي فصوص في العقد الفريد للإسلام، منظومة نظماً بديعاً رائعاً في نسق؛ إذا نظر إليها، وقد انتظمت أفقياً، تجلّى نسقها التصوري الشامل الكامل، وإذا نظر إليها وقد تتابعت تاريخياً في التنزل، تجلّى نسقها المنهجي التنزيلي.

وهي في الحالين معاً لا تقبل المسّ بما يُخلّ بنسقيتها: لا تقبل زحزحة في المواقع أو تغييراً في الترتيب، ولا تقبل تغييراً للأحجام أو الألوان، وإلا صار الأمر إلى شيء آخر غير الإسلام، وقد دخل من هذا الباب على المسلمين عبر التاريخ الطويل العريض شر طويل عريض، مس التصور والتنزيل معاً.

ومما تقدم يتضح لنا أنّ للمصطلح القرآني بعداً بنائياً داخل النسق القرآني والذي يتمثل في التعاضد والتناسب، بحيث يُوجب على الباحث مراعاته واستحضاره أثناء دراسة المصطلح القرآني، ولا يتم البتة إزاحة المصطلح القرآني عن بنائيته.

المبحث الثاني: الأسس المنهجية لدراسة مصطلحات القرآن

ينبثق هذا المبحث من خلال بيان أنّ المفاهيم القرآنية تحتاج لضبط من خلال منهج صارم حتى يتم التوصل إليه مراد الله منها، وهذا ما فعله الشاهد البوشيخي - حفظه الله - فقد وضع أسس هذا المنهج الذي يمكن أن ندرس به المصطلحات، وسمّاه بـ(منهج الدراسة المصطلحية)¹، وهو: منهج علمي رصين يقوم على البحث في التطور التاريخي والواقع الدلالي للمصطلح داخل النصّ المنتمي لمجال علمي محدّد، من خلال وصف المصطلح وتحليل مقوماته الذاتية وامتداداته الخارجية؛ للخروج بنتائج دقيقة وموضوعية وثابتة.²

أولاً: الدراسة الإحصائية: تعتبر الدراسة الإحصائية مرحلة جد مهمة وتضج من خلال تسميتها، بحيث تتطلب جهداً وضبطاً من الباحث أثناء مجاهدته في إحصاء المصطلح، ثم إنّ هذه المرحلة برمتها لا تُرى في البحث مطلقاً، بل ما يرى منها هو الأثر فقط، بحث أن كل أساس يعتمد على الذي قبله، كما يتجلى أثره في الذي بعده.

ويقصد بالدراسة الإحصائية الاستقراء التام لكل النصوص التي ورد بها المصطلح المدروس وما يتصل به لفظاً ومفهوماً وقضية في المتن المدروس.³ والمقصود من الاستقراء هو تتبع موارد المصطلح في كلّ النصوص. إذ يشكل أساس الدعامات العلمية في منهج الدراسة المصطلحية وشروطاً من شروطها. إذ لا علمية في الدراسة المصطلحية ما لم تقم على الإحصاء التام، الذي يتحقق جمع النصوص التي بها قصد تصنيفها وتحليلها. وكذا تحديد حجم حضور المصطلحات المراد دراستها في المتن المدروس.⁴ مع

¹ تعتبر الدراسة المصطلحية منهجاً معتمداً من مناهج البحث، وتشتغل على النصوص بغية رسم حدود دقيق ومضبوطة للمفاهيم المتضمنة في النصوص المدروسة.

² مفهوم الوحي في القرآن الكريم دراسة مصطلحية. ص 37

³ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 22

⁴ مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 61

مراعاة قواعد جمع المصطلح وأهمها قاعدة الأخذ بالأحوط.¹

1. مراحل الدراسة الإحصائية: إنّ الناظر في منهج المدرسة الفاسية يجد أنّ الدراسة الإحصائية تقوم على مراحل تجنب الباحث من الورود في مهالك انتقائية أو عفوية، وقد ذكر الشاهد البوشيخي في محاضراته التي عنونها بنظرات في منهج الدراسة المصطلحية أنّ هاته المراحل أربع وهي:²

- إحصاء لفظ المصطلح إحصاءً تاماً، حيثما ورد، وكيفما ورد، وبأيّ معنى ورد، في المتن المدروس.
- إحصاء الألفاظ الاصطلاحية المشتقة من جذره اللغوي والمفهومي إحصاءً تاماً كذلك.
- إحصاء التراكيب التي ورد بها مفهوم المصطلح أو بعضه دون بعض إحصاءً تاماً كذلك.
- إحصاء القضايا العلمية المدرجة تحت مفهومه، وإن لم يرد بها لفظه.

وحتى نتضح مراحل وخطوات الدراسة الإحصائية نورد ما ذكر محمد البوزي في تطبيق لهاته الدراسة على لفظ التقوى حيث بين أن:

- أ. إحصاء لفظ المصطلح إحصاءً تاماً حيثما ورد، وكيف، ما ورد، وبأجمعنا ورد في المتن المدروس. ما دام قدر من الاصطلاحية- داخل مجاله العلمي الخاص- ملحوظاً فيه، مثال: ورود لفظ التقوى في القرآن الكريم 258 مرة و ما دل منها على المعنى الاصطلاحي 240 مرة فالمصطلح مفرداً كان أو مجموعاً، مثل اتق، اتقى، يتقون، تقواهم، معرفاً أو منكرأ، اسماً أو فعلاً، مثل: الأتقى، أتقاكم، يتقى،

¹ قاعدة الأخذ بالأحوط: أي أخذ الاحتياط فيما يحصى دورن أن تصبح هاته العملية احتطاب ليل في يراد جمعه، كما ينبغي التعليل الباحث لما جمع، وتعليله لما ترك إذا توجه له اعتراض.

² نظرات في المصطلح والمنهج، ص 23

اتقوا، مضموماً إليه غيره.¹

ب. إحصاء الألفاظ الإحصائية المشتقة وذلك من جذرها اللغوي والمفهومي إحصاءً تاماً كذلك، على التفصيل نفسه مثل: ورود مشتق لفظ التقوى في القرآن الكريم 27 مرة فعلاً ماضياً و55 مرة مضارعاً، 86 مرة أمراً، والمصدر ورد 18 مرة. واسم الفاعل 49 مرة، وهكذا، إحصاء التراكيب التي ورد بها مفهوم المصطلح أو بعضه دون لفظه إحصاءً تاماً كذلك، مع إحصاء القضايا العلمية المدرجة تحت مفهومه. وإن لم يرد بها المعنى المبني أساساً على الاستقراء التام لكل النصوص التي ورد بها المصطلح أو مفهومه.²

2. شروط الإحصاء: وهي عبارة عن مقدمات أولية تمهد لعملية الإحصاء، وهي:

- التمس بالجال العلمي الذي ينتمي إليه نص المصطلح: مواضعه، ومترقاته وإشكالاته المطروحة.

- توثيق مجال الإحصاء النص المدرس، وتحديد حده حسب ما يتطلب كل على حدة.

- إدراك النص المدرس والإحاطة به ومعرفة كل ما ألف بصلته بالنص المدرس.

- إدراك النص المدرس، وتحديد ملامحه الكبرى، من خلال تحقيق

الشروط السابقة، والتي هي كيفية بدراسة المصطلح المدرس.

3. أدوات الإحصاء: تتنوع أدوات³ الإحصاء بحسب طبيعة المصطلح المدرس،

وما تفرزه المعطيات الإحصائية الخاصة به. و للباحث الاجتهاد في اختيار

¹ مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 61

² المرجع نفسه، ص 61

³ يُقصد بأدوات الإحصاء هي مجموعة الوسائل التي تستعمل وفق طرق والأساليب والإجراءات المختلفة، ويعتمد عليها الباحث في جمع المعلومات الخاصة، بغية وتحليلها واستخلاص نتائجها، وهي متنوعة، كما يحدد استخدامها الباحث على هدي احتياجات موضوعه، ولُعلم أنّ براعة الباحث وكفاءته في حسن استخدام الوسيلة، والإبداع في ذلك يؤدي إلى حسن الثمار والنتائج والعكس بالعكس.

الأدوات الخاصة والمناسبة كالجداول، القوائم الحاسوبية أو الورقية التي تقيد فيها معطيات الإحصاء، وكنظام الترميز والترميز المساعد على تصنيف المعطيات الإحصائية وضبطها، وكالرسوم والبيانات المصورة لحضور المصطلح وما يتعلق به. ومما يجب التنبيه عليه أنّ الإحصاء في هذه المرحلة قد يضطر الباحث إلى إعادته مرات للتثبيت من النتائج وحسبما يمكن له من ملاحظ في المراحل الموالية.¹

والمتأمل في شروط الدراسة الإحصائية وأدوات الإحصاء يليها تتغير وتنوع وتختلف بحسب طبيعة المصطلح المدروس وما تظهره المعطيات الأولية الخاصة به، أما مرامي وغايات الإحصاء فهي واحدة لا تتغير والتي تتمثل في:

- معرفة كثافة المصطلح المدروس في المتن المقصود، وما يستخرج منه من دلالات.

- تجميع المادة العلمية وإعدادها للتصنيف والتحليل في المراحل اللاحقة.²

وثانياً: الدراسة المعجمية:

1. مفهوم الدراسة المعجمية: يقصد بها دراسة معنى المصطلح في المعاجم اللغوية فالاصطلاحية دراسة بتدئ من أقدمها مسجلة أهم ما فيه وتنتهي بأحدثها مسجلة أهم ما أضاف دراسة تضع نصب عينها مدار المادة اللغوية للمصطلح ومن أيّ المعاني أخذ، وبأي الشروح شرح وذلك لتمهيد الطريق إلى فقه المصطلح وتذوقه، وليسهل تصحيح الأخطاء التي قد يكون جلبها الإحصاء.³ كما ذكر أيضاً الشاهد البوشيخي في كتابه مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ "أنها تحديد المعاني الكبرى للمصطلح الأهم في المعاجم تحديداً يحرص ما أمكن على تقديم الحسي من المعاني على العقلي، والوضعي على

¹ مفهوم التأويل في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، ص 44

² المصدر نفسه، ص 44-45

³ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 23-24

المجازي، واللُّغوي على الاصطلاح¹. ومن خلال هذا التعريف تظهر أهمية المصادر القديمة والحديثة والتكامل الخاص بينهما بالنسبة للدراسة المعجمية.²

كما تهدف الدراسة المعجمية إلى العديد من الأمور، أنها تتبع تاريخ المصطلح المدروس، والتمكن من فقه المعنى العام لجذره اللغوي، ثم فقه المعنى الخاص للمفرد المدروس، ثم استخلاص الشروح المصطلحية للمصطلح مع التركيز على الأقرب منها إلى المجال العلمي المدروس واختيار الأدق منها والأجمع.³

2. شروط الدراسة المعجمية: حتى يمكن لدراسة المعجمية أن تؤدي دورها المنهجي في دراسة المصطلح المدروس في المعاجم اللغوية والاصطلاحية لا بد أن تتوفر فيها شروط أساسية:

أ. الاستيعاب: وهو بالإحاطة بكل المعاني اللغوية الخاصة العامة للمصطلح ومادته، ويتفرّع إلى استيعاب مصدريّ، واستيعابٍ معنويّ، واستيعابٍ فكريّ.

فالاستيعاب المصدري: يجب على الباحث أن يعتمد على مصادر الدراسة المعجمية ما توفّر منها، لا يغلب أحدها على الآخر، ولا يهمل مصدرًا منها.

والاستيعاب المعنوي: إحاطة الدارس بكل المعاني المؤطرة للمصطلح المدروس.

والاستيعاب الفكري: والإحاطة بكل عناصر المعنى، انطلاقاً من تتبع التعريفات والشرحات المختلفة والمنتبهة إلى مادة المصطلح المدروس.

¹ مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، ص 18

² تنقسم مصادر الدراسة المعجمية إلى نوعين أساسين، أولاً: المعاجم اللغوية قديمها وحديثها وما دار في فلكها وكان له حكمها، ككتب الفروق اللغوية، وكتب شرح الحديث والشعر، وكتب التفسير بأنواعها، ثانياً: المعاجم الاصطلاحية قديمها وحديثها، وما كان على شاكلتها من كتب ذات قيمة مصطلحية كبرى في شتى الفنون ذات الصلة بالمصطلح المدروس.

³ مفهوم التأويل في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، ص 46

ب. التدرج: أي تتبع المصطلح المدروس شيئاً فشيئاً مراعيًا التسلسل التاريخي، وبذلك يقدم ما حقه التقديم، والعكس أي يؤخر ما حقه التأخير، ومن أوجهه التدرج الزمني، والتدرج الدلالي.¹

ت. التكامل: ومعناه مراعاة المصادر المعجمية استحضار أنّ بعضها يكمل بعض سواء المتقدمة منها أو المتأخرة، وذلك مما يعصب الدراس من الوقوع في بعض الهفوات.

ث. الاقتصار: أي الاقتصار يفي بالمطلوب دون العرض والإكثار الممل، كما ينبغي تجنب الاختصار المخل.

ج. التوثيق: أي ضبط ما تم التوصل إليه ضبطاً تاماً دون زيادة أو نقصان، مع مراعاة رد الكلام لذويه، وقال عنه الونشريسي بأنه "من أجل العلوم قدراً وأعلاها إنابة وخطراً، إذ بها تثبيت الحقوق ويميز الحر من المرقوق، ويوثق بها، ولذا سميت معانيها وثاقاً".²

3. غايات الدراسة المعجمية: لا شك أنّ للدراسة المعجمية غايات على المصطلح المدروس والتي ترمي إلى تحقيقها، منها:

- الاستدراك السريع للاخطاء التي وقع فيها الباحث في مرحلة الإحصاء، بفرز الاصطلاحات من الألفاظ.
- بلوغ مرتبة من التذوق للمصطلحات توصل "فقه المصطلح" بحيث تصيح للدارس حاسة خاصة يشمّ من خلالها رائحته الاصطلاحية مهما اختلطت باللغة العادية.³

¹ مجلة الدراسات المصطلحية، العدد الخامس، المغرب، 2006م، ص 36

² المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق في آداب الموثق وأحكام الوثائق، ص 200

³ مفهوم التأويل في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، ص 46

وثالثاً: الدراسة النصية:

1. مفهوم الدراسة النصية: تعتبر الدراسة المصطلحية هي: دراسة المصطلح وما يتصل به في جميع النصوص التي أحصيت قبل، بهدف تعريفه، واستخلاص كما يسهم في تجلية مفهومه، من صفات وعلاقات وضمائم، وهذا الركن هو عمود منهج الدراسة، فإذا أحسن فيه بورتك النتائج وزكت الثمار، وإذا أسئ في لم تفض الدراسة إلى شيء يذكر، ومدار الإحسان فيه على الفهم السليم العميق للمصطلح في كل نص. والاستنباط الصحيح الدقيق لكل ما يمكن استنباطه مما يتعلق به، فالنصوص هنا هي المادة الخام التي يجب أن تعالج داخل مختبر التحليلات بكل الأدوات والإمكانات، فمعطيات الإحصاء ومعطيات المعاجم، وتحليل الخطابات المقالية والمقامية معاً، ومعطيات المعارف داخل التخصص وخارجه ومعطيات المنهج الخاص والعام، النظري والعملي، كل ذلك ضروري مراعاته عند التفهم، وكل ذلك مما يتمكن به من المفهوم وما يبجلي المفهوم.¹

من خلال التعريف السابق نستنتج أنّ الدراسة النصية أهم الأسس المنهجية لدراسة المصطلح القرآني، كما تعتبر مرحلة فيصليّة تنبئ برسم معالم وملاحج الدراسة المصطلحية، ويراد بها دراسة المصطلح وما يتصل به في جميع النصوص التي أحصيت فيما قبل، ثم دراسة المصطلح ضمن أسرته المفهومية المؤلفنة والمخالفة، بغرض ضبط تعريفه، وتدقيق الفروق والعلاقات، ورصد كلّ ما من شأنه أن يسهم في تجلي تعريفه.

2. أدوات الدراسة النصية: لا بد لدارس المصطلح أن يدرك تمام الإدراك بأن دراسته النصية لن تثمر نتائجها باستحضار أدوات معرفية وأخرى منهجية نجلها في الآتي:

¹ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 24-25

أ. الأدوات العلمية: ويقصد بها على الباحث الإمام بالعلوم اللغوية من نحو، وصرف وبلاغة، ومعجم، وبكل ما يتصل بذلك من أدوات تحليل الخطاب، والإمام بمعارف المجال العلمي الذي يُبحث فيه على نطاقه الخاص والعام، وهذا يُلزم أن تكون الدراسة المصطلحية ضمن تخصص الباحث.

ب. الأدوات المنهجية: قوامها الانتقال في هذه الدراسة من الجزء إلى الكل، أي من الاستيعاب إلى التحليل إلى التركيب في كل نص.¹

ت. الأداة الخلقية: وهي التحلي بالتقوى والإحسان.²

3. مراحل الدراسة النصية: للدراسة النصية مراحل وخطوات يجب على الباحث مراعاتها وهو يقوم بهذا النوع من الدراسة على المصطلح المقصود وما يتصل به في جميع النصوص التي أحصيت قبل، بدء بمرحلة القراءة: وفيها تتم قراءة ما تمَّ إحصاؤه من النصوص التي تتضمن مصطلحاً ما، قراءات كثيرة متأنية صحيحة ومتفحصة بهدف الحسم في مدى اصطلاحية المصطلحات المدروسة، ثم تصنيف النصوص التي وردت بها المصطلحات المدروسة حسب الأهم فالأهم من المشتقات.³

- مرحلة التفهم وتأتي بعد القراءة المتأنية والصحيحة من أجل تفهم كل المصطلحات الواردة النصوص التي تمَّ إحصاؤها بغية استخلاص كل ما من شأنه أن يسهم في فهم المصطلح المدروس فهماً صحيحاً.

- مرحلة استخلاص نتائج التفهم: وفيها يتم استخلاص ما يساعد على تجلية المصطلح المدروس؛ من سمات دلالية وخصائص وصفات تمييزه وعلاقات تربطه بغيره، وضمانت ضُمَّت إليه أو ضم إليها؛ مثل: مصطلح التقوى حين ضمت

¹ مفهوم التأويل في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، ص 48

² مجلة الدراسات المصطلحية، العدد الخامس، المغرب، 2006م، ص 48

³ مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 64

إليه صيغ أخرى، ومشتقات تشترك معه في الجذر اللغوي والمفهومي وقضايا علمية ترتبط به، حيث يكون كل هذا عن طريق الاستنباط الصحيح الدقيق لكل ما يمكن استنباطه مما يتعلق بالمصطلح في كل نص.

- مرحلة تصنيف نتائج التفهم؛ وفيها يتم التصنيف حسب العناصر المكونة لمفهوم المصطلح المدروس؛ انطلاقاً مما تجمع من سمات دلالية، عن بعضها، حسب خصائص وعلاقات المصطلح؛ وحسب الضمائم الإضافية أو الوصفية، وكذا القضايا المرتبطة بالمصطلح.¹ ومن تأمل مراحل الدراسة النصية ألقها ترتبط ارتباطاً وثيقاً فيما بينها.

4. أهداف الدراسة النصية: للدراسة النصية مرامٍ وأهداف ترجو تحقيقها والتي يمكن إجمال أهمها في:

- فرز الاستعمال الاصطلاحي من غيره، واستثناء ألفاظ القرآن الكريم² في هذا المقام.³
- ضبط لمفهوم المصطلح وتدقيق تعريفه وذلك من خلال رصد سماته الدلالية المميزة له.
- استخراج كل ما له تعلق بالمصطلح صفة أو علاقة، مثل: المفاهيم التي تمثل الصفات الحكيمة وعلاقتها بالمتقين، باعتبار التقوى سبباً لها وهي علاقة جزئية.⁴ أو ضميمة أو اشتقاق أو فضيلة.⁵
- التأكد من اصطلاحية المصطلح، فالتفهم الدقيق لمعانيه في النصوص يزيل

¹ المرجع نفسه، ص 65

² إذا كان من بين أهداف الدراسة النصية قياس مدى قوة المصطلح، فإن الألفاظ القرآنية قوية ابتداءً؛ ولذلك يتم استثناءها.

³ الدراسة النصية للمصطلح، ص 43

⁴ مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص (343)

⁵ المرجع نفسه، ص 65

كل شك ويحسم الأمر في الاصطلاحية أو عدمها ، وكذا في قوتها أو ضعفها.

ورابعاً: الدراسة المفهومية:

1. مفهوم الدراسة المفهومية: يقصد بها دراسة النتائج التي فهمت من نصوص المصطلح وما يتصل به، وتصنيفها مفهوماً يجلي خلاصة التصور المستفاد لمفهوم المصطلح في المتن المدروس؛ من تعريف له يحدده بتضمنه كل العناصر والسمات الدلالية المكونة للمفهوم وصفات له تخصه كالتصنيف في الجهاز المفهومي لعلم أو مجال ممر في معين، وعلاقات له تربطه بغيره كالمرادفات و الأضداد وضمائم إليه تكثر نسله، ومشتقات حوله من مادته تحمي ظهره، وقضايا ترتبط به أو يرتبط بها، فهذه الشجرة المفهومية وافرة الظلال، زكية الغلال في أغلب الأحوال، هي التي يجب أن تجلّى بعرضها في الركن الخامس على أحسن حال.¹ كل هذه العناصر نجدها ماثورة في نصوص المصطلح القرآني وبين ثنايا التراكيب والتعابير المضمنة فيها، لكن على غير هذا الترتيب كما أن فهم هذه العناصر واستنباطها، إنما ينتظم في هذه المرحلة: أما قبلها فيكون مجزئاً حسب النصوص، والدراسة المفهومية هي التي تجليها بتصنيفها في الترتيب المنهجي الدقيق.² وتتنوع الدراسة المفهومية بحسب طبيعة المصطلح المدروس، كما تتنوع بحسب طبيعة المتن المدروس.³

2. مراحل الدراسة المفهومية: للدراسة المفهومية مراحل أيضاً وخطوات يجب على الباحث تتبعها وهو يقوم بهذا النوع من الدراسة على المصطلح المقصود إذ تمثل هذه الدراسة السلم الذي يعرج فيه الباحث لبناء المفهوم.

¹ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 25-26

² مفهوم التأويل في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، ص 49

³ مجلة الدراسات المصطلحية، العدد الخامس، المغرب، 2006م، ص 53

أ. دراسة النتائج المستخلصة من النصوص: ويقصد بدراستها المقارنة بينها عبر مجموعة الضوابط التي توفرها النصوص القرآنية كالضوابط الاشتقائي الذي يمكن من المقارنة بين نتائج النصوص التي ورد فيها المصطلح بصيغ اشتقاقية معينة، نصوص أخرى يرد بصيغ مخالفة، وكالضوابط اللغوية التي تمكن من المقارنة بين نتائج نصوص ورد فيها المصطلح بسمات لغوية معينة بنتائج أخرى. لم ترد فيها تلك السمات، كالضوابط المقامي الذي تقارن من خلاله النصوص حسب مقاماتها التداولية المختلفة. قال تعالى: "ذَلِكَ أَلَكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ كَوْمِمًا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ" (سورة البقرة: 2-3) فالإيمان والتقوى في النص القرآني يدلان على أنّ الإيمان يستلزم التقوى، فمن اتقى فقد آمن حقاً.¹

ب. التصنيف المفهومي للنتائج: بعد إخضاع النصوص القرآنية لكل الضوابط التصنيفية الممكنة، تكون مرحلة التصنيف المفهومي للنتائج أول خطوة في مسار الإخراج النهائي لنتائج الدرس المصطلحي، بشكل يسمح بتنسيقها في ترتيب ينسجم مع العناصر المفهومية المكونة للمصطلح، من تعريف وصفات وعلاقات، بحيث يتم الحصول في النهاية على الشكل العام للمفهوم.² وتعتبر مرحلة تصنيف النتائج من الصعوبة بمكان.

ت. استخلاص التعريف: وتعتبر هذه الخطوة أول حلقة في بناء المفهوم وتأسيس أركانه، كما أنها حلقة مشدودة إلى ما قبلها من مراحل استفاد فيها من كل المعطيات النصية والمعجمية والتصنيفية السابقة، مثل دراسة لفظ التقوى وما لفظ التقوى وما أفادته الدراسة النصية والمفهومية إمكانية تعريف اللفظ

¹ مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 131

² المصدر نفسه، ص 50

تعريفًا جامعًا تستوفي كل الشروط المطلوبة.¹

وخامسًا: العرض المصطلحي:² إن ضبط الأسس المنهجية للمصطلح القرآني، والتي حدد إطارها رواد هذا الفن، بدءًا بالدراسة الإحصائية إلى الدراسة المفهومية؛ تعطي أكلها أثناء العرض المصطلحي، وتزداد عطاءً إذا كان هذا العرض أيضًا وفق منهجية تضبط ما سيتم عرضه وتحريره. فما مفهوم العرض المصطلحي؟ وما هي غاياته وشروطه؟ وماذا تتضمن محاربه هذا العرض؟

1. مفهوم الدراسة المفهومية: يُقصد به الكيفية التي ينبغي أن تعرض وتحرر عليها خلاصة الدراسة المصطلحية ونتائجها، وهو الركن الوحيد الذي يرى بعينه لا بأثره.³ وتبدأ هذه المرحلة من حيث انتهت السابقة- أي التعريف- والبدء بهذا العنصر سببه أن التعريف يشكل ماهية المصطلح أو ذاته التي على أساسها تبني سائر الأركان، فهو النواة الذي يمهّد للنظر في الخصائص والصفات التي هي اللحمة والكسوة، ثم تأتي العلاقات بعد ذلك لتتضح معالم تلك الذات أكثر بمعرفة ما يميزها عن غيرها، ليبدأ الحديث عن المصطلح في مستوى ثانٍ، أي من خلال الضمائم التي تمثل شكلاً من نمو المصطلح باتمائه إلى تركيبات نحوية ودلالية تولد على إثرها دلالات جديدة له، ويلبها المشتقات الممثلة لنمو المصطلح، ومن خلال إخوة له في الاشتقاق يجمعهم رحم الجذر اللغوي وأبوة الجذر المفهومي.⁴

2. غايات العرض المصطلحي: لا شك أن للعرض المصطلحي عدة غايات، والتي يمكن إجمالها في: تقديم خلاصة الدراسة المصطلحية وزبدها والتي أسفرت عنها عمليات

¹ المصدر نفسه، ص 119

² ويسمى أيضًا العرض المصطلحي بالتحرير، أي الهيئة والكيفية التي ينبغي للباحث أن يحرر ويبرز النتائج التي تم التوصل إليها في دراسته المصطلحية.

³ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 26

⁴ مفهوم التأويل في القرآن الكريم دراسة مصطلحية، ص 51

المخض السابقة (الإحصاء، والدراسة المعجمية، والدراسة النصية، والدراسة المفهومية). وتمثل أيضاً الغاية الأساسية منه في تقديم ما توصل إليه من نتائج البحث المصطلحي إلى القارئ بطريقة تجعله يدرك المراد منه بسهولة ويسر.¹

3. شروط العرض المصطلحي: يشترط في العرض المصطلحي عدة شروط أهمها، الدقة فيما تم استنتاجه وما سيتم عرضه على مستويات عدة:

- الدقة في الاستيعاب، والدقة في النتائج، والدقة على مستوى التعبير بأن تحرر النتائج بلغة سليمة دقيقة جامعة بلا إيجاز مخلّ ولا إطناب مملّ.

- ثم حسن الترتيب فيتم بعرض نتائج الدراسة المصطلحية مرتبة ترتيباً مفهوماً، بتقديم ما حقه التقديم، وتأخير ما حقه التأخير من عناصر العرض المصطلحي.² في إطار متكامل ومتناسب ومتناسق.

4. محاور العرض المصطلحي:³

أ. التعريف:⁴ ويشتمل ما يلي: المعنى اللغوي، ولا سيما الذي يترجح أنه منه أخذ المعنى الاصطلاحي، والمعنى الاصطلاحي العام في الاختصاص، ولا سيما الأقرب إلى مفهوم المصطلح المدروس معبراً عنه بأدق لفظ وأوضحه وأجمعه ما أمكن. وشروطه مطابقة المصطلح، وضابطه لو وضعت عبارة التعريف

¹ مجلة الدراسات المصطلحية، العدد الخامس، المغرب، 2006م، ص 64-65

² مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 66

³ يقصد بمحاور العرض المصطلحي وعناصره، مجموعة من الأجزاء التي يراد من الدراس للمصطلح تقديمها، مراعيّاً في ذلك التركيز ما تم التوصل إليه في دراسته المصطلحية.

⁴ ويتضمن عنصر التعريف عرض المعنى اللغوي للمصطلح المدروس من خلال إبانة ما تم التوصل إليه من شروح لغوية بانتحال وانتخاب أدقها وأجمعها، ثم عرض المعنى الاصطلاحي للمصطلح المدروس في الاختصاص المقصود، وبهذا يكون الباحث قد عرض التعريف مستوفياً للبنى والمعنى.

مكان المصطلح المعرف في الكلام لا ينسجم الكلام وإنما ينضبط ذلك إذا راعى الدارس في تعريف المفهوم كل العناصر والسمات الدلالية المكونة للمفهوم، الاستفادة من جميع نصوص المصطلح، وما يتعلق به في المتن المدروس، فلا تبقى خصيصة دون إظهار ولا ميزة دون اعتبار.¹

ب. صفات المصطلح: لكل مصطلح صفات يتميز بها، وللمصطلح القرآني صفات تميزه عن غيره من المصطلحات الأخرى وهذه الصفات هي:

- الصفات المصنفة: وهي الخصائص التي تحدد طبيعة وجود المصطلح في الجهاز المصطلحي موضوع الدراسة كالوظيفة التي يؤديها، والموقع الذي يحتله وغير ذلك، مثل موقع مصطلح التقوى بين لفظ الإيمان والإحسان والإسلام، والوظيفة التي يؤديها هذا اللفظ والتي هي إصلاح الأوضاع وإزالة الموائع، وكذا هي وظيفة دعوية تربوية الهدف منها إيقاظ جدوة الإيمان في القلوب وتقوية الوازع الديني في العقول.²

- الصفات الميينة: وهي الخصائص التي تحدد درجة الاتساع أو الضيق في محتوى المصطلح، ومدى القوة أو الضعف في اصطلاحية المصطلح، وغير ذلك، وهي صفات الاتساع والضعف للمصطلح، مثل ما جاء في الكتاب العزيز في قوله تعالى: "وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطِ أَلْمُسْتَقِيمَ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا" (سورة الإسراء: 35). فلفظ التأويل في سورة الإسراء جاء بصيغة التمييز، وهي صفة تين وتفسير وتوضح ما جاء قبلها.³

- الصفات الحاكمة: وهي الصفات التي تفيد حكمًا على المصطلح، كالنعوت أو

¹ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 27

² مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 512

³ المصدر نفسه، ص 154

العيوب التي ينعت بها وغير ذلك.¹

وعرّفها محمد البوزي أيضاً بأنها الصفات التي تحكم على المصطلح بالمدح أو الذم، ومثال قوله تعالى: "وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ" (سورة البقرة: 197). فقد ورد لفظ الخير في القرآن الكريم اسماً وصفة، وأكثر الموارد التي جاء فيها صفة تدل على معنى التفضيل وهو من الصفات الدالة على المدح في الخطاب القرآني.² فإذا تمت الصفات الخاصة بالذات، بدأ الحديث عن العلاقات بغير الذات مما يأتلف مع المصطلح ضرباً من الائتلاف أو يختلف معه ضرباً من الاختلاف.³

ت. العلاقات: وحيث ينبغي عرض كل علاقة المصطلح المدروس، بغيره سواء من جهة الائتلاف، أو الاختلاف، أو التداخل والتكامل وحتى يتضح هذا المعنى نوردها كالتالي مع شيء من التمثيل:

- علاقة الائتلاف: يتم فيها عرض المصطلح المدروس مع ما اقترن به من مصطلحات أخرى ترد بإيثاره،⁴ كالترادف والتعاطف.⁵ مثال: لفظ التقوى وماله من مفاهيم متألّفة كالإيمان، فقد اقترن لفظ التقوى بلفظ الإيمان في سياقات القرآن الكريم في ثلاثين موضعاً، نورد منها قوله تعالى: "وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ" (سورة البقرة: 103). فإما أن يأتلف الإيمان بالتقوى في مقام وصف المتقين بالإيمان أو تأتلف التقوى بالإيمان، بالإضافة إلى علاقات الائتلاف وانسجام

¹ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 28

² مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 155

³ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 28

⁴ الدراسة المعجمية للمصطلح، ص 70

⁵ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 28

أخرى كالعلم والخشية والصبر والإحسان والعبادة، وغيرها.

- علاقة الاختلاف: يتم فيها عرض المصطلح المدروس في علاقاته المخالفة، كالتضاد والتخالف وغيرهما.¹ فإذا كانت التقوى اجتناب كل المنهيات والمفاسد فإن لها أضداداً كثيرة تشمل كل ما يدخل تحت الكفر والنفاق والمعصية، ومن تلك الأضداد لفظ الظلم الذي يقترن بلفظ التقوى في القرآن الكريم في مواضع عدة منها ما جاء في قوله تعالى: "وَإِن تَفَعَّلُوا فإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ² وَأَتَّقُوا اللَّهَ³ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ⁴ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" (سورة البقرة: 282). فقد جاءت الآية في سياق الأمر بكتابه الديون والإشهاد عليها، وهناك أضداد أخرى منها: الفجور والفاحشة والفساد، وهي منافية لمصطلح التقوى ومضادة له.

- علاقة التداخل والتكامل: كالعوم والخصوص كالأصل والفرع وغيرها؛² وقد وردت بأسلوب الإخبار والإسناد وتشمل مثلاً: لفظ التقوى مع الصدق فقد وصف المتقون بالصدق والصادقون بالتقوى؛ بأسلوب الشرط والجواب كالعبادة والتقوى؛ وكذا أسلوب التعاقب وعطف الجمل كلفظ التقوى والتزكية، الاستقامة والتقوى.³

ث. الضمائم: ويتضمن كل مركب مصطلحي (ضميمة) مكون من لفظ المصطلح المدروس مضموماً من غيره، أو مضموماً الى غيره لتفيد الضميمة المركب في النهاية مفهوماً من داخله، وأبرز أشكال الضمائم:⁴

¹ المرجع نفسه، ص 29

² المرجع نفسه، ص 29

³ مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 220

⁴ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 29

- ضئام الإضافة: سواء أضيف المصطلح إلى غيره، أو أضيف غيره إليه.¹ مثل إضافة لفظ التقوى لكل من القلوب والنفس والأشخاص، وهذا من باب إضافة الفعل لفاعله، أو الصفة لموصوفها، كضميمة (تقوى القلوب) في قوله تعالى: "ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ" (سورة الحج: 32). فالضميمة إضافية أضيفت فيها التقوى للقلوب جمعاً وأفراداً من نوع إضافة الشيء إلى مكانه أو مظهره؛ كون القلب موطناً للتقوى تغمره ويتصف بها فيكون قلباً تقياً أو أتقى.²

- ضئام الوصف: وهنا يتم عرض المصطلح مقترناً بمصطلح آخر، فقد يكون فيه المصطلح واصفاً أو موصوفاً³ مثل تغيير نعمة الله، قال تعالى: "ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ" (سورة الأنفال: 53). قال ابن عاشور في تفسيره الآيات: تغيير النعمة إبدالها بظدها وهو النعمة وسوء الحال؛ أي تبديل حالة حسنة بحالة سيئة، والمراد بهذا التغيير تغيير سببه، وهو الشكر بأن يبدله بالكفران⁴ فضميمة تغيير نعمة الله هي ضئامة ضمت إلى مصطلح التغيير في القرآن الكريم.⁵

ج. المشتقات: عرض المشتقات وتتضمن كل لفظ اصطلاحى ينتمى لغوياً ومفهوماً إلى الجذر الذي ينتمى إليه المصطلح المدروس، كالجهتد مع الاجتهاد، والبلغ مع البلاغة، ولا يدخل فيها المنتمى لغوياً فقط كالإنفاق مع النفاق ولا المنتمى مفهوماً فقط كالقصيدة مع الشعر إذ محل هذا العلاقات. والمصطلح بمشتقاته من

¹ المرجع نفسه، ص 29

² مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسيرية موضوعية، ص 233-234

³ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 29

⁴ التحرير والتنوير، 45/10

⁵ نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية، ص 374-384

حوله، كأنما ينمو ويمتد مفهوماً من خارجه.¹ فمن أمثلة ذلك المشتقات الفعلية وهي: مشتقات الفعل الماضي والمضارع والأمر: "اتَّقُوا" وقد وردت هذه الصيغة في القرآن الكريم تسع عشرة مرة منها في قوله تعالى: "لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلَّذَّابِرِينَ" (سورة آل عمران: 198). كذلك الأمر مع لفظي "اتقى" و"اتقيت". وغيرهما. أما "يتق" فقد ورد في القرآن الكريم على عدة أوجه منها: بحذف الباء، مجزوماً بمن وبلاد الأمر وسنورد ذلك في نماذج نذكر منها: ما ورد بحذف الباء: "ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا" (سورة الطلاق: 5). بالإضافة إلى آيات أخر ورد فيها الفعل منها الآيتان 283، 283 من سورة البقرة، والآية 52 من سورة النور.²

ح. القضايا: وتتضمن كل المسائل المستفادة من نصوص المصطلح المدروس وما يتصل به، المرتبطة بالمصطلح أو المرتبط بها المصطلح، مما لا يمكن التحكم من مفهومه حق التمكن، إلا بعد التمكن منها حق التمكن. وهي متعذرة الحصر لكثرة صورها وتنوعها من مصطلح إلى مصطلح، ومن أصناف القضايا نجد: "الأسباب والنتائج، المصادر والمظاهر، الشروط والموانع، والمجالات والمراتب، والأنواع والوظائف، والتأثر و التأثير"³ ونضرب لذلك أمثلة حول أصناف القضايا في مصطلح التقوى، وذلك قبيل الإيضاح والفهم:

- صنف الأسباب والنتائج: وتضم أعمال المتقين وجزائهم ومكانتهم عند ربهم والجنات التي وعد المتقون؛ قال تعالى: "بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ" (سورة البقرة: 277).

¹ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 30

² مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 271-282

³ نظرات في المصطلح والمنهج، ص 30-31

أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ" (سورة البقرة: 112).

- صنف المجالات والمراتب: ويضم درجات التقوى وموقعها ضمن منظومة الإسلام، الإحسان وما يتصل. بذلك؛ فإذا كان للإسلام والإيمان والإحسان درجات ومراتب، فللتقوى أيضاً درجات ومراتب. قال الله تعالى: "لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سورة المائدة: 93).

- صنف الشروط والموانع: ويضم أسباب ضعف التقوى والإيمان في النفوس كما هو مبين في لفظ التقوى عند البوزي في أطروحته: "سوء المعاملات وفسو الظلم وقلة الثقة وانتهاك المحارم أكبر دليل على قلة التقوى وضعفها، أو غياب أثرها في الحياة الاجتماعية وهذا ما يشتكي منه الناس ويلاحظ أثره في مجتمعنا الحالي".¹

- صنف التأثير والتأثير: وتشمل التربية على التقوى وفعاليتها في بناء شخصية الأفراد والجماعات قال تعالى: "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ" (سورة النحل: 97).
فحاجة المسلمين إلى التربية على التقوى نابعة من حاجاتهم إلى التقوى نفسها، لما لها من فضل على من اتصف بها في حياته الدنيوية والأخروية.

وفي ختام محاور العرض المصطلحي وعناصره؛ نكون أمام أساس الأخير من الأسس المنهجية، والتي على الباحث أن يدركها ويستوعبها نظرياً حتى ويروم الوصول من خلالها إلى التطبيق العملي؛ لفهم مراد الله من المصطلح القرآني.

¹ مفهوم التقوى في القرآن والحديث دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي، ص 496-496

الخاتمة

وبعد أن أشرفت رحلتنا البحثية على الانتهاء؛ فقد أسفرت عن مجموعة من النتائج نورد أهمها بالتركيز فيما يلي:

- أنّ المصطلح هو اللفظ الذي يسمّى مفهوماً معيناً داخل تخصص ما.
- أنّ هذا الاهتمام ليس وليد العصر الحالي، بل هو متجذر في كتب التراث الإسلامي.
- أنّ المصطلح القرآني هو كل لفظ أكساه القرآن مفهوماً خاصاً لم يكن متداولاً في لسان العرب قبل نزول القرآن الكريم.
- أنّ مشروعية الدراسة المصطلحية لمفردات القرآن نابعة من خطاب القرآن نفسه.
- أنّ أنواع المصطلح القرآني تنقسم إلى ثلاثة أقسام، مصطلحات وافقت اللغة العربية، ومصطلحات خضعت للتغيير الدلالي؛ إما بالتضييق، أو الاتساع، أو الانتقال، والمصطلحات التي انتقلت دلالتها اللغوية.
- تلتخص أهمية المصطلح القرآني في كونه طريقاً آمناً وموصلاً للعلم بالمطلوب، ومعرفة المراد.
- نستنتج أنّ مقارنة المصطلحات القرآنية وفق أسسها المعرفية والتي تمثل في الربانية، والقصدية، والاستمرارية، والهيمنة والتصديق والشبائية والفتوة، والتعاقد والتناسب. تنفرد في دراستها عن غيرها.
- كما أنّ دراسة المصطلحات القرآنية ضمن أسسها المنهجية الرصينة التي سطرها روادها؛ وتمثل في الدراسة الإحصائية، والدراسة المعجمية، والدراسة النصية، والدراسة المفهومية، ثم العرض المصطلحي؛ كفيلة بضمان الطريق القويم للوصول إلى فهم يطابق المقصد الرباني من الكلام القرآني، دون تضييع أو تميميع.

ومما يمكن التوصية في هذه المناسب هو توجيه الدارسين والباحثين في الدراسات

العليا إلى العناية بالمصطلحات القرآنية، وتشجيع البحث العلمي في هذا الشق من الدراسات، وفق الأسس المعرفية والمنهجية التي تم التطرق لها، مع نشر ثقافة الحس المصطلحي حتى تصير تذوقاً وحساً لدى العموم.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، 1984م.
3. التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن الكريم، دراسة دلالية مقارنة لعودة خليل أبو عودة، مكتبة المنار، ط1، 1985م.
4. التعريفات للشريف الجرجاني، تحقيق: محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، د.ت.
5. تهذيب اللغة لمحمد بن علي أبي منصور الأزهري، تحقيق: أحمد عبد الرحمان مخبر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
6. التوقيف على مهمات التعاريف لعبد الرؤوف المناوي، تحقيق: عبد الحميد صالح حمدان، دار علم الكتب، ط1، 1990م.
7. جهود العلماء في خدمة المصطلح القرآني المسار والمصير لفريدة زمرد، بحث مقدم للمؤتمر الدولي الأول حول القرآن الكريم وعلومه، دار الحديث الحسنية، المغرب، د.ت..
8. خصائص التصور الإسلامي لسيد قطب، دار إحياء الكتب العربية، 1965م.
9. دراسات مصطلحية للشاهد البوشيخي، دار السلام، القاهرة، ط1، 2012م.
10. الدراسة المعجمية للمصطلح لمصطفى اليعقوبي، مجلة الدراسات المصطلحية، العدد الخامس، المغرب، 2006م.
11. الدراسة المفهومية للمصطلح لفريدة زمرد، مجلة الدراسات المصطلحية، العدد الخامس، المغرب، 2006م.
12. الدراسة النصية للمصطلح لمصطفى فوضيل، مجلة الدراسات المصطلحية، العدد

- الخامس، المغرب، 2006م.
13. دلالات الألفاظ لإبراهيم أنس، بيروت، ط1، 1979م.
14. الصحاح للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفار عطار، ط1، 1402هـ، د.م.
15. صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري، دار ابن كثير، 1993م.
16. العرض المصطلحي لمحمد أزهرى، مجلة الدراسات المصطلحية، المغرب، العدد الخامس، 2006م.
17. الفروق اللغوية للحسن بن عبد الله بن سهل بن سعد أبي الهلال العسكري، تحقيق: محمد إبراهيم سليم، د.ت.، ودار العلم والثقافة، د.ت.
18. الفوائد لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، ط1، 1429هـ.
19. قاموس اللسانيات مع مقدمة في علم المصطلح لعبد السلام مسدي، الدر العربية للكاتب، د.ت.
20. القرآن الكريم والدراسة المصطلحية للدكتور الشاهد البوشيخي، د.ت.
21. قواعد التفسير جمعاً ودراسة لخالد بن عثمان السبت، دار بن عفان، ط1، 1421هـ.
22. الكلمات الإسلامية في الحقل القرآني لعبد العال سالم مكرم، مؤسسة الرسالة، ط1، 1997م.
23. لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور بن مكرم علي، دار صادر، بيروت، د.ت.
24. مصطلحات نقدية وبلاغية في كتاب البيان والتبيين للمحافظ للشاهد البوشيخي، ط1، 1982م.
25. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد السيد الكلائي، طبع الحلبي، 1961م.

26. مفهوم التأويل في القرآن الكريم دراسة مصطلحية لفريدة زمرد، مركز الدراسات القرآنية- الرابطة المحمدية للعلماء، الرباط، 2014م.
27. مفهوم القرآن والحديث: دراسة مصطلحية وتفسير موضوعي لمحمد البوزي، مؤسسة البحوث والدراسات، دار السلام، فاس، القاهرة، 2011م.
28. مفهوم الوحي في القرآن الكريم دراسة مصطلحية لخالد صدوقي، رسالة لنيل شهادة الماستر في الدراسات الإسلامية من جامعة محمد الأول، إشراف: د. خضر بوعلي، نوقش سنة. 2019م.
29. مقاييس اللغة لأبي الحسن أحمد ابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1979م.
30. المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق في آداب الموثق وأحكام الوثائق لأبي العباس الوثريسي، تحقيق: لطيفة الحسني، طبعة وزارة الاوقاف، الرباط، 1997م.
31. الموافقات لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: عبد الله دراز، دار المعرفة، ط2، بيروت.
32. موسوعة كشاف اصطلاح الفنون والعلوم للتهانوي، تحقيق: علي دحروج، مكتبة الناشر، ط1، 1996م.
33. نحو معجم تاريخي للمصطلحات القرآنية للشاهد البوشيخي، د.ت.
34. نظرات في المصطلح والمنهج للشاهد البوشيخي، مطبعة أنفو برنت ومطبعة فاس، فاس، 2004م.

الإحسان إلى الناس في القرآن الكريم

- أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد صادق اختر الندوي²

المقدمة

مما لا مرأى فيه أنّ الإسلام دين الرحمة، ويتطلب من أتباعه أن يكونوا رحماء بين عباد الله، وينفعوهم، ويسدوا الخير إليهم، ويوجبوا هذا العمل عليهم. ومن هذه الجهة تحمل رسالة القرآن هذه أهمية كبيرة "وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ" (سورة القصص: 8). تنصحننا هذه الآية أنّ ما وهبه الله للإنسان من كفاءات، توجب عليه أن ينفع بها الآخرين، وأنّ ما أنعم عليه من الأفضال لينتفع بها ويشارك فيها الآخرين لاسيما المحرومين منهم. هذا من أعمال الخير إلى عباد الله، والشكر للرب المنعم كما قال: "صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ"، تُوْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَصْرُبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ" (سورة إبراهيم: 24-25) والغاية منها إيضاح ميزة الكلمة الطيبة، وتوجيه المؤمنين إلى الواقع بأنّ كلّ من يؤمن بهذه الكلمة، عليه أن يتميز بهذه الخصوصية فينفع الناس، ولا يغفل عنها أبداً، ولقد ذكر القرآن من صفات المؤمنين الصادقين أنهم يتوقون لنفع عباد الله إلى حدّ يضعون حوائجهم وراء ظهورهم، ويستبقون لتلبية حوائج الآخرين غيرهم كما قال: "وَيُؤْتِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ" (سورة الحشر: 9). والملفت للنظر أنّ القرآن يربّي المؤمنين به بحيث لا يفرقون بين المؤمن والكافر، المؤيد والمعارض، والقريب والغريب حين يقومون بأعمال

¹ رئيس قسم الدراسات الإسلامية الأسبق في جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

² مدرّس في المدرسة الثانوية للبنات، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره

الخير ويسعفون المحتاجين والفقراء ويعينون عباد الله، فقد عمّ في الناس قول الرسول عليه أفضل الصلوات والتسليم: "خير الناس من ينفع الناس".

وما قدّمه القرآن من تصور واسع للعبادة يعدّ كلّ عمل يؤدي لخير العباد عبادة مثل عبادة الربّ تعالى، وهذه حقيقة أنّ رجلاً قلبه ملآن بحبّ الله لا يخلو للحظة من عواطف محبة العباد والمواساة بهم، بل لا يزال يستبق لخدمتهم وإسداء الخير إليهم، فقد جاء في غير موضع من القرآن أنّ الله يحبّ المحسنين فقال: "وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سورة البقرة: 195) وقال: "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سورة آل عمران: 134) وقال أيضاً: "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سورة آل عمران: 138) وأيضاً: "إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سورة المائدة: 13) وكذا قال: "وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سورة المائدة: 93) وهكذا يبشّر القرآن المحسنين فيقول: "إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ" (سورة الأعراف: 56) ويبدو من دراسة القرآن الكريم أنّ نطاق أعمال البر والخير واسع جداً فإنها غير مقصورة في العبادات بل هي أعمّ من القيام بعبادة الله، ويشمل جميع أعمال الخير لهم، وبعبارة أخرى يدخل في أعمال الخير كلّ عمل يحبه الله وأورضى به وكذا يشمله جميع الأعمال التي تتعلق بحقوق العباد، فنستخلص واضحاً من آية سورة الحج: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعَبَدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" (سورة الحج: 77) أي لا تكفي العبادة للفوز الكبير، بل يطلب القيام بأعمال الخير الأخرى. وخلاصة القول أنّ دين الإسلام عبارة عن أداء حقوق العباد وحقوق الله. ولا شك أنّ هناك علاقة وطيدة بين أداء حقوق الله والقيام بأعمال الخير، بل لو قيل لصحّ أن التحمس لأعمال الخير نتيجة لعبادة الله، فتلح العديد من آيات القرآن أن لا يكتفي المؤمنون بالعبادة، بل يسعون للقيام بأعمال الخير الأخرى، ويجعلوا أنفسهم مركز الخير، ومصدر البرّ، وبعبارة أخرى يطلب منهم أن يعيشوا ليهم ونهارهم قائمين ومضطجعين بحيث يبذلون جهودهم في أعمال تكون خيراً لخلق الله،

وتسبب راحتهم. وبهذه المناسبة نذكر الحديث الذي رواه أبو داؤد في كتاب السنة وفي باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه: "أكل المؤمن إيماناً أحسنهم خلقاً". فقد ذكر في هذا الحديث نكتة هامة بأن التحلي بحسن الأخلاق آية للإيمان الكامل، ومن يجحد هذه الحقيقة بأن إظهار الأخلاق الحسنة ينفع الناس في كل حال، وأن المتصفين بالأخلاق النبيلة يتسبون لترفيه خلق الله، وراحتهم. وكذا لا يشك اثنان في أن محاسن الأخلاق، أو تسبب الراحة والطمأنينة لأحد يوجب الأجر والثواب، ومع ذلك لا يمكن غضّ البصر عن الواقع أن أحقّ الناس بحسن المعاملة والمؤاساة، والعناية الخاصة من هم ضعفاء ومحتاجون وفقراء، فتلبية حوائجهم، وتقديم الخير لهم سبب للأجر والثواب خاصة، كما يبدو من بعض آيات القرآن وأقوال النبي العربي ﷺ.

ولنعرف أن الأصناف المختلفة لنفع الناس التي تظهر من القرآن أشهرها، إتياء الفقراء، والمؤاساة بالضعفاء، وتلبية حاجيات المحتاجين، وإطعام الجائعين، وعبادة المرضى، وإرواء غليل طلاب العلم، وربما يخفى على أكثر الناس أن أكبر وسيلة لإفادة الناس، من حيث القرآن، إرشادهم إلى الخير والدلالة على أعماله وتذكّر أداء الحقوق الواجبة، والحقيقة أن الفائدة التي تحصل لك بها أثنى وأدوم من المنافع المادية، لأنها تمهد لك الطريق إلى الخير والبر، وهو يضمن النجاح الحقيقي والنعم الأبدية، يتجلى هذا الواقع من الآية القرآنية التالية: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ٣٣". (سورة فصلت: 33)

وفي النهاية تجب الإشارة إلى أنه لا شك في أهمية إيصال النفع إلى الناس، والاعتراف بفضائل هذه الأعمال وبركاتها، ولكن أعمال البر هذه لا تكون خيراً ومجدية للقائمين بها ما لم تكن غايتهم منها استرضاء الرب وتكون خالية من أي شوب من الرياء والسمعة. تتضح هذه الحقيقة من غير ما آية قرآنية لا يسعنا هذا المكان للخوض في تفاصيلها.

وخلاصة القول أنّ نفع الناس عمل محبوب جداً يوجب أجراً كثيراً، وتكمن أهميته في أنه إحدى الوسائل الناجحة لاستمالة قلوب الناس إليهم، ووصفة مفيدة لتحويل العداوة والكراهية إلى الودّ والصدّاقة. والحقيقة أنّ العمل على تعاليم القرآن والسنة في الجوراهن الذي ينشأ فيه الاختلاف والافتراق، الكراهية والشحناء، المخاصمة والمخالفة، وقطع الأواصر والعلاقات، تأتي بنتيجة مفيدة في تبديل الجوراً بتديلاً رائعاً.

ونظراً إلى إبداء هذه الأحاسيس أو توجيه الناس إلى بركات نفع خلق الله قمتُ بكتابة هذه المقالة في مجلة "علوم القرآن"¹ الفصلية في شكل افتتاحيتها، ونشرتها بعنوان "القرآن الكريم ونفع الآخرين" ثم قمت بإعادة النظر فيها وجئتها بتعديلات كثيرة فأنشرها مرة أخرى لصالح الناس بعنوان "قرآن كريم أور الله كى بندون كو نفع رساني". تبتدئ هذه المقالة بكلمات وجيزة كمدخل بعنوان "القرآن أكبر نعمة ربانية" (الإحسان إلى الناس في القرآن الكريم) وما غاييتي من هذا العمل سوى تبين جانب هامّ للتعليمات القرآنية المتعلقة بالحياة اليومية والتذكير الذاتي أيضاً. والواقع أنّ مثل هذه الكتابات يدعمها قول الرب سبحانه: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" (سورة الذاريات: 55)

ندعو الله أن يتقبّل هذه المحاولة المتواضعة مني ويجعلها ذخراً لي، ويقرّبها أهمية هذا العمل في قلوب القراء، ويثير بها عواطف الخير. اللهم اجعلنا خدماً لديك مخلصين غير مرائين، ووفقنا لأنّ نحى لنفع عبادك ونموت عليه. وما توفيقى إلا بك، عليك توكلت وإليك أنيب.

القرآن الكريم أكبر نعم الله تعالى

ما منح الله الإنسان في هذه الدنيا من النعم لا يمكن إحصاؤها فقال تعالى: "وإن

¹ مجلة خاصة بعلوم القرآن يصدرها بالأردنية إداره علوم القرآن (معهد الدراسات القرآنية) في علي كره

تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا" (سورة النحل: 18). ومن هذه النعم ما ينفع بها الإنسان صباحاً ومساءً أي التي تعضده في حياته اليومية، وتواسيه في حياته الدنيوية، ومنها ما يتعلق بهديه في حياته اليومية، وما هو منج الحياة الذي إذا اختاره الإنسان رضى به ربه وتيسر له الهدوء والطمأنينة في الحياة الأخروية، فقد أفرغ الله هاتين النعمتين لنفع الإنسان من أول يوم خلقه.

كتاب الهداية: لا شك أن نعم النوع الآخر أعلى وأثمن وهي التي تيسر للإنسان السلوك على طريق الحق، وتنفعه في حياته الأخروية، ولقد أنزل الله هذه النعم الثمينة ببعثة الأنبياء ورسالاته، السلسلة التي بدأت من أول النبيين سيدنا آدم- عليه السلام- وأتمها على خاتمهم سيدنا محمد بن عبد الله-ﷺ- ولقد أنزل الله هداه النهائية في شكل القرآن عن طريق هذا النبي الخاتم-ﷺ-، ولا غرو أنها أكبر نعمة وأغلاها لأنه يهدي إلى ما يعقب الفوز الحقيقي أي الجنة. ولقد عدّ القرآن الكريم فضلاً عظيماً في غير ما آية فقال تعالى: "وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا" (سورة النساء: 113)

كتاب الرحمة: ويدل على كون القرآن نعمة عظيمة أن نزوله مظهر من مظاهر صفة الله الرحمانية كما تبدو من الآيتين التاليتين: "تَنْزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ" (سورة فصلت: 2) و"تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ" (سورة يس: 5) واعتبر تعليم القرآن الإنسان صفة الله الرحمانية فجاء "الرَّحْمَنُ الْعَلَّمُ الْقَرَّءَانَ" (سورة الرحمن: 2-1) وضمن نزول الكتاب العظيم والعناية بتعليمه يحتل ذكر صفة الله الرحيمية أهمية خاصة في هذه الآيات، والغاية منها ترسيخ هذه النقطة في الذهن الإنساني، أن الله الذي أنزل هذا الكتاب للرحمة رحيم على العباد، وأن رحمته الجزيلة تتطلب أن ينزل كتاب الرحمة يعني القرآن لهداية الإنسان ليستحق رحمة الله الخالصة بالانتفاع به، ولا يستحق الإنسان لرحمته إلا إذا آمن مخلصاً قلبه، ويقبل رسالته ذات الرحمة ويعمل على أوامره في حياته اليومية.

كتاب الموعدة: وكذا يدلّ على كون القرآن أكبر نعمة أنه مجموعة من النصائح الغالية، ونصائح مَنْ؟ هي نصائح ربّ العالمين، ومالك الملك. تبدو هذه الحقيقة مما يلي من الآيات، قال تعالى: "يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ" ٧ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ٨" (سورة يونس: 57-58)

وتجمل بنا أن نشير هنا أنّ هذه الآية تهتم من حيث أنه قد جُمع فيها جميع ميزات القرآن الأساسية، وهي الهداية، والرحمة، والنصيحة، والخير. فالموعدة أو النصيحة تعني، كما يعرف، كلمة الخير والمواساة، أي كل كلمة لفظت لخير ما، أو قيلت لمصلحة أحد هي النصيحة، فلا يخلو من البركة استماعها والالتفات إليها وحفظها والعمل بها. والواقع أنّ الإنسان يتعظ عن طرق مختلفة عن الوالدين والجار، والأساتذة والأصدقاء، وعن الكتب، وهل تكون نصيحة أعظم وأعلى للإنسان مما أسادها إليه خالقه وهو ربّ العالمين الذي يعرف بكافة حوائج حياته وهو ودود ورحيم عليه، فالواقع أنّ موعدة الله لتنفع الإنسان في كلّ حين وأن، وتؤثر في معالجة كلّ معضلة، وهي جامعة إلى حدّ أنها تلفت العقول وتسحر القلوب.

كتاب التذكير: القرآن كذلك أعلى نعمة بأنّ موعظته أي دعوته الإنسان إلى الخير متواصلة ومتتالية، فالقرآن لا يكتفي بالدعوة مرة أو مرتين بل يداوم على تذكيره، فيذكره حقوق الله وعباده، ويدعوه إلى الخير بأنماط مختلفة، ولذا وصف كتابه هذا بـ"وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ" و"ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ" و"ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ" و"مَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ"، والشئ الآخر أنّ ما وجد الإنسان من نصائح الله سبحانه وتعالى في شكل قرآن مبعثرة في الكتاب كله، فستجدها حيثما تقرأه، والأمر الثالث أن نصيحة كتاب الهداية هذا ليست مقصورة في العناوين، ولا محدودة في الزمان والمكان، فتجدها في موضع منه تنطق عن عبادة الله وتوثيق العلاقة به والسير على الطريقة التي قرّرها وارتضى بها في كل عمل ومعاملة، وفي

موضع آخر تجدها تأمر بأداء حقوق الإنسان، والإحسان إلى الوالدين، الأقربين والجيران، والفقراء والمساكين. وأحياناً تؤكد على الأمانة في المعاملات المالية، وأحياناً أخرى تذكر الأمراء والحكام مسؤولياتهم، وفي مكان يؤكد على القسط مع جميع الناس بدون تمييز بين القريب والأجنبي، وبين الصديق والعدو، كأن نصيحة القرآن تتعلق بكل طبقة، وبكل شعبة من شعب الحياة وبكل عصر من العصور.

كتاب خير كثير: وكون القرآن أكبر نعمة يثبت من جهة أنه مصدر للخير، إنه يوفر الهدى لأناس كل عصر، وأن الاكتساب به يضمن الفلاح في الحياة الأخروية، ويتضح كونه خيراً كله من الجزء الأخير لآية سورة يونس المذكورة أعلاها، ولتذكر هنا أن القرآن يمنع الإنسان في كل حال عن الافتخار بنعمة إذا توفرت له، والإعجاب بالنفس والبطر، ولكنه رغبه فيها في إظهار السرور والابتهاج على ظفره بنعمة غالية وعظيمة مثل القرآن فاقراً الآية مرة أخرى: "فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ" (الآية 58) أي إنه (ثروة القرآن) خير من (أسباب هذه الدنيا) التي يجمعها الناس. أي نزول القرآن نعمة عظيمة للناس وثروة هي أفضل وأغلى من نعم وأموال الدنيا. فالتحظي بهذه النعمة موجب لغاية من السرور والابتهاج والشكر لله. ومن يجحد بهذه الحقيقة أن ما ظفر عليه الإنسان من النعم في هذه الدنيا فانية غير باقية وهي ستفنى ليوم أو آخر. وبالرغم من تلك ستبقى نعم الجنة ولا تفنى وهي توفّر اللذة والسرور مما لن يمكن تصوّرها هنا، وهي تتنوّع وتكثر إلى حدّ لن يمكن الإحاطة بها، فالكتاب الذي يدلّ البشر على نيل هذه النعم هل نعمة أعظم منه وأعرّ؟ وهكذا يدلّ على كون القرآن فضلاً عظيماً أن منعه ذاته يقول إنه من وجده فليفرح به. توضّح هذا الواقع آية سورة الحجر الـ 88 التي خاطب فيها الله رسوله ونهاه عن النظر إلى شيء آخر بعدما وجد هذا الكتاب وعن الحزن على أمر ما. والبدیهي أن هذا الخطاب موجّه إلى الأمة كلها بواسطته صلّى الله عليه وسلّم.

وخلاصة القول: أن الدين كله نصيحة كما جاء عن النبي ﷺ: "الدين النصيحة". ولا

شكّ أنّ أوامر الإسلام ونواهيه تكنّ خير البشر ومصلحتهم، ولأكبر مصالحهم أنّ يتمتع الإنسان بالإيمان، ويتصل بالرب تعالى، وتقوى علاقته به، ويخلص له دينه. وهذه هي السعادة في الدنيا والفوز العظيم في الآخرة. والحقيقة أنّها خلاصة رسالة القرآن وأنها أعلى جزء من نصيحته وأهمّه وأبرزه. ولا غرو أنّ القرآن نور رباني يجدف سفينة البشر من بحر الظلمات الدنيوية إلى غايتها المنشودة. ولقد شهد التاريخ بأنّ الرسول أنفق عمره بأسره في تفسير رسالة هذا الكتاب العالمية ودعوته إلى الرحمة الربانية. ويتجلّى للعيان أنّ نشر وترويج الرسالة القرآنية لن يمكن بدون معرفة القرآن ذاته، ويشهد على عظمة وأهمية هذا العمل قول الرسول العربي ﷺ: "عن عثمان عن النبي ﷺ قال: خيركم من تعلّم القرآن وعلمه".¹ اللهم وفقنا لاكتساب علم القرآن وأداء حقوق هذه النعمة الربانية العظيمة.

ميزة المؤمنين: نفع عباد الله

الإسلام دين الرحمة: إن الله ربّ رحيم كريم، ودينه الذي اصطفاه لنا دين الفطرة والرحمة. بعث النبي الخاتم محمد ﷺ رسول الرحمة للعالم كله، والكتاب الذي نزل إليه كتاب الرحمة للناس أجمعين، فالمطلوب منه أن يكون دين الرحمة ويثبت أتباعه رحمة ورأفة للآخرين في المجتمع، وينفعوهم بأقوالهم وأفعالهم. هذا ما تتلقاه من القرآن وإليه هداانا النبي الكريم ﷺ. ولقد ضرب الله في القرآن مثلاً للكلمة الطيبة من شجرة أصلها ثابت في الأرض وفرعها سامٍ إلى السماء وهي تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربها، يقول تعالى: "أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا" (سورة إبراهيم: 25-24)

النتع ميزة من ميزات المسلمين: مما لا مساغ فيه للرب أنّ الذين يجعلون هذه الشجرة متاع حياتهم أي المسلمون ميزتهم أنهم يصيرون مصدرًا للخير والنتع، ويجعلون نمط

¹ صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب: خيركم من تعلّم القرآن وعلمه.

حياتهم هو النفع، إنهم يظهرون أخلاقاً حسنة تتسبب للراحة والطمأنينة والهدوء للآخرين، والواقع أنّ كل من يحمل المثل العليا ويعمل على التعاليم الخلقية هم يراعون حقوق أهل بيتهم وأقربائهم وجيرانهم وأصدقائهم وضعفائهم وما ملكت أيماهم، ويعيشون حياة مؤدية إلى راحة الناس ورأفتهم، لا إلى الإيذاء والإيلام. معنى ذلك أنهم يكونون مكّبين على إفادة الآخرين من أعضائهم وجوارهم ومن أموالهم وعلمهم وفهمهم، ومن خطاباتهم وكتاباتهم، وفي الحقيقة أنّ من يكون مؤدياً ومولماً للآخرين لا يحبّه الله والناس أجمعين. ولا يخلو في هذا الصدد من المتعة ذكر رواية ضرب فيها النبي ﷺ مثلاً للمؤمن بالنخلة التي لا تسقط أوراقها أبداً، وقد قال بعض شراح الحديث الجدد: كما تكون شجرة النخيل خضراء، ولا يصيبها الخريف فكذلك يكون المسلم الذي يستفيد الناس منه دائماً فلا يظهر منه سوى الخير والبركة.¹

لا شك أنّ حياة المؤمن تحتلّ مكانة الشجرة المظلة المثمرة، ولا يزال يبذل جهوده في نفع الآخرين واكتساب الخير حتى يصل إلى الله ويجزاه. يتضح هذا من الحدث التالي حيث قال النبي ﷺ: "لن يشعب المؤمن من يسمعه حتى يكون منتهاه الجنة".²

صور النفع المختلفة: يمكن أن تكون هناك صور مختلفة لنفع الآخرين: عسى أن يكون هناك رجل ضعيف وهزيل لا يقدر على المشي فتعاضده وتحمل كله، وتساعده في قضاء حاجاته اليومية، وعسى أن يكون هنا محتاج وفقير فتقضي مأموله، وجائع وظامئ فتطعمه وتروي غليله، وطالب متعطش للعلم فتسكن غليله العلي، أو رجل يحتاج إلى شيء آخر فتقضيه. تسمى هذه الأعمال جمعاء في المصطلح المتداول بـ (Social Service) أي الخدمة الاجتماعية فالذين يشغلون أنفسهم في مثل هذه الأعمال هم عباد الله الصالحون المحبوبون عند الله في ضوء القرآن وهم ينعمون في

¹ كلام نبوت، 1/353

² جامع الترمذى، أبواب العلم، باب ما جاء في فضل الفقه على العبادة

الجنة بالنعم المتنوعة. وجاء عن مزاياهم أنهم يؤدون واجباتهم في الدنيا خائفين من يوم الحساب، ويطمعون لمرضاة الله الفقراء واليتامى والأسرى: "إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرُؤْنَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا. عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ٦ يُؤْفُونَ بِالَّذِينَ يَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ٧ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَىٰ حَبِّهِ مَسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ٨". (سورة الدهر: 5-8)

مساعدة المساكين المالية أهم وسيلة للنفع: وهناك طرق متنوعة لنفع الإنسان، كما أوضحناها من قبل، ومنها إنفاق ماله على المحتاجين، والمساعدة المالية لأحد، علماً بأن حبّ المال من فطرة الإنسان فيشق عليه صرفه على أحد أو إبعاده عنه، فيقهر نفسه لذلك، ولكن القوة الإيمانية، والشعور بالحساب يوم القيامة تيسر عليه هذه العقبة، وقد ذكرت نفس الميزات للمؤمنين في الآيات المذكورة أعلاه، وكذا تتجلى هذه الحقيقة من آية أخرى لسورة البقرة وهي: "لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَءَاتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ" ١٧٧. فالمال المصروف لأجل الله على ذوي القربى والمساكين واليتامى هو الدرجة العليا للبر، وكذا صرف الأموال التي يجبها المرء أعلى درجة للإنفاق كما قال تعالى: "لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ" والحقيقة أن إنفاق المال المحبوب على المحتاجين، أو في مساعدة أحد عقبة صعبة لا يخرقها إلا من يؤمن بالله واليوم الآخر، ويرى المال والثراء أمانة، ويسود على أحاسيسه أن المال عطاء من الله، ومن مقتضيات الإيمان بالله وجهه أن ينفق منه ما يجبه بحيث إن قلبه منشرح على أن ما بذل من المال وفق قول الله ﷻ في عمل الخير أو نفع الإنسان سبب لخيره وبركته نفسه، وإلى هذه الحقيقة يلفت القرآن الكريم

أنظارنا بأحسن طريقة، فقال تعالى في سورة البلد بعدما ذكر إعطاء الإنسان المال والنعم الأخرى، ثم استجاره عنها: "فَلَا أَقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ۝" (سورة البلد: 16-11)

وإسلاط الضوء على النكتة المذكورة أعلاه تلك الآيات التي وُصِّحَتْ فيها أحوال المكذبين والمنكرين بدين الحق وقيل أنهم لا ينفقون أموالهم على الفقراء والمساكين، ولا يحضون عليها الآخريين، أي قد بلغت طبيعتهم إلى حضيض من الدناءة حتى لا يرون أن يبذلوا أموالهم التي أعطاهم الله على المحتاجين والمساكين، فينفعوهم بها بل على الرغم من ذلك أنهم يحتقرونها ويطردونها. ذكرت أحوال هؤلاء اللئيمين والملاحدين في الآية التالية: "أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمَسْكِينِ ۚ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ" (سورة الماعون: 1-3) أي أنه يخرف عن مساعدة المحتاجين ولا يرغب فيها الآخريين، وهذا موضع العبرة أنه حينما يسأل أصحاب النار يوم القيامة: أي شيء جرهم إلى هذا المصير الوخيم فيردون: إننا لم نكن نطعم المسكين: "مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۚ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۚ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمِ الْمَسْكِينِ ۚ وَكُنَّا نَحْوُ مَعَ الْخَائِضِينَ ۚ" (سورة المدثر: 42-45)

يتجلى من هذه الآية مدى أهمية إنفاق المال على المسكين وإطعامه في ضوء القرآن الكريم. إن الله يحب المحسنين: ولقد جاء في غير آية أن الله يحب المحسنين، فقال تعالى: "وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ" (سورة البقرة: 195) وللإحسان معانٍ عديدة منها الإحسان إلى أحد، والمعاملة الحسنة مع أحد، وإسداء الصنيعة إلى أحد، والاشتغال بأعمال الخير لإرضاء الله. وهذا ملفت للنظر أن المواضع التي جاء فيها لفظ "المحسنين" في القرآن الكريم، يبدو من إلقاء النظر على سياقها أن معظمها تتعلق بمن أدى ما ينفع العباد أو ينجيهم من الشر.

وليتبين هنا أنّ الله تعالى أمر في سورة النحل (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ- 90) بإقامة العدل مع الناس والإحسان إليهم وأداء حقوق ذوي القربى. ففي هذه الآية قرن القسط مع الإحسان وصلّة الرحم، فيتجلى من هذا أنّ العدل يتطلّب الاجتناب عن الجور والمعاملة الحسنّة كما يتطلّب العدل أنّ تحسن إلى الغني والفقير، المسلم وغير المسلم، والقريب والبعيد ولا تميّز بينهم فالإحسان الحقيقي هو أنّ تفضّل حاجة الناس على حاجتك وأنّ تصرف موارده لهم بكل رحابة الصدر وأنّ تولي اهتماماً بالمتحاجين أكثر مما يجب عليك. وبهذه المناسبة يجدر بنا ذكر أنّ بعض مفسّري القرآن قال حين تفسير هذه الآية من سورة النحل: إنّ الإحسان يدلّ على أعمال الخير التي تنفع الآخرين غيركم.¹

وكذا يجدر بنا أن نذكر أن الله سبحانه وتعالى ضمّ إلى الإحسان بالوالدين والأقرباء جميع من يعيش معهم في الحياة اليومية أو من هم مساكين فيقول: "وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ". (سورة النساء: 36) فهؤلاء المستحقّون هم اليتامى والفقراء والجيران الأقارب والجيران الأجانب والأصحاب بالجنب والمسافرون والعبيد، فيكشف من هذه الشروح أنّ القرآن يأمر بالإحسان بالناس بدون تفریق أو تمييز بينهم.

ولقد عدّ في القرآن الكريم من العباد المخلصين لله من ينفع الناس بسلوكه، ففي الآية 63 لسورة الفرقان عدّ من عباد الرحمن الصالحين من يمشي على الأرض هوناً، ومن إذا خاطبه الجاهل قال سلاماً. قال الله تعالى: "وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"^{٢٣}. (سورة الفرقان: 63) فلا غرو أنّ معاملة المتكبرين تؤذي الناس، وكذا سمّي في القرآن محسناً من يكظم الغيظ ويعفو

¹ نور هدايت، ص 289

عن المسيء، فقال تعالى: "وَالْكٰظِمِيْنَ الْغَيْظِ وَالْعَٰفِيْنَ عَنِ الْآثِمِيْنَ وَاللّٰهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِيْنَ". (سورة آل عمران: 134) والمعلوم جيداً أنّ الإنسان يفقد عقله ورشده حين الغضب، وتغلبه عاطفته وفي هذه الحال ينسى حقوق الله وحقوق عباده، وفي هذه الحال يضرّ سلوكه أو إقدامه بنفسه كما يؤذي الآخرين.

وكذا تتضح أهمية الإحسان أو نفع الآخرين وفضليتها من أنّ الذين يتصفون بهذه الصفة هم يحتلون مكانة مرموقة عند الله، فقد ذكر في العديد من الآيات أنّ الله يعامل مع المحسنين معاملة خاصة، ويؤتيهم من أنواع الفضل والنعمة، ويغدق عليهم النعم الدائمة في الحياة الأخروية، وأما أنواع المعاملة الحسنة التي يمارسها الله مع المحسنين في هذه الدنيا وكم درجة يرفعهم بها في الآخرة تتضح بالآية التالية: "إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ"١٤٨. (سورة النحل: 128)، وما أعظم حظاً ذلك الرجل الذي يمتعه الله بتأييده ونصره، وفوق ذلك أنه يؤجر بما حسن من أعماله كما يؤتى جزاؤها في الآخرة كما قال تعالى: "فَأَتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ"١٤٨. (سورة آل عمران: 148)

الدعاء بالخير وسيلة للنفع: مما يعلم أنّ هناك صوراً عديدة للإحسان- ذهنية وقلبية وعلمية وعملية- يمكن للإنسان أن يختار منها ما شاء، فلقد جعل الله كلّ عمل للخير وسيلة للفوز والسعادة فقال تعالى: "وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ"٧٧. (سورة الحج: 77) ولا مساغ للشك في أنّ كلّ عمل يتعلق بفائدة أحد ينفعه وكذا يعرف أنّ الدعاء من أعمال البر الذي يتسبب للخير والبركة لفاعله ولمن يدعو له، وكفاه أهمية أنّ الأحاديث تعتبره مخاً للعبادة، كما جاء في الحديث: "الدعاء مخ العبادة".

ينبغي للإنسان أن يدعو لنفسه ولغيره أيضاً، فكل مؤمن يرجو الخير في الدنيا والآخرة ليفعل هذا، وهذا ما علمناه الربّ تعالى: "رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ"١١. (سورة البقرة: 201) وقال: "وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ

قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ". (سورة الأعراف: 56) وقد عرّف المؤمنون في الحديث الشريف بأنهم يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم، فقال النبي ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"¹. من منا لا يحب الخير لنفسه؟ فمن وسائل نفع الآخرين المعروفة المؤثرة حبّ الخير لهم، والدعاء لهم بالخير، ويؤيد هذا قول النبي ﷺ أنّ الدعاء نافع ومزيل للمصائب، فلنلتزم بالدعاء عباد الله، قال ﷺ: "إنّ الدعاء ينفع مما نزل، ومما لم ينزل، فعليكم عباد الله بالدعاء"²، وكذا "الدعاء سلاح المؤمن"³. فلا شك أنّ الإنسان بإمكانه أن يقي نفسه بالدعاء الآفات والمصائب، ويستخدمه لنفع الآخرين.

نطاق أعمال الخير واسع جداً: يربي القرآن أتباعه تربية فكرية بحيث إنّ أعمال الخير أو الأعمال الصالحة لا تنحصر في العبادات فحسب، بل نطاقها واسع جداً فيقتضي الدين واتباعه أن تقام بأعمال الخير الأخرى مع العبادات، وهذه خلاصة الآية التالي ذكرها: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ" ^{٧٧}. (سورة الحج: 77) تعلمنا هذه الآية أن يديم القيام بكل عمل مع العبادات والذي يتسبب خيراً لنفسه وللآخرين كذلك. ولا يخفى علينا أنّ الإسلام عبارة عن أداء حقوق الله وحقوق العباد فالإسلام يطلب من أتباعه أن يتحمسوا لأداء حقوق الله وحقوق عباده، ولا شك في أنّ أداء حقوق العباد يتسبب لنفع كثير له. وفي الحقيقة يطلب الإسلام من أتباعه أن يكون كلّ عمل منه، التحدث والقيام والعودو والمشي والكذب والقراءة والكتابة أو ما شابهها، وسيلة لخير الآخرين، ونافعاً لخلق الله. والحديث التالي أشهر من قفا نبك: "خير الناس من ينفع الناس

¹ الجامع الصحيح لمسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل على أنّ من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير

² جامع الترمذي، كتاب الدعوات، باب ما جاء في التوبة والاستغفار، وما ذكر من رحمة الله لعباده

³ المستدرک للحاكم، 1334هـ، 492/1

فكن نافعاً لهم".¹

وما جاء في القرآن من أحكام تتعلق بالحياة الاجتماعية والاقتصادية من التحية عند اللقاء، واللقاء بوجه طليق، والدعاء باسم حسن، والرفق في الكلام، والتواضع، والصدق، والأمانة، وحسن المعاملات، والاقتصاد والاعتدال، لو تأملناها لتجلى لنا أنّ العمل على كل واحد منها موجب للخير والبركة له مع كونه مفيداً ومريحاً للآخرين.

إفادة الآخرين من نعم الله شكره: قد رغب القرآن في نفع وإفادة الآخرين من أنّ الله منح الإنسان نعماً متنوعة، ومواهب مختلفة ينتفع بها صباحاً ومساءً، فتقتضي هذه النعم أن يشكره، ومن شكر المنعم الحقيقي باللسان أن ينفع الآخرين بكفاءته ونعمه التي أعطاهها الله، وإليه الإشارة في الآية التالية: "وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ". (سورة القصص: 77)

ونجد شرحاً ممتعاً لهذه النكتة من آية لسورة البقرة يقال لها آية الدين، فأمر في هذه الآية أن يكتب أمر المدائنة، ولقن الذين يتحلون بكفاءة الكتابة أن يقوموا بهذه الخدمة إذا دُعوا إليها بطيب أنفسهم وليعلموا أنّ ما أعطاهم الله من كفاءة الكتابة هو من فضله، والآن يجب عليهم أن يذكروا المنعم الحقيقي على هذا الفضل، ويفيدوا من كفاءاتهم الآخرين، وهذا سيكون نوعاً من الإحسان إلى عباد الله وخير استخدام للكفاية الموهوبة، اقرأوا الآية: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْب كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ". (سورة البقرة: 282)

وليتضح في هذا الصدد أنّ الله تعالى قد ذكّر نعمه في القرآن مراراً وتكراراً، أحياناً خصّ الخطاب بالمؤمنين وأحياناً أخرى عمّم الخطاب للناس أجمعين، فالغاية منه تذكّركم ما أنعم عليهم، وشكرهم له، واستخدامهم إياه وفق رضاه، فلنتل ما يلي من

¹ منتخب كنز الأعمال في سنن الأقوال والأفعال، 305/6

الآية: "يَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ"١. (سورة فاطر: 3) ومن يريد المزيد عن الآيات المذكورة لنعم الله ليراجع: سورة البقرة، 40، 221، وسورة آل عمران: 103، وسورة المائدة: 11، وسورة النحل: 8، وسورة الأحزاب: 9).

ولقد أمر الله تعالى بكل وضوح في بعض الآيات أن يشكروا لنعمه التي منحهم إياها، فمثلاً قال: "وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ". (سورة النحل: 114).

وقد مضى آنفاً أن استخدام النعمة الصحيح شكر لها، فالقول أن استخدام النعمة الصحيح ينفع المستخدم نفسه كما ينفع الآخرين لا يحتاج إلى أي توضيح. فيقول عالم شهر للقرآن الكريم موضعاً أهمية الشكر للنعمة الإلهية:

"يرى الناس عامة أن القول (الحمد لله) يكفي للشكر. هذا سوء فهم كبير، فتقدير نعمة منحها الله حق قدرها، واستخدامها الصحيح هو الشكر لها، ولو لم يتفهو بلسانه هذه الكلمة. وعلى العكس من ذلك الإساءة إلى نعمة أعطهاها الله، والخطأ في استخدامها كفر له، ولو كرر الإنسان كلمة (الحمد لله)"١.

نشر البر نفع للناس: تشكيل المجتمع الصالح، أو تحسين الحياة الاجتماعية ينحصر في نشر البر والخير، والتعاون في هذا العمل ليس نفع فرد فقط بل نفع مجتمع كله، لأن نشر الخير في المجتمع وسيلة لإقامة الأمن والإصلاح ويصل نفعه إلى كل فرد للمجتمع، لأجل ذلك أكد في القرآن والحديث على مساعدة الآخرين في أعمال الخير ومُنع عن مساعدتهم في أعمال السوء، يقول الله عزَّجَلَّ: "وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ". (سورة المائدة: 2) فاتضح من هذه الآية أن القيام بالبر أو إعانة أحد في كسبه أو عدم الاضطهاد ومساعدة المسكين هو المطلوب في القرآن الكريم فلا شك أن الخدمة العظيمة للإنسانية، وفلاح المجتمع الإنساني تكمن في

١ نور هدايت، ص 19

مناصرة القائمين بأعمال البر والابتعاد عن مذيبي الشر والفساد.

الدلالة على الخير نوع من النفع: من وسائل نفع الآخرين وفقاً للقرآن أن يدلّ على الخير ويتمّ تذكيره، فلا غرو أن ما يحصل به من الفائدة أعلى قيمة وأدوم من النفع المادي، لأنّ الحياة تصلح به، ويجد الإنسان به طريقاً إلى البرّ الذي يوصله إلى النجاح الحقيقي، يقول تعالى: "وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ" . (سورة الذاريات: 55)

وكم من فائدة وبركة لنصيحة أحد أو القول الحسن، أو الدلالة على الخير، يمكن تحيئها من الحديث الآتي فقال النبي ﷺ: "من دلّ على خير فله مثل أجر فاعله".¹

ويجدر هنا الإشارة إلى مختلف أنواع القول الحسن أو الكلام الطيب، لكن كل قول يدعى به إلى الله أو إلى دينه الأثير لا يكون برّ أحسن منه، كما قال تعالى: "وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ" . (سورة فصلت: 33).

فبدا من هذا أنّ القول أو الكلام الذي يوصل العبد بخالقه ومالكة أو يهديه إلى طريقه هو أعظم قولاً وأرفع منزلة.

ويمكن أخذ المواد على النصيحة والقول الحسن من مختلف الكتب الأمهات، أهمها القرآن الكريم، فقد استخدمت له أوصافٌ مثل "ذكر"، و"ذكرى"، "موعظة" يعني أنه هو النصيحة والتذكير، وقد ذكّر الله الإنسان مراراً وتكراراً، أنه يسره للنصيحة لكل من يريد التذكّر فقال: "وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ" . (سورة القمر: 17، 22، 32، و40) ومع ذلك أنّ الله أمر بهذا الكتاب بالنصيح والتذكير، فقال: "فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدٍ" . (سورة ق: 45)

صيانة الآخرين من الأذى نوع من أعمال الخير: ظهر من التفاصيل المذكورة أعلاه أنّ هناك صوراً عديدة للإحسان إلى أحد تبدو جلياً من القرآن والحديث، ولا يخلو من

¹ الجامع الصحيح لمسلم، كتاب الامارة، باب: فضل إعانة الغازي في سبيل الله بمركوب وغيره

الأهمية بمكان هنا ذكر أنّ الوقاية من الإيذاء والصيانة من الأشياء المؤذية نوع من النفع. وكما للنفع وسائل عديدة كذلك للأذى أشكال عديدة، كإساءة الكلام، والظن، والتحقير، والاستهتار، وسوء الظن، والافتراء، والغيبة، والنميمة، واللجنة، والمن، والخيانة، والخداع، وعدم الائتمان، والسرقعة، والنهب، والسلب، والاجتناب منها ووقاية الآخرين منها جانب آخر للنفع لا يقل أهمية، والآن نوضح فيما يلي جوانب أخرى للنفع:

صيانة الناس من الأذى الذهني تؤدي إلى الأجر والثواب: يبدو من الآيات القرآنية أنّ الإسلام يطلب من أتباعه ذكرًا كان أو أنثى أن يعيشوا ليلهم ونهارهم بحيث لا يؤذون الآخرين بأقوالهم وأفعالهم، فإيذاء أحد ذهنًا كان أو جسديًا، نفسًا كان أو قلبًا كلها من الآثام الكبيرة، والابتعاد منها نوع من البر، فقد جعل القرآن الأذى إثمًا مبيهاً، يقول تعالى: "وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا". (سورة الأحزاب: 58)

الإيذاء باللسان، أو بالكلام عام شائع، فيلفظ الناس بلسانهم ألفاظًا أو كلمات يتأذى بها الآخرون أو تؤلم أذهانهم، والحقيقة أنهم في بعض الأحيان لا يفكرون ما يقولون بأفواههم، ومن يؤذونهم بأقواليلهم، وعمّ الأذى باللسان إذ لا يعتبره بعض الناس سوءًا، ولقد نهى عنه القرآن نهيًا باتًا: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللُّغَابِ". (سورة الحجرات: 11)

الأسباب التي منع بها عن أذى الناس في الآيات المذكورة أعلاه تتعلق باللسان فقد نهى في هذه الآية بكل وضوح، عن الاستهزاء والكشف عن العيوب وتنازع الألقاب، كذلك الاغتياب والنميمة أشدّ كرهاً عند القرآن الكريم، وقد شدّد على الاحتراز عنها، (سورة الحجرات: 11-12) فالأول سعي قبيح لسوء سمعة أحد بينما الثاني عادة سيئة لإيذاء أحد والغاية منهما حثّ عواطف العداة والعناد بتوتير العلاقات بين الناس،

خاصة الغيبة فقد يشدد القرآن وينهى عنه معبراً عنها بأكل لحم الأخ الميت، (سورة الحجرات: 11-12) فالبديهي أن الهدف الرئيس منه الكشف عن تشنيع الشرّ ونفير الناس عنه والدلالة على أهمية الاجتناب التام عنه وكذا منع عن الأشياء المؤذية أذهان الناس في القرآن (سورة الحجرات: 11، وسورة القلم: 10-11)

قد عرّف المسلم في الحديث بأن يسلم المسلم الآخر من لسانه ويده، فقال ﷺ: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده".¹ جاء في شرح هذا الحديث أنه قد خصّ اللسان واليد بالذكر هنا لأنّ إيذاء أحد بهاتين الوسيلتين عامّ شائع وإلا فالإسلام يمنع أتباعه عن إيذاء أحد بأيّ وسيلة ممكنة فمن ميزات المؤمنين ألا يصيب أحداً الأذى بأيّ طريقة، فقد جاء في حديث آخر: "المسلم أخو المسلم لا يخنونه ولا يكذبه ولا يخذله".² وكذا الخيانة، والكذب، والتدليل أفعال كلها تنتهي إلى إيذاء الناس.

ولنتفكر هنا أنّ القرآن أكّد على الابتعاد عن أشياء تؤذي أذهان الناس فيبدو منها أنّ الأشياء التي تؤذي أذهان الناس لا تؤثر في العقول والقلوب فحسب بل هي تؤثر في الأجسام أيضاً. ولقد مضى طرف منها فيما سلف ونسرد هنا أشياء أشار إليها القرآن وهي سوء الظن، والافتراء والظعن، والاعتياب، والمن، والتحقير فلقد شدّد على غربلة الناس والظعن في الآية التالية: "وَيَلِّ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ" (سورة الهمزة: 1)

يمكن تقدير مدى نكران وعظمة الإيذاء الذهني لأحد في القرآن من أنّ الإنفاق في سبيل الله ومساعدة فقير مالية وتلبية حاجة أحد بماله عمل الخير والأجر كما يتضح من آيات عديدة ولكن المنّ على فقير أو تحقيره أو إساءة مساعدته (التي تؤذي الأذهان البتة) جريمة عظيمة نكراهى عنها القرآن وقال إنّ القول المعروف والعفو والصفح خير من صدقة يتبعها كلام أو عمل يؤذي. قال الله تعالى: "قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ

¹ الجامع الصحيح للبخاري، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده

² جامع الترمذي، أبواب البر، باب: ما جاء في شفقة المسلم على المسلم

وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَىٰ ۗ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ۝٢٣ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا
صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ". (سورة البقرة: 264-263)

ومن يجحد أنّ كشف عيوب الناس، والاتهام، والهمز واللمز، والإهانة والتنقيص
سيئات اجتماعية يئنة تسبّب في الإيذاء الذهني والقلق النفسي للذين يصابون بهذه
المصيبة كما أنّها تفسد العلاقات فيما بينهم. وقد شدّد القرآن ضد هؤلاء الناس،
ليبتعدوا منها ويحفظوا عباد الله منها، ويرضوا ربه، لأن الله يكره شديداً أن يؤذى
عباده ويقهروا ويؤلّوا، فقد صرح في القرآن أن الله لا يحبّ الظالمين أو المفسدين أو
المتكبرين (سورة النساء: 36، والمائدة: 64، 87، والنحل: 23، والقصص: 77،
والشورى: 40، والحديد: 23).

والواقع أنّ إيذاء أحد لا يعادل إيذاء آخر، كما لا يداني إفساد مشاركة أحد في أمور
توتّر العلاقات وتفسد العلاقة بين الاثنين. فإنّ تفكّرنا في أسباب الشرور المؤذية
للأذهان اتضح لنا أنّ معظمها ترجع إلى التكبر. ويجدر بالذكر هنا أنّ الشيخ أبا الأعلى
المودودي قد أوضح في تفسير الآية الثانية لسورة الهمزة أنّ الفقرة التابعة للفقرة (وَيَلِّ
لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ) تدلّ بنفسها على أنه يحقّر الناس على تكبره في ماله.¹

صيانة عباد الله من الإيذاء الجسدي أو أيّ نوع من الأذى برّ ولقد نهى في القرآن
والأحاديث عن الإيذاء الذهني مع الإيذاء الجسدي أو إلحاق الضرر ببدن أحد سواء
كان بالنزاع، أو بالحرب أو بالضرب أو القتل أو النهب، وكذلك جعلت تلك الأعمال التي
تصون الناس من الإيذات الجسمانية موجبة للأجر والثواب، ولها صور عديدة: منها
إماطة الأذى عن الطريق كالآجر والحجر، والشوك والقاذورات أو الأشياء الأخر الملقات
على الطريق التي يخاف منها الأذى، وفي بعض الأحيان تصرف النظر عنها ازدراءً، مع
أنها تثبت ذات ثواب كما هو بين من الأحاديث المتعددة، فقد جاء في الحديث ذكر أكثر

¹ تفهيم القرآن، 6/459، الحاشية رقم: 2

من سبعين شعبة للإيمان، إحداهما: إمطة الأذى عن الطريق،¹ ولا شك أن وقاية أحد من الإيذاء نفعه، وقد روي عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: يصبح على كل سلاى صدقة"، منها: إمطة الأذى عن الطريق،² وتوضح أهمية إمطة الأذى عن الطريق أكثر من حديث آخر رواه أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره فشكر الله له فغفر له،³ فيتجلى من هذا الحديث أن إمطة الأذى عن الطريق التي لا يعبأ بها تتسبب لنيل أجر عظيم وثواب كبير. شرح مترجم "رياض الصالحين" هذا الحديث شرحاً جيداً فقال: "ذبّ الناس عن الأذى وصياتهم من إلحاق الضرر بهم يحبه الله، حتى إن إمطة الأذى عن الطريق عمل محبب عنده، وعلى العكس من ذلك فتضييق الطريق على الناس أو الصدّ عنهم الذي يؤلمهم كالقيام بأعمال مذمومة واجترأ الناس على الله في مناسبات العرائس، أو يؤذي بعض الناس من أصحاب الدكاكين بإقامة الحواجز، هذا عمل يسخط منه الله، ويتسبب لغضبه، لكن دناءة القوم الخلقية قد بلغت إلى حد أنهم يفتخرون على القيام بهذه الأعمال ويعتزون، إننا لله وإننا إليه راجعون".⁴

وبالجملة فإيذاء الناس بأيّ طريق منهي عنه في الإسلام، واعتبر إنقاذهم من الأذى صدقة أي أنه عمل صالح يُنال به أجر عظيم، وقد جاء في حديث آخر "عن أبي ذر بن جندب بن جنادة أنه قال: قلت يا رسول الله ﷺ! أيّ الأعمال أفضل؟ قال: الإيمان بالله، والجهاد في سبيله. قلت: أيّ الرقاب أفضل؟ قال: أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا، قلت: فإن لم أفعل، قال: تعين صانعاً أو تصنع لأخرق، قلت: يا رسول الله ﷺ! رأيت إن ضعفتُ عن بعض العمل؟ قال: تكفّ شرك عن الناس، فإنها

¹ الجامع الصحيح لمسلم، كتاب الإيمان، باب: شعب الإيمان

² الجامع الصحيح لمسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن اسم الصدقة على كل نوع من المعروف

³ الجامع الصحيح لمسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: فضل إزالة الأذى عن الطريق

⁴ رياض الصالحين، 1/153

صدقة منك على نفسك".¹

وتبدو كراهية إيذاء الناس وإيلاهم وإلحاق الضرر بهم أن مرتكبها يحرم يوم القيامة من جزائه فتلحق حسناته بحسنات المصاب، ويتضح هذا من حديث سأل فيه رسول الله ﷺ أصحابه هل تدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع، قال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصيام وصلاة وزكاة، ويأتي قد شتم عرض هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، فيقعه فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قيل أن يقضى ما عليه من الخطايا أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار.²

صيانة غير المسلمين عن الأذى بز: وفي نهاية الحديث يجب توضيح أنه ولو قد منع في بعض الآيات والأحاديث المذكورة أعلاه عن إيذاء المسلم أو المؤمن، ولكنه لا يعني أنه تسمح ممارسة الإيذاء مع أتباع الديانات الأخرى، بل هذه حقيقة أن الإسلام لا يسمح الإيذاء والإيلام مع أحد مسلماً كان أو غير مسلم، فقد أعطيت معظم أحكام القرآن والأحاديث نظراً إلى المجتمع المسلم، لذا استخدمت ألفاظ المؤمن أو المسلم، ولكن لنعلم أن القرآن ربما يورد كلمة عامة لإقامة العدل والاجتناب عن الجور، والهروب من الفحشاء والمنكرات، والأمور السيئة والوقاحة، واتباع هذه الأحكام تتعلق بجميع الناس، سواء كانوا مسلمين أو غيرهم، ونستدل فيما يلي بآية شهيرة للغاية. قال تعالى:

"إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ". (سورة النحل: 90)

والواضح جلياً أن ممارسة الظلم أو إساءة المعاملة مع أحد أو إيلامه تسبب الأذى الكثير فقد نهي في هذه الآية عما يؤدي الناس فلا شك أن الاجتناب عنها يعني الاجتناب

¹ الجامع الصحيح لمسلم، كتاب الإيمان، باب كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال

² الجامع الصحيح لمسلم، كتاب البر، باب: تحريم الظلم

عن ممارستها مع أيّ الناس مسلمين أو غيرهم، ولقد أمر في الجزء الأول من الآية بالإحسان إلى الكل فالذي يؤمن بهذا الحكم لا يؤذي الآخرين بل هو يتحمس في أعمال تفيد الآخرين، وبعبارة أخرى أنّ المؤمن المخلص بهذا الحكم يبعد نفسه عما يؤذي أو يؤلم الآخرين. ولنعلم هنا أنّ الله تعالى أمر المؤمنين في آية أخرى بأن: "وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ". (سورة المائدة: 8) فالملت للنظر أنّ المؤمنين أمروا بإقامة العدل مع الكل حتى الأعداء وكذا أشيد بالمؤمنين الذين لا يردون على أذى الأعداء بمثله بل يصبرون ويخافون الله ويجتنبون عن أذى عباده: "وَلَتَسَعَّنَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَىٰ كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ"¹. (سورة آل عمران: 186)

ولنتذكّر هنا ذلك الحديث الذي نقلناه فيما سبق والذي عمّ فيه النبي عن كفّ الأذى عن الناس واعتبر هذا العمل صدقة، وتشهد سيرة النبي ﷺ الذي كان خلقه القرآن أنه دائماً أبعد ذاته وصحابته عما يؤذي الآخرين فقد أحسن ولو إلى الدّ أعدائه حتى وإن ردّ أحد صحابته على سوء معاملة أو كلمة من قبل أعدائه وأرادوا الانتقام منهم منعهم عنه وأكّدهم على اجتنابهم عن السبّ والشتم وعلى حسن المعاملة معهم.¹

وخلاصة القول أنّ الكلمة المؤلمة لأحد أو القيام بأعمال تؤذي أحداً إثم كبير في ضوء القرآن والحديث، فعلياً أن نحتزم منها في كل حال، وكذلك وقاية الآخرين من كلمات مؤذية ذهنياً وإنقاذهم من أفعال مؤلمة أعظم البرّ ويجب علينا أن نشط ونتمسّ لاكتسابه ليزداد من حسناتنا وهي متاع كلّ مؤمن ووسيلة لنجاته في الآخرة.

ندعو الله أن تختلط بلحمنا ودمنا وأمر القرآن ونصائح السنة، وتتعود على نفع عباده. اللهم وفقنا لما تحبّ وترضى. آمين ثم آمين.

¹ وللزيادة أنظر: سيرة النبي ﷺ، 286/2-295

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. تفهيم القرآن لأبي الأعلى المودودي، مركزي مكتبته إسلامي، دلهي الجديدة، 2000م
3. رياض الصالحين ليحيى بن شرف النووي، نقله إلى الأردية: صلاح الدين يوسف، دار السلام، الرياض، 1997م
4. سيرة النبي ﷺ للعلامة شبلي النعماني، دار المنصفين، أعظم كره، 2003م
5. كتب الأحاديث النبوية (صحيح البخاري، صحيح مسلم، جامع الترمذي، مستدرک الحاكم)
6. كلام نبوت للشيخ محمد فاروق خان، المكتبة المركزية الإسلامية، دلهي الجديدة، 2014م
7. مجلة "علوم القرآن" الفصلية الصادرة عن إداره علوم القرآن (معهد الدراسات القرآنية)، علي كره
8. المستدرک للحاكم، دائرة المعارف النظامية، حيدرآباد، 1334هـ
9. منتخب كنز الأعمال في سنن الأقوال والأفعال لعلي بن حسام الدين المتقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1990م
10. نور هدايت للسيد عبد الكريم العمري، جامعة دار السلام، عمرآباد، 2014م

الحافظ زين الدين العراقي وكتابه: "تكملة شرح الترمذي"

- د. محمد يوسف حافظ أبو طلحة¹

المستخلص

هذا البحث يشتمل على مقدمة ومبحثين وخاتمة.

فأما المقدمة ففيها بيان أسباب اختيار الموضوع، وخطة البحث.

وأما المبحث الأول ففيها ترجمة الحافظ أبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي (725-806هـ)، تبين من خلالها أنه كان من كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري، وربّي جيلاً مباركاً للمحدثين، على رأسهم الحافظ ابن حجر، وأبو زرعة العراقي، ونور الدين الهيثمي. وله مؤلفات قيمة في الحديث وغيره من العلوم تشهد بحذقه وتقدمه، من أهمها تكملة شرح الترمذي.

وأما المبحث الثاني ففيه التعريف بكتابه القيم: "تكملة شرح الترمذي"، بدأ شرحه من حيث توقف ابن سيد الناس في: "النفح الشذي". فشرع في شرحه من "باب ما جاء أنّ الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام"، ووصل في شرحه إلى "باب شفقة المسلم على المسلم" من أبواب البر والصلة، وبقي نصف الكتاب لم يتناوله بالشرح، واختارته المنية قبل إكمالها. وهو من أحسن الشروح على جامع الترمذي، يمتاز بميزات، من أهمها: اهتمام الشارح بتخريج حديث الباب، وتحرير حكم الترمذي عليه، ومناقشته إذا ظهر له خلاف ذلك، وعنايته بتخريج ما قال عنه الترمذي: وفي الباب من الأحاديث، واستدراك ما فات الترمذي من الأحاديث المتعلقة بالباب، وتوضيحه للمسائل الفقهية المستنبطة من أحاديث جامع الترمذي، وبيانه لمذاهب العلماء في

¹ عميد كلية اللغة العربية والدراسات الإسلامية بالجامعة المحمدية، منصوره، مالىغاون، الهند

المسألة، وتعقبته لمن سبقه من أهل العلم بأدب جم وتواضع تام. ومن أجل هذه الميزات وغيرها أشاد بشرحه هذا كبار العلم، واعترف من بحاره جلّ من جاء بعده من كبار الشراح.

وأما الخاتمة ففيها أهم النتائج والتوصيات.

الكلمات المفتاحية: الحديث الشريف، شروح الحديث، شروح جامع الترمذي، الحافظ العراقي، تكملة شرح الترمذي.

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده. أما بعد:

أما بعد: فإنَّ السنةَ النبويَّةَ من أشرف العلوم وأجلها، فهي الشارحة لكتاب الله، والمفسِّرة له، والمبيِّنة لما أجملَ من آياته، والمقيِّدة لكثير من إطلاقاته، ومن ثمَّ اعتنى بها علماء الإسلام منذ الصدر الأول، وتوعوا في تصنيفها، وتفننوا في تدوينها على أنحاء كثيرة، وضروب عديدة حرصاً على حفظها.

وكان من جملة هؤلاء: الإمامُ الحافظ أبو عيسى الترمذي المتوفى سنة 279هـ، فقد ألَّف في السنة كُتُباً شتى، كان من أعظمها نفعاً، وأعلاها قدراً كتاب الجامع الذي طار صيته في المشرق والمغرب، مما جعل العلماء يتنافسون في شرحه، وإيضاحه، وترجمة رجاله.

ومن شرحه القاضي أبو بكر ابن العربي المتوفى سنة 543هـ في كتابه (عارضه الأحوذى)، ثم الحافظ أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد ابن سيد الناس اليعمري المتوفى سنة 734هـ في كتابه (الفتح الذي)، ولكنه لم يتمه، فجاء الحافظ زين الدين العراقي (ت 806هـ)، فبدأ بالشرح من حيث توقف ابن سيد الناس.

ولما كان شرح العراقي- مع أهميته وكثرة فوائده- لا يزال مخطوطاً لم يُطبع بعدُ رغبت

في التعريف به مفصلاً مع ترجمة موجزة لمؤلفه؛ فإني عشت مع مخطوطة هذا الكتاب أكثر من ثلاث سنين. فله الحمد والمنة.

أسباب اختيار الموضوع:

1. مكانة الشارح العلمية، فهو أحد كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري وقد تربى في كنفه كبار المحدثين، منهم الحافظ ابن حجر، والحافظ الهيثمي، والحافظ البوصيري، والعلامة العيني. وجلّ من جاء بعده من المحدثين اعترف من منله.
2. أهمية الكتاب المشروح، فهو شرح لجامع الترمذي، وهو أحد الكتب الستة التي عليها مدار الإسلام.
3. قيمة الشرح العلمية، فهو شرح حافل بالفوائد، والتحقيقات، وبممتاز بميزات، من أهمها:

(أ) اهتمام الشارح بتخريج حديث الباب، وتحرير حكم الترمذي عليه، ومناقشته إذا ظهر له خلاف ذلك.

(ب) عنايته بتخريج ما قال عنه الترمذي: وفي الباب من الأحاديث.

(ت) استدرارك ما فات الترمذي من الأحاديث المتعلقة بالباب.

(ث) تفسيره لغريب الحديث من أمهات المعاجم وأصول كتب الغريب.

(ج) توضيحه للمسائل الفقهية المستنبطة من أحاديث جامع الترمذي، وبيانه لمذاهب العلماء في المسألة.

(ح) تعقباته لمن سبقه من شراح الكتاب كابن العربي، وابن سيد الناس، ولمن سبقه من المترجمين لرواة الكتاب كالمزني، ولمن سبقه في الحكم على الحديث كالحاكم.

(خ) كونه مرجعاً مهماً في توثيق حكم الترمذي على الحديث.

ومن أجل هذه الميزات وغيرها أشاد الشوكاني بهذا الشرح النفيس في ترجمة ابن

سيد الناس، فقال: "ولما وقفت على الجزء الذي من شرح الترمذي ... للزين العراقي بهرني ذلك، ورأيتَه فوق ما شرحه صاحب الترجمة بدرجات".¹

خطة البحث:

قسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة.

المقدمة: يّنت فيها سبب اختيار الموضوع، وخطة البحث.

المبحث الأول: ترجمة الشارح العراقي رحمه الله، وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: اسمه ونسبه

المطلب الثاني: مولده

المطلب الثالث: نشأته العلمية

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه

المطلب الخامس: شيوخه

المطلب السادس: تلاميذه

المطلب السابع: مؤلفاته

المطلب الثامن: وفاته

المبحث الثاني: دراسة كتاب "تكملة شرح الترمذي"، وفيه سبعة مطالب:

المطلب الأول: تحقيق اسم الكتاب

المطلب الثاني: توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه

المطلب الثالث: موضوع الكتاب

المطلب الرابع: في شروح الترمذي، ومكانة تكملة شرح الترمذي للعراقي بينها.

¹ البدر الطالع، ص 767

المطلب الخامس: منهج المؤلف في شرحه

المطلب السادس: بعض موارد المؤلف في شرحه.

المطلب السابع: وصف النسخ الخطية الموجودة في مكتبات العالم حسبما تيسر الوقوف عليها.

الخاتمة: ذكرت فيها أهم النتائج والتوصيات.

وأسأل الله أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، وأن يريني الحق حقاً، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلاً، ويرزقني اجتنابه.

المبحث الأول: ترجمة الحافظ العراقي - رحمه الله¹

المطلب الأول: اسمه ونسبه: هو الإمام الحافظ الكبير، المحدث النحرير، أبو الفضل

¹ من مصادر ترجمته: تاريخ ابن حجي (620/2-621)، وذيل التقييد للفاسي (13-9/3)، وغاية النهاية لابن الجزري (382/1)، وتاريخ ابن قاضي شعبة (379/4-382)، وطبقات الشافعية له (29/4-33)، وإنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر (275/2-279)، والمجمع المؤسس له (176/2-230)، وذيل الدرر الكامنة له (ص 143-145)، ولحظ الألبان لابن فهد (ص 220-239)، والمنهل الصافي لابن تغري بردي (245/7-250)، والدليل الشافي على المنهل الصافي له (409/1)، والنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة له (284/12)، والضوء اللامع للسخاوي (171/4-178)، وحسن المحاضرة للسيوطي (360/1-362)، وطبقات الحفاظ له (ص 543-544)، وذيل تذكرة الحفاظ له (ص 370-372)، ودرة المجال لابن القاضي (113/3)، وشذرات الذهب لابن العماد (87/9-88)، والبدر الطالع للشوكاني (ص 361-363)، والرسالة المستطرفة للكافي (ص 161)، وفهرس الفهارس له (814/2-818)، وهدية العارفين للبغدادي (562/1). وآلف ابنه أبو زرعة كتاباً مفرداً في ترجمة أبيه سماه: تحفة الوارث بترجمة الوالد. انظر: لحظ الألبان، ص 287 ومن المراجع المعاصرة: الأعلام للزركلي (3/344)، ومعجم المؤلفين لعمر رضا كحالة (2/130)، ومقدمة التحقيق لكاتب ذيل ميزان الاعتدال للدكتور عبد القيوم عبد رب النبي (ص 15-30)، ومقدمة التحقيق لكاتب التقييد والإيضاح للدكتور أسامة انخراط (1/45-92)، ومقدمة التحقيق لكاتب فتح المغيبي للدكتور عبد الكريم الخضير (1/15-66)، ومنهج الحافظ زين الدين العراقي في كتابه "طرح التثريب" رسالة الماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية للطالب محمد يحيى بلال منيار، والحافظ العراقي وأثره في السنة في خمسة مجلدات للدكتور أحمد معبد عبد الكريم.

زين الدين عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم¹ الرازياني العراقي الأصل، الكردي،² المهري³ المصري، الشافعي.⁴

قال ابنه أبو زرعة العراقي (ت 826هـ): "العراقي انتساباً لعراق العرب، وهو القطر الأعم،⁵ وإلا فهو كردي الأصل، أقام سلفه ببلدة من أعمال إربل⁶: يقال لها: رازيان. ولهم هناك مآثر ومناقب، إلى أن تحول والده إلى مصر، وهو صغير. مع بعض أقرائه".⁷

المطلب الثاني: مولده: ولد الحافظ العراقي في الحادي والعشرين من شهر رجب سنة خمس وعشرين وسبع مائة بمنشأة المهري⁸ بين مصر،⁹ والقاهرة على شاطئ النيل.¹⁰

المطلب الثالث: نشأته العلمية: ولد الحافظ العراقي في بيت علم وديانة،¹¹ فإن والده كان

¹ إلى هنا ذكر العراقي نفسه نسبة في ترجمته لابنه أحمد في طرح التثريب (16/1)، وهكذا ساق أحمد نسبه في توقيعه في طرح التثريب، كما نقل محقق طرح التثريب في مقدمة تحقيقه (ص 9) من الأصل الخطي.

² بضم الكاف وسكون الراء، نسبة إلى الأكراد طائفة معروفة يسكنون شمال العراق. انظر: الباب في تهذيب الأنساب 92/3

³ هذه النسبة إلى منشأة المهري مسقط رأسه، كما سيأتي.

⁴ انظر: طبقات القراء (382/1)، وإنباء الغمر (275/2)، وطبقات ابن قاضي شعبة (29/4)، ولحظ الألاحظ (ص 220)

⁵ وليست إلى العراق بالمعنى الأخص وهو أرض بابل. انظر: معجم البلدان 93/4-95

⁶ بالكسر ثم السكون، وباء موحدة مكسورة، مدينة كبيرة تقع على ثمانين كيلاً جنوب شرق الموصل بالعراق. (انظر معجم البلدان (138/1)، والحافظ العراقي وأثره في السنة (139/1).

⁷ حكاه عنه السخاوي في الضوء اللامع، 171/4

⁸ هذه المنشأة نسبت للأمر سيف الدين بلبان المهري؛ لأنه أول من ابتنى بها داراً، وسكنها، ثم نتابع الناس، حتى انحسر الماء عن الجهة الشرقية تغربت. انظر: الخطط للمقريزي 346/1

⁹ مصر تطلق على المدينة المجاورة للقاهرة، وتطلق على القطر الأعم، فتدخل القاهرة حينئذ في إطلاقها، وفي قول مترجمي العراقي: "بين مصر والقاهرة". الإطلاق الأول. انظر معجم البلدان 143-137/5، والحافظ العراقي، وأثره في السنة 145-144/1.

¹⁰ انظر: المجمع المؤسس (176/2)، ولحظ الألاحظ (ص 221)، والدليل الشافي (409/1)، والضوء اللامع (171/4).

¹¹ انظر عن أسرته العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية (ص 4)، والضوء اللامع (171/4).

رجلاً صالحاً متعبداً فاضلاً، نشأ على الاشتغال بالعلم، ولازم الشيخ الشريف تقي الدين محمد بن جعفر بن محمد بن عبد الرحيم القنائي الشافعي¹ حيث كان يعمل بخدمته،² وحضر عند غيره من العلماء، وكتب بخطه كثيراً من التفسير والفقه والرقائق.³ ووالدته أيضاً كانت سالحة عابدة صابرة قانعة مجتهدة في أنواع القربات إلى الله.⁴

واعتنى أبوه بتربيته، قال السخاوي (ت 902هـ): "وتكرر إحضار أبيه به إلى التقي، فكان يلاطفه، ويكرمه.... وكذا أسمع في سنة سبع وثلاثين من الأمير سنجر الجاوي، والقاضي تقي الدين الأخنائي المالكي، وغيرهما".⁵

فنشأ العراقي في مثل هذه البيئة الصالحة، وقد منّ الله عليه بالذكاء المفرط، وسرعة الحافظة، فحفظ القرآن وهو ابن ثماني سنوات، وحفظ التنبيه،⁶ وأكثر الحاوي الصغير للقزويني،⁷ وكذا حفظ الإمام لابن دقيق العيد، وربما حفظ منه في اليوم الواحد أربع مائة سطر إلى غير ذلك من المحافظ.⁸

ودرس العربية والفقه وأصوله، وغيره من العلوم، ولكن كان انهماكه في علم القراءات، وكان يجتهد فيه كثيراً، حتى نصحه القاضي عز الدين ابن جماعة (ت 767هـ)، فقال له: "إنه علم كثير التعب، قليل الجدوى، وأنت متوقد الذهن،

¹ حدث بالقاهرة، ودرس بالمسروية، وولي مشيخة خانقاه رسلان، وتوفي سنة 728هـ. انظر: الدرر الكامنة 415/3.

² انظر لحظ الألاحظ (ص 220)، والضوء اللامع (171/4).

³ انظر ذيل الولي العراقي على العبر (وفيات سنة 763هـ)، 86-87/1.

⁴ وصفها بذلك السخاوي في الضوء اللامع، 171/4.

⁵ الضوء اللامع، 171/4. وسيأتي ذكر الجاوي والأخنائي في مبحث الشيوخ.

⁶ التنبيه في فقه الشافعية لأبي إسحاق الشيرازي، مطبوع.

⁷ الحاوي الصغير في الفروع للشيخ نجم الدين عبد الغفار بن عبد الكريم القزويني (ت 665هـ). انظر:

كشف الظنون، 627-625/1.

⁸ انظر: المجمع المؤسس (177/2)، ولحظ الألاحظ (ص 227)، والضوء اللامع (172-171/4).

فاصرف همتك إلى الحديث" وذلك سنة اثنتين وأربعين وسبع مائة،¹ فحبب الله له ذلك، فأكب عليه من سنة اثنتين وخمسين، حتى نال إعجاب أئمة عصره.²

وسافر في طلب الحديث إلى مكة، والمدينة، والشام، وحلب، وحمص، ودمشق، وغزة، وبيت المقدس، والإسكندرية إلى تمام ستة وثلاثين بلداً أفردتها بالتخرُّج باسم الأربعين البلدانية.³

قال ابن فهد المكي (ت 871هـ): "لا تخلو له سنة من الرحلة إما في الحج، أو طلب الحديث".⁴

تنبه: قال تقي الدين ابن فهد المكي: "إن والده توفي، وهو في الثالثة من عمره".⁵

وهو خطأ، فقد ذكر أبو زرعة ابن العراقي (ت 826هـ) أن والد أبي الفضل العراقي توفي سنة سبع مائة، وثلاث وستين،⁶ إذاً العراقي حين وفاة والده كان رجلاً في نحو الثامنة والثلاثين من عمره، ولعل ابن فهد اشتبه عليه وفاة تقي الدين محمد بن جعفر القنائي بوفاته والد العراقي، فإن القنائي توفي سنة 728هـ، والزين العراقي في الثالثة من عمره.⁷

المطلب الرابع: ثناء العلماء عليه: جدّ الحافظ العراقي في الطلب واجتهد، وطاف البلدان، ولقي الأئمة الأعلام، وصحبه التوفيق الإلهي، حتى تضلع في علوم كثيرة،

¹ انظر: لحظ الألاحظ (ص 222)، والضوء الاعم (172/4). وسيأتي ذكر ابن جماعة في مبحث الشيوخ

² انظر: المجمع المؤسس (177/2-178)، والضوء الاعم (172/4).

³ انظر تاريخ ابن قاضي شعبة (380/4)، ولحظ الألاحظ (ص 225-226)، والضوء الاعم (172/4-173).

⁴ لحظ الألاحظ، ص 225-226.

⁵ المصدر نفسه، ص 221. وجزم الشيخ أحمد معبد أن ابن فهد انفرد من بين أوائل المترجمين بهذا القول، ثم رد عليه بثلاثة أوجه (انظر الحافظ العراقي، وأثره في السنة 1/179-181).

⁶ ذيل أبي زرعة العراقي على العبر (وفيات سنة 763هـ)، 86/1.

⁷ التنبيه والإيقاظ لما في ذيول تذكرة الحفاظ (ص 99-100). سبق ترجمة القنائي في (ص 7).

وبرزت شخصيته في السنة الأثيرة، ففاضت السنة الأئمة بالثناء عليه.

قال تلميذه الحافظ ابن حجر (ت 852هـ): "وتقدم في فن الحديث بحيث كان شيوخ العصر يبالغون في الثناء عليه بالمعرفة، كالسبكي، والعلائي، والعز ابن جماعة، والعماد ابن كثير، وغيرهم"¹هـ.

وفيما يلي نماذج من ثنائهم عليه:

قال شيخه الإسني (ت 772هـ) في ترجمة ابن سيد الناس: "وشرح قطعة من الترمذي نحو مجلدين، وشرع في إكماله حافظ الوقت زين الدين العراقي إكمالاً مناسباً لأصله"²هـ.

وكان الإسني يثني على فهمه، ويستحسن كلامه في الأصول، ويصغي لمباحته، ويقول: "إن ذهنه صحيح، لا يقبل الخطأ"³.

وذكره شيخه تقي الدين السبكي (ت 756هـ) في درسه معظماً له على شأنه، ونوّه بذكره، ووصفه بالمعرفة، والإتقان، والفهم⁴.

ومن تعظيمه له أنه لما قدم القاهرة في سنة ست وخمسين وسبع مائة أراد أهل الحديث السماع عليه، فامتنع من ذلك، وقال: لا أسمع إلا بحضوره. وكان العراقي غائباً في الإسكندرية، فمات السبكي قبل أن يصل، ولم يحدثهم⁵.

كما وصفه شيخه العلائي (ت 761هـ) بالفهم، والمعرفة، والإتقان، والحفظ⁶.

¹ المجمع المؤسس، 178/2-179.

² طبقات الشافعية للأسني، 511/2.

³ انظر: الضوء الاعم، 172/4.

⁴ انظر: لحظ الألاحظ، ص 223.

⁵ انظر: المصدر نفسه، ص 224.

⁶ انظر: المصدر نفسه، ص 225.

وقال شيخه عز الدين بن جماعة (ت 767هـ): "كل من يدعي الحديث في الديار المصرية سواه فهو مدع".¹

وقال شيخه الحافظ تقي الدين محمد بن رافع بن هجرس السلامي (ت 774هـ) وهو بمكة في سنة 763هـ، وقد مرّ به العراقي: "ما في القاهرة محدث إلا هذا، والقاضي عز الدين ابن جماعة". فلما بلغه وفاة القاضي عز الدين - وهو بدمشق - قال: ما بقي الآن بالقاهرة محدث إلا الشيخ زين الدين العراقي".²

وقال تلميذه الحافظ ابن حجر (ت 852هـ): "ولم نر في هذا الفن أتقن منه، وعليه تخرج غالب أهل عصره".³

وقال في صدر أسئلته له: "سألت سيدنا، وقدوتنا، ومعلمنا، ومفيدنا، ومخرجنا، شيخ الإسلام، وأوحد الأعلام، حسنة الأيام، حافظ الوقت".⁴ ورثاه في قصيد طويلة⁵ أثنى عليه فيها كثيراً، ومنها قوله:

ومن ستين عاما لم يُجَارَ ولا طمع المجاري في الخاق
وقال تلميذه الهيثمي (ت 807هـ): "سيدي، وشيخي العلامة شيخ الحفاظ بالمشرق والمغرب، ومفيد الكبار ومن دونهم: الشيخ زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم العراقي، رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مثوانا ومثواه".⁶

وقال تلميذه العيني (ت 855هـ): "الشيخ الإمام العلامة مفتي الأنام، شيخ

¹ المصدر نفسه (ص 227)، والضوء اللامع (173/4).

² لحظ الأخطا، المصدر نفسه، ص 227.

³ إنباء الغمر، 2/276.

⁴ الضوء اللامع، 4/175.

⁵ إنباء الغمر، 2/279.

⁶ مجمع الزوائد، 7/1.

الإسلام، حافظ مصر والشام".¹

وقال تلميذه تقي الدين الفاسي المكي (ت 832هـ): "كان حافظاً متقناً، عارفاً بفنون الحديث والفقه والعربية وغير ذلك، كثير الفضائل والمحاسن".²

وقال تلميذه ابن الجزري (ت 833هـ): "حافظ الديار المصرية، ومحدثها، وشيخها، وبرع في الحديث متناً وإسناداً، وتفقه على شيخنا الأسنوي وغيره، وكتب، وألف، وجمع، وخرّج، وانفرد في وقته".³

وقال شهاب الدين أبو العباس أحمد بن حجي (ت 816هـ): "كان محدث الديار المصرية، انتهت إليه معرفة علم الحديث".⁴

وقال ابن قاضي شبهة (ت 851هـ): "الحافظ الكبير، المفيد المتقن، المحرر الناقد، محدث الديار المصرية، ذو التصانيف المفيدة".⁵

وقال تقي الدين ابن فهد المكي (ت 871هـ): "الإمام الأوحد، العلامة الحجة، الحبر الناقد، عمدة الأنام، حافظ الإسلام، فريد دهره، ووحيد عصره، من فاق بالحفظ والإتقان في زمانه، وشهد له بالتفرد في فنه أئمة عصره وأوانه".⁶

وقال السخاوي (ت 902هـ): "كان إماماً علامة، مقرئاً، فقيهاً شافعي المذهب، أصولياً، منقطع القرنين في فنون الحديث وصناعته، ارتحل فيه إلى البلاد النائية، وشهد له بالتفرد فيه أئمة عصره، وعولوا عليه فيه، وسارت تصانيفه فيه وفي غيره،

¹ عمدة القارئ، 4/1.

² ذيل التقييد، 11/3.

³ غاية النهاية في طبقات القراء، 382/1.

⁴ تاريخ ابن حجي، 621/2.

⁵ طبقات الشافعية له (2/359) = (29/4).

⁶ لفظ الألاحظ، ص 220.

ودرس، وأفتى، وحدث، وأملى...¹

وقال السيوطي (ت 911هـ): "والذي أقوله: إن المحدثين عيال الآن في الرجال وغيرها من فنون الحديث على أربعة: الحافظ المزني، والحافظ الذهبي، والحافظ العراقي، والحافظ ابن حجر".²

هذا غيظ من فيض، وكل من ترجم له أثنى عليه، وهو في مجموعه كلمة إجماع، كما قال السخاوي.³

المطلب الخامس: شيوخه:⁴ طاف العراقي بلاداً كثيرة، ولقي علمائها، وأخذ عنهم، فكان مسموعاته وشيوخه في غاية الكثرة، كما قال التقي الفاسي،⁵ أكتفي بذكر بعضهم مرتباً على حروف المعجم:

- إبراهيم بن لاجين بن عبد الله الرشيد الأغر (ت 749هـ).⁶
- وأحمد بن أبي الفرج بن البابا الشافعي (ت 749هـ).⁷
- وأحمد بن قاسم بن عبد الرحمن العمري الحرازي الشافعي، مفتي مكة (755هـ).⁸
- وأحمد بن يوسف بن محمد المقرئ النحوي، المعروف بالسمين الحلبي، مؤلف

¹ فتح المغيث، 3/1.

² ذيل طبقات الحفاظ، ص 348.

³ فتح المغيث، 4/1.

⁴ انظر: المجمع المؤسس (2/176-178)، ولحظ الألاحظ (ص 221-226)، وغاية النهاية (1/382)، والضوء الالامع (4/171-172)، والحافظ العراقي وأثره في السنة (1/227-229)، و236-237، و317-311، و374-383).

⁵ انظر ذيل التقييد، 11/3.

⁶ ترجمته في طبقات القراء، 28/1.

⁷ ترجمته في لحظ الألاحظ، ص 128.

⁸ ترجمته في العقد الثمين، 116/3.

- الدر المصون (ت 756هـ).¹
- وخليل بن كيكليدي بن عبد الله العلائي، صلاح الدين، مؤلف جامع التحصيل (ت 761هـ).²
- وسنجر بن عبد الله الجاولي، الأمير الكبير (ت 745هـ).³
- وعبد الرحمن بن أحمد بن علي بن المبارك البغدادي الشافعي (ت 781هـ).⁴
- وعبد الرحيم بن إبراهيم بن هبة الله الجهني، المعروف بابن البارزي، قاضي حماة، وابن قاضيها (764هـ).⁵
- وعبد الرحيم بن الحسن بن علي القرشي، جمال الدين الإسنوي (ت 772هـ)⁽⁶⁾، عنه أخذ علم الأصول، وعليه تفقه.⁷
- وعبد الرحيم بن عبد الله بن يوسف الأنصاري، المعروف بابن شاهد الجيش (ت 746هـ).⁸
- وعبد العزيز بن محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكاظمي، عز الدين، القاضي الشافعي (ت 767هـ).⁹
- وعبد الله بن محمد بن إبراهيم بن نصر الدمشقي، المعروف بابن قيم الضبائية. (ت 761هـ). قال ابن حجر: أكثر عنه شيخنا العراقي.¹⁰

¹ ترجمته في غاية النهاية، 1/152.

² ترجمته في ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني، ص 43.

³ ترجمته في طبقات السبكي (41/10)، والدرر الكامنة (170/2).

⁴ ترجمته في طبقات القراء (364/1)، وإنباء الغمر (203/1).

⁵ ترجمته في فوات الوفيات للكتني، 2/306-308.

⁶ ترجمته في طبقات ابن قاضي شعبة، 3/98-101.

⁷ انظر: لحظ الأخطأ، ص 226.

⁸ ترجمته في الدرر الكامنة (357/1)، وذيل التقييد (15-13/3).

⁹ ترجمته في طبقات الإسنوي (390-388/1)، والدرر الكامنة (382-378/2).

¹⁰ الدرر الكامنة، 2/283 (ترجمة ابن قيم الضبائية).

- وعلي بن عبد الكافي بن علي الشافعي، تقي الدين السبكي (ت 756هـ).¹
- وعلي بن عثمان بن إبراهيم المارديني الحنفي، الشهير بابن التركماني، قاضي مصر، صاحب "الجوهر النقي في الرد على البيهقي" (ت 749هـ)،² انتفع به كثيراً، وتخرج عليه.³
- وعمر بن محمد بن علي بن فتوح الدمنهوري، الفقيه الشافعي، شيخ القراء (ت 752هـ)⁴
- ومحمد بن أحمد بن عبد المؤمن بن اللبان الشافعي (ت 749هـ).⁵
- ومحمد بن أبي بكر بن عيسى بن بدران السعدي، قاضي القضاة بمصر، المعروف بتقي الدين الإخنائي المالكي (ت 750هـ).⁶
- ومحمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن الدمشقي، المعروف بابن الخباز (ت 756هـ).⁷
- ومحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الحميد بن عبد الهادي (ت 769هـ).⁸
- ومحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم الميديمي، مسند مصر (ت 754هـ)، قال ابن حجر: "وهو أعلى شيخ عند شيخنا العراقي من المصريين، ولقد أكثر عنه".⁹
- ومحمد بن محمد بن محمد بن أبي الحرم، أبو الحرم بن أبي الفتح القلانسي الحنبلي

¹ ترجمته في ذيل التذكرة للحسيني، ص 39.

² ترجمته في لحظ الأُلحاظ، ص 86.

³ انظر: المصدر نفسه، ص 222.

⁴ ترجمته في غاية النهاية، 1/597-598.

⁵ ترجمته في طبقات السبكي، 4/96-94.

⁶ ترجمته في ذيل التقييد، 1/186.

⁷ ترجمته في الدرر الكامنة (4/4-5). (384/3).

⁸ ترجمته في الدرر الكامنة، المصدر نفسه، 3/482-483.

⁹ المصدر نفسه، 4/157-158 (ترجمة الميديمي).

(ت 765هـ).¹

وغير هؤلاء جمع غفير، من استقرأ الدرر الكامنة لابن حجر يجد منهم الكثير.

المطلب السادس: تلاميذه²: اشتهرت شخصية العراقي في الآفاق لتبحره في الحديث النبوي مع مشاركة في علوم أخرى، كما شهد بذلك أئمة عصره، وقام بمهمة التدريس في دار الحديث الكاملية،³ والمدرسة الظاهرية القديمة،⁴ والمدرسة الفاضلية،⁵ وجامع ابن طولون،⁶ وغيرها من المدارس.⁷ وأحي سنة مجالس الإملاء بعد ما اندثرت.⁸ كل ذلك جعل الناس يرحلون إليه من كل حدب، وصوب.

قال تقي الدين ابن فهد المكي: "قُصد من مشارق الأرض ومغاربها، فرحل إليه للأخذ عنه والسماع الجُم الغفير، الكبير منهم والصغير، فلازموه، وانتفعوا به، وكتب عنه جميع الأئمة من العلماء الأعلام، والحفاظ ذوي الفضل والانتقاد..."⁹

وفيما يلي ذكر لبعض هؤلاء الأعلام الذين تلمذوا عليه:

¹ ترجمته في الدرر الكامنة، المصدر نفسه، 335/4.

² انظر: الحافظ العراقي، وأثره في السنة (1/471-2/512)، و(2/574-602).

³ هي المدرسة التي أنشأها السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل أبي بكر بن أيوب بالقاهرة في سنة 622هـ. انظر: الخطط للمقريزي، 2/375، وحسن المحاضرة، 2/262.

⁴ هي المدرسة التي أنشأها الملك الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس التركي (ت 676هـ) بالقاهرة، شرع في عمارتها في ثاني ربيع الآخر سنة ستين وست مائة، وفرغ منها في سنة اثنين وستين. انظر الخطط للمقريزي، 2/378-379، وحسن المحاضرة 2/264.

⁵ هي المدرسة التي بناها القاضي الفاضل أبو علي عبد الرحيم بن علي البيسائي (ت 596هـ) بجوار داره في القاهرة سنة ثمانين وخمس مائة. انظر: الخطط للمقريزي، 2/366-367.

⁶ هو الجامع الذي بناه الأمير أبو العباس أحمد بن طولون (ت 270هـ) بالقاهرة، شرع في عمارته سنة ثلاث وستين ومائتين، وفرغ منه سنة ست وستين، وبلغت النفقة في بنائه مائة ألف وعشرين ألف دينار. خطط المقريزي، 2/265-269، وحسن المحاضرة، 2/246-250.

⁷ انظر: الضوء اللامع (4/174)، وذيل التتبيد (3/9).

⁸ انظر: فتح المغيث (3/251)، والضوء اللامع (4/174).

⁹ لفظ الألاحظ، ص 234.

4. الحافظ شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد بن علي بن حجر العسقلاني، صاحب فتح الباري، وتهذيب التهذيب، ولسان الميزان. (773-852هـ).¹
5. وولده المحدث الفقيه ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبد الرحيم، المعروف بابن العراقي، صاحب تكملة طرح الثريب، وتحفة التحصيل. (762-826هـ).²
6. وصهره الحافظ نور الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر بن عمر الهيثمي، صاحب مجمع الزوائد، ومجمع البحرين (735-807هـ). لازم العراقي في سفره، وحضره، وزوجه العراقي ابنته الكبرى خديجة.³
- هؤلاء الثلاثة كانوا أجل تلاميذه. قيل للعراقي لما حضرته الوفاة: من بقي من الحفاظ؟ فقال: ابن حجر، ثم ابني أبو زرعة، ثم الهيثمي.⁴
- وهناك عدد كبير جداً لتلاميذه، أذكر بعضهم على حروف المعجم.
7. إبراهيم بن محمد بن خليل الطرابلسي، برهان الدين الحلبي المعروف بالسبط ابن العجمي (753-841هـ).⁵
8. وأحمد بن أبي بكر بن إسماعيل البوصيري، صاحب مصباح الزجاجة، وإتحاف الخيرة المهرة. (762-840هـ).⁶
9. وأحمد بن علي بن عبد القادر المقرئ، العلامة المؤرخ، صاحب خطط القاهرة (766-845هـ).⁷

¹ ترجمته في لفظ الألفاظ (326-342)، وترجم له السخاوي في مصنف مفرد أسماء: الجواهر والدرر

في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر.

² ترجمته في رفع الإصر (ص 60-61)، ولفظ الألفاظ (ص 284-291).

³ ترجمته في إنباء الغمر (2/309)، والضوء اللامع (5/200-203).

⁴ انظر: إنباء الغمر، 2/277.

⁵ ترجمته في لفظ الألفاظ (ص 308)، والضوء اللامع (1/138).

⁶ ترجمته في إنباء الغمر (4/53)، والضوء اللامع (1/251).

⁷ ترجمته في الضوء اللامع، 2/21-25.

10. وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المصري، الحنبلي، زين الدين الزركشي (758-846هـ)¹
11. وعبد الرحيم بن محمد بن عبد الرحيم المصري، الحنفي، المعروف بابن الفرات، مسند الديار المصرية. (759-851هـ).²
12. ومحمد بن أحمد بن علي المكي، تقي الدين الفاسي، صاحب العقد الثمين، وذيل التقييد، (775-832هـ).³
13. ومحمد بن عبد الدائم البرماوي شارح صحيح البخاري (763-831هـ).⁴
14. ومحمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي، حافظ مكة، وقاضيا (751-817هـ).⁵
15. ومحمد بن محمد بن حسن الشُّمَني كمال الدين (766-821هـ).⁶
16. ومحمد بن محمد بن محمد بن علي، أبو الخير شمس الدين المعروف بابن الجزري، إمام القراء (751-833هـ).⁷
17. ومحمود بن أحمد بن موسى العيني، صاحب عمدة القارئ (762-855هـ).⁸
18. وجوزيرية ابنة المترجم عبد الرحيم بن الحسين العراقي (788-863هـ).⁹
19. وزينب ابنة المترجم (791-865هـ).¹⁰

¹ ترجمته في الضوء اللامع (136/4-137)، وحسن المحاضرة (1/483-484).

² ترجمته في الضوء اللامع، 186/4.

³ ترجمته في لحظ الأُلحَاط، ص 291.

⁴ ترجمته في الضوء اللامع، 280/7-282.

⁵ ترجمته في لحظ الأُلحَاط (ص 253)، والضوء اللامع (8/92-95).

⁶ ترجمته في المجمع المؤسس (3/301)، والضوء اللامع (9/74-75).

⁷ ترجمته في غاية النهاية (5/247-251)، والضوء اللامع (9/255).

⁸ ترجمته في الضوء اللامع، 131/10-135.

⁹ ترجمتها في المصدر نفسه، 18/12.

¹⁰ ترجمتها في المصدر نفسه، 41/12.

وغيرهم جم غفير، وخلق كثير، من يستقرئ إنباء الغمر لابن حجر، والضوء اللامع للسخاوي يجد الكثير الكثير، جزی الله شيخهم على تربية هذا الجيل المبارك وتعليمهم أحسن جزاء.

المطلب السابع: مؤلفاته:¹ شرع الحافظ العراقي بالتصنيف في وقت مبكر، فوَلع بتخریج أحاديث إحياء علوم الدين للغزالي، وله من العمر قريب من العشرين سنة.² والبداية في الحدائثة تعين على التمكن والمران، وظهر هذا جلياً في مؤلفاته كماً وكيفاً، فقد آلف المؤلفات الكثيرة النافعة في مختلف العلوم، أذكر ما وقفت على ذكره منها مرتباً على حروف المعجم فيما يلي:

- أجوبة ابن العربي.³
- الأحاديث المخرجة في الصحيحين التي تكلم فيها بضعف وانقطاع: وهذا الكتاب لم يبيّضه لأنه عدم من مسودته كراسان.⁴
- إحياء القلب الميت بدخول البيت.⁵
- إخبار الأحياء بأخبار الأحياء: في أربعة مجلدات، فرغ من تسويده سنة إحدى وخمسين وسبع مائة، ثم بيّض منه نحواً من خمسة وأربعين كراساً،

¹ للدكتور أحمد معبد عبد الكريم دراسة مطولة عن مؤلفات العراقي في كتابه المطول: "الحافظ العراقي وأثره في السنة (2/657-2239/5)، ولم يأت في هذه المجلدات على دراسة بعض مؤلفات العراقي، منها تكملة شرح الترمذي، وذكر في نهاية الجزء الخامس أنه يليه الجزء السادس والأخير، ولم يطبع هذا الجزء بعد مع أنه مضى على طباعة أخواتها نحو خمسة عشر عاماً. ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً.

² انظر: لحظ الألاحظ، ص 228.

³ انظر: المصدر نفسه، ص 231.

⁴ انظر: التقييد والإيضاح (ص 29)، والنكت على ابن الصلاح (380/1)، ولحظ الألاحظ (ص 231)، ولم يقف عليه ابن حجر بعد طول البحث عنه، والسؤال من المؤلف.

⁵ انظر: لحظ الألاحظ، ص 231.

- وصل فيها إلى أواخر الحج.¹
- الأربعون البلدانية: ذكر فيها أحاديث من ستة وثلاثين بلداً، ورام إكمالها أربعين، لكن لم يتيسر له ذلك.²
- الأربعون البلدانية: انتخبها من صحيح ابن حبان.³
- الأربعون التساعية من رواية أبي الفتح محمد بن محمد الميديمي.⁴
- الأربعون التساعية: من رواية البياني.⁵
- الأربعون العشارية: أملاها في الروضة، وهي أول أماليه.⁶ (مطبوع).
- أربعون حديثاً من الموطأ - رواية يحيى بن بكير.⁷
- الاستعاذة بالواحد من إقامة جمعيتين في مكان واحد.⁸
- أطراف صحيح ابن حبان: بلغ فيه إلى أول النوع الستين من القسم الثالث.⁹
- ألفية الحديث، المسماة بالتبصرة والتذكرة. (مطبوع).¹⁰

¹ انظر: لحظ الألاحظ (ص 229)، وإنباء الغمر (276/2).

² انظر: لحظ الألاحظ، المصدر نفسه، ص 233.

³ انظر: المصدر نفسه، ص 232.

⁴ انظر: لحظ الألاحظ، المصدر نفسه، (ص 232)، وفهرس الفهارس (817/2).

⁵ انظر: لحظ الألاحظ (ص 232)، وفهرس الفهارس (817/2). والبياني هذا هو الشيخ المسند أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي بكر بن أحمد بن يعقوب بن إلياس الأنصاري الخرجي البياني المقدسي، كما جاء على نسخته الخطية بدار الكتب المصرية (433/حديث/تيجور)، كما أفاد الشيخ أحمد معبد في كتابه الحافظ العراقي وأثره في السنة (2029/5). وللبياني ترجمة في الدرر الكامنة (295/3).

⁶ انظر: لحظ الألاحظ، (ص 232)، وطبع بتحقيق بدر بن عبد الله البدر.

⁷ انظر: معجم الشيوخ لعمر بن فهد المكي، ص 92.

⁸ انظر: لحظ الألاحظ (ص 231)، والضوء اللامع (173/4). والبدر الطالع (355/1).

⁹ انظر: لحظ الألاحظ، المصدر نفسه، ص 232.

¹⁰ طبعت عدة طبعات، أحسنها طبعة دار المنهاج بالرياض.

- الألفية في غريب القرآن.¹
- الأمالي على أمالي الرافي.²
- الأمالي على الأربعين النووية.³
- الإنصاف في المراسيل: وهو من آخر ما صنّف.⁴
- الباعث على الخلاص من حوادث القصاص:⁵ (مطبوع).
- تلمات المهمات: وهو استدراك على المهمات لشيخه الأسنوي.⁶
- التحرير في أصول الفقه.⁷
- تخرّج الأحاديث التي يشير إليها الترمذي في كل باب.⁸
- تخرّج الأحاديث والآثار الواقعة في منهاج البيضاوي.⁹ (مطبوع).
- ترتيب من له ذكر- تخرّج، أو تعديد في بيان الوهم والإيهام لابن القطان على حروف المعجم.¹⁰
- ترجمة الأسنوي.¹¹

¹ انظر: لحظ الأخطا (ص 230)، والضوء اللامع (173/4).

² انظر: اللجمع المؤسس (185/2)، ولحظ الأخطا (ص 233). ووجد جزء منه في ثمانى ورقاى ضمن مجاميع المكتبة الظاهرية بدمشق تحت رقم (3963/عام). (انظر الحافظ العراقي وأثره فى السنة 2087/5).

³ انظر: اللجمع المؤسس (184/2)، ولحظ الأخطا (ص 233).

⁴ انظر: اللجمع المؤسس (181/2)، ولحظ الأخطا (ص 231)، والضوء اللامع (173/4).

⁵ طبع بآقيق الدكتور محمد لطفى الصباغ فى الرىاض 1422هـ.

⁶ انظر: الضوء اللامع، 173/4.

⁷ انظر: الأعلام للزركلى، 344/3.

⁸ انظر: الرسالة المستطرفة، ص 186.

⁹ انظر: لحظ الأخطا (ص 232). طبعته دار البشائر بآقيق محمد ناصر العجمى سنة 1409هـ.

¹⁰ انظر: المصدر نفسه، ص 232.

¹¹ انظر: المصدر نفسه، ص 231.

- ترجمة مغلطاي.¹
- تفضيل زمزم على كل ماء قليل زمزم.²
- تقريب الأسانيد، وترتيب المسانيد في الأحكام³: وهذا الكتاب جمعه المترجم من تراجم ستة عشر قيل فيها: إنها أصح الأسانيد. وهو مطبوع.
- التقييد والإيضاح لما أطلق وأغلق من كتاب ابن الصلاح. (مطبوع).⁴
- تكملة شرح الترمذي: وسيأتي الكلام عليه في المبحث الثاني.
- تكملة شرح المهذب للنووي: قال السخاوي: "بنى على كتابة شيخه السبكي، فكتب أماكن".⁵
- جزء في الرواة الذين خرج لهم البخاري ومسلم في صحيحهما من غير الصحابة، ولم يرو عن كل منهم إلا راو واحد.⁶
- جزء في الكلام على الأحاديث التي تكلم فيها بالوضع، وهي في مسند أحمد، والرد على ابن الجوزي.⁷ أوردها ابن حجر برمتها في بداية القول المسدود.⁸
- جزء في الكلام على حديث "الموت كفارة لكل مسلم".⁹

¹ انظر: الجواهر والدرر، 1275/3.

² انظر: لحظ الألفاظ، ص 231.

³ انظر: لحظ الألفاظ، المصدر نفسه (ص 230)، والضوء اللامع (173/4). طبع بيروت سنة 1404هـ.

⁴ له عدة طبعات، أحسنها طبعة الشيخ راغب الطباخ، وطبعة الدكتور أسامة خياط.

⁵ انظر: الضوء اللامع، 173/4.

⁶ انظر: التقييد والإيضاح، ص 126.

⁷ انظر: المصدر نفسه، ص 57.

⁸ الصفحات: 3-11.

⁹ انظر: لحظ الألفاظ (ص 231). والحديث موضوع. انظر الضعيفة (4685).

- الجواب عن سوال يتضمن تاريخ تحريم الربا.¹
- حواشي على تحفة الأشراف للزبي.²
- الدرر السنية في نظم السيرة الزكية: وهي ألفية السيرة، تتضمن اثنين وثلاثين وألف بيت.³ (مطبوع).
- ذيل على ذيل العبر للذهبي: من سنة إحدى وأربعين وسبع مائة إلى سنة ثلاث وستين وسبع مائة، وذيل عليه ابنه الحافظ ولي الدين.⁴
- ذيل على جامع التحصيل في باب المدلسين.⁵
- ذيل على ذيل ابن أبيك على وفيات الأعيان لابن خلكان.⁶
- ذيل على ذيل عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني الخزومي (ت 743هـ)⁷ على وفيات الأعيان لابن خلكان.⁸

¹ انظر: لحظ الألاحظ، المصدر نفسه (ص 331)، والضوء اللامع (4/173).

² انظر: النكت الطراف، 6-5/1 (بهامش تحفة الأشراف).

³ انظر: لحظ الألاحظ، المصدر نفسه (ص 231)، نشرته إدارة مساجد محافظة حويل بالكويت باعتناء منصور العتيقي.

⁴ انظر: لحظ الألاحظ (ص 231)، وذكر الشيخ أحمد معبد أن ما جاء في فهرسة مكتبة كوبريلي محمد باشا: ذيل تاريخ الذهبي لعبد الرحيم بن الحسين العراقي تحت رقم (1081) فهو خطأ، بل الموجود فيه من تأليف ابنه أبي زرعة. (انظر: الحافظ العراقي، وأثره في السنة 3/1169-1173).

⁵ انظر: تعريف أهل التقديس، ص 65.

⁶ انظر: طبقات ابن قاضي شبة (32/4)، وكشف الظنون (2/2018). له نسخة في مكتبة كوبريلي زادة ضمن مجموعة برقم (1626)، ذكره المفهرس باسم: كتاب في التاريخ بعنوان: الوفيات العراقية. (انظر: الحافظ العراقي وأثره في السنة 3/1212).

وابن أبيك هو الإمام المفيد شهاب الدين أحمد بن أبيك بن عبد الله الحسامي، المعروف بالدمياطي، المتوفى سنة 749هـ. (انظر ذيل تذكرة الحافظ الحسيني ص 54-55).

⁷ ترجمته في الوفيات لابن رافع، 437/1.

⁸ انظر: كشف الظنون (2/2018)، والمستدرک على معجم المؤلفين (ص 367).

- ذيل على مختصر الذهبي لأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير.¹
- ذيل على ميزان الاعتدال للذهبي: ولم يبيض.² (مطبوع).
- ذيل على وفيات النقلة لابن أبيك الدمي.³
- ذيل مشيخة القاضي أبي الحرم القلانسي.⁴
- ذيل مشيخة محمد بن إبراهيم البياني.⁵
- رجال سنن الدارقطني سوى من في التهذيب.⁶
- رجال صحيح ابن حبان سوى من في التهذيب: بلغ فيه إلى أول النوع الستين من القسم الثالث.⁷
- الرد على الصاغاني في رسالته الدر الملتقط في بيان الغلط.⁸ (مطبوع).
- شرح البخاري: لم يكمل، ولو كمل لم يكن له نظير في بابه.⁹
- شرح التبصرة والتذكرة: وهو شرح متوسط لألفية الحديث، وكان قد شرع في شرح مطول عليها كتب منه نحو ستة كراريس، ثم تركه، وعمل هذا الشرح.¹⁰ (مطبوع)

¹ انظر: شرح التبصرة والتذكرة للعراقي، 3/3.

² انظر: لحظ الأحاظ (ص 231)، وطبع بتحقيق الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي.

³ انظر: شرح التبصرة والتذكرة (3/133)، والحافظ العراقي، وأثره في السنة (3/1192).

⁴ انظر: لحظ الأحاظ (ص 232)، والضوء الالامع (4/173).

⁵ انظر: الدرر الكامنة (3/295)، والحافظ العراقي، وأثره في السنة (3/1288).

⁶ انظر: لحظ الأحاظ، ص 233.

⁷ المرجع نفسه، 232-233.

⁸ طبع جزء منه في آخر كتاب مسند الشهاب بتحقيق حمدي عبد المجيد السلفي.

⁹ انظر: العجالة السنية في شرح ألفية السيرة النبوية للمناوي، ص 4.

¹⁰ انظر: لحظ الأحاظ (ص 230)، وإنباء الغمر (2/276)، وله عدة طبعات.

وطبع الكتاب باسم "فتح المغيث"، وهذه تسمية دخيلة، وأول من صرح بهذا الاسم صاحب كشف الظنون (1235). انظر: الحافظ العراقي، وأثره في السنة، 2/840

- شرح التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير للنووي.¹
- الشرح الكبير على ألفية الحديث، وصل فيها إلى الضعيف.²
- شرح سنن أبي داود: لم يكمل.³
- طرح التثريب شرح تقريب المسانيد: لم يكمله، فأكله ابنه أبو زرعة،⁴ (مطبوع).
- طرق حديث "من كنت مولاه فعلي مولاه".⁵
- العدد المعتمد من الأوجه التي بين السور.⁶
- العشرون الثمانية من رواية البياني.⁷
- فضل حراء.⁸
- قرة العين بوفاء الدين: وهو آخر مؤلفاته.⁹ (مطبوع).
- الكشف المبين عن تخريج إحياء علوم الدين: وهو متوسط بين التخريج المطول المسمى بإخبار الأحياء، وبين التخريج المختصر المسمى بالمغني.¹⁰
- الكلام على الحديث الوارد في أقل الحيض وأكثره.¹¹

¹ انظر: كشف الظنون، 465/1.

² انظر: شرح التبصرة والتذكرة (3/1)، والحافظ العراقي، وأثره في السنة (830/2).

³ انظر: العجالة السنوية على ألفية السيرة النبوية، ص 4.

⁴ انظر: لحظ الأخطأ، ص 230.

⁵ انظر: لحظ الأخطأ، المصدر نفسه (ص 231). وانظر الحديث في الصحيحة (1750).

⁶ انظر: إيضاح المكنون، 96/2.

⁷ انظر: لحظ الأخطأ، ص 232.

⁸ انظر: المصدر نفسه، ص 231.

⁹ لحظ الأخطأ (ص 231)، وطبعته دار الصحابة بطنطا 1411هـ.

¹⁰ انظر: المصدر نفسه، ص 230.

¹¹ انظر: المصدر نفسه، ص 232. وهو حديث ضعيف.

- الكلام على حديث التوسعة يوم عاشوراء.¹
- الكلام على صوم ستِّ من شوال.²
- الكلام على مسألة السجود لترك القنوت.³
- ما رواه الصحابة عن التابعين عن الصحابة.⁴
- مجلس في الاستسقاء: قال ابن حجر: لما توقّف النيل، ووقع الغلاء المفرط أملى مجلساً فيما يتعلق بالاستسقاء.⁵
- مجلس في فضائل الذكر والدعاء يوم عرفة.⁶
- محجة القرب في محبة العرب.⁷ (مطبوع).
- مختصر تقريب الأسانيد: في نحو نصف حجمه.⁸
- مختصر كتاب المائتين من حديث أبي عثمان الصابوني (ت 449هـ).⁹
- مسألة الشرب قائماً.¹⁰
- مسألة قص الشارب.¹¹ (مطبوع).

¹ انظر: لحظ الألاحظ، المصدر نفسه (ص 231). ولفظ الحديث "من وسع على عياله يوم عاشوراء وسع الله عليه سائر سنته". قاتل الإمام أحمد: لا يصح هذا الحديث. انظر: المنار المنيف، ص 111-112.

² انظر: لحظ الألاحظ، ص 231.

³ انظر: المصدر نفسه، ص 231.

⁴ انظر: تدريب الراوي، 920/2.

⁵ انظر: المجمع المؤسس، 186/2.

⁶ انظر: صلة الخلف بموصول السلف، ص 395.

⁷ انظر: لحظ الألاحظ، ص 231. (طبعته دار العاصمة 1420هـ بتحقيق عبد العزيز بن عبد الله).

⁸ انظر: المصدر نفسه، ص 230.

⁹ ذكره الزبيدي في إتخاف السادة المتقين (4/432). وانظر الحافظ العراقي، وأثره في السنة (5/2137).

¹⁰ انظر: لحظ الألاحظ، ص 231.

¹¹ المصدر نفسه. مطبوع بتحقيق مولاي عبد الرحيم مبارك بدار البشائر 1424هـ.

- المستخرج على المستدرک. ¹ (مطبوع).
- مشيخة القاضي ناصر الدين ابن النونسي، وذيلها. ² مشيخة عبد الرحمن بن القارئ. ³
- معجم خرج له لنفسه، وشكك في وجوده السخاوي، فقال: ومن الغريب قول البرهان الحلبي إنه خرج لنفسه معجمًا، وما وقف شيخنا عليه، وكذا ما وقفت عليه. ⁴
- معجم شيوخ ابن جماعة: ولم يكمل. ⁵
- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار: وهو التخریج المختصر لأحاديث إحياء علوم الدين للغزالي، وقد اشتهر هذا المختصر في حياته، وكتبت منه نسخ عديدة، سارت بها الركن إلى الأندلس، وغيرها من البلدان، وبسببه تباطأ الشيخ عن إكمال تبييض الأصل، ⁶ (مطبوع).
- معجم مشتمل على تراجم جماعة من أهل القرن الثامن: قال ابن فهد: غالبهم شيوخ شيوخه، وفيهم من شيوخه. ⁷
- من روى عن عمرو بن شعيب من التابعين. ⁸

¹ انظر: ترجمة عبد الحميد بن عبد الرحمن الأعرج من ذيل ميزان الاعتدال (ص 322-323)، وطبع جزء منه بتحقيق محمد عبد المنعم رشاد، نشرته مكتبة السنة بالقاهرة سنة 1410هـ.
² انظر: ذيل العبر لأبي زرعة (وفيات 763هـ)، (87/1-88)، ولحظ الأخطا (ص 231).
³ انظر: معجم الشيوخ لابن فهد (ص 302)، ولحظ الأخطا (ص 232).
وابن القارئ هو عبد الرحمن بن علي بن محمد الثعلبي، زين الدين أبو الفرج، المتوفى سنة 776هـ. انظر: الدرر الكامنة، 2/337.
⁴ انظر: الضوء اللامع، 4/174.
⁵ انظر: ذيل العبر للولي العراقي (وفيات سنة 767هـ)، 1/204.
⁶ انظر: إنباء الغمر (2/276)، ولحظ الأخطا (ص 230). وطبع مراراً مع إحياء علوم الدين، ثم طبع مفرداً باعتناء أشرف عبد المقصود.
⁷ انظر: لحظ الأخطا (ص 232)، ومنه نسخة في المكتبة الكائنية بالمغرب. (انظر مقدمة المحقق لشرح التبصرة والتذكرة ص 18).
⁸ انظر: شرح التبصرة والتذكرة، 3/66.

- منظومة في الوضوء المستحب.¹
- المورد الهني في المولد السني.²
- النجم الوهاج في نظم المنهاج في أصول الفقه للبيضاوي، في ألف وثلاث مائة وسبعة وستين بيتاً.³
- نظم الاقتراح لابن دقيق العيد في أربع مائة وسبعة وعشرين بيتاً.⁴
- النكت على النجم الوهاج: بين فيها حكمة مخالفتها لعبارة المنهاج مع التنبيه على دقائق ذلك، ولم يكمل، بلغ فيه إلى أثناء الباب الخامس من مبحث النسخ والمنسوخ.⁵
- ومما نسب إليه خطأ:
- الاستفادة من مبهات المتن والإسناد، نسبة عمر رضا كحالة في المستدرک علی معجم المؤلفين،⁶ والصحيح أنه لولده أبي زرعة.⁷
- جزء عوالي ابن الشيخة⁸: عزاه حاجي خليفة في كشف الظنون⁹ للزين العراقي، وهو خطأ، والصحيح أنه لابنه أبي زرعة، كما عزاه ابن حجر في المجمع المؤسس.¹⁰

¹ انظر: كشف الظنون، 1867/2.

² انظر: لحظ الأخطاء، ص 231.

³ انظر: لحظ الأخطاء، المصدر نفسه (ص 230)، وذيل التذكرة للسيوطي (ص 371).

⁴ انظر: لحظ الأخطاء، المصدر نفسه (ص 230-231)، ومنه نسخة في مكتبة لاله لي (1392/أصول حديث). (انظر الحافظ العراقي وأثره في السنة (1035/3).

⁵ انظر: لحظ الأخطاء، المصدر نفسه، ص 230.

⁶ الصفحة 367.

⁷ وهو مطبوع متداول بتحقيق عبد الرحمن عبد الحميد البر.

⁸ ابن الشيخة هو الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن مبارك الغزي، المتوفى سنة 799هـ. انظر:

المجمع المؤسس، 137-107/2.

⁹ 1178/2.

¹⁰ 108/2.

المطلب الثامن: وفاته: توفي الحافظ العراقي عقب خروجه من الحمام بالقاهرة نصف ليلة الأربعاء ثامن شهر شعبان سنة ست وثمان مائة عن واحد وثمانين عاماً، وثلاثة أشهر إلا أياماً، وصلّى عليه الشيخ شهاب الدين الذهبي¹، ودفن بباب البرقية².

ورثاه ابن حجر في قصيدة طويلة مطلعها:

مُصَابٌ لَمْ يُنْفَسْ لِلخَنَاقِ أَصَارَ الدَّمَعِ جَارًا لِلْبَاقِي³
ومن الطرائف ما قال ابن حجر أيضاً في ترجمة ابن الملقن من إنباء الغمر⁴:

"وهؤلاء الثلاثة: العراقي، والبلقيني، وابن الملقن كانوا أعجوبة هذا العصر على رأس القرن، الأول في معرفة الحديث وفنونه، والثاني في التوسع في معرفة مذهب الشافعي، والثالث في كثرة التصانيف، وقدر أنّ كل واحد من الثلاثة ولد قبل الآخر بسنة، ومات قبله بسنة، فأولهم ابن الملقن ولد سنة ثلاث وعشرين، ومات سنة أربع وثمان مائة، والبلقيني ولد سنة أربع وعشرين، ومات سنة خمس وثمان مائة، والعراقي ولد سنة خمس وعشرين، ومات سنة ست وثمان مائة". اهـ. رحمهم الله رحمة واسعة، وأسكنهم فسيح جناته.

المبحث الثاني: دراسة الكتاب

المطلب الأول: تحقيق اسم الكتاب: لم ينص الحافظ العراقي في مقدمة شرحه لجامع الترمذي على اسم خاص له، لكن ورد اسم "تكملة شرح الترمذي" على غلاف

¹ هو أحمد بن الجوبان الذهبي الدمشقي، الكاتب المجود، المتوفى سنة 816هـ. انظر: الضوء اللامع، 268/1.

² انظر: ذيل الدرر الكامنة (ص 145)، والمجمع المؤسس (188/2)، وإنباء الغمر (2/277)، والدليل الشافي (1/409)، والضوء اللامع (4/177).

³ انظر: إنباء الغمر، 278/2-279.

⁴ 318/2-319.

النسخة الخطية للكتاب،¹ وبذلك سماه ابن حجر،² وابن قاضي شعبة،³ وابن فهد،⁴ والسيوطي.⁵

وهو اسم مطابق للواقع؛ فإن العراقي شرح جامع الترمذي من حيث توقف ابن سيد الناس في شرحه المسمّى بـ"الفتح الشذي".

وسماه بعضهم على سبيل الاختصار: "شرح الترمذي".⁶

المطلب الثاني: توثيق نسبة الكتاب إلى مؤلفه: لا شك في نسبة هذا الكتاب لمؤلفه؛ لما يلي:

1. وجود أجزاء من نسخة الكتاب بخط الشارح، ووجود اسم الشارح على غلاف جميع ما توفّر من النسخ الخطية.⁷

2. أحال الشارح على كتابه هذا في مؤلفاته الأخرى، فعلى سبيل المثال أنه أحال في كتابه التقييد والإيضاح⁸ حيث تكلم على حديث المغفر بإيجاز، ثم قال: "وقد بينت ذلك في شرح الترمذي".⁹ وكلامه هذا موجود في أبواب الجهاد، باب ما جاء في المغفر.

3. نقل كثير من أهل العلم من هذا الكتاب، ومن نقل منه ابن حجر في فتح الباري، والعيني في عمدة القاري، والسيوطي في عقود الزبرجد، والمنائوي في

¹ انظر: نسخة السلیمانیة برقم: 512.

² في المجمع المؤسس، 2/182.

³ في طبقات الشافعية، 4/31.

⁴ في لحظ الألاحظ، ص 232.

⁵ في ذيل طبقات الحفاظ، ص 371.

⁶ انظر: درة المجال (113/3)، وفتح الباري (330/2، و411، و27/3).

⁷ نسخة السلیمانیة (رقم 511)، ونسخة فيض الله أفندي (رقم 364). وهما بخط الشارح، وقد كتب على صفحتي عنوانهما: "بخط مؤلفه الحافظ العراقي". وانظر أيضاً السلیمانیة (رقم 513).

⁸ الصفحة: 87.

فيض القدير، والشوكاني في نيل الأوطار. وقارنت بعض النصوص التي نقلها المناوي من شرح الترمذي، فوجدتها كما هي في هذا الكتاب.¹

4. ذكر مترجميه على أن له كتاباً في شرح الترمذي أكمل به شرح ابن سيد الناس.²

المطلب الثالث: موضوع الكتاب: الكتاب شرح لجامع الترمذي إلا أن العراقي شرحه من حيث توقف ابن سيد الناس في شرحه المسمى بـ"الفتح الشدي". قال العراقي في مقدمة شرحه:

"... لكن اخترمته المنية قبل إكماله...، وآخر ما رأيت منه بخطه شرحه لبعض "باب ما جاء أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام"....، فشرعت في البناء عليه من أول هذا الباب".³

ومات العراقي أيضاً قبل إكماله، قال ابن فهد: تكلمة شرح جامع الترمذي لابن سيد الناس، وهي من "باب ما جاء في أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام" إلى قوله في أثناء كتاب البر والصلة: "باب ما جاء في الستر على المسلمين"، ثلاثة عشر مجلداً، خرج من ذلك إلى أثناء الصيام قريباً من ستة مجلدات.⁴

وظاهر قول ابن فهد أن العراقي لم يشرح باب الستر على المسلمين، بل وقف عنده،

¹ انظر: فتح الباري (2/330، 411، و27/3)، وعمدة القاري (6/131، و175، و208)، و(83/10). وعقود الزبرجد (1/149، و224)، وفيض القدير (1/82)، و(2/480)، و(5/228)، و(6/51)، ونيل الأوطار (2/80، و148، و152). والنصوص التي نقلها المناوي بحثها في تكلمة شرح الترمذي فوجدتها بنصها في تكلمة شرح الترمذي على الترتيب في: باب ما جاء في الاستفتاح بصعاليك المسلمين، وباب ما جاء في الأجراس على الخليل، وباب ما جاء في الرهان، وباب ما جاء في المشورة.

² انظر مثلاً: المجمع المؤسس (2/182)، وطبقات الشافعية لابن قاضي شعبة (4/31)، ولحظ الألاحظ (ص 232)، والضوء الاعم (4/173)، وذيل طبقات الحفاظ للسيوطي (ص 371).

³ تكلمة شرح الترمذي (ج 1/2/أ) من نسخة الإسكوريال.

⁴ لحظ الألاحظ، ص 232.

أي بتمام شرح الباب الذي قبله، وهو باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم. وهذا موافق لما جاء على صفحة العنوان من النسخة المحفوظة بالمكتبة السليمانية برقم (513): "الأخير من شرح الترمذي للحافظ العراقي من باب في الثبات عند القتال من الجهاد إلى باب ما جاء في شفقة المسلم، وهو آخر ما انتهى إليه الشارح، ولم يكمل الكتاب".

وقد وصل إلينا هذا الشرح، فله الحمد والمنة.

المطلب الرابع: في شروح جامع الترمذي، ومكانة شرح العراقي بينها:

أولاً: شروح جامع الترمذي¹:

جامع الإمام الترمذي أحد دواوين السنة التي عليها مدار الإسلام، ومن ثم حظي بعناية العلماء، فشرحه غير واحد. ومن شروحه:

1. عارضة الأحوذى² في شرح سنن الترمذي للقاضي أبي بكر محمد بن عبد الله الإشبيلي، المالكي، المعروف بابن العربي المتوفى سنة 543هـ: وهو شرح متوسط، اهتم مؤلفه بالأحكام المستنبطة من الأحاديث، والمسائل الفقهية مركزاً على أقوال المالكية، ولم يعتن بتخریج أحاديث الترمذي، وما يشير إليه الترمذي في

¹ انظر: مقدمة تحفة الأحوذى (180-190)، والإمام الترمذي، ومنهجه في كتابه الجامع لعذاب الجمش (1/39-45)، ومقدمة محقق النسخ الشذي (1/70-85)، والأحاديث الحسان الغرائب لعبد الباري الأنصاري (69-74).

² قال ابن خلكان: "ومعنى عارضة الأحوذى: فالعارضة القدرة على الكلام، يقال: فلان شديد العارضة إذا كان ذا قدرة على الكلام. والأحوذى الخفيف في الشيء، ولحذقه. وقال الأصمعي: المشمر في الأمور، القاهر لها، الذي لا يشد عليه منها شيء. وهو بفتح الهزرة، وسكون الحاء المهملة، وفتح الواو، وكسر الدال المعجمة، وفي آخره ياء مشددة. (وفيات الأعيان 3/424). وعقب سعيد أعراب ابن خلكان، فقال: وهو تفسير مخالف ما يفيد سباق كلامه في غير ما موضع من هذا الكتاب من أنها تعني ما يعرض في الذهن من معاني الكتاب. (مع القاضي أبي بكر ابن العربي ص 137).

الباب، ويذكر أحياناً درجة الحديث. وقد يجمع الأبواب التي في معنى واحد، فيشرحها جميعاً في موضع واحد،¹ وقد يغفل بعض الأبواب² من الشرح. وهو أقدم ما وصل إلينا من شروحه، وطبع في ثلاثة عشر جزءاً في سبعة مجلدات مع جامع الترمذي.

2. النفع الشذيفي شرح جامع الترمذي للحافظ أبي الفتح محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري المتوفى سنة 734هـ: وهو شرح مطول ممتع، إلا أنّ ابن سيد الناس انتهى فيه إلى أثناء باب ما جاء أنّ الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام، كما ذكر العراقي في تكملة.³ وقال الكمال جعفر بن ثعلب الأدفوي الشافعي (ت 748هـ): "شرع (يعني ابن سيد الناس) في شرح الترمذي، ولو اقتصر فيه على فن الحديث من الكلام على الأسانيد لكل، لكنه قصد أن يتبع شيخه ابن دقيق العيد، فوقف دون ما يريد".⁴

اعتنى مؤلفه بتخريج أحاديث الباب التي خرجها الترمذي، أو أشار إليها، واستدرك عليه ما فاته من الأحاديث، وتكلم على سند الحديث، وأحوال الرواة، ومواضع الضعف والإعلال، واهتم بتفسير غريب الحديث، وشرح المسائل الفقهية معتنياً ببيان الخلاف فيها.⁵ طبعت قطعة منه في مجلدين بتحقيق الدكتور أحمد معبد.⁶

¹ انظر مثلاً: عارضة الأحوزي (50/1-55)، و(209/2-218)، و(227/5-281).

² انظر مثلاً: باب ما جاء في كراهية الأذان بغير وضوء، وباب ما جاء ليس في الخليل والرقيق صدقة، وباب ما جاء في كراهية النجش في البيوع.

³ (ج 1/2) من نسخة الإسكوريال.

⁴ الدرر الكامنة (209/4). وانظر ترجمة الأدفوي في الدرر الكامنة (535/1).

⁵ مقدمة محقق النفع الشذيفي، 128-92/1.

⁶ ينتهي المطبوع بالحديث العاشر، وحقق شيخنا عبد الرحمن صالح محيي الدين في رسالة الدكتوراه التي تقدم بها عام 1405هـ من أول الكتاب إلى باب في المذي يصيب الثوب (الحديث 115)، وأما الجزء المتبقي فقد قام بتحقيقه عدد من الباحثين بتكليف من عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة؛ فإنها تعتزم على طبعه مع تكملة شرح الترمذي. يسر الله طبعه.

3. تكملة شرح الترمذي للحافظ العراقي، المتوفى سنة 806هـ: وهو موضوع هذا البحث، وسأحدث عن منهجه في المبحث الخامس. توفي العراقي قبل إكمله، كما تقدم.
4. تكملة شرح الترمذي لولي الدين أبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي (ت 826هـ): ذكر المناوي أنّ أبا زرعة أكل كتاب والده.¹ قال الدكتور أحمد معبد: "ولم أقف على نسخة من تلك التكملة، أو نقول عنه".²
5. تكملة شرح الترمذي لأبي الخير محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت 902هـ): ذكر السخاوي في الضوء اللامع³ أنه ألّف تكملة شرح الترمذي للعراقي، وكتب منه أكثر من مجلدين في عدة أوراق من المتن. والظاهر أنه بدأه من حيث توقف العراقي، وهو باب ما جاء في شفقة المسلم على المسلم الباب الثامن عشر من كتاب البر والصلة، يشعر بذلك أنّ السخاوي لما خرج في المقاصد الحسنة⁴ أحاديث في ذم الفحش - منها حديث "إنّ شر الناس منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء فحشه". قال: وقد استوفيت ما في المعنى فيما كتبت من تكملة شرح الترمذي" اهـ. والحديث المذكور أخرجه الترمذي في الباب التاسع والخمسين من كتاب البر والصلة.⁵ وقال الدكتور أحمد معبد: "لم أقف على نسخة منها رغم البحث الدائب".⁶
6. شرح الترمذي للحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (ت 795هـ): قال الحافظ ابن حجر: صنّف شرح الترمذي، فأجاد فيه في نحو عشرين مجلدة".⁷ ولم يصل إلينا منه إلا شرح العلال التي في آخر الجامع، وقطعة يسيرة من كتاب

¹ انظر العجالة السنية على ألفية السيرة النبوية، ص 4.

² مقدمة تحقيق النفع الشذي، 76/1.

³ 16/8.

⁴ الصفحة: 350.

⁵ 532/3 رقم 1996.

⁶ مقدمة محقق النفع الشذي (76/1)، وانظر الحافظ السخاوي وجهوده في الحديث (237/1).

⁷ إنباء الغمر (460/1)، وانظر الجوهر المنضد (ص 48).

اللباس،¹ وقد قال يوسف بن عبد الهادي: "قد احترق غالب ما عمله من شرح الترمذي في الفتنة".²

ومن خلال القطعة الموجودة يمكن أن يقال: إنه يخرج أحاديث الباب معتمداً بذكر المتابعات، كما يخرج الأحاديث التي يشير إليها الترمذي بقوله: (وفي الباب)، ويضيف إليه من لم يذكرهم الترمذي من الصحابة، ويخرج أحاديثهم، ويعتني في تخرجه هذه الأحاديث كلها بالكلام على مواضع الضعف والتعليل، ويختم الباب بذكر فقه الحديث معتمداً في ذلك بأقوال الفقهاء المتقدمين.³

وهو شرح موسع، يدلّ على ذلك أن ابن رجب يطيل النفس في شرح صحيح البخاري في بعض الأحاديث، ثم يقول: "وقد استوفينا الأحاديث في ذلك، والكلام عليها في شرح الترمذي".⁴ وأما شرح العلل التي بآخِر الجامع فهو غاية في التحقيق، لا يستغني عنه طالب العلم.

7. إنجاز الوعد الوفي في شرح جامع الترمذي للمحافظ سراج الدين عمر بن علي الشهير بابن الملقن (ت 804هـ): توجد قطعة منه مخطوطة،⁵ غالبها بخط المصنف، تنتهي عند ابتداء باب ما جاء في كيف الجلوس في التشهد من أبواب الصلاة. وهو شرح للأحاديث الزوائد في جامع الترمذي على أحاديث الصحيحين، وسنن

¹ هذه القطعة من كتاب اللباس طبعت بتحقيق سامي جاد الله عام 1439هـ.

² الجوهري المنضد (ص 49). والظاهر أن المراد بالفتنة ما عمله تيمور لنگ سنة 803هـ حينما هجم على دمشق، وعقد مع أهلها صلحاً، ثم غدر بهم، فأحرق البلد، وعمل بأهلها ألواناً من الفظائع. انظر: النجوم الزاهرة 12/190-194.

³ انظر دراسة الدكتور همام سعيد في بداية شرح علل الترمذي لابن رجب، 1/277-285.

⁴ فتح الباري، 6/179.

⁵ في مكتبة ششتربيتي تحت رقم (5187)، ومنها صورة عند فضيلة الدكتور عبد الله عبد العزيز الفالح، عضو هيئة التدريس بكلية الحديث الشريف والدراسات الإسلامية بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

أبي داود.¹

وذكر ابن قاضي شبهة عدداً من مصنفاته، منها هذا الكتاب، ثم قال: "ولكن لم يوجد ذلك بعده؛ لأن كتبه احترقت قبل موته بقليل".²

8. العرف الشذي على جامع الترمذي لأبي حفص سراج الدين عمر بن رسلان، المعروف بالبلقيني (ت 805هـ): قال ابن قاضي شبهة عند ذكر مصنفاته: "العرف الشذي على جامع الترمذي كتب منه قطعة صالحة، والسبب في عدم إكمالها لغالب مصنفاته اشتغاله بالأشغال والتدريس والتحديث والإفتاء".³ وذكر ابن فهد أن للبلقيني شرحين على الترمذي، أحدهما صناعة، والآخر فقه.⁴ وقال الدكتور أحمد معبد: "وعلى كل حال فلم أقف على شيء مما شرحه البلقيني من جامع الترمذي".⁵

9. شرح الترمذي لابن حجر العسقلاني (ت 852هـ): قال السخاوي: "شرح فيه في سنة ثمانٍ وثمانمائة في الدروس أول ما ولىّ تدريس الحديث بالشيخونية،⁶ فكتب منه قدر مجلدة مسودة، وقتر عزمه منه، ولو كمل لجاء في خمسة عشر سفرًا، أو ستة أسفار كبار، حسبما قرأته بخطه في موضعين".⁷ بينما ذكر السيوطي، وأبو الطيب السندي، والدكتور أحمد معبد أنهم لم يقفوا عليه.⁸

¹ انظر إنباء الغمر، 217/2.

² طبقات الشافعية له، 45/4.

³ المصدر نفسه، 43-42/4.

⁴ انظر: لحظ الأخطأ، ص 216.

⁵ مقدمة التحقيق على النصح الشذي للدكتور أحمد معبد، 80/1.

⁶ المدرسة الشيخونية بمصر: أنشأها شيخو، سيف الدين العمري (ت 758هـ)، فرغ من عمارتها سنة 757هـ. انظر: حسن المحاضرة، 266/2.

⁷ الجواهر والدرر، 676/2.

⁸ انظر: قوت المغتذي (1/15)، وشرح أبي الطيب السندي على جامع الترمذي (4/1)، ومقدمة محقق النصح الشذي (81/1).

10. قوت المغتذي على جامع الترمذي للحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت 911هـ): وهو شرح مختصر كالحاشية، اعتنى فيه السيوطي بمعاني الألفاظ، وإعرابها، وضبط بعض الأسماء الواردة في الإسناد والمتن، كل ذلك بأوجز عبارة، وأخلص إشارة. وكتب له مقدمة نفيسة تضمنت بيان شرط الترمذي، ومنزله عند أهل العلم، ورواته عن مؤلفه، ومصطلحاته.¹ طبع قديماً مع شرح أبي الطيب السندي في كانبور، الهند سنة 1299هـ.

11. شرح الترمذي لمجد الدين محمد بن طاهر الصديقي الفتني (ت 986هـ):² ذكر المباركفوري³ أنه لم يقف عليه، ولا يعلم هل أمته، أم لا؟

12. حاشية أبي الحسن محمد بن عبد الهادي السندي (ت 1138هـ)⁴ على جامع الترمذي: انصبت فيها عناية السندي على شرح الألفاظ، وبيان المراد، وطبعت في مصر بهامش جامع الترمذي.⁵

13. حياة المهجة وإيضاح الوجهة على سنن الحافظ المحجة أبي عيسى الترمذي لأبي الطيب محمد بن عبد القادر السندي الحنفي (ت 1149هـ):⁶ وهو أشبه بالحاشية، قال السندي في مقدمته: "استخرت الله تعالى أن أشرح شرحاً يحلّ جميع ألفاظه إلا ما شذ".⁷ وقال الدكتور أحمد معبد: لم أجد مؤلفه التزم بشرطه هذا من شرح جميع الألفاظ، أو أغلبها، بل وجدته ترك الكثير مما شرحه

¹ انظر: مقدمة تحقيق النفع الشذي (82/1)، والأحاديث الحسان الغرائب (ص 73).

² له ترجمة في نزهة الخواطر (409/1)، ومقدمة تحفة الأحوزي (189/1).

³ في مقدمة تحفة الأحوزي، 384/1.

⁴ ترجمته في الأعلام للزركلي، 253/6.

⁵ انظر: مقدمة تحفة الأحوزي، 190/1.

⁶ مقدمة التحقيق على النفع الشذي، 83-82/1.

⁷ شرح أبي الطيب السندي، 5/1.

السابقون...، كما أنه يخرج ما أشار إليه الترمذي بقوله في الباب، وتارة يتركه".¹
طبع قديماً مع قوت المعتدي في كانبور، الهند سنة 1299هـ.

14. حاشية أحمد علي بن لطف الله السهارنفوري (ت 1297هـ)² على جامع الترمذي: وهي في غاية الاختصار، تتضمن بيان غريب الحديث، وضبط ألفاظه. وطبعت بهامش السنن مع نفع قوت المعتدي، والعرف الشذي للسهارنفوري في مجلد واحد على القطع الكبير.

15. نفع قوت المعتدي لعلي بن سليمان الدميتي المغربي (ت 1306هـ):³ وهو اختصار لشرح السيوطي "قوت المعتدي". مطبوع.

16. الكوكب الدرّي على جامع الترمذي لرشيد أحمد الكنكوهي (ت 1323هـ):⁴ جمعه تلميذه محمد يحيى بن محمد إسماعيل الكاندهلوي (ت 1334هـ) من إفاداته، وهو أشبه بالمذكرات منه بالشرح، غالبه يتعلق بمعاني الأحاديث، وجواب الإيرادات على المذهب الحنفي.⁵ وطبع في أربعة مجلدات.

17. العرف الشذي على جامع الترمذي لمحمد أنور شاه الكشميري (ت 1352هـ):⁶ والكتاب في الأصل تعليقات كتبها تلميذه محمد جِراغ علي من إملاء شيخه الكشميري عند شرحه للجامع، وجلّ اعتنائه بأدلة الأحناف، والجواب عن الإيرادات على المذهب الحنفي. طبع في باكستان مع بعض الحواشي على جامع الترمذي.

¹ مقدمة التحقيق على النسخ الشذي، 83/1.

² ترجمته في جهود مخرصة، ص 89.

³ له ترجمة في الأعلام للزركلي (121/5)، وهدية العارفين (776/1).

⁴ له ترجمة في جهود مخرصة، ص 223.

⁵ انظر: نظرات في الحديث النبوي (ص 169-170)، والأحاديث الحسان الغرائب (ص 74).

⁶ له ترجمة في جهود مخرصة، ص 232-235.

18. تحفة الأحوزي شرح جامع الترمذي للعلامة محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت 1353هـ):¹ وهو شرح حافل، كتب له بمقدمة على نمط هدي الساري للحافظ ابن حجر، تكلم فيها على علم الحديث، وما ألف فيه من مصنفات متنوعة، كما تحدّث عن الترمذي، وجامعه مفصلاً. واعتنى بالصناعة الحديثية من الترجمة المختصرة لرجال الإسناد، وتخرّج أحاديث الباب، وما يشير إليه الترمذي بقوله: (وفي الباب)، ويذكر أحياناً بعض ما فات الترمذي من أحاديث، ويوضح الإشكالات الإسنادية والمتنية، كما يتناول الأحكام الفقهية المستنبطة من الحديث مع بيان أقوال أهل العلم فيها، وذكر أدلتها، ومناقشتها، ويهتم ببيان اختلاف النسخ في حكم الإمام الترمذي على الحديث إلا أنه قلما يعتني بتعليل تلك الأحكام.²

19. الطيب الشذي على جامع الترمذي لأشفاق الرحمن الكاندهلوي (ت 1377هـ):³ اعتنى مؤلفه بترجمة رجال الإسناد وشرح الألفاظ، وشرح المذهب الحنفي شرحاً وافياً منتصراً له بعد ما بين المذاهب الأخرى. وفي أول الكتاب مقدمة تضم تاريخ تدوين الحديث، وترجمة الإمام الترمذي ومصطلحاته وبعض مبادئ علوم الحديث. طبع الجزء الأول في عام 1344هـ من المطبعة الخيرية بمصر تحت إشراف الشيخ عاشق إلهي الميروتي.

20. معارف السنن لمحمد يوسف بن محمد زكريا البنوري (ت 1397هـ):⁴ يعتني

¹ له ترجمة في آخر مقدمة تحفة الأحوزي بقلم أبي الفضل عبد السميع المباركفوري (ص 615-635/الطبعة البيروتية)، وفي "جهود مخلص في خدمة السنة المطهرة" للفيرواني (ص 146-150).

² انظر ما كتبه أبو الفضل عبد السميع المباركفوري (ص 627-628)، والأحاديث الحسان الغرائب (ص 73-74).

³ انظر تاريخ التراث العربي (303/1)، وجهود مخلص (ص 236)، وله فيه ترجمة.

⁴ له ترجمة في جهود مخلص (ص 237)، وفي بداية الجزء الأول من معارف السنن بقلم الدكتور عبد الرزاق إسكندر (د-ح).

بشرح الألفاظ الغريبة، ويطيل النفس في المسائل الفقهية، يهتم بذكر المذاهب الأربعة، وينتصر للذهب الحنفي في جميع المسائل بكل ما أوتي من قوة. وربما تعرض لبعض المسائل الاصطلاحية. أفاد فيه من أبحاث شيخه محمد أنور شاه الكشميري. ولا يتعرض للتعريف برجال الإسناد إلا إذا دعت إليه داعية، ولا للتخریج إلا نادراً¹. وما يلاحظ على هذا الشرح أن مؤلفه يتناول فيه على بعض أهل العلم، منهم: العلامة ابن تيمية²، وابن القيم³، والمباركفوري⁴، بل يهتم غاية الاهتمام بالرد على المباركفوري، وبجّل أمثال ابن عربي الصوفي⁵، والكوثري⁶. طبع منه ستة مجلدات، تنتهي عند آخر أبواب الحج.

ثانياً: مكانة شرح العراقي بين شروح الترمذي:

بالنظر إلى شروح الترمذي يتضح أن أهمها شرح ابن العربي، وشرح ابن سيد الناس، وتكلمته للعراقي، وإكمله لأبي زرعة والسخاوي، وشرح ابن رجب، وشرح المباركفوري.

أما شرح ابن العربي فشرح مختصر، غابت فيه الصناعة الحديثية إلا نادراً، ولكن حاز بفضل السبق، فكم أقوال له اعتمدها من جاء بعده. وكذا لك يصل إلينا من شرح ابن رجب إلا قطعة، وهي تنبئ عن توسعه، وغزارة مادته، فإلى الله المشتكى. وأما شرح المباركفوري فتأخر، غالب اعتماده على من سبقه كابن حجر، والشوكاني، ولكنه أوسع الشروح الكاملة لجامع الترمذي، ويمتاز مؤلفه بالتمسك بالسنة. ولم يكمل

¹ انظر معارف السنن، 2/1.

² انظر المصدر نفسه، 413/4.

³ انظر المصدر نفسه، 387/1، و412/4-413.

⁴ انظر المصدر نفسه، 27/1، و28.

⁵ المصدر نفسه، 69/2.

⁶ المصدر نفسه، 17/1، و138/4.

ابن سيد الناس شرحه، فبنى عليه العراقي شرحه، فهما بمثابة كتاب واحد، وقد سار العراقي على منهجه، وفاقه توسعاً وتحريراً. فقال الشوكاني عن شرح ابن سيد الناس: "وهو ممتع في جميع ما تكلم من فن الحديث وغيره... ثم قال: ولما وقفت على الجزء الذي من شرح الترمذي الذي يلي هذا الجزء للزين العراقي بهرني ذلك، ورأيتة فوق ما شرحه صاحب الترجمة بدرجات"¹.

وقال عن شرح العراقي أيضاً: "وهو شرح حافل ممتع، فيه فوائد لا توجد في غيره، لا سيما في الكلام على أحاديث الترمذي، وجميع ما يشير إليه في الباب، وفي نقل المذاهب على نمط غريب، وأسلوب عجيب"².

ومما يوضح مكانته أنّ كل من وقف على هذا الكتاب اعترف من بحاره، كابن حجر في فتح الباري، والعيني في عمدة القارئ، والسيوطي في عقود الزبرجد، والمناوي في فيض القدير، والشوكاني في نيل الأوطار.³

وسياتي في المبحث التالي بيان منهجه مما ينبئ عن حسن ترتيبه، وغزارة مادته.

المطلب الخامس: منهج المؤلف في شرحه: يمكن استخلاص جوانب من منهج الحافظ العراقي في شرحه في النقاط التالية:

1. يذكر متن الباب من جامع الترمذي كاملاً دون أيّ تغيير قبل الشروع في الشرح، مما جعله كنسخة من نسخ الجامع، يستفاد منه عند وقوع الاختلاف في نسخ الجامع، لاسيما في أحكام الترمذي على الحديث.

¹ البدر الطالع، ص 767.

² المصدر نفسه، ص 362.

³ انظر: فتح الباري (2/330، و1/411، و3/27)، وعمدة القاري (6/131، و175، و208)، و(83/10). وعقود الزبرجد (1/149، و224)، وفيض القدير (1/82)، و(2/480)، و(228/5)، و(51/6)، ونيل الأوطار (2/80، و148، و152).

2. يعدّ شرح العراقي من كتب الشروح الموضوعية التي تقسم شرح الحديث إلى فقرات موضوعية، وتتكلم على كل فقرة منها على حدة، فالعراقي يبدأ شرح الباب بقوله: "الكلام عليه من وجوه"، ثم يفصل ذلك، وأقل ما وجد من هذه الوجوه وجه واحد،¹ وأحياناً يصل إلى أكثر من عشرين وجهاً.²
3. يجعل الوجه الأول غالباً لتخريج الأحاديث التي أسندها الترمذي، ثم التي أشار إليها.
4. يجعل الوجه الثاني غالباً لذكر الأحاديث المتعلقة بالباب مما لم يذكره الترمذي إذا وجدها الشارح، فيسرد أولاً أسماء الصحابة الذين لهم أحاديث، فيقول: الثاني في الباب مما لم يذكره عن فلان، وفلان...، ثم يخرجها حديثاً حديثاً، فيقول: أما حديث فلان فأخرجه فلان من رواية فلان ويذكر متنه. وهكذا.
5. إذا كان حديث الباب مما أخرجه أصحاب الكتب الستة، أو أحدهم فيخرجه منها، ويعتني باستيعاب طرقة فيها، ويقدم ذكر من هو أتم متابعة للترمذي. وإذا كان حديث الباب ليس عند أحد من أصحاب الكتب الستة يقول: انفرد به المصنف. وغالباً ما يقتصر على هذا ما لم تكن هناك فائدة في السند أو المتن فيخرجه من غيرها.
- وينبغي أن يعلم أنّ الشارح إذا خرج حديثاً من الكتب الستة فإنه يريد محل الشاهد منه، لا أصله.
6. إذا كانت الأحاديث التي أشار إليها الترمذي، أو التي استدرکها الشارح من الكتب الستة يخرجها منها، وإلا يخرجها غالباً من مسانيد أحمد، وأبي يعلى، والبزار، ومعاجم الطبراني الثلاثة.

¹ انظر شرح باب ما جاء في الخروج عند الفزع من أبواب الجهاد.

² انظر شرح باب ما جاء في الرهان من أبواب الجهاد، وفيه واحد وعشرون وجهاً.

7. إذا كان الحديث طويلاً يكتفي بذكر الشاهد منه.
8. يحكم على الأحاديث إما مجملاً، أو مفصلاً.
9. يعلّل أحكام الترمذي على الحديث أحياناً، ويعقد لذلك وجهاً مستقلاً.
10. يذكر أحياناً اختلاف الرواة في السند، أو في المتن.
11. ينبّه على الاختلاف الواقع بين نسخ الجامع إن لزم الأمر.
12. إذا كان الراوي الذي أخرج الترمذي حديثه من المقلين يذكر ما له من أحاديث في جامع الترمذي، وفي سائر الكتب الستة، ويعقد لهذا وجهاً مستقلاً.
13. يتكلم على الرواة جرحاً وتعديلاً خاصة المتكلم فيهم، وكان المدار عليهم، وقد يجمل، وقد يفصل.
14. يعتني ببيان المهمل من الرواة، والمكنى، والمبهم، والمتفق والمفترق.
15. يعتني بتفسير الكلمات الغريبة، وكثيراً ما يذكر مصدره من كتب الغريب واللغة، مثل الصحاح للجوهري، والنهاية لابن الأثير، والمحكم لابن سيدة، ويعقد لذلك وجهاً مستقلاً.
16. يعتني بالكلام على الأحكام المستنبطة من الحديث، وإن كان فيها خلاف بين أهل العلم يذكره، ويهتم بذكر الأوجه في مذهب الشافعية، ويعتمد في ذلك غالباً على الأم للشافعي، والوسيط للغزالي، والعزیز للرافعي، وروضة الطالبين للنووي، ويعتني بترجيحات الرافعي، والنووي.
17. يورد أحياناً الاعتراضات المحتملة على الحكم المستنبط من الحديث، ثم يجيب عنه.
18. يعتني بالجمع بين الأحاديث التي ظاهرها التعارض، ويجعل لذلك وجهاً مستقلاً.
19. في حالة عدم مناسبة أحاديث الباب للتبويب ينبّه على ذلك.

20. يعتني بإبراز القواعد الحديثية في شرحه.

21. له تعقبات على من سبقه من العلماء، كالترمذي، وابن حبان، وابن التركاوي، والمزي.

المطلب السادس: بعض موارد المؤلف في شرحه: اعتمد المؤلف في شرحه هذا على أمهات كتب الحديث وعلومه وكتب التفسير والشروح والتاريخ والتراجم والفقه واللغة وغيرها، والشرح كبير جداً، ولا يزال مخطوطاً، فيصعب جداً حصر موارد، ولكن ما لا يترك كله لا يترك جله، فقامت بمجرد شرح أبواب الجهاد عن رسول الله ﷺ، حتى أتعرف على بعض موارد.

فمن كتب التفسير وأسباب النزول: أسباب النزول للواحي، وتفسير ابن جرير، وتفسير ابن جرير الطبري، وتفسير ابن مردويه، وتفسير عبد بن حميد.

ومن أمهات كتب الحديث: الكتب الستة، والموطأ، وصحيح ابن خزيمة، وصحيح ابن حبان، وصحيح البرقاني، ومستدرك الحاكم، وسنن الدارقطني، والسنن لأبي بكر بن لال، والسنن الكبرى للبيهقي، ومسند أحمد، ومسند الدارمي، ومسند إسحاق بن راهويه، ومسند البزار، ومسند أبي يعلى الموصلي، ومسند الحارث بن أبي أسامة، ومسند الفردوس للدليبي، والمعجم الثلاثة للطبراني، ومعرفة السنن والآثار للبيهقي.

ومن الأجزاء الحديثية: الأدب المفرد للبخاري، والجهاد لابن أبي عاصم، والخلعيات (فوائد الخلعي)، والدعوات للبيهقي، والدعوات للمستغفري، وفوائد أبي بكر الشافعي (المعروفة بالغيلانيات)، ومعجم الشيوخ لابن مسدي، ومكارم الأخلاق للخرائطي.

ومن كتب السيرة والشمال: دلائل النبوة للبيهقي، والشمال للترمذي، والشمال لابن المقرئ، ومغازي محمد بن إسحاق.

ومن كتب شروح الحديث: الاستذكار لابن عبد البر، وإكمال المعلم للقاضي عياض،

والتمهيد لابن عبد البر، وشرح صحيح البخاري لابن بطال، وشرح صحيح مسلم للنووي، ومعالم السنن للخطابي، والمفهم لأبي العباس القرطبي.

ومن كتب التاريخ والتراجم: الاستيعاب لابن عبد البر، والألقاب للشيرازي، والتاريخ الأوسط للبخاري، وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي، والتاريخ الكبير للبخاري، وتاريخ مرو للمعداني، وتاريخ نيسابور للحاكم، والتنبيه على أوهام الاستيعاب لابن فتحون، وتهذيب الكمال للهي، وثقات ابن حبان، والجرح والتعديل لابن أبي حاتم، والحروف في أسماء الصحابة لأبي علي ابن السكن، والذيل على الاستيعاب لابن فتحون، وضعفاء العقيلي، وطبقات ابن سعد، والعبر للذهبي، والكامل لابن عدي، والكامل لعبد الغني المقدسي، والمعارف لابن قتيبة، ومعرفة الصحابة لابن منده، وكنى أبي أحمد الحاكم، والكنى لابن الجارود.

ومن كتب الأطراف والعلل والمصطلح: أطراف ابن عساكر، وأطراف المزي (تحفة الأشراف)، والأفراد للدارقطني، والدر النقي (المعروف بالجواهر النقي) لابن التركاني، وعلل الدارقطني، والعلل المنفرد عن الجامع للترمذي، وعلوم الحديث لابن الصلاح، والكفاية للخطيب، والمتفق والمفترق له.

ومن كتب الفقه: الأم للشافعي، واختلافات للبيهقي، وروضة الطالبين للنووي، وشرح المذهب (المجموع) للنووي، والمختصر للهنزي، ومنهاج الطالبين للنووي، والمهمات للأسنوي، والعزیز للرافعي، والوسيط للغزالي.

ومن كتب اللغة والغريب: الذيل على الغريين لأبي موسى المديني (المجموع المغيث)، والصحاح للجوهري، والكامل للهرود، والمحکم لابن سيده، والمشارك للقاضي عياض، والنهاية لابن الأثير.

ومن هذه الموارد ما هو في حكم المفقود الآن، كأطراف ابن عساكر، والألقاب للشيرازي، وتاريخ مرو للمعداني، وتاريخ نيسابور للحاكم، وتفسير ابن مردويه، وتفسير

عبد بن حميد، والتنبيه على أوهام الاستيعاب لابن فتحون، والحروف في أسماء الصحابة لآبي علي بن السكن، والذيل على الاستيعاب لابن فتحون، والسنن لأبي بكر بن لال، وصحيح البرقاني، والدعوات للمستغفري، والشمائل لابن المقرئ، والكنى لابن الجارود، ومعجم الشيوخ لابن مسدي، وقد يكون منها ما هو مخطوط في مكاتب العالم.

المطلب السابع: ذكر النسخ الخطية الموجودة للكاتب: للكاتب نسخ متعددة، بعضها بخط المصنف، وبعضها بخط تلاميذه، وبعضها متأخر، وسأذكر ما وجد من نسخته على سبيل الإجمال.

1. النسخة المحفوظة في مكتبة الإسكوريال بأسبانيا، ورقها (1464)، ومصورتها في مكتبة الجامعة الإسلامية برقم (1296)، تبدأ من أول تكملة العراقي، وتنتهي في أثناء باب ما جاء في التخشع في الصلاة.
2. النسخة المحفوظة في المكتبة المحمودية بالمدينة النبوية برقم (512)، وعدد أوراقها (278)، وتبدأ من أول الكتاب إلى آخر أبواب العيدين، وهي بخط الحافظ ابن حجر.
3. النسخة المحفوظة في المكتبة المحمودية برقم (536)، وعدد أوراقها (395)، وتحتوي على جزء كبير من شرح ابن سيد الناس، ثم على الجزء الأول من تكملة الحافظ العراقي، والتي تبدأ من ورقة (78/أ) إلى آخر النسخة.
4. النسخة المحفوظة في المكتبة المحمودية بالمدينة برقم (1/537)، وعدد أوراقها (193)، تبدأ من بداية كتاب الصوم، وتنتهي بنهاية كتاب الحج.
5. النسخة المحفوظة في المكتبة المحمودية برقم (2/537)، وعدد أوراقها (196)، وتبدأ من بداية أبواب الرضاع، وتنتهي بخاتمة كتاب الفوائد والأحكام.

6. النسخة المحفوظة في الخزانة العامة بالرياض، وعدد أوراقها (265)، ومصورتها في مكتبة الجامعة الإسلامية برقم (3010)، وتبدأ من بداية أبواب الجنائز، وتنتهي عند باب ما جاء في كراهية خروج النساء في الزينة من كتاب الرضاع.
7. النسخة المحفوظة في دار الكتب المصرية برقم (2504)، وعدد أوراقها (256)، وهي بخط الحافظ العراقي، تبدأ من باب كراهية عصب الفحل من كتاب البيوع، وتشتمل على أبواب من كتاب الأحكام، والديات، والحدود، والصيد والذبائح، والأطعمة، والفوائد والأحكام، والأضاحي، وفي ترتيب أوراقها خلل كبير.
8. النسخة المحفوظة في مكتبة فيض الله أفندي بتركي برقم (363)، وعدد أوراقها (226)، تبدأ في أثناء شرح باب ما جاء في إمام الرعية من كتاب الأحكام، وتنتهي في أثناء شرح باب كراهية أكل ذي ناب وذي مخلب من كتاب الأطعمة.
9. النسخة المحفوظة في مكتبة فيض الله أفندي بتركي برقم (364). توجد منها نسخة مصورة بالميكروفيلم في مكتبة الجامعة الإسلامية تحت رقم (3/9758)، وهي تمة نسخة الحافظ العراقي، وتتكون من مائتين وست وسبعين لوحة، وتشتمل على شرح أبواب من كتب الحج، والسير، وفصائل الجهاد، والجهاد، والأطعمة، والأشربة، والبر والصلة، مع خلط كبير في الأوراق.
10. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية بتركي تحت رقم (506): توجد منها نسخة مصورة بالميكروفيلم في مكتبة الجامعة الإسلامية برقم (1999)، وتتكون من (215) لوحة، وتبدأ من باب ما جاء في الأضحية بكباشين من أبواب الأضاحي، وتنتهي بباب ما جاء فيمن يستشهد وعليه دين من أبواب الجهاد، إلا أنه سقط من وسطه عدة أبواب.

11. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية بتركيا برقم (507)، وعدد أوراقها (201)، ومصورتها في مكتبة الجامعة الإسلامية برقم (2156)، وتبدأ من أول تكملة العراقي إلى باب الرجل يحدث بعد التشهد من أبواب الصلاة.

12. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية بتركيا برقم (508)، وعدد أوراقها (230). تبدأ من أثناء شرح (باب ما جاء إذا أقبل الليل وأدبر النهار فقد أفر الصائم)، من كتاب الصوم، وتنتهي في أثناء شرح (باب ما جاء في نزول الأبطح) من كتاب الحج، وفيها بياضات كثيرة في أماكن متعددة. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية بتركيا برقم (509)، وعدد أوراقها (224)، وهي بخط العراقي، تبدأ من بداية كتاب الجنائز، وتنتهي بنهاية شرح باب ما جاء لا تكح المرأة على عمتها ولا على خالتها من كتاب النكاح.

13. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية بتركيا برقم (510)، وعدد أوراقها (226)، وهي تبدأ من باب ما جاء في القنوت في الوتر، وتنتهي بشرح باب ما جاء في القائلة يوم الجمعة. وهي بخط الحافظ العراقي.

14. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية برقم (511): توجد منه نسخة مصورة بالميكروفيلم في مكتبة الجامعة الإسلامية تحت رقم (2/9840)، وهي بخط الحافظ العراقي، كما كتب على صفحة العنوان، وتتكون من مائتين وخمسة وأربعين لوحة، ولا تخلو من خروم، وهي كثيرة الضرب، والتصحيح، كما أنها محتلة الترتيب حيث حصل التداخل بين شرح أبواب الجهاد، واللباس، والحج، والأطعمة.....

15. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية بتركيا برقم (512)، وعدد أوراقها (251)، وهي بخط الحافظ العراقي، وتبدأ من باب ما جاء في سجدي السهو بعد السلام، وتنتهي عند نهاية شرح باب ما جاء ما يقرأ في الوتر.

16. النسخة المحفوظة في المكتبة السليمانية برقم (513): توجد منها نسخة مصورة بالميكروفيلم في مكتبة الجامعة الإسلامية تحت رقم (1/9840)، وتتكون من ثلاث مائة لوحة، وخطها حسن واضح، إلا أن اللوحات الست الأخيرة بخط دقيق، وتختلف عن الأول، وهي تبدأ من باب ما جاء في الثبات عند القتال من أبواب الجهاد، وتنتهي بباب ما جاء في شفقة المسلم من أبواب البر والصلة، وهو آخر ما انتهى إليه الشارح، كما كتب على صفحة العنوان، ولا تخلو من خروم، وجاء في آخر المخطوط ما لفظه: "رأيت بخط الحافظ ابن حجر على هذا المحل من الأصل، هذا آخر ما وجد بخط شيخنا الحافظ أبي الفضل من شرح الترمذي".

والكتاب تحت الطبع في عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. يسّر الله طبعه.

الخاتمة: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على الرحمة المهتدة. أما بعد: ففي ختام هذا البحث أود أن أسجل بعض النتائج والتوصيات التي ظهرت لي خلال البحث:

- الحافظ أبو الفضل زين الدين العراقي (725-806هـ) كان من كبار المحدثين في القرن الثامن الهجري، وقد تلمذ على كبار علماء عصره من غير تفريق بين الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي، وكذلك تلمذ عليه طلاب العلم من غير تفريق، لأنهم كان همهم أن يطلبوا العلم من منبهه، فعلى أهل العلم في زماننا أن ينتهجوا هذا المنهج؛ فإنه منهج ناجح، ودواء ناجح. وقد لوحظ في الآونة الأخيرة التعصب المقيت في بعض البلدان، فيلجأ الله المشتكى.
- قد تكون الكلمة الواحدة من الأستاذ سبباً للنجاح الباهر في حياة طالب العلم إذا صدرت عن حسن نية، فقد أثرت كلمة العز ابن جماعة في حياة العراقي العلمية تأثيراً ظاهراً، وغيّرت له مسار الحياة العلمية حتى صار من كبار المحدثين

في القرن الثامن، وربّي جيلاً مبارکاً للحدثين، على رأسهم الحافظ ابن حجر، وأبو زرعة العراقي، ونور الدين الهيثمي.

• الحافظ العراقي واسع الاطلاع، كما أنه يحسن النقد- عند ما يقتضي الأمر- لمن سبقه من العلماء مع أدب جم وتواضع تام. وتظهر شخصيته العلمية في تعقباته وانتقاداته.

• تكملة شرح الترمذي أحسن الشروح على جامع الترمذي إلا أنه لم يكمل، لكن جلّ من جاء بعده من الشراح الكبار اعترف منه.

• بدأ العراقي شرحه من حيث توقف ابن سيد الناس في شرحه المسمّى بـ"النفح الشذي". فشرع في شرحه من "باب ما جاء أن الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام"، ولكنه وصل في شرحه إلى "باب شفقة المسلم على المسلم" من أبواب البر والصلة، وبقي نصف الكتاب لم يتناوله بالشرح، واختارته المنية قبل إكماله، فأكله ابنه أبو زرعة، وأكله أيضاً السخاوي، حسبما ذكرت كتب التراجم، لكن لم يتيسر الوقوف على إكاملهما، فعلى الباحثين البحث عنهما في مكتبات العالم، أو على المتخصصين المتقنين إكماله وفق منهج العراقي في شرحه؛ فإنّ مسلك إكمال مؤلفات السابقين مسلك معمول به عند أهل العلم من قديم الزمان، وشرح العراقي أنموذج رائع لهذا المسلك.

• الدراسات والبحوث التي كتبت حول العراقي لم تغد من هذا الشرح في إبراز شخصية العراقي العلمية، مع أنه جهد كبير استغرق أعواماً من حياته، فيستحسن إبراز شخصيته العلمية من خلال هذا الكتاب في بحوث ورسائل علمية.

وأسأل الله عزّ وجلّ أن يوفّقنا لما يحبه ويرضاه.

المصادر والمراجع

1. إتخاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد الحسيني الزبيدي، مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، 1414هـ.
2. الأحاديث الحسان الغرائب لعبد الباري بن حماد الأنصاري، رسالة دكتوراه في كلية الحديث الشريف بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
3. الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ"زهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر" لعبد الحي بن نغر الدين الحسيني، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1420هـ- 1999م.
4. الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1980م.
5. الإمام الترمذي، ومنهجه في كتابه الجامع لعذاب محمود الحمش، دار الفتح للدراسات والنشر، الأردن، عمان: ط1، 1423هـ.
6. إنباء الغمر بأبناء العمر لابن حجر، تحقيق: حسن حبشي، وزارة الأوقاف، مصر، 1418هـ.
7. البدر الطالع لمحاسن من بعد القرن السابع لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط1، 1419هـ.
8. تاريخ ابن قاضي شبهة، تحقيق: عدنان درويش، المعهد العلمي الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، 1997م.
9. تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، تعريب: محمود فهمي حجازي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، 1411هـ.
10. التاريخ لأبي العباس أحمد بن حجي الدمشقي، تعليق: أبي يحيى عبد الله الكندري، دار ابن حزم، بيروت، ط1، 1424هـ.

11. تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي لأبي العلاء محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري، دار الكتاب العربي، بيروت، مصورة عن طبعة هندية.
12. تذكرة الحفاظ للذهبي. تصحيح: عبد الرحمن بن يحيى المعلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن طبعة دائرة المعارف، الهند.
13. تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور أحمد بن علي سير المباركي، الرياض، ط 3، 1422هـ. د.م.
14. التقييد والإيضاح للعراقي (مقدمة التحقيق للدكتور أسامة الخياط)، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط 4، 1435هـ.
15. التقييد والإيضاح لزين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، تحقيق: محمد راغب الطباخ، دار الحديث، بيروت، ط 2، 1405هـ.
16. تكملة شرح الترمذي للحافظ زين العراقي (مخطوط)، نسخة السليمانية (رقم 511، و512، و513)، ونسخة فيض الله أفندي (رقم 364).
17. التنبيه والإيقاظ لما في ذبول تذكرة الحفاظ لأحمد رافع الحسيني القاسمي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
18. جهود مخرصة في خدمة السنة المطهرة للدكتور عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، الجامعة السلفية، بنارس، الهند، ط 2، 1406هـ.
19. حاشية أبي الطيب السندي على جامع الترمذي، كانبور، الهند، 1299هـ. د.م.
20. الحافظ السخاوي وجهوده في الحديث وعلومه للدكتور بدر بن محمد العماش، مكتبة الرشد، السعودية، ط 1، 1421هـ.
21. الحافظ العراقي وأثره في السنة للدكتور أحمد معبد عبد الكريم، أضواء السلف، الرياض، ط 1، 1425هـ. د.م.
22. حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للسيوطي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، مصر، ط 1، 1387هـ.

23. درة المجال في أسماء الرجال لأبي العباس أحمد بن محمد المكاسي، الشهير بابن القاضي، تحقيق: محمد الأحمدى أبي النور، دار التراث، القاهرة المكتبة العتيقة، وتونس، د. ت.
24. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر، دار الجيل، بيروت، د. ت.
25. الدليل الشافي على المنهل الصافي لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، تحقيق: فهميم محمد شلتوت، جامعة أم القرى، مكة المكرمة.
26. ذيل التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد للتقي الفاسي محمد بن أحمد الحسيني، تحقيق: محمد صالح بن عبد العزيز المراد، جامعة أم القرى، ط1، مكة المكرمة، 1411هـ.
27. ذيل الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور عدنان درويش، معهد المخطوطات العربية، القاهرة، 1412هـ.
28. ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي لأبي المحاسن محمد بن علي الحسيني الدمشقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
29. ذيل طبقات الحفاظ للذهبي للسيوطي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د. ت.
30. الذيل على العبر في خبر من عبر لأبي زرعة أحمد بن عبد الرحيم العراقي، تحقيق: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1409هـ.
31. ذيل ميزان الاعتدال لأبي الفضل زين الدين العراقي، تحقيق: الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ط1، 1406هـ.
32. الرسالة المستطرفة لبيان مشهور كتب السنة المشرفة لمحمد بن جعفر الكافي، اعتناء: محمد المنتصر بن محمد الزمزمي بن محمد بن جعفر الكافي، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ط5، 1425هـ.
33. رفع الإصر عن قضاة مصر، لابن حجر، تحقيق: الدكتور علي محمد عمر، مكتبة

- الخانجي، القاهرة، ط1، 1418هـ.
34. شذرات الذهب في أخبار من ذهب لشهاب الدين أبي الفلاح عبد الحق بن أحمد بن محمد الدمشقي، الشهير بابن العماد الحنبلي، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، ومحمود الأرنؤوط، دار ابن كثير، دمشق وبيروت، ط1، 1413هـ.
35. شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي، تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد، مكتبة الرشد، الرياض، ط2، 1421هـ.
36. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي، دار الجيل، بيروت، د.ت.
37. طبقات الشافعية الكبرى للسبكي تاج الدين أبي نصر عبد الوهاب بن علي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو، ومحمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، د.ت.
38. طبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد بن محمد، المعروف بابن قاضي شعبة، تحقيق: الدكتور الحافظ عبد العليم خان، دار عالم الكتب، بيروت، ط1، 1407هـ.
39. طبقات الشافعية للأسنوي جمال الدين عبد الرحيم بن الحسن، تحقيق: عبد الله الجبوري. دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، 1400هـ.
40. طرح التثريب في شرح التقريب لزين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي، ولولده أبي زرعة ولي الدين أحمد، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1413هـ.
41. عارضة الأحوذني بشرح صحيح الترمذي لابن العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
42. العجالة السنية على ألفية العراقي في السنة النبوية لمحمد عبد الرؤوف المناوي، د.ت.
43. العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للتقي الفاسي، تحقيق: د. فؤاد السيد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، د.ت.

44. عقود الزبرجد في إعراب الحديث لجلال الدين السيوطي، دار الجليل، بيروت، 1414هـ، د.ت.
45. عمدة القارئ شرح صحيح البخاري لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد العيني، دار الفكر، بيروت، 1399هـ.
46. غاية النهاية في طبقات القراء لشمس الدين محمد بن محمد بن الجزري، اعتناء: ج. برجشتراسر. مكتبة المتنبّي، القاهرة، د.ت.
47. فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية، مصر، د.ت.
48. فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن رجب الحنبلي، تحقيق: طارق بن عوض الله، دار ابن الجوزي، الدمام، ط1، 1417هـ.
49. فتح المغيث بشرح ألفية الحديث لأبي عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي، تحقيق: علي حسين علي، الجامعة السلفية، بنارس، ط1، 1409هـ.
50. فتح المغيث للسخاوي (مقدمة التحقيق للدكتور عبد الكريم الخضير ومحمد الفهيد)، دار المنهاج، الرياض، ط1، 1426هـ.
51. فهرس الفهارس والأثبات، ومعجم المعاجم والمشیخات والمسلسلات لعبد الحی بن عبد الکبیر الکنانی، تحقیق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بیروت، ط2، 1402هـ.
52. قوت المغتذي: لجلال الدين السيوطي، كانبور، الهند، 1299هـ، د.م.
53. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لمصطفى بن عبد الله القسطنطيني، المعروف بجاجي خليفة، دار الفكر، 1402هـ.
54. اللباب في تهذيب الأنساب لعز الدين أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري، دار صادر، بيروت، 1400هـ.
55. لحظ الألاحظ بذيل طبقات الحفاظ لتقي الدين أبي الفضل محمد بن محمد بن محمد

- بن فهد الهاشمي، المكي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
56. مجمع الزوائد، ومنبع الفوائد لأبي بكر الهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1402هـ.
57. المجمع المؤسس للمعجم المفهرس لابن حجر، تحقيق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، دار المعرفة، بيروت، ط1، 1415هـ.
58. المستدرک علی معجم المؤلفین لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1406هـ.
59. معارف السنن شرح جامع الترمذي لمحمد يوسف بن محمد زكريا البنوري، إيج، إيم سعيد كعبي، أدب منزل، كرانشي، 1413هـ.
60. معجم البلدان لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، 1397هـ.
61. معجم الشيوخ لعمر بن فهد المكي، تحقيق: محمد الزاهي، دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، د.ت.
62. معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1414هـ.
63. المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة للسخاوي، تعليق: عبد الرحمن محمد الصديق، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1399هـ.
64. منهج الحافظ زين الدين العراقي في كتابه "طرح التثريب" لمحمد يحيى بلال منيار، رسالة الماجستير في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.
65. المنهل الصافي، والمستوفي بعد الوافي لابن تغري بردي، تحقيق: الدكتور محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984م.
66. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقرئية لأبي العباس أحمد بن علي المقرئ، دار صادر، بيروت، د.ت.
67. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لأبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، تعليق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1413هـ.

68. نظرات في الحديث وفي الصحاح الستة ونبذة عن تاريخ تدوين الحديث لأبي الحسن الندوي، دار ابن كثير، بيروت ودمشق، ط1، 1420هـ.
69. النفع الشدي في شرح جامع الترمذي لأبي الفتح محمد بن محمد بن محمد بن سيد الناس اليعمري، تحقيق: الدكتور أحمد معبد عبد الكريم، دار العاصمة، ط1، 1409هـ.
70. النكت على كتاب ابن الصلاح لابن حجر العسقلاني. تحقيق: د. ربيع بن هادي المدخلي، دار الراجية للنشر والتوزيع، الرياض، ط4، 1417هـ.
71. نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عصام الدين الصبابي، دار الحديث، القاهرة، ط4، 1417هـ.
72. هدية العارفين، أسماء المؤلفين، وآثار المصنفين من كشف الظنون لإسماعيل باشا البغدادي، دار الفكر، بيروت، 1402هـ.
73. وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.
74. الوفيات لأبي المعالي محمد بن رافع السلامي، تحقيق: صالح مهدي عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1402هـ.

تعدد أوجه القراءة وأثره في الحكم الفقهي مسألة لمس المرأة أنموذجاً

- عمر يكن¹

ملخص البحث: يهدف البحث الموسوم بتعدد أوجه القراءة وأثره في الحكم الفقهي، إلى الوقوف على دراسة اختلافات القراءات القرآنية التي لها أثرها في الاختلافات الفقهية، وذلك من خلال المقارنة بين الآيات الواردة، التي حصل فيها تعدد أوجه القراءات بين القراء، وما انبنى على ذلك من آراء فقهية على المذاهب الأربعة المشهورة؛ مذهب الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة، وكذلك مذهب الصحابة والتابعين، وتكمن أهمية هذا البحث في إبراز ذلك التلازم بين القراءات القرآنية وبين اختلاف الفقهاء في فهم الأحكام من خلال تلك القراءات.

وقد قام البحثُ على مسألة الاختلاف في حكم لمس المرأة أو ملامستها أيهما يوجب التطهر، فذكر الباحث بدايةً أوجه القراء في كلمة "لامستم"، ثم عرّج إلى الجانب اللغويّ معرّفاً مصطلحيّ المس واللمس والفرق بينهما، ثم اختلاف الفقهاء في المسألة على ثلاثة مذاهب، المذهب الأول: أنّ لمس المرأة ينقض الوضوء وأدلتّه، والمذهب الثاني: أنّ لمس المرأة لا ينقض الوضوء وأدلتّه، والمذهب الثالث: أنّ لمس المرأة ينقض الوضوء بشرطه، وأدلتّه، ثم الترجيح والخاتمة.

الكلمات المفتاحية: اختلاف القراءات، اختلاف الفقهاء، اللمس، المس، أحكام.

تمهيد: لعلّ من أهم الموضوعات الجديرة بالبحث والدراسة مما له تعلقٌ بعلوم القرآن الكريم هو الموضوعات الفقهية، ولما كان الباحثُ من الحفاظ، ومن عنده بعضٌ من

¹ أستاذ القرآن الكريم في كلية العلوم الإسلامية في جامعة ماردين آرتقو

علم القراءات، فقد أثار عنده موضوع أثر اختلاف القراء في قراءتهم لبعض الحروف، الرغبة في تتبع ذلك، وفي معرفة أثر الاختلاف في استنباط الأحكام الفقهية لدى الفقهاء، وتكمن أهمية دراسة مثل هذا الموضوع في إظهار ما يتصف به الشريعة الإسلامية من السعة والتيسير، ومراعاة أحوال المكلفين، فضلاً عن مرونة النصوص القرآنية وأهليتها للاستنباط، وقد قام الباحث بتتبع مسألة اللبس في مظانها المختلفة عند القدماء والمحدثين، مع بيان أدلة كل مذهب، وما ذهب إليه من آراء بخصوص القراءة المعتمدة، وتهدف هذه الدراسة إلى بيان ما حصل فيه خلاف بين الفقهاء في مسألة لمس المرأة، اعتماداً على اختلاف القراء في تلاوتهم للآيتين المشتملتين على الأحكام الفقهية، وبيان كيف تم الاستنباط من هذه القراءة وتلك، وترجيح ما يراه الباحث أنسب وأقرب للصواب، بدلائل علمية صحيحة.

لمس المرأة أو ملامستها، وأثره في اختلاف الفقهاء: اختلف الفقهاء في معنى اللبس الموجب للتيمم عند فقد الماء، هل هو الجماع، أو لمس اليد، أو الأمان معاً، وذلك من خلال تعدد القراءات في كلمة "لامستم" في كلٍّ من سورتي النساء والمائدة، وعلى القول بأن المراد من كلمة "لامستم" الجماع، قال الله تعالى في سورة النساء: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ مَا تَعْلَمُونَ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ¹

وقال جل شأنه في سورة المائدة: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ

1 سورة النساء: 43.

فقد قرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، ويعقوب كلمة "لامستم" بالألف، في السورتين، وقرأ حمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، والمفضل عن عاصم، والوليد بن عتبة عن ابن عامر: "لمستم" بدون ألف.²

الجانب اللغوي: واللمس لغةً هو الجسُّ، وقيل: "هو المُسُّ باليد، لمسه يلمسه لمساً ولأمسه، وناقاة لموس، والجمع لمُس"،³ "وقد يكنى عن الجماع باللمس واللماس، والعرب تقول: فلانة لا تردُّ يدَ لامسٍ"، ويقال: ألمسني الجارية، أي: ائذن لي في لمسها، ويقال: ألمسني امرأة، أي: زوجنيها، وهذا مجاز،⁴ "وروي عن عبد الله بن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما قالوا: القبلة من اللمس، وفيها الوضوء".⁵

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقول: المس واللمس والغشيان والإتيان والقربان والمباشرة كنايةً عن الجماع، لكنه عزَّ وجلَّ حي كريم يعفو ويكفي، فكفَى باللمس عن الجماع، كما كفى بالغائط عن قضاء الحاجة،⁶ ومنه الملامسة المنهي عنها في البيع.⁷

قال أبو عبيد: "الملامسة أن يقول: إذا لمست ثوبي أو لمست ثوبك فقد وجب البيع

¹ سورة المائدة: 6.

² البحر المحيط، 654/3؛ زاد المسير، 411/1؛ معجم القراءات، 80/2.

³ لسان العرب، 209/6.

⁴ معاني القراءات للأزهري، 310/1؛ تاج العروس من جواهر القاموس، 489/16. والحديث أخرجه الحاكم في المستدرک برواية أخرى: "إن القبلة من اللمس فتوضؤوا منها"، المستدرک علی الصحيحین للحاكم، "الطهارة"، 21.

⁵ ابن أبي شيبة، "الطهارة"، 496؛ وأخرجه الحاكم في المستدرک برواية أخرى: "إن القبلة من اللمس فتوضؤوا منها". الحاكم النيسابوري، "الطهارة"، 21.

⁶ عمدة القاري شرح صحيح البخاري، 47/3.

⁷ Akaslan Yaşar, "Kırâatların Fikhi Hükümlere Etkisine Dair Bir İnceleme", 19

Mayıs Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi, 2015 s.14.

بكذا وكذا، ويقال: هو أن يلمس المتاع من وراء الثوب، ولا ينظر إليه فيقع البيع على ذلك¹، وهذا من بيوع الجاهلية التي أبطلها الإسلام لما فيه من الغرر، والملاسة بوزن المفاعلة، وهي تفييد المشاركة بين طرفين.

أما المسُّ لغةً من مسَّ الشيء يمسُّه مسًّا، والمسُّ يكون باليد وبالحجر، ولا يقتضي أن يكون باليد، ويكون مجازاً قال تعالى: "مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ"²، وقال تعالى: "قَالَ أَكْثَرُكُمْوَنِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ"³، وقال البيضاوي: "المسُّ إيصال الشيء بالبشرة بحيث تتأثر الحاسة"، والمسُّ والمماسَّة كناية عن المباذعة، قال تعالى: "مِن قَبْلِ أَنْ يَتَمَآئَا"⁴.

والفرق بين المس والممس قال علي بن عيسى الرماني: المس يكون بين جمادين، أما الممس فلا يكون إلا بين حينين⁵، ومعنى كلامه أن المس أعمُّ من الممس، وقيل: الممس لصوقٌ بإحساس، أما المس فلصوقٌ فقط بدون إحساس⁶.

قال أبو حيان في المحيظ: "واختلفوا في تفسير الممس، فقال عمرو بن مسعود وغيرهما: هو الممس باليد، ولا ذكر للجنب إنما يغتسل أو يدع الصلاة حتى يجد الماء. قال أبو عمر: لم يقل بقولهم أحد من فقهاء الأمصار لحديث عمار، وأبي ذر، وعمران بن حصين في تيمم الجنب. وقال علي وابن عباس والحسن ومجاهد وقتادة: المراد بالجنب والجنب يتيمم. ولا ذكر للامس بيده، وهو مذهب أبي حنيفة. فلو قبل ولو بلذة لم ينتقض الوضوء. وقال مالك: الملامس بالجنب يتيمم"⁷.

¹ تاج العروس، 488/16؛ تهذيب اللغة، 316/12.

² سورة البقرة: 214.

³ سورة الحجر: 54.

⁴ مختار الصحاح، ص 294؛ معجم الفروق اللغوية، ص 468.

⁵ معجم الفروق اللغوية، ص 469.

⁶ المصدر السابق ص 468؛ Tugral, "FarkliKiraatlerinTefsir'dekiYeri", s.274

⁷ البحر المحيظ، 269/3.

اختلاف الفقهاء: تعددت القراءة في الآيتين من سورة النساء وسورة المائدة، فذهب بعضهم إلى قراءتها "لمستم"، وبعضهم قرأها "لامستم" بزيادة ألف، مما أدى إلى اختلاف الفقهاء على مسألتين، وسببه الاختلاف في معنى اللمس والملازمة في كلام العرب، فقد جاء في كلامهم أنّ اللمس ما كان باليد، وجاء في كلامهم أيضاً أنّ اللمس كناية عن الجماع، وهذا موافق لمعنى الملازمة عندهم،¹ فكان اختلاف الفقهاء في مسألة لمس الرجل للمرأة هل ينقض الوضوء أم لا، بناء على اختلاف القراء في قراءة آيتي النساء والمائدة، على ثلاثة مذاهب:

مذهب أنّ لمس المرأة ينقض الوضوء وأدلته: حيث قالوا: بأنّ لمس المرأة ينقض الوضوء، سواء مسّها يده أو برجله، بشهوة أو بغير شهوة، عامداً كان أو ناسياً، وبوّأ على أنّ الملازمة في هذه الآية مختصة باليد، "وبه قال من الصحابة عمر وابن مسعود رضي الله عنهما، ومن التابعين الشعبي والزهري، ومن الفقهاء النخعي والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق".² وفي أحد القولين عند الشافعية تشمل الآية جميع النساء، حتى ذوات المحارم كالأمّ والبنت والأخت والعمّة.³

وقد استدلل أصحاب هذا المذهب القائلون بأنّ لمس المرأة ينقض الوضوء بالآتي:

أولاً: عموم الآية الكريمة "أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً" قالوا: يفهم من الآية انتقاض وضوء اللامس، "فقد عطف اللمس على الجيء من الغائط، ورتب عليهما الأمر بالتييم عند فقد الماء، فهو حدثٌ كالغائط"،⁴ وقال الشافعي: "فأشبه أنّ يكون

¹ ومنه قول الشاعر ابن الخياط من البحر الطويل: لمست بكفي كفه أبغني الغنى... ولم أدر أن الجود من كفه بعدي؛ إميل بديع يعقوب، المعجم المفصل في شواهد العربية، 414/2.

² الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي، 183/1.

³ بحر المذهب، 147/1.

Yaşar, "Kırâatların Fikhi Hükümlere Etkisine Dair Bir İnceleme", s.10-11

⁴ كفاية النبيه في شرح التنبيه، 393/1.

أوجب الوضوء من الغائط، وأوجبه من الملامسة، وإنما ذكرها موصولة بالغائط بعد ذكر الجنابة، فأشبهت الملامسة أن تكون اللمس باليد".¹

ثانياً: ولأنّ لمس المرأة مَظَنَّةُ الالتِذازِ والشهوة باعتبار الجنس، فلزم الوضوء تحسُّباً من خروج مذبيٍّ أو ما شابه.²

ثالثاً: ما نقضه الوضوء من الأجانب، ينقضه من المحارم أيضاً، لأنّ ظاهر الآية يدل على لمس المرأة بإطلاقها.³

رابعاً: أنّ ظاهر الآية ملامسة البشرة البشرية، وهذا الأصل عند الشافعية، وهو الأخذ بظاهر القرآن ما لم تأت قرينةٌ تصرفه، وعضد الشافعي هذا الظاهر بالقراءة السبعية "أو لمستم النساء".⁴

خامساً: لو كان المراد باللمس هو الجماع لكان تكراراً في الكلام، ومما يدلّ على أنّ إطلاق اللمس يتناول باليد دون الجماع؛ "ما رواه عكرمة عن ابن عباس: أنّ ماعراً الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فاعترف بالزنى، فقيل في بعض الأخبار: إنه ﷺ قال: لعلك قبلت أو لمست"، فأطلق اللمس، فلو كان للجماع على ما يقول أبو حنيفة لم يكن في هذا فائدة؛ لأنه يكون قد قال لمن اعترف بالجماع: لعلك جمعت، ولا يجوز هذا من النبي ﷺ، فلما فرق النبي ﷺ بين قول الرجل: زيت، وبين قوله ﷺ: "لمست"، علمنا أنّ اللمس غير الجماع، والنبي ﷺ سيد أهل اللغة، وبحضرة سادات في اللغة يقول: "لعلك لمست"، فلا يقول أحد منهم: يا رسول الله، اللمس: الجماع، فلما سكتوا مع إطلاقه علم أنّ إطلاق اللمس في لسانهم هو اللمس دون الجماع.⁵

¹ أحكام القرآن للشافعي، 46/1.

² تحفة المحتاج، 128/1.

³ كفاية التبيه، 396/1.

⁴ شرح متن أبي شجاع، 10/1.

⁵ عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار، 518/517/1؛ الجامع لأحكام القرآن، 224/5.

مذهب أن لمس المرأة لا ينقض الوضوء وأدلته: لمس المرأة لا ينقض الوضوء، وذلك لأن اللبس والملاسة في هذه الآية يُقصد بها الجماع، وهو مذهب الحنفية،¹ وذكروا ما نصّه: "ولا يجب الوضوء على مس المرأة أو تقبيلها إذا تيقن بعدم خروج المذي، وبه قال أصحابنا"، وهو قول عائشة وعطاء والحسن البصري وأبي يوسف ومحمد وزفر والثوري والأوزاعي والشعبي.² وقد استدلوا بالآتي:

أولاً: حديث عائشة رضي الله عنها، "أن رسول الله ﷺ قَبَلَ بَعْضَ نِسَائِهِ ثُمَّ حَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ وَلَمْ يَتَوَضَّأْ، قَالَ عُرْوَةُ: قُلْتُ لَهَا: مَنْ هِيَ إِلَّا أَنْتِ؟ فَضَحِكَتْ".³

ثانياً: حديث "أبي هريرة عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة من الفراش فالتمسته فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان وهو يقول: اللهم أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك"،⁴ فلو كان وضوء المموس ينتقض لم يمض ﷺ في سجوده.⁵

ثالثاً: أن حقيقة الملاسة اسم لالتقاء البشريتين لغة وشرعاً.

ثم "إن الملاسة اسم له حقيقةً ومجازاً، وقد يستعمل في الجماع، وفي المسيس، فلم يجوز أن يكون حقيقةً فيها، ولا أن يكون حقيقةً في الجماع، لأنه بالمسيس أخص وأشهر، فصار مجازاً في الجماع، حقيقةً في المسيس، والحكم المعلق بالاسم يجب أن يكون إطلاقه محمولاً على حقيقته دون مجازه، فإن قيل: بل هي حقيقة في الجماع لأمرين:

¹ البنية شرح الهداية، 306/1؛ الحاوي الكبير، 183/1.

² أحكام القرآن، 4/4، 18، Yaşar, "Kıraatların Fikhi Hükümlere Etkisine Dair Bir İnceleme", s. 18.

³ مسند أحمد، 497/42، رقم الحديث: 25766؛ سنن ابن ماجه، "الطهارة"، 69؛ سنن الترمذي، "الطهارة"، 63، وصححه ابن سيّد الناس في النفع الشذي، شرح جامع الترمذي، 304/2.

⁴ مسلم، "الصلوة"، رقم الحديث: 486.

⁵ تلخيص الحبير في أحاديث الرافي الكبير، "الطهارة"، 10، رقم الحديث: 164.

أحدهما: أنّ علياً وابن عباس حملاه على الجماع، وهو المراد به أَعْرَفُ. والثاني: أنها مفاعلة لا تكون إلا من فاعلين، وذلك هو الجماع دون المسيس¹.

وأما "تأويلا علي وابن عباس فقد خالفهما ابن مسعود وابن عمر، وكذلك عمر وعمار، وأما المفاعلة لا تكون إلا من فاعلين فكذلك صورة المسيس باليد، على أنّ حمزة والكسائي قد قرآ: "لَمَسْتُ" وذلك لا يتناول إلا المسيس باليد، فإن حُمِلت قراءة مَنْ قرأ "لَمَسْتُمْ" على الجماع كانت قراءة مَنْ قرأ "لَمَسْتُ" محمولةً على المسيس باليد، فيكون اختلاف القراءتين محمولاً على اختلاف حكمين، على أن زيد بن أسلم وهو من أهل العلم بتفسير القرآن قال: إن في الآية تقديمًا وتأخيرًا، وربّ الآية ترتيباً حسناً يسقط معه هذا التأويل، فقال: ظاهر قوله: "وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مِّنَ اللَّيْلِ أَوْ لَمْ تَمْسُوا نِسَاءَكُمْ" فيقتضي أن يكون السفر والمرض حدثاً وبالجماع ليسا يحدث فدلّ على أنّ في الآية تقديمًا وتأخيرًا، وأنّ ترتيب الكلام: "يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة من نوم أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين إن وجدتم الماء، وإن كنتم جنباً فاطهروا، وإن كنتم مرضىٰ أو على سفر أو جاءكم ما تقدم من الحدث أو الجنابة فميمموا صعيداً طيباً"، وهذا تفسير يقتضيه ظاهر الآية، ويسقط معه هذا التأويل، وليس يمتنع في الكتاب واللغة التقديم والتأخير².

مذهب أنّ لمس المرأة ينقض الوضوء بشرطه، وأدلتته: ذهب قوم من الفقهاء إلى أنّ لمس المرأة ينقض الوضوء، ولكن ليس على إطلاقه، وقد اختلفوا في ذلك على أقوال:

- فاللك وجمهور أصحابه قالوا: ينقض الوضوء إن كان لمسها بشهوة، فأما إن لمسها بغير شهوة فلا وضوء عليه³، ولا فرق بين اللمس باليد أو غيرها من الأعضاء إذا التذّب، وبه

¹ يُنظر: الحاوي الكبير، 1/185؛ أثر القراءات القرآنية في أحكام اليمين، ص 89-90.

² الحاوي الكبير، 1/185؛ أثر القراءات القرآنية في أحكام اليمين، ص 89-90.

³ التلقين في الفقه المالكي، 1/22.

قال أحمد وإسحاق.¹

- وقال الأوزاعي: لمس المرأة ينقض الوضوء باليد فقط، "إذا كان اللمس باليد نقض الوضوء، وإن كان بغير اليد لم ينقضه"، سواء في ذلك اللمس والملبوس، لقوله تعالى: "فَلَمَّسُوهُنَّ بِأَيْدِيَهُمْ"².

- وقال علي بن زياد³: لمس المرأة ينقض الوضوء إن كان اللمس بلا حائل، "فإن كان عليها ثوبٌ كثيفٌ فلا شيء عليه، وإن كان خفيفاً فعليه الوضوء"⁴.

- وقال داود بن علي الظاهري: لمس المرأة ينقض الوضوء؛ إن كان اللمس بقصد، وإلا فلا ينتقض؛ لأنّ الوضوء إنما هو على القاصد إلى اللمس لا على الملموس دون أن يقصد هو إلى فعل الملامسة؛ لأنه لم يلامس⁵.

- وبعضهم يقول: لمس المرأة الأجنبية المشتبهة باليد ينقض الوضوء، أما لمعالجة أو اضطرار أو رُقِيَةً فلا ينقض الوضوء، سواء وُجِدَت اللذة أم لا.⁶

¹ أبو الوليد الباجي في المنتقى: "والذي تحقق من مذهب مالك وأصحابه، أن الوضوء إنما يجب لقصد اللذة دون وجودها، فن قصد اللذة بلمسه فقد وجب عليه الوضوء، التذأم لا"، المنتقى شرح الموطأ، 92/1، الجامع لأحكام القرآن، 224/5، Yaşar,

"Kırâatların Fikhi Hükümlere Etkisine Dair Bir İnceleme", s.21

² البناية شرح الهداية، 306/1، Yaşar,

"Kırâatların Fikhi Hükümlere Etkisine Dair Bir İnceleme", s.24.

³ هو أبو الحسن، علي بن زياد التونسي العبسي، ثقة بارع في الفقه سمع من مالك والثوري والليث بن سعد وغيرهم لم يكن بعصره بإفريقية مثله، روى عن مالك الموطأ، وكان أهل العلم بالقيروان إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد ليعلمهم بالصواب، وكان خير أهل إفريقية في الضبط للعلم، ومات علي بن زياد والبهلول بن راشد سنة ثلاث وثمانين ومائة. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، 93/2.

⁴ الجامع لأحكام القرآن، 224/5.

⁵ المحلى بالآثار، 247/1، المجموع شرح المهذب، 30/2، البيان في مذهب الإمام الشافعي، 180/1.

⁶ كتاب النيل وشفاء العليل، 134/1-135.

وقد استدل أصحاب المذهب الثالث القائلون: بأن لمس المرأة ينقض الوضوء بشرط حصول اللذة، بالآتي:

أولاً: اتباع ظاهر القرآن في قوله تعالى "أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ"، فاللمس مع القصد إلى اللذة يوجب الوضوء، وإن لم يلتذ، لأن الله سبحانه لم يشترط وجود اللذة، كما في ظاهر الآية.¹

ثانياً: حديث أبي سلمة، "عن عائشة قالت: كنت أنام بين يدي رسول الله ﷺ ورجلاي في قبلته، فإذا سجد غمزني، فقبضت رجلي، فإذا قام بسطتها"، قالت: "والبيوت يومئذ ليس فيها مصابيح".²

ثالثاً: صلاة النبي ﷺ "وهو يحمل أمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فعن أبي قتادة قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم الناس وأمامة بنت أبي العاص على عاتقه، فإذا ركع وضعها وإذا رفع من السجود أعادها" وهذا دليل على أن لمس غير المشتبهة لا ينقض الوضوء.³

رابعاً: ما روي "عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: قبلة الرجل امرأته وجسها بيده من الملامسة، فن قبل امرأته أو جسها بيده فعليه الوضوء"،⁴ فدل قول ابن عمر على أن الوضوء يكون على اللامس بشهوة، "والمرأة هنا تعني الزوجة، أو أية امرأة من غير محارمه ممن تحل له، إذا بلغت حداً يشتهي".

الترجيح: إن لمسأة الوضوء مكانة مهمة في حياة المسلمين، فهي من القضايا الفقهية التي نالت حيزاً وافراً من فقهاء الأمة الإسلامية، من خلال اختلافهم في بعض فروع هذه

¹ البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة، 1/153.

² البخاري، "الصلاة"، 22؛ مسلم، "الصلاة"، 51؛ مالك بن أنس، الموطأ، "صلاة الليل"، رقم: 2.

³ البخاري، "الأدب"، 18.

⁴ جامع الأصول في أحاديث الرسول، "الطهارة"، باب الوضوء، لمس المرأة، رقم: 5228، إسناده صحيح، أخرجه مالك في الموطأ، "الصلاة"، 24.

المسألة، وخاصةً في كلمة "لامستم" التي وردت فيها قراءة أخرى، جعلت الفقهاء يعيّنون المسألة حسب فهمهم لكلمة "لامستم" هل يُقصدُ بها اللمس باليد، فالرجل والمرأة من المحتمّ أن يمسّ بعضهما البعض في اليوم أكثر من مرّة، أم يُقصدُ بها الجماع.

وبعد عرض مذاهب العلماء في مسألة الوضوء من لمس المرأة، واستعراض أدلة كل فريق منهم، يترجح رأي المذهب الثاني، الذين فسّروا اللمس بالجماع لا اللمس باليد، وهو مذهب الحنفية، القائلين: بأنّ لمس المرأة لا ينقض الوضوء، لأنه أكثر ملاءمة للواقع الاجتماعي من المذهب الأول القائل: بوجود الوضوء عند كل لمس، فلا يُنكر أنّ اللمس باليد هو الحقيقة؛ لأنه السابق إلى الأفهام، إلا أنّ العلماء حملوه على مجازة وهو الجماع، ويؤيده ما روى الشعبي، عن أصحاب علي، عن عليّ ؓ أنه فسّر اللمس بالجماع،¹ وما روى "سعيد بن جبير عن ابن عباس ؓ أنه قال: الملامسة هي الجماع"،² فتفسير علي وابن عباس ؓ الملامسة بالجماع فيه دلالة قوية على أنه هو المراد في الآية دون اللمس باليد.³

ومما يؤيد حمل الملامسة على الجماع هو أنّ أول الآية عامٌّ في حق الرجال والنساء، وهو قوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ"، وهذا عام في الرجال والنساء جميعاً، لذا يجب أن يحمل اللمس على ما يشترك فيه الرجال والنساء وهو الجماع، وبهذا يكون آخر الآية مطابقاً لأولها، لأننا إن حملناها على اللمس باليد وجب تخصيص آخر الآية بوجود الوضوء على الرجال دون النساء، فيخالف أول الآية آخرها.⁴

وبهذا يترجح أنّ الوضوء لا ينقض باللمس، لأننا حملنا الملامسة على الجماع، لا بمعنى اللمس، وكذلك ليس في السنة دليل على وجوب الوضوء من اللمس، بل السنة تدل

¹ المصنف لابن أبي شيبة، "الطهارة" 1771.

² المصدر السابق،.

³ يُنظر: الانتصار على علماء الأمصار، 1/921.

⁴ يُنظر: المرجع السابق، 1/9241768.

على خلاف ذلك، وقد تقدم ذكر الأحاديث الدالة على عدم النقض، عند الكلام على أدلة الحنفية، القائلين بعدم النقض باللمس.

وهذا المذهب يتوافق مع ما جاءت به الشريعة الإسلامية من يسرٍ وتخفيفٍ على المكلفين، وحتى لا يعرضهم للضيق والمشقة، فجاء هذا المذهب مُتَنَفِّسًا لِلْعِبَادِ مِنْ تَكَرُّرِ عَمَلِيَةِ الْوُضُوءِ عِنْدَ كُلِّ لِمْسٍ أَوْ تَقْيِيلٍ، وَأَقْوَى دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ هُوَ "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقْبَلُ بَعْضَ نِسَائِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ إِلَى صَلَاتِهِ وَلَا يَتَوَضَّأُ"¹ وهو حديث صحيح، وهو نص في المسألة، ثم إنه حُكْمٌ تَحْكِيهِ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَهِيَ أَعْرَفُ النَّاسِ بِمَثَلِ هَذِهِ الْأُمُورِ، فِي عِلَاقَةِ النَّبِيِّ ﷺ بِزَوْجَاتِهِ.²

الخاتمة: وفي ختام هذا البحث، وبعد عرض أوجه القراءات في الآية، والاطلاع على أثر اختلاف القراءات على الأحكام الفقهية عند الفقهاء، والوقوف عند وجوه الاتفاق والاختلاف فيها، وما كان فيها من أثرٍ عندهم، وقد قاده البحث إلى بعض النتائج التي يمكن إجمالها في الآتي:

النتيجة الأولى: أثر الدلالة اللغوية والنحوية على الحكم الفقهي، وسبب ذلك أن هناك علاقة مباشرة بين اختلاف القراءات في قراءة بعض ألفاظ القرآن وبين اختلاف الفقهاء، من حيث دلالة كل قراءة منها من الناحية اللغوية، ومن الناحية الإعرابية أيضاً، لأنَّ مَبْنَى الاستدلال في أساسه قائم على الدلالات اللغوية، كما في دلالة اللبس والملامسة مثلاً.

النتيجة الثانية: عدم اقتصار الآراء الفقهية على صاحب مذهبٍ بعينه، وسببه أن اختلاف بين الفقهاء المبني على اختلاف القراءات غير مقتصر على اختلاف الفقهاء الأربعة منهم وحسب، بل سبقهم لذلك فقهاء الصحابة والتابعين، وشاركهم في ذلك

¹ جامع الأصول لابن الأثير، "الطهارة"، لمس المرأة أو الفرج، رقم الحديث: 5227.

² Yaşar, "Kırâatlerin Fikhi Hükümlere Etkisine Dair Bir İnceleme", s.24.

أيضاً أصحاب المذاهب الأخرى المعروفة، كالظاهرية، والزيدية، والإباضية، والإمامية. النتيجة الثالثة: اعتبار الاختلاف بمثابة القيمة المضافة، التي يعنى بها البحث، وذلك لأنّ الاختلاف بين الفقهاء مظهرٌ من مظاهر اليسر والسعة على الأمة، ولأنّ بعض الأحكام المستنبطة من بعض القراءات يَتَجَلَّى فيها بوضوح رفع المشقة والعنت عن الناس، وهو غاية مقصودة للشارع الحكيم، يمكن الوقوف عليها في كثيرٍ من الآيات التي اختلفوا في قراءتها.

المراجع

1. القرآن الكريم
2. أحكام القرآن للجصاص، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1994م.
3. أحكام القرآن للشافعي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1994م.
4. أحكام القرآن للقاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الاشيلي المالكي ابن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 2003م.
5. بحر المذهب لأبي المحاسن عبد الواحد بن إسماعيل الروياني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2009م.
6. البناية شرح الهداية لأبي محمد بدر الدين محمود بن أحمد الحنفي العيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2000م.
7. البيان في مذهب الإمام الشافعي لأبي الحسين يحيى بن أبي الخير بن سالم اليمني الشافعي، دار المنهاج، جدة، ط1، 2000م.
8. البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة لأبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد القرطبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1988م.
9. تاج العروس من جواهر القاموس لأبي الفيض محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، دار الهداية، د.ط، د.ت.
10. تلخيص الحبير في أحاديث الرافي الكبير لابن حجر العسقلاني، المدينة المنورة، د.ط، 1964م.
11. التلقين في الفقه المالكي لأبي محمد بن علي بن نصر الثعلبي البغدادي المالكي دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2004م.
12. تهذيب اللغة للأزهري الهروي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط1، 2001م.

13. جامع الأصول في أحاديث الرسول لمجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير، مكتبة الحلواني، القاهرة، ط1، 1970م.
14. الجامع لأحكام القرآن لشمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1964م.
15. الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1999م.
16. الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب لبرهان الدين إبراهيم بن علي بن محمد ابن فرحون اليعمرى، دار التراث، القاهرة، د.ط، د.س.ط.
17. شرح متن أبي شجاع لمحمد حسن عبد الغفار، دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية.
18. عمدة القاري شرح صحيح البخاري لبدر الدين محمود بن أحمد العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط، د.ت.
19. عيون الأدلة في مسائل الخلاف بين فقهاء الأمصار لأبي الحسن علي بن عمر البغدادي المالكي ابن القصار، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، د.ط، 2006م.
20. كفاية النبيه في شرح التنبيه لأحمد بن محمد بن علي الأنصاري ابن الرفعة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 2009م.
21. لسان العرب لجمال الدين محمد بن مكرم بن علي ابن منظور الأنصاري، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ.
22. المجموع شرح المهذب لأبي زكريا يحيى بن شرف النووي، دار الفكر، د.ط، د.ت.
23. المحلى بالآثار لأبي محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري، دار الفكر، بيروت، د.ط، د.ت.
24. مختار الصحاح لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، المكتبة العصرية، بيروت، ط5، 1999م.

25. معاني القراءات للأزهري، مركز البحوث في كلية الآداب، جامعة الملك سعود، السعودية، ط1، 1991م.
26. معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، ط1، 1412هـ.
27. معجم القراءات لعبد اللطيف الخطيب، دار سعد الدين للطباعة، دمشق، ط1، 2002م.
28. المعجم المفصل في شواهد العربية لإميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط1، 1996م.
29. المنتقى شرح الموطأ لأبي الوليد سليمان بن خلف الأندلسي الباجي، مطبعة السعادة، مصر، ط1، 1332هـ.
30. Tugral, Rahim, "FarkliKıraatlerinTefsir'dekiYeri", DokuzEylül Üniv. İlahiyatFakültesiDergisi, İzmir 1992.

دخول "الباء" على خبر "كان" وأخواتها

- د. أوزنك زيب الأعظمي¹

قرأنا في كتب النحو أنّ "الباء" تدخل على خبر "ليس" أو "ما" التي تدلّ على "ليس" كما أنها تأتي على "لا" عند تكرارها مع "ليس" أو "ما" وكذا أنها تحذف بعد "لا" جارة الخبر حين التكرار. قال عبيد بن الأبرص:

تمنى مَرِيءُ القيس موتي، وإن أمت فتلك سبيلُ لستُ فيها بأوحد²
وقال حاتم الطائي:

وما أنا بالماشي إلى بيتِ جارتِي طُروقًا أحييها كآخِرِ جانب³
ولو شهدتنا بالمزاج لأيقنتُ على ضُرنا أنا كرامُ الضرائب⁴
وقال أبو النجم العجلي:

إنّ ذواتِ الأزر والبراقع
والبدنَ في ذاك البياض الناصع
ليس اعتذاري عندها بنافع
ولا شفاعاتٍ لذاك الشافع
يلقن بالخيار، والأجارع

¹ مدير تحرير "مجلة الهند" وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي

² ديوانه، ص 60

³ جانب: غريب

⁴ ديوانه، ص 58

كَلَّ جهيضمٍ لَيْنِ الأكارع
ليس محفوظٌ ولا بضائع¹

وقال دريد بن الصمة:

وما قصرت يدي عن عظيمٍ أمرٍ أهمَّ به ولا سهمي بنكس²
وقال تأبط شراً:

ولست بمفراجٍ إذا الدهرُ سرّني ولا جازعٍ من صرفه المتحول³
وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

فما أحدٌ منا بمهدٍ لجاره أداةٌ ولا مُزِرٌ به وهو عايد⁴
وقال مرداس بن حصين:

وقد ترك الفوارسُ يومَ حسيّ غلاماً غيرُ متّاعٍ المتاع
ولا فرجٍ بخيرٍ إن أتاه ولا جزعٍ من الحدّثان لراع
ولا وقافة⁵ وانخيلٌ تردي ولا خالٍ كأنبوبٍ اليراع⁶
وقال الأسود بن يعفر الجاهلي:

تحيةٌ من لا قاطعٍ حبلٍ واصلٍ ولا صارمٍ قبلَ الفراقِ قرينا⁷

¹ ديوانه، ص 263-264

² ديوانه، ص 118

³ ديوانه، ص 178

⁴ شرح ديوانه، ص 105

⁵ التاء هنا للبالغة

⁶ النوادر في اللغة لأبي زيد، ص 150-151

⁷ النوادر في اللغة، ص 195

ولكن لم نقرأ فيها ولو من الشواذ أنّ "كان" وأخواتها إذا سبقتها "ما" النافية أو "لم" الجازمة فتعمل عمل "ليس" وتدخل عليها "الباء" كما هي تدخل على خبر "ليس". فلا نقول "لم أكن بالسقيم".

ولكنّ ما أقدم للقراء في الأسطر التالية سوف يكون بديعاً في قواعد اللغة العربية وعسى أن يعتبر اكتشافاً في أصول النحو العربي.

فوجدتُ خلال دراستي لدواوين الشعراء العرب أنّ بعضهم أدخلوا "الباء" على خبر "كان" وأخواتها حينما جعلوها منفية بـ"ما" أو بـ"لم". فقال مهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس:

يا أيها الجاني على قومه ما لم يكن كان له بالخليق
جناية لم يدر ما كنهها¹ جانٍ ولم يصبح² لها بالمطيق
كقاذفٍ يوماً بأجرامه في هوةٍ ليس لها من طريق
من شاء ولى النفس في مهمهٍ ضنكٍ ولكن من له بالمضيق
إنّ ركوبَ البحر ما لم يكن ذا مصدرٍ من تهلكاتٍ³ الغريق⁴
فأدخل المهلهل "الباء" على خبري "كان" و"أصبح" كما رأينا في عجز البيتين الأولين
"ما لم يكن كان له بالخليق" و"جانٍ ولم يصبح لها بالمطيق".

وقال عبيدة بن هلال البشكري (ت 77هـ) يرثي حصين بن مالك أحد فرسان الأزارقة الذي قتل في الحرب مع المهلب:

¹ ويروى: "جناية ليس لها بالخليق". ديوانه، ص 53

² ويروى ولم يضح ---". (ديوانه، ص 53).

³ ويروى: من مهلكات ---". (ديوانه، ص 53).

⁴ جمهرة أشعار العرب، ص 458-459 وديوانه، ص 53

قل للحصين لقد أصبتَ سعادةً وما كنتَ فيما رمته بمعيب
وما كان في جمع المحلّين فارسٌ يبارزه في النقع غيرُ حبيب
وأَيَّ امرئٍ يأوي الحرورَ بمعركٍ يهاب، ولكن كنتَ غيرَ هَيُوب
فيا ربَّ يومٍ قد دعاني لمثلها فلم أكنُ فيما سألني بمجيب¹
فأدخل اليشكري "الباء" على خبر "كان" في "ما كنتَ بمعيب" و"لم أكنُ بمجيب".
وسألني هنا: سألني.

وكذا قال الرماح بن ميادة (ت 149هـ):

وإني لزوارٌ لمن لا يزورني إذا لم يكن في ودّه بمريب
تُقرَّبُ لي دارُ الحبيب وإن نأت وما دارٌ من أبغضته بقريب
فلا تطلبنَّ القرب، والبعدُ بعدما إلى غيرِ نياتٍ وغيرِ قلوب²
فالرماح أيضاً أدخل "الباء" على خبر "كان" في عجز البيت الأول "إذا لم يكن في ودّه
بمريب".

فظهر مما نقلناه من الشواهد العربية أنّ "كان" وأخواتها قد دخلت "الباء" على خبرها
لدى ثلاثة شعراء كبار إذا جاءت منفية بـ"ما" أو "لم".

¹ شعرا الخوارج، ص 95

² شعره، ص 86

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم
2. جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، تحقيق: محمد علي البجادي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ت.
3. ديوان أبي النجم العجلي، جمع وشرح وتحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، 2006م
4. ديوان الأسود بن يعفر، صنعه: الدكتور نوري حمودي القيسي، المؤسسة العامة للصحافة والطباعة، مطبعة الجمهورية، 1970م
5. ديوان الأصمعيات، تحقيق: أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون، دار المعارف بمصر، ط3
6. ديوان الرماح ابن ميادة، جمع وتحقيق: د. حنا جميل حداد، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1982م.
7. ديوان تأبط شراً وأخباره، جمع وتحقيق وشرح: علي ذو الفقار شاكر، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1984م
8. ديوان حاتم الطائي، شرح: أبي صالح يحيى بن مدرك الطائي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط1، 1994م
9. ديوان حسان بن ثابت الأنصاري الخزرجي، شرح: ضابط بالحربية، مطبعة السعادة، مصر، د.ت
10. ديوان دريد بن الصمة، تحقيق: د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
11. ديوان عبيد بن الأبرص، بشرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، 1994م

12. ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب، الدار العالمية، د.ت.
13. شعر الخوارج، جمع وتحقيق: د. إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1974م.
14. الكتاب لأبي بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط3، 1988م.

الأبعاد البيانية التداولية في نقد مدرسة الطبع

- د. عامر خليل الجراح¹

ملخص

بدأ الوعي المنهجي بمكانة البيان في الثقافة العربية على نحو واضح في الأفكار التي طرحها الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين)، لقد كان البيان الأصل الذي يؤطر اشتغالات النقاد والبلاغيين الأوائل الذوقية والمعرفية في مقارباتهم النصوص المختلفة التي يتسمها النص القرآني، وكان لقوانينهم النقدية التي تأثروا فيها بالدراسات اللغوية النصيب الأوفر في التعبير عن الثقافة البيانية التداولية، ونشير هنا تحديداً إلى مدرسة الطبع وقوانينها المتمثلة في (عمود الشعر) الذي يقف على صحة المعنى، وشرفه، والإصابة في الوصف، والمقاربة في التشبيه، والمناسبة في الاستعارة، وهي أمور تتعلق بالمعنى والإفصاح عنه، وثمة أمورٌ تتعلق باللفظ من قبيل: جزالة اللفظ واستقامته، والتحام أجزاء النظم والتثامها على تخيير من لذيذ الوزن؛ والمتأمل يجد أنّ أوصاف اللفظ تنتهي إلى خدمة المعنى وتوصيله بهيئة حسنة، وذلك أنجع بلاغاً، فيظهر أنّ الغاية التي يطمح إليها أنصار الطبع هي الإفهام الذي يمثل أولى غايات الدرس التداولي الحديث، وهو كامنٌ في المعاني والمضامين.

ركزت أغلب مؤلفات التراث النقدي والبلاغي على ضرورة التثقيف الأدبي (البيان)، حتى لا يقع الشعراء في خطأ التعبير عن المعاني وتصويرها، فترى إلى جانب ذكر قوانين عمود الشعر عند النقاد عنايتهم بإيراد أدوات الشاعر كي يكون بليغاً بيانياً تداولياً، أو رسمهم الطريق أمام الشعراء ليبصروا مواطن الإخطاء في المعاني فيتجنبوها ومواطن الإصابة فيتبعوها، وكانت أساليب الأقدمين تحذوهم في ذلك.

¹ أستاذ مساعد، معهد اللغات الحية، جامعة ماردين آرتوقلو، تركيا

تّمّا تقدّم رأينا أن يكون البحث في مبحثين: أولهما في الأبعاد التداولية في نقد مدرسة الطبع من خلال قوانين عمود الشعر، وهي قوانين ذات أبعاد بنائية داخلية، والآخر الأبعاد التداولية في أدوات التثقيف الأدبي للشعراء بما يوافق شعر الأوائل، وهو ما يُسمّى عندهم قديماً الأسلوب، وهو ذو بعد موضوعي خارجي، وآخر لغوي داخلي.

الكلمات الدالة: التداولية، النقد، مدرسة الطبع، عمود الشعر، أساليب العرب، البيان.

المبحث الأول: عمود الشعر وقوانينه البيانية التداولية

يهدف عمود الشعر من خلال قوانينه إلى تحقيق الإفهام أو البيان، ويُعدّ ذلك الهدف هدفاً تداولياً¹، فما البيان وما علاقته بعمود الشعر؟ نحاول في أثناء الإجابة عن هذا التساؤل أن تقدّم البيان بوصفه إرهاصاً أولياً من إرهاصات قوانين عمود الشعر التي بُنيت على أسس الشعر الفحوليّ البيانية التداولية والأسلوبية.

بيّن الجاحظ (255هـ) في كتابه (البيان والتبيين) مفهوم البيان في قوله: "الدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعت الله - عزّ وجلّ - يمدحه ويدعو إليه ويحثّ عليه؛ بذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف العجم. والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصولة كائناً ما كان ذلك، ومن أيّ جنس كان الدليل؛ لأنّه مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع، إنّما هو الفهم والإفهام"²، فالبيان يرتبط بالمعنى اللغويّ الذي هو الإفهام، وبالمعنى التداوليّ الذي هو التواصل والتوصيل، وبالمعنى المقررّ في الذهنية العربية الصرف والذي يتمثّل في الوضوح والصدق والدقّة في التعبير، كما أنّه حمل بعداً قدسياً حين بيّن الجاحظ أنّ الله مده ودعا إليه، وبه نطق القرآن. إن مشروع الجاحظ في البيان يعدّ من

¹ يُنظر: التفكير البياني عند العرب لعامر الجراح.

² البيان والتبيين، 1/76-75.

المشروعات ذات الطابع العربيّ الأصيل الذي لم تُسبِّه الثقافات الأجنبية والمتمثّل في أدبيات مدرسة الطبع، وهو يسهم في ترسيخ مفهوم الطبيعة العقلية العربية التي تميل إلى الوضوح والمقاربة والمناسبة والصدق، ولا شكّ أن تلك السمات تشير إلى البعد التداوليّ لذلك المشروع، وهي عينها قوانين عمود الشعر.

لقد ركّز الجاحظ على شرف المعنى وصحّته، وعلى الصدق والمناسبة، وسائر قوانين (عمود الشعر)، وإن لم يصرّح بذكره، ولا ندري هل كان معروفاً في زمانه، غير أنه في القرن اللاحق له أي القرن الرابع للهجرة كان معروفاً كما يذكر الآمديّ (370هـ)¹ أو ربما أنه كان في القرن الثالث وما سبق مفهوماً متداولاً، وأنهم اصطاحوا له في القرن الرابع، ولا ندري هل أرادته ثعلب (291هـ) حين ذكر عمود البلاغة في كتابه (قواعد الشعر)²، وهو من رجالات القرن الثالث؟ يبدو أن نعم، والأرجح أن ظهوره تزامن من ظهور حركة المولّدين مع بداية النصف الثاني من القرن الثاني، غير أنهم اصطاحوا له في القرن الرابع كما ظهر عند الآمدي، وكان تفصيل قوانينه بطريقة منهجية في القرن الخامس عند المرزوقي (421هـ) الذي أفاد من سابقه في ذلك في كتابه (شرح ديوان الحماسة)، فقد مهّد لشرحه بمقدمة نقدية قيمة عالج فيها عدداً من القضايا النقدية المهمة، أتى في جانب منها على ذكر عمود الشعر.³

إن قوانين العمود عند الجاحظ بادية في حديثه عن سجاجيا العرب في بعدهم عن التكلّف وسيرهم على الطبع والسجية؛ إذ قال: "كلّ شيء للعرب فإنما هو بديهية وارتجال، وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجمالة فكر ولا استعانة، وإنّما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام... فتأثيه المعاني أرسالاً، وتثال الألفاظ انثيالاً... والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفّظ، ويحتاجوا

¹ يُنظر: الموازنة بين شعر أبي تمام والبحري، 4/1.

² يُنظر: قواعد الشعر، ص 84.

³ يُنظر: شرح ديوان الحماسة للمرزوقي، 9/1.

إلى تدارس، وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب".¹ كما هي بادية في كلامه على أساليبهم، وعلى كلامهم بعامّة، ما يعكس الجانب البياني التداولي في بلاغة المتقدّمين، وظهر لنا كيف أن الطرح الجاحظي جسّدها أحسن تجسيد، ثم نتعزّز عند تابعيه مثل الآمدي وأبي هلال العسكري (395هـ) وغيرهما، ويشير الجاحظ في كلامه السابق إلى أنّ من العرب من عشا إلى ضوء نار غيرهم من الأمم، كما يشير إلى أولئك الذين احتذوا كلام سابقهم، وفي كلتا الحالين يرى الجاحظ أنّ أولئك قد ضلّوا الطريق، ولا شكّ في أنّه يشير إلى طبقة المولّدين.

تكلم المرزوقي على مفهوم عمود الشعر في مقدمته لشرح (ديوان الحماسة)، وهو ما خرج به من أشعار الشعراء الفحول ونقذات النقاد الذاهبين إلى تقديس القديم، وذلك في قوله: "إنهم كانوا يحاولون شرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف- ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات- والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النظم والثماها على تخيير من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما- فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكل باب منها معيار".² دعا المرزوقي إلى ضرورة التزام الشعراء بتلك القوانين ذات الطابع البياني التداولي وإلى عدم الخروج عليها قائلاً: "فهذه الخصال عمود الشعر عند العرب، فنّ لزمها بحقها وبنى شعره عليها، فهو عندهم المفاخر المعظم، والحسن المقدم، ومن لم يجمعها كلها فيقدر سهُمته منها يكون نصيبه من التقدّم والإحسان، وهذا إجماع مأخوذ به ومتبع نهجه حتى

¹ البيان والتبيين، 3/28-29.

² شرح ديوان الحماسة، المصدر نفسه، 9/1.

الآن".¹ يظهر من لهجة المرزوقي أنه متمسك بذلك المعيار، وذلك حين قرر أنّ النقاد مجمعون على ضرورة اتباع قوانينه لمن أراد من الشعراء التقدّم والإحسان. إن ذلك التمسك بذلك المعيار عند فئة كبيرة من النقاد على المستوى النظري وعند الذين اتبعوهم من الشعراء على المستوى التطبيقي قد أدّى بالشعر إلى الوقوف على أعتاب الشعر الجاهلي يتصيد ألفاظه ويحاكي صورته ومعانيه، والحق أنّ الكلام على نماذج النقد الذي راعى أصول عمود الشعر وقوانينه متأصل عند كثير من النقاد، وقد دفعهم ذلك إلى القيام بحملة شعواء على الشعراء المولدين، نلس ذلك في كتابات النقاد الذين يميلون إلى شعر الأوائل، ومثلاً على رفض النهج الجديد الذي خرج عن تقاليد الشعر الأول وعن قوانين عموده نقف على النقادات التي وجهت لأبي تمام الذي صار يمثّل ذلك الخروج خير تمثيل؛ من ذلك أنّ ابن الأعرابي (231هـ) كان شديداً في حكمه على أبي تمام لمخالفته سنن القدماء وإتيانه بمعانٍ جديدة، حتى قال في شعره "إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل".² إنّ هذا الموقف له نظائره الكثيرة التي نجدتها في كتاب (الموازنة) للآمديّ الذي كان ميّلاً إلى البحرّي وإلى عمود الشعر، وللاستزادة في بيان ذلك الموقف يُنظر كتاب (أخبار أبي تمام) للصوليّ أيضاً.

والحق أنّ أبا تمام كان إلى جانب المتنبّي أبرز الشعراء الذين دار حولهم جدل كبير، ولعل الآمديّ أبرز النقاد الذين تكلموا على شعره؛ إذ وازن بين شعره وشعر البحرّيّ، وكان ميّلاً إلى الأخير، فيرى في نقده أبا تمام أنّه كان يتعمّد الغلوّ والإسراف، فذلك كان مذهبه سواء كان فيه إماماً متبوعاً، أم تابعاً لمسلم بن الوليد. فذهب الغلوّ والإسراف يصطدم بمبادئ عمود الشعر في الصحة والإصابة والمقاربة والمناسبة؛ فالآمديّ لاحظ أنّ مذهبه هذا جلب إليه سبّة (قبح الاستعارات)، وأرجع ذلك إلى

¹ المصدر نفسه، 11/1.

² الموازنة بين شعر أبي تمام والبحرّي، 20/1.

أنّ أبا تمام رأى "أشياءً يسيرةً من بعيد الاستعارات متفرقةً في أشعار القدماء... لا تنتهي في البعد إلى هذه المنزلة، فاحتداها، وأحبّ الإبداع، والإغراب بإيراد أمثالها، فاحتطب، واستكثر منها".¹ وبالمقابل من هذا المذهب يقف البحريّ، فحين سُئل "عن نفسه وعن أبي تمام، قال: كان أغوص على المعاني مني، وأنا أقوم بعمود الشعر منه".² فبادئ عمود الشعر تمثل الميزان الذي يوزن به الشعر فيقبل إن وافقه، ويُطرح إن خالفه عند أصحاب مدرسة الطبع، وهو يجسّد تداولية النقد والأدب على حدّ سواء.

لم تكن قوانين عمود الشعر، في الحقيقة، مجرد معرض للأساليب في مستواها اللغويّ المتمثّل في الإصابة والصحة والاستقامة، أو في مستواها البلاغيّ أو التداوليّ المتمثّل في المقاربة والمناسبة والاتحام، لقد كانت تلك القوانين تقاليد ثقافة ومحتوى فكر وكيونة أمة؛ نستدلّ على ذلك، مثلاً، من نقد أم جندب في موازنتها بين زوجها امرئ القيس وعلقمة الفحل، وذلك حيث قالت له: "علقمة أشعر منك، قال: وكيف ذاك؟ قالت: لأنك قلت:

فلسوّطِ أهوبُ وللساقِ دِرةٌ وللزجرِ منه وقعٌ أخرجَ مهذبٍ

فبهدت فرسك بسوطك، ومريته بساقلك، وقال علقمة:

فأدرَكهنَّ ثانياً من عِنانِه يمرُّ كهرِّ الرايحِ المتحلِّبِ

فأدرك طريدهته وهو ثانٍ من عنان فرسه، لم يضربه بسوط، ولا مره بساق، ولا زجره".³ راعت أم جندب الجانب التداوليّ، أو العرف الثقافيّ، فحكمت بما حكمت، إنّه تجلّ يمثل إرهاباً مبكراً لقوانين الشعر التي ظهرت في حقبة زمنية لاحقة بقرون تقارب الثلاثة، ترسّمت فيها طبيعة العقلية العربيّة في ممارستها الشعر ونقده، الطبيعة

¹ المصدر نفسه، 272/1.

² المصدر نفسه، 12/1.

³ الشعر والشعراء، 213-212/1.

التي بدأت تتغير بفعل تأثير الثقافات الدخيلة فيها في عصور ما بعد الاحتجاج.

نذكر من العلامات الدالة على طبيعة تلك العقليّة العربيّة قول "الأصمعيّ (216هـ):
سمعتُ حماداً الراوية، وأنشد رجلٌ بيتاً لحسان:

يُغشونَ حتىّ ما تهرّ كلابهم لا يسألون عن السواد المُقبلِ
فقال: ما يُعرف هذا إلا في كلاب الحانات. وذكر ابن عبد ربّه (328هـ) أيضاً من
أغاليط الشعراء؛ يقول: "مما أدرك على زهير قوله في الضفادع:

يخرُجن من شرباتِ ماؤها طحلُّ على الجذوع يخنّفن الغمّ والغرقاً
وقالوا: ليس خروج الضفادع من الماء مخافة الغمّ والغرق، وإنما ذلك لأنهنّ يبتنّ في
الشطوط، ومما أدرك على النابغة قوله يصف الثور:

يُحيد عن أسننٍ سودٍ أسافله مثل الإماء الغواذي تتحمل الحزماً
قال الأصمعيّ: إنما تُوصف الإماء في مثل هذا الموضع بالرواح لا بالغدو؛ لأنهنّ يجتنّ
بالحطب إذا رحن¹. وغير ذلك من الأمثلة التي تدخل في دائرة عمود الشعر، ولا
سيّما في قانونه المتعلّق بصحّة المعنى، وتدخل بالجملة في دائرة التعبير عن الأثر التداولي
للتراث العربيّ الأدبيّ والنقديّ في مراحلهِ الأولى.

ميّز ابن رشيق القيروانيّ (456هـ) طبيعة شعر الفحول أو البداة من شعر المولدين أو
سكان الحاضرة، ورسم فيه النهج النقديّ السائد في التزام الصوابيّة والصحّة والدقّة
(عمود الشعر)؛ إذ قال في البداة: "كانوا قديماً أصحاب خيام: ينتقلون من موضع إلى
آخر؛ فلذلك أوّل ما تبدأ أشعارهم بذكر الديار، فتلك ديارهم وليست كأبنية
الحاضرة؛ فلا معنى لذكر الحضريّ الديار إلا مجازاً؛ لأنّ الحاضرة لا تنسفه الرياح،
ولا يحوها المطر... وكانت دوابهم الإبل لكثرتها، وعدم غيرها، ولصبرها على التعب

¹ العقد الفريد، 6/204-205.

وقلة الماء والعلف، فهذا أيضاً خصوها بالذكر دون غيرها، ولم يكن أحدهم يرضى بالكذب فيصف ما ليس عنده كما يفعل المحدثون... وليس في زماننا هذا ولا من شرط بلدنا خاصة شيء من هذا كله... فالواجب اجتنابه إلا ما كان حقيقة، لاسيما إذا كان المادح من سكان بلد الممدوح، يراه في أكثر أوقاته، فما أقيح ذكر الناقبة والفلاة حينئذ!¹ إن ما قدمه ابن رشيقي في مقاله هذه يمثل أثراً تداولياً بامتياز إذ يقرّر وثيقة عمود الشعر، ووثيقة أعراف الأدب واختلافه بين مجالين: الحياة البدوية والحياة الحضرية، ويجعل لكل زمانه.

نورد ما ارتضاه ابن رشيقي من رأي الناقد عبد الكريم بن إبراهيم نموذجاً لبيان بعض صفات الشعر عند الفحول والمولدين، وبيان الموقف منهما في ما نراه يدخل في دائرة تلك الوثيقة؛ وذلك قوله: "والذي أختاره أنا التجويد والتحسين الذي يختاره علماء الناس بالشعر، ويبقى غابره على الدهر، ويبعد عن الوحشي المستكره، ويرتفع عن المولد المنتحل، ويتضمن المثل السائر، والتشبيه المصيب، والاستعارة الحسنة... [يقول ابن رشيقي:] ليس التوليد والرقّة أن يكون الكلام رقيقاً سفسافاً، ولا بارداً غثاً، كما ليست الجزالة والفصاحة أن يكون حوشياً خشناً ولا غريباً جافياً، ولكن حال بين حالين"²، فابن رشيقي كغيره من النقاد المنصفين لم يقف عند حدود قوانين عمود الشعر، ولا ركن إلى مذهب التوليد، إنما كان وسطاً بينهما، ونلاحظ أنه ركّز على جانب الألفاظ دون المعاني، مع أن الأخيرة هي العمدة في التفريق بين المذهبين أكثر من الأولى.

نقف أخيراً على الحديث عن قوانين عمود الشعر كما وردت بوضوح عند المرزوقي نجليّ أبعادها التداولية. ذكرنا آنفاً أنه حصر تلك القوانين في سبعة أبواب هي: 1- شرف المعنى وصحته، 2- جزالة اللفظ واستقامته، 3- الإصابة

¹ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 226/1-230.

² المصدر نفسه، 93/1.

في الوصف، 4- المقاربة في التشبيه، 5- التحام أجزاء النظم والثامها على تخيير من لذيذ الوزن، 6- مناسبة المستعار منه للمستعار له، 7- مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية حتى لا منافرة بينهما. تتسلط تلك القوانين على المضمون والشكل، وعلى التعبير والتصوير، فتجعل الشكل خدمةً للمضمون، والتصوير خدمةً للتعبير، إنها قوانين بيانية ثقافية تقف على صحة المعنى وشرفه والإصابة في الوصف والمقاربة في التشبيه والمناسبة في الاستعارة، وهي أمور تتعلق بالمعنى، وثمة أمور تتعلق باللفظ من قبيل: جزالة اللفظ واستقامته، والتحام أجزاء النظم والثامها على تخيير من لذيذ الوزن؛ إن احتفاء العمود بالمعنى ظاهر، واحتفاؤه باللفظ جاء بقياس لغة المولدين على لغة شعراء الطبع، فقوانين الجزالة التي جعلت من أهم شروط الفصاحة كما نرى عند أبي هلال العسكري¹ وغيره، والتحام أجزاء النظم، وتخيير لذيذ الوزن = هي قوانين خلا منها شعر المولدين قهراً² بسبب فساد الطبع بابتعادهم عن الأصل واختلاطهم بالعجم وثقافتهم، أما خروجهم على قوانين العمود المعنوية فقد كان طواعية لا قهراً؛ إذ صاروا مفتونين بالبديع الذي قوامه العناية باللفظ بقصد التحسين والتخييل والتأثير، وإن كان على حساب صحة المعنى وشرفه؛ إنهم لا يريدون التعبير عن شيء ذي بال غالباً بقدر ما يريدون التعبير عن طريقته في التخييل.

المبحث الثاني: أساليب العرب في كلامهم وأبعادها التداولية

إن فهم الشعر وإنتاجه بالضرورة عند نقاد مدرسة الطبع يتوقف على فهم أساليب العرب التي تمثل بناءً خارجياً موضوعياً؛ إذ إنها تقف على المعاني والمضامين وعلى الوظيفة البيانية للشعر، ويتحد ذلك البناء مع البناء الداخلي اللغوي الذي يلتقي مع عمود الشعر ليقدم تصوراً لنقد مدرسة الطبع وظيفياً وبنوياً. إن الأسلوب وفق هذا التصور يظهر في هيتين: أولاهما الأسلوب الموضوعي الذي بناه النقاد والبلاغيون على

¹ كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر، ص 57.

² ينظر: قواعد الشعر لثعلب، ص 63.

استعمالات العرب في أمور الحياة، وهو يهدف إلى رسم الطريق أمام الشعراء ليستقيم شعرهم، وهو هنا يلتقي مع عمود الشعر من جهة الغايات البيانية التداولية، والهيئة الأخرى تتمثل في الأسلوب اللغوي الذي يلتقي مع عمود الشعر من حيث رصد الأشكال التي تنبعثاً مثله البيان والكشف، ويكون مجاله تقويم الشعر وتأويل القرآن الحكيم، ونشير إلى أن الحديث عن الأسلوب في هيئته يحمل أبعاداً تداولية كما سيظهر.

أولاً: أساليب العرب الموضوعية التداولية وفهم الشعر وإنتاجه: تتمثل الأساليب الموضوعية الجانب الثقافي وطريقة الإدلال بحسب الاستعمال الأدبي عند شعراء مدرسة الطبع الفحول بخاصة، وعند العرب المتقدمين بعامة، وهي تتمثل في الوقت نفسه البعد التداولي لاتجاهات تلك المدرسة، فنذكر من الحديث عن الأساليب الموضوعية ما رواه "أبو حاتم عن الأصمعي أنه قال: سألت عيسى بن عمر عن قول أمية بن أبي الصلت:

والأرض نوحها الإله طروقةً للماء حتى كلّ زندٍ مسفدٌ

فقال: لا أعرفه، وقد سألت عنه فلم أجد من يعرفه. فهذا الأصمعي، وعيسى بن عمر، ومن سأله عيسى من أهل اللغة، لم يعرفوا هذا البيت، وفسره من دونهم فقال: معناه: أن الله جعل الأرض كالأنثى للماء، وجعل الماء كالذكر للأرض، فإذا مُطرت أنبتت... وحدثنني أبو حاتم عن الأصمعي أيضاً، عن عيسى بن عمر، أنه قال: لا أدري ما معنى قول أمية بن أبي الصلت الثَّقَفِيّ، ولا رأيت أحداً يحسنه:

عسلٌ ما ومثله عُشرٌ ما عائلٌ ما وعالت البيقورا

هكذا رواه عسل ما وإنما هو: سلع ما. ومعنى البيت: أنهم كانوا يستمطرون بالسلع والعشر، وهما ضربان من الشجر، فيعقدونهما في أذنان البقر، ويضرمون فيهما النار. وقوله: (وعالت البيقورا) يعني: سنة الجذب أثقلت البقر بما حُمِلت من الشجر والنار فيها والعائل: الفقير. والدليل على أن الرواية (سلع ما) قول الآخر:

أجعلُ أنتَ يبقوراً مُسَلِّبَةً ذريعةً لك بين الله والمطرِ
وحدثني أيضاً أبو حاتم، عن الأصمعي، أنه قال في بيت امرئ القيس:

نطعنهم سُلكي ومخْلُوجَةٌ كَرَّكَ لَأَمِينٍ عَلَى نَابِلِ
ذهب من يحسن هذا الكلام. وقال مثل ذلك في بيت الحارث بن حِلْزَةَ:

زعموا أنّ كلَّ مَنْ ضَرَبَ العَيْبَ — رَ مَوَالٍ لَنَا وَأَنَا الولاءُ
وفسره الأصمعي فقال: أراد نطعنهم طعنةً سُلكي، أي مستوية، ومخْلُوجَةٌ: عادلة ذات
اليمين وذات الشمال، كما تردّ سهمين على صاحب سهام قد دفعهما إليك لتنظر
إليهما، وإذا أنت ألقيتما إليه: لم يقعا جميعاً مستويين على جهةٍ واحدةٍ، ولكن أحدهما
يعوجّ، ويستوي الآخر. فشبهه جهتي الطعنتين، بجهتي هذين السهمين¹. فأحكام
الجودة الظاهرة في قوله: (ما رأيت أحداً يحسنه) و(ذهب من يحسن هذا الكلام)
تمثّل ميلاً لشعراء الطبع الذين نزلت مرتبة المولّدين عن منزلتهم، ونرى أنّ فهم
الكلام هنا لا يكون من غير الإمام بأساليب العرب في الكلام، ما يعكس الجانب
التداولي لتلك الأساليب.

يعدّ ابن طباطبا (322هـ) خير من تحدّث عن أساليب العرب الموضوعية، فتكلّم على
أصول استعمال العرب للأوصاف والتشابهة وسننهم التي لا تفهم إلاّ سماعاً، فركّز
تحديداً على مدرسة الطبع ووصف أهلها بالعصمة من الهذر والإغلاق، ومن ثمّ بالميل
إلى الإفهام؛ يقول: "واعلم أنّ العرب أودعت أشعارها من الأوصاف والتشبيهات
والحكّم ما أحاطت به معرفتها، وأدركه عيانها، ومرّت به تجاربها وهم أهل وبرّ،
صحنهم البوادي وسقوفهم السماء، فليست تعدو أوصافهم ما رآه منها وفيها، وفي
كل واحدة منهما في فصول الزمان على اختلافها ... فتضمّنت أشعارها من

¹ تأويل مشكل القرآن، ص 93-94-95-96.

التشبيحات ما أدركه من ذلك عيانها وحسها، إلى ما في طبائعها وأنفسها من محمود الأخلاق ومذمومها... فإذا اتفق لك في أشعار العرب التي يُحتجج بها تشبيهاً لا تتلقاه بالقبول، أو حكاية تستغربها فابحث عنه ونقر عن معناه، فإنك لا تعدم أن تجد تحته خبيثة إذا أثرتها عرفت فضل القوم بها، وعلمت أنهم أدقّ طبعاً من أن يلفظوا بكلام لا معنى تحته. وربما خفي عليك مذهبهم في سننٍ يستعملونها بينهم في حالات يصفونها في أشعارهم، فلا يمكنك استنباط ما تحت حكاياتهم، ولا يفهم مثلها إلا سماعاً، فإذا وقفت على ما أرادوه لطف موقع ما تسمعه من ذلك عند فهمك".¹

ثم نراه يذكر أمثلة لتلك السنن والأساليب المستعملة عند العرب، التي لا تفهم معانيها إلا سماعاً، "كإمساك العرب عن بقاء قتلاها حتى تطلب بثأرها، فإذا أدركته بكت حينئذ قتلاها... وككَيْم إذا أصاب العرُّ والجربُ السليمَ منها ليذهب العرُّ عن السقيم. وفي ذلك يقول النابغة متمثلاً:

لَكَلَفْتَنِي ذَنْبَ امْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي الْعَرِّ يُكْوِي غَيْرَهُ وَهُوَ رَاتِعٌ
وَكَحْكَمِهِمْ إِذَا أَحَبَّ الرَّجُلُ مِنْهُمْ امْرَأَةً وَأَحْبَبْتَهُ، فَلَمْ يَشُقَّ بِرُفْعِهَا وَتَشَقَّ هِيَ رِءَاءَ أَنْ
حَبَّيْمَا يَفْسُدَ، وَإِذَا فَعَلَاهُ دَامَ أَمْرُهُمَا. وفي ذلك يقول عبد بنى الحسحاس:

فَكَمْ قَدْ شَقَقْنَا مِنْ رِءَاءِ مُحْبَرٍ وَمَنْ بَرَقَعَ عَنْ طِفْلَةٍ غَيْرِ عَانِسِ
إِذَا شُقَّ بُرْدٌ شُقَّ بِالْبُرْدِ مِثْلَهُ دَوَالِيكَ حَتَّى كَلَّنَا غَيْرِ لَابِسِ
وكتعليقهم الحلي والجلال على السليم ليفيق. وفي ذلك يقول النابغة:

يَسْهَدُ مِنْ لَيْلِ التَّمَامِ سَلِيمُهَا لِحَلِيِّ النِّسَاءِ فِي يَدَيْهِ قَعَاغُ
... وكفقتهم عين الفحل إذا بلغت إبل أحدهم ألفاً، فإن زادت عن الألف فتقوا
العين الأخرى، يقولون إن ذلك يدفع عنها الغارة والعين. وفي ذلك يقول قائلهم يشكر

¹ عيار الشعر، ص 15-16.

ربه على ما وهب له:

وهبتها وأنت ذو امتنانٍ تُفقدُ فيها أعين البُعرانِ
... وكسقيهم العاشقَ الماءَ على خرزةٍ تسمى السلوان فيسلو، ففي ذلك يقول القائل:
يا ليت أنّ لقلبي من يُعَلِّه أو ساقياً فسقاه اليوم سلوانا
... وكإيقادهم خلف المسافر الذي لا يحبون رجوعه ناراً، ويقولون: أبعده الله
وأسخقه. وأوقد ناراً إثره. وفي ذلك يقول شاعرهم:

وذمة أقوامٍ حملت ولم تكن لتوقد ناراً إثرهم للتندم
... فهذه الأبيات لا تفهم معانيها إلا سماعاً، وربما كانت لها نظائر في أشعار
المُحدثين من وصف أشياء تُعرض في حالاتٍ غامضةٍ، فإذا لم تكن المعرفة بها
متقدمةً عسر استنباط معانيها واستبرد المسموع منها.¹ إن الكشف عن تلك السنن
المتبعة التي ترجع في الأساس إلى خرافات يؤدي إلى فهمها حين تُستعمل في الشعر
استعمالاً مركباً، فتتجلى على شكل رموزٍ أو إشاراتٍ.

جدير بالذكر أنّ ابن طباطبا في محاولته بناء نظريةٍ للشعر يرسم طريقاً يبين فيها ما ينبغي
للشاعر أن يتسلح به في صناعته، فجعل للشعر أدواتٍ ذكر من بينها ما يتعلق
باستعمالات العرب وذلك "بالوقوف على مذاهبها في تأسيس الشعر، والتصرف في
معانيه، في كلّ فنّ قالته العرب فيه، وسلوك مناهجها في صفاتها ومخاطباتها وحكاياتها
وأمثالها، والسنن المستعملة منها، وتعريضها وتصريحها، وإطنابها وتقصيرها، وإطالتها
وإيجازها، ولطفها وخلابتها، وعذوبة ألفاظها وجزالة معانيها، وحسن مباديها وحلاوة
مقاطعها، وإيفاء كل معنى حظّه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ حتى
يبرز في أحسن زيٍّ وأبهى صورةٍ، واجتناب ما يشينه من سفاسف الكلام وسخيف

¹ المصدر نفسه، ص 50- وما بعدها.

اللفظ والمعاني المستبردة، والتشبيهات الكاذبة والإشارات المجهولة والأوصاف البعيدة والعبارات الغثّة، حتى لا يكون ملققاً مرقوعاً، بل يكون كالسبيكة المفرغة... وجماع هذه الأدوات كمال العقل الذي به تميّز الأضداد، ولزوم العدل وإيثار الحسن، واجتناب القبيح، ووضع الأشياء مواضعها".¹ ونلاحظ أنّه أكّد أنّ تلك الاستعمالات والأدوات أو الأساليب تنتهي بالشعر- إذا ما توخاها الشاعر- إلى أن يكون مفهوماً، فضلاً عن أن يكون حسناً وصادقاً، وأنّ تلك الأساليب منها الموضوعي ومنها اللغويّ الذي سنأتي على ذكره.

إنّ تلك الأساليب الموضوعية تجلّي ثقافة العرب وعاداتهم، وإنّ تلك الثقافة والعادات تمثل مادّة الشعر الذي يعدّ ابن واقعه وانعكاساً له، فيجب على الشعر اللاحق أن يترسّم خطى السابق حتى لا يجانب الصواب والصدق والحقيقة، وحتىّ يقارب منزلة سابقه. إنّ في ذلك جلاءً للأثر التداوليّ الكامن في الأساليب الموضوعية.

ثانياً: أساليب العرب اللغوية التداولية وتأويل القرآن وتقويم الشعر: يدخل في أساليب العرب اللغوية ما أسماه ابن قتيبة (276هـ) بجازات الكلام أو طرق القول وماآخذه،² كما يدخل فيها ما أسماه ابن المعتزّ (296هـ) البدع،³ ونشير إلى أنّ المصطلح الحديث الذي يحتضن كل ذلك هو الأسلوبية، غير أنّها أسلوبية ذات البعد التداولي الذي يتأسّس على تحقيق البيان والكشف من خلال التزام مبادئ الصحة والمناسبة والمقاربة أي قوانين عمود الشعر، وهذا ما آتم به أدب الطبع أو شعر الفحول، والحقّ أن لفهم الأساليب اللغوية واستعمالها بعدن أو هدفين بحسب طبيعة النصّ المقارب: أولهما تقويم الشعر، والآخر تأويل القرآن.

نستهلّ الحديث هنا بالكلام على أثر الأساليب في تقويم الشعر، فثمّة أعراف أسلوبية

¹ المصدر نفسه، ص 6-7.

² يُنظر: تأويل مشكل القرآن، ص 20.

³ يُنظر: كتاب البدع لابن المعتزّ

لغوية تمثل طرفاً تكشف عن المعنى المراد الذي لا ينكشف للأفهام إلا بالمعرفة بها، وثمة تراكيب خاصة لا يُكتفى في كنهها بالثقيف النحوي، إنما تتيح المتلقي إلى إدراك أساليب خاصة يتبعها العرب في شعرهم ونثرهم، وسنحاول هنا أن نستعرض جانباً من تلك الأعراف والطرق الأسلوبية وأبعادها التداولية.

إنّ الأعراف الأسلوبية اللغوية- العرف ربطت تلك الطرق بالاستعمال التداولي- كثيرة؛ منها صور البديع المعروفة كالتشبيه والاستعارة والطباق والترادف والتقديم والتأخير والتنكير وغير ذلك، ومنها الاستعمال الدلالي الانزياحي للمفردات في غير موضعها، وهو باب غير الاستعارة، وهذا ما سنفصل فيه فيما يأتي:

عرض ابن الأثير (637هـ) لذكر أسلوبية الترادف، وتحدّث عن أثرها في تحقيق التوسّع في الكلام وبين أثر الاتكاء على الاستعمال (التداولي) فيه، فقال: إن مؤلّف الكلام "يحتاج إلى معرفة اللغة مما تداول استعماله... وإلى معرفة عدّة أسماء لما يقع استعماله في النظم والنثر، ليجد- إذا ضاق به موضع في كلامه- بإيراد بعض الألفاظ سعةً في العدول عنه إلى غيره ومما هو في معناه، وهذه الأسماء تسمى (المترادفة)، وهي اتّحاد المسمّى واختلاف أسمائه؛ كقولنا: الخمر والراح والمدام فإن المسمّى بهذه الأسماء شيء واحد، وأسماءه كثيرة، وكذلك يحتاج إلى معرفة الأسماء (المشتركة) ليستعين بها على استعمال التجنيس في كلامه، وهي اتّحاد الاسم واختلاف المسميات؛ كالعين فإنها تُطلق على العين الناظرة، وعلى ينبوع الماء، وعلى المطر، وغيره".¹ أمّا ابن رشيق فتحدّث عن أسلوبية الاستعارة (للمترادف) وعن (المشترك اللفظي) بوصفه مقابلاً له، فذكر أن الفهم يشكّل دافعاً مساعداً إلى جانب الاقتدار والرغبة في الاختصار في استعمالهما أي: الاستعارة والمشارك؛ ما يعكس البعد التداولي لهما؛ فقال: "الاستعارة إنّما هي من اتّساعهم في الكلام اقتداراً ودلالةً،

¹ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، 50/1.

ليس ضرورة؛ لأن ألفاظ العرب أكثر من معانيهم، وليس ذلك في لغة أحد من الأمم غيرهم، فإثما استعاروا مجازاً واتساعاً. ألا ترى أن للشيء عندهم أسماء كثيرة وهم يستعبرون له مع ذلك؟ على أننا نجد أيضاً اللفظة الواحدة يُعبر بها عن معانٍ كثيرة، نحو (العين) التي تكون جارحةً، وتكون الماء، وتكون الميزان، وتكون المطر الدائم الغزير... وما أشبه ذلك كثير، وليس هذا من ضيق اللفظ عليهم، ولكنه مع الرغبة في الاختصار، والثقة بفهم بعضهم عن بعض¹.

ونذكر من الأساليب اللغوية التنكير، ونشير إلى تأصيل عبد القاهر (471هـ) لاستعمال أسلوب التنكير (تداوليته)، وخاصةً تنكير أَلْفَاظ: (البدن) و(القمر) و(الشمس) و(الهلال)؛ فلا يرى جواز تنكيرها، إذا أُريدَ بها معانيها الحقيقية إلاّ إذا وُصفت وصفاً يدلّ على حقيقتها، على حين أنّها تُنكر إذا استعملت في التعدد أو المجاز؛ وذلك أنّ تنكيرها يُكسبها صفة التعدد، وهي على الحقيقة واحدة، وتعريفها يدلّ على ذواتها الحقيقية؛ لذلك فإنّ "قول عمر بن أبي ربيعة:

وَعَابُ قُبَيْرٍ كُنْتُ أَرْجُو غُيُوبَهُ وَرَوَّحَ رُعِيَانٍ وَنَوْمَ سَمَرٍ

ظاهره يُوهِم أنه كقولك: (جاءني رجل)، [أي: نكرة محضة] وليس كذلك في الحقيقة؛ لأنّ الاسم لا يكون نكرةً حتى يعمّ شيئين وأكثر، وليس هنا شيان يعمّهما اسم القمر... ومّا أتى مستكراً نائياً يتظلم منه المعنى وينكره، قولُ أبي تمام:

قَرِيبُ النَّدى نَائِي المَحَلِّ كَأَنَّهُ هِلالٌ قَرِيبُ النُّورِ نَائِي مَنازِلُهُ

سببُ الاستكراه، وأنّ المعنى ينبو عنه، أنه يُوهِم بظاهره أنّ ههنا أهلةً ليس لها هذا الحكم، أعني أنه ينأى مكانه ويدنو نوره، وذلك مُحالٌ فالذي يستقيم عليه الكلام أن يؤتى به معرفاً على حدّه في بيت البحريّ:

¹ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، 274/1، وقوله: (دالة) يعني جراءة.

كالبدرِ أفرط في العلوِّ وضوءه للعُصبة السَّارينِ جدَّ قريب¹ فابن أبي ربيعة لم يُصبِ الاستعمال حين نكَّر (قَمِيرٌ)، وهو يريد به القمر الحقيقي، إذ من شأن التنكير أن يفيد التعدد والتنوع. وكذلك شأن أبي تمام حين نكَّر (هلالٌ)، فالتنكير يفيد أن ثمة هلالين: أحدهما قريب النور نائي المنزل، وآخر خلافه. يبدو، إذن، أن استعمال أسلوب التنكير على وجهه الصحيح لم يُراعَ كثيراً من قبل الشعراء بحسب الجرجاني، ففقد بذلك أسلوبيته كما فقد تداوليته.

بعد الفراغ من التمثيل للأساليب التي تدخل في صور البديع نذكر طرفاً من أسلوبية انزياح دلالة المفردات في الشعر، فنورد كلام الفخر الرازي (606هـ) على مكان استعمال (كَبَلٌ) وتمييزه من استعمال (قَيْدٌ)، وذلك في تعليقه على قول المتنبي:

وقيدت نفسي في ذراك محبةً ومن وجد الإحسان قيداً تقيداً فقال: "أما (كَبَلٌ نفسي) في موضع (قَيْدٌ) فسببُ فِجْهِ أَنْ الْكَبَلَ هُوَ الْقَيْدُ الثَّقِيلُ الَّذِي يُقَيِّدُ بِهِ اللَّصُوصُ. يقال: أُتِيَ بِهِ مَكْبَلًا، وهو لا يصلح أن يُسْتَعَارَ إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الْمَكْرُوهِ، كما قال:

فَكَ السَّرِيِّ عَنِ النَّدَى أَغْلَالَهُ مَجْرَى وَكَانَ مُكَبَّلًا مَغْلُولًا وهذا في غاية الحسن؛ لأنَّه لَمَّا جَعَلَ عَلَى النَّدَى أَغْلَالًا كَانَ الْأَوَّلَى أَنْ يَجْعَلَهُ مَقِيدًا بِقَيْدٍ ثَقِيلٍ. وَإِنَّا نَلْعَمُ أَنَّهُ لَوْ قَالَ: وَكَانَ مَقِيدًا مَغْلُولًا، لَمْ يَكُنِ الْكَلَامُ فِي حَسَنِهِ".² فوطن الشاهد هنا في قوله: (إِنَّ لَفْظَ مَكْبَلٍ] لا يصلح أن يُسْتَعَارَ إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الْمَكْرُوهِ).

جعل القرطاجني (684هـ) مراعاة شرط الاستعمال أساساً في اختيار المادة اللفظية في الشعر، إذ قال: "اختيارها أيضاً من جهة ما يحسن منها بالنظر إلى الاستعمال

¹ أسرار البلاغة، ص 312-313.

² نهاية الإيجاز في دراية الإيجاز، ص 111-112.

وتجنّب ما يقبح بالنظر إلى ذلك واختيارها بحسب ما يحسن منها باعتبار طريقٍ من الطرق العُرفية وتجنّب ما يقبح باعتبار ذلك".¹ كما دعا إلى وجوب "أن يلتزم في الكلام الجاري على قانون كلام العرب أن تكون مجاري أواخر الكلم وتصاريفها وإسناداتها على حدّ ما وقعت عليه في كلام العرب بحسب موضع موضع، وأن يُوقَع كلُّ منها على ما أوقعته العرب، وأن يكون متّصلاً بما وصلته العرب، إن كان ممّا شأنه أن يُوصل بغيره".²

أما الحديث عن أثر الأساليب اللغوية في تأويل القرآن، فهو يُعدّ مدخلاً إلى دراسة أسلوبية مقارنة بين القرآن الكريم والشعر، إضافةً إلى كونه حديثاً في صميم التداولية، والحقّ أنّ الذين التفتوا إليه وخطّوا له الطريق هم المتكلمون والمفسّرون، وهم يلتقون مع نقّاد الطبع ولغويي عصر الاحتجاج في تقديم شعر الأوائل الفحول المطبوعين، فالاحتفاء بشعراء الطبع أسهم في الجمع بين أفكار كلّ أولئك وآرائهم، ولعلّ إرهاصات ذلك الأثر بدأت، بحسب ما وصلنا من روايات مع ابن عباس في إجاباته عن مسائل ابن الأزرق، ونشير إلى أثر تلك الأساليب الاستعماليّة والتأويليّة، وهما أثران تداوليّان، كما نشير إلى أنّ مقارنة ما جاء في القرآن الكريم وفق أساليب العرب في أشعارهم، يعني فيما يعنيه الحكم على تلك الأشعار بالجودة، وإن كانت تلك الأحكام غير واضحة وغير مقصودة لكن يمكن لحها واستشفافها بمقارنة أساليبها بأساليب القرآن، أو العكس، فيستوقفنا في هذا الصدد حديث ابن قتيبة عن أبرز أساليب العرب في المجاز وانطواء القرآن عليها؛ يقول: "وللعرب المجازات في الكلام ومعناها طرق القول وماأخذه؛ ففيها الاستعارة، والتمثيل، والقلب، والتقديم، والتأخير، والحذف، والتكرار... مع أشياء كثيرة سترها في أبواب المجاز إن شاء الله تعالى، وبكل هذه المذاهب نزل القرآن".³ وهذه الأساليب تخضع وفق هذا الطرح

¹ منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 222.

² المصدر نفسه، ص 370.

³ تأويل مشكل القرآن، ص 20-21.

والتعيين لسنن الاستعمال والتداول الأمر الذي يفضي بها إلى تحقيق البيان والإفهام، فندرك من ثمّ كيف اجتمع التوجّه الأسلوبيّ المتمثّل في وجوه التعبير والتصوير السابقة مع التوجّه التداوليّ المتجليّ في الدعوة إلى الكشف والتأويل.

يعرض ابن قتيبة في كتابه لذكر أساليب العرب وطرق القول عندهم ومآخذه من خلال ذكر الأشعار ووصف تلك الأساليب فيها، وذلك في معرض حديثه عن لطائف القرآن التي تُفسّر بتلك الأساليب، وسنذكر ههنا مثلاً توضيحياً لذلك نكتفي به؛ يقول: "قالوا في قوله للسماء والأرض: "أَثْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتْ أَيْنَا طَائِعِينَ" (سورة فصلت: 11): لم يقل الله، ولم يقلوا، وكيف يخاطب معدوماً؟ وإنما هذا عبارة: لكونهما فكانتا. قال الشاعر حكاية عن ناقته:

تقولُ إذا درأتُ لها وَضِيبِي: أهدا دِينَهُ أبدأً ودِينِي؟
أكلَّ الدهرَ حَلًّا وارتحالاً؟ أما يُبقي عليّ ولا يَقِينِي؟

وهي لم تقل شيئاً من هذا، ولكنه رآها في حال من الجهد والكلال، ففضى عليها بأنّها لو كانت ممن يقول لقات مثل الذي ذكر. وكقول الآخر: (شكا إليّ جملي طولُ السُرى). والجمل لم يشك، ولكنه خبر عن كثرة أسفاره، وإتاعابه جملة، وقضى على الجمّل بأنّه لو كان متكلماً لاشتكى ما به. وكقول عنتره في فرسه:

فازورّ من وقع القنا بلبانه وشكا إليّ بعبرةٍ وتحمّم
لما كان الذي أصابه يُشْتكى مثله ويُستعبر منه، جعله مشتكاً مستعبراً، وليس هناك شكوى ولا عبّرة".¹

يذهب الخطّابي (388هـ) مذهب ابن قتيبة في الاتكاء على أساليب العرب في فهم أساليب القرآن، ومن ذلك هذه الرواية التي ساقها، والتي تقول: "سأل رجل بعض

¹ المصدر نفسه، ص 106-107.

العلماء عن قول الله عزّ وجلّ: "لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ" (سورة البلد:1) فأخبر أنّه لا يقسم ثم أقسم به في قوله: "وَالَّتَيْنِ وَالزَّيْتُونَ ، وَطُورِ سِينِينَ ، وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۚ" (سورة التين:1-3) فقال له ابن سريج: أيّ الأمرين أحبّ إليك، أجيبك ثمّ أقطعك، أو أقطعك ثمّ أجيبك؟ قال: لا بل اقطعني ثمّ أجيبني. فقال له: أعلم أنّ هذا القرآن نزل على رسول الله- صلى الله عليه وسلّم- بحضرة رجال وبين ظهرائي قوم كانوا أحرص الخلق على أن يجدوا فيه مغمزاً، وعليه مطعناً فلو كان هذا عندهم مناقضة لتعلقوا به وأسرعوا بالردّ عليه، ولكنّ القوم علموا وجهلت، فلم ينكروا ما أنكرت، ثمّ قال له: إنّ العرب قد تدخل لا في أثناء كلامها وتلغي معناها، كقول الشاعر:

في بئر لا حور سرى وما شعر

يريد في بئر حور سرى وما شعر، وأخبرني أبو عمر عن أبي العباس عن ابن الأعرابيّ قال: العرب تذكر (لا) وتلغيه ولا تضمّر (لا) وتستعمله... فهذا وما أشبهه زيادات حروف في مواضع من الكلام وحذف حروف في أماكن آخر منها، إنّما جاءت على نهج لغتهم الأولى قبل أن يدخلها التغيير، ثم صار المتأخرون إلى ترك استعمالها في كلامهم. فافهم هذا الباب، فإنّك إذا أحكمت معرفته استفدت علماً كثيراً وسقطت عنك مؤونة عظيمة وزال عنك ريب القلب، وتخلّصت من شغب الخصم، ولا قوة إلا بالله.¹ إنّ في هذا الكلام بيان لقيمة الشعر الأوّل (شعر الطبع) بعامة وللغة الأوائل، الشعر الذي درست منه عند المحدثين أساليبه المعينة على فهم أساليب القرآن المشكّلة بخاصّة فهي تداولية، وتلك القيمة تسم بالجودة كما يبدو فهي أسلوبية.

أمّا الشواهد على أسلوبية انزياح دلالة المفردات، فهي كثيرة، غير أنّنا سنقف على أبرزها ندلّل به على سائرهما، فن ذلك ما ذكره الفراء (207هـ) من أنّ العرب تستعمل (وراء) بمعنى (سوى)، وذلك في تفسيره لقوله تعالى: "وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ"

¹ بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، ص 47-48.

(سورة البقرة: 91)، فيعلق بقوله: "وذلك كثيرٌ في العربية أن يتكلم الرجل بالكلام الحسن، فيقول السامع: ليس وراء هذا الكلام شيءٌ، أي ليس عنده شيءٌ سواه".¹ وكذلك جعل من الاستعمالات أن يؤمر الواحد والقوم بما يؤمر به الاثنان، وذلك في تفسيره لقوله تعالى: "أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ"، (سورة ق: 24). فالأمر بالإلقاء للملك خازن النار، وهو واحد؛ يقول: "يقولون للرجل: قوما عنا، وسمعت بعضهم: ويحك! ارحلها وازجرها. وأنشدني بعضهم:

فقلتُ لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله، واجترَّ شيخاً²
يذكر المبرد (285هـ) من استعمالات العرب الأسلوبية اللّف والنشر، وهو أسلوب ينبي على فهم السامع، فذكر من ذلك أن "العرب تلفّ الخبرين المختلفين، ثم ترمي بتفسيرهما جملةً، ثقةً بأنّ السامع يردّ إلى كلّ خبره. قال الله ﷻ: "وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ" (سورة القصص: 73).³ إنّ فهم السامع المعوّل عليه في أسلوب اللّف والنشر يأتي من التداول والاستعمال.

الخاتمة: تبينّ ممّا سبق أنّ نقد مدرسة الطبع كان تداولياً بامتياز؛ ظهر ذلك من خلال اشتغالات النقاد على نقد الشعر الذي بدأ يخرج عن سيرة الشعر العربيّ الفحوليّ ممثلاً بشعر المولدين، فوضعوا القوانين لإيقاف ذلك السيل الجارف الذي عصف بأهمّ أدبيات شعراء الطبع وهو البيان، فكانت قوانين عمود الشعر، وظهرت اشتغالاتهم في منحى آخر هو منحى وصف أساليب العرب في كلامهم؛ إنّ لغوية، وإنّ موضوعية، وهي في جانبها المذكورين تمثل صورة الأدب التداوليّ لمدرسة الطبع، وبيّنا كيف أنّ الأساليب الموضوعية ارتبطت بالكلام على الاستعمالات الحياتية التي تضبط المعرفة بها الأدب بياناً وصحةً، أمّا الأساليب اللغوية فكانت في

¹ معاني القرآن، 60/1.

² المصدر نفسه، 78/3.

³ الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف، 166/1.

مجالين هما الأدب تقويمًا، والقرآن الكريم تأويلًا، وهي مع هدفها في التقويم والتأويل كانت تلتقي مع قوانين عمود الشعر في تحقيق البيان التداولي في الأدب، وتحقيق الإفهام في القرآن الكريم.

(هكذا يجب أن يُقال الشعر، وهكذا يُفهم)؛ إنها المقولة التي ينتهي إليها الكلام على أدب الطبع في جانبه: عمود الشعر، والأساليب الموضوعية واللغوية، وهي مقولة تعكس بامتياز الأبعاد التداولية لأدب مدرسة الطبع؛ فلئن كانت البلاغة تقف عند حدود المقولة الأسلوبية (هكذا يجب أن يُقال)، فإنّ النقد في مراحله الأولى (الطبع) يقف عند حدود مقولة: (هكذا يجب أن يُقال الشعر، وهكذا يُفهم)، وهي مقولة ذات أبعاد تداولية كما بينا، ونشير أخيراً إلى أنّ الدرس التداولي مازال يفتح آفاق البحث في المدونة التراثية للكشف عن المسكوت عنه فيها، وها الباب مشرع للباحثين ليدلو بدلوهم فيه.

المصادر والمراجع

1. أسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة ودار المدني، جدة، 1992م.
2. البديع لعبد الله ابن المعتز، اعتنى بنشره وتعليق المقدمة والفهارس: إغناطي وسكراتشكوفسكي، دار المسيرة، بيروت، ط3، 1982م.
3. بيان إعجاز القرآن (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز) لأبي سليمان الخطابي، حققها وعلق عليها: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1968م.
4. البيان والتبيين لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م.
5. تأويل مشكل القرآن لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار التراث، القاهرة، ط2، 1973م.
6. التفكير البياني عند العرب لعامر الجراح، قراءة تداولية، دار سنابل، إسطنبول، ط1، 2019.
7. شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي، تحقيق: أحمد أمين وعبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991م.
8. الشعر والشعراء لأبي محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة، تحقيق وشرح: أحمد محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة، 1423هـ.
9. العقد الفريد لأحمد بن محمد ابن عبد ربّه الأندلسي، ج6، تحقيق: عبد المجيد الترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983م.
10. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، حققه وفضّله وعلق

- حواشيه: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5، 1981م.
11. عيار الشعر لابن طباطبا العلويّ، تحقيق: عبد العزيز بن ناصر المانع، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2005م.
12. قواعد الشعر لأبي العباس ثعلب، تحقيق: رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1995م.
13. الكامل في اللغة والأدب والنحو والتصريف لأبي العباس المبرد، تحقيق: محمد أحمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط4، 2004م.
14. كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر لأبي هلال العسكريّ، تحقيق: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، عيسى البايّ الحليّ، القاهرة، ط1، 1952م.
15. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين ابن الأثير، قدّمه وعلّق عليه: أحمد الحوفي وبدوي طبانه، دار نهضة مصر، القاهرة، د.ت.
16. معاني القرآن لأبي زكريا الفراء، ج1، تحقيق: محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاتي، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ط1، 1955م.
17. منهاج البلغاء وسراج الأدباء لحازم القرطاجيّ، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، دار الغرب الإسلاميّ، تونس، 1966م.
18. الموازنة بين شعر أبي تمام والبحترّي لأبي القاسم الحسن بن بشر الأمديّ، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، القاهرة، ط4، د.ت.
19. نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، لفخر الدين الرازيّ، تحقيق ودراسة: بكري شيخ أمين، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1985م.

تمام حسن والدرس اللساني النصي العربي

- د. خالد حسن العدواني¹

الملخص

في هذا البحث سوف نقوم بتسليط الضوء على جهود تمام حسن في مجال دراسة النص العربي في ضوء عنصرين فقط من عناصر هذه النظرية، وهما عنصر السبك Cohesion، وعنصر الالتحام Coherence.

أما الخطة التي سوف نسلکہا لبلوغ هذه الغاية، فتقوم على استعراض جهود تمام حسن في مجالين أساسيين: الأول هو السبك في النص العربي، والثاني هو الالتحام في هذا النص.

الكلمات المفتاحية: تمام حسن، السبك، الالتحام، الدرس اللساني النصي.

المقدمة

الواقع أنّ تمام حسن لم يقصر جهوده في ميدان الدرس النصي للغة على تتبع عناصر النظرية النصية التي أرسى أسسها روبرت دي بوجراندي Robert De Beaugrande، الأستاذ بجامعة فلوريدا بالولايات المتحدة الأمريكية فحسب، بل إنّ الدارس يستطيع أن يجد في كتاباته أيضاً محاولة جادة لدراسة النص العربي في ضوء عناصر هذه النظرية.

وفي هذا البحث سوف نقوم بتسليط الضوء على جهود تمام حسن في مجال دراسة النص العربي في ضوء عنصرين فقط من عناصر هذه النظرية، وهذان العنصران هما

¹ أستاذ مساعد بمعهد اللغات الحية في جامعة ماردين آرتقو في تركيا

عنصر السبك Cohesion الذي "يترتب على إجراءات تبدو بها العناصر السطحية Surface على صورة وقائع يؤدي السابق منها إلى اللاحق progressive Occurrence بحيث يتحقق لها الترابط الرصفي Sequential Connectivity وبحيث يمكن استعادة هذا الترابط"¹ وعنصر الالتحام Coherence الذي "يتطلب من الإجراءات ما تنشيط به عناصر المعرفة لإيجاد الترابط المفهومي Conceptual Connectivity واسترجاعه"².

أما أهمية هذه الدراسة فتأتي من كونها تحاول أن تلمس جانباً من صورة الدرس اللساني النصي العربي من خلال الوقوف على جهود واحد من أهم اللسانيين العرب، في هذا الباب، وهو الأستاذ الدكتور تمام حسان رحمه الله.

جهود تمام حسان في مجال دراسة السبك في النص العربي

إنّ الدارس لا يحتاج من أجل عرض جهود تمام حسان في هذا المجال أن يبحث في كلّ ما كتبه هذا الرجل، بل يكفي أن يولي وجهه شطر بحثه المسمّى (ظاهرة الربط في التركيب والأسلوب العربي)، حتى يجد كلّ ما يريد في هذا الشأن؛ إذ سوف يجد في هذا البحث دراسة مركزة لهذا الموضوع، يفرق فيها تمام حسان بين ثلاثة أشكال من الربط في النص العربي، وهذه الأشكال هي على الترتيب: الربط بالأداة، والربط بإعادة عنصر لفظي، والربط بالإحالة إلى مفهوم أو مذكور سابق.

الربط بالأداة: وقد جاء كلام تمام حسان، في هذا المقام، موزعاً على ثلاث مراحل أساسية: الأولى تكلم فيها على الربط بالأدوات الداخلة على صدور الجمل، وأهم ما جاء في كلامه ههنا نقطتان: الأولى هي بيان أنّ الأداة تقوم بوظيفة الربط بين عناصر الجملة من خلال أنّ معناها ينسحب على كلّ ما دخل في حيزها من عناصر

¹ النص وانخراط والإجراء، ص 103.

² المصدر نفسه، ص 103.

هذه الجملة¹ والثانية هي بيان الآلية التي يتحقق فيها هذا الربط بالأداة في كل شكل من أشكال الجملة العربية، فوقف أولاً عند ما يقترن بالأداة من أشكال الجملة الخبرية، من مثل الجملة المنفية والجملة المؤكدة، ثم وقف بعد ذلك عند الجملة الشرطية بنوعها: الإمكانية والامتناعي، ثم وقف بعد ذلك عند ما يقترن بالأداة من أشكال الجملة الإنشائية بنوعها: الطلبي والإفصاحي، من مثل الجملة الدالة على الأمر والمسبوقة باللام والجملة الدالة على النهي، والجملة الدالة على الدعاء سلباً، والجملة الدالة على الاستفهام، والجملة الدالة على العرض، والجملة الدالة على التحضيض، والجملة الدالة على التمني، والجملة الدالة على الترجي، والجملة الدالة على النداء، والجملة الدالة على الاستغاثة من النوع الأول، ومن مثل الجملة الدالة على التعجب، والجملة الدالة على الإغراء، والجملة الدالة على التحذير، والجملة الدالة على الندبة، والجملة الدالة على القسم من النوع الثاني.²

وأما المرحلة الثانية، فقد تكلم فيها على الربط بالأدوات الداخلة على الجملة لترابطها بما سبقها، وقد ذكر من أمثلة ذلك الأدوات الداخلة على الأجوبة من مثل (الفاء) الرابطة لجواب الشرط، و(الفاء) الواقعة في خبر الذي والتي والألف واللام، و(اللام) الواقعة في جواب لو ولولا، و(اللام) و(إنّ) و(قد) التي تقترن بجواب القسم في حال الإيجاب و(ما) و(لا) و(إنّ) التي تقترن به في حال السلب،³ والأدوات الداخلة على غير الأجوبة، من مثل واو الحال التي تتولّى مهمة ربط جملة الحال بما سبقها، ومن مثل الحروف المصدرية، وهي أنّ وأنّ وما ولو واللام، ومن مثل كي التي للتعليل وإذاً.⁴

وأما المرحلة الثالثة، فقد تكلم فيها على الربط بالأدوات الداخلة على المفردات، وذكر

¹ مقالات في اللغة والأدب، 1/178.

² المصدر نفسه، ص 178-179.

³ المصدر نفسه، ص 180-182.

⁴ المصدر نفسه، ص 182-183.

من أمثلة ذلك حروف الجر والاستثناء والمعية والعطف، إذ رأى أنّ كل هذه الأشكال تساعد على تحقيق الترابط في السياق، فحرف الجر يفيد علاقة بين مجروره ومتعلقه، وحرف الاستثناء يدل على علاقة بين اسمين أحدهما مخرج منه والثاني مخرج، وحرف المعية يربط بين متلازمين أحدهما مدخوله، والثاني معنى المصدر الذي في الفعل وحرف العطف يربط بين المتعاطفين مع اختلاف في المعنى بين حرف وحرف من حيث مطلق المشاركة والترتيب أو التراخي والتعقيب... إلخ.¹

الربط بإعادة عنصر لفظي: وهذا الربط يتم، في رأي تمام حسّان، بإحدى وسيلتين: الأولى هي المطابقة بين عناصر السياق من حيث الشخص والعدد والنوع والتعيين والإعراب، إذ رأى أنّ هذه المطابقة قيمة كبيرة في ربط تلك العناصر، وقد مثل لذلك بإهدار المطابقة بين عناصر الجملة التالية (الأخوان التوءمان يتشابهان)، فرأى أنّ إهدار التثنية في المبتدأ يحول الجملة إلى لغو وكذلك إهدار التذكير في الفعل وإهدار الغيبة والتثنية فيه، ورأى أنّ إهدار التعيين في الصفة يحول الجملة إلى جملة أخرى غير مرادة، وأنّ إهدار الإعراب فيها يحول هذه الجملة إلى صورة مرفوضة.²

أما الوسيلة الثانية، فهي التكرار، وهنا نراه يتوقف عند ثلاثة أشكال لهذا التكرار: الأول أسماء تكرار اللفظ، وقد جعل من أمثله في القرآن الكريم ما نراه في قوله تعالى: "وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ" (سورة البقرة: 282)؛ إذ كرّر سبحانه وتعالى لفظ الجلالة، وجعل من أمثلة ذلك في القرآن الكريم أيضاً ما نراه في قوله تعالى: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتِنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ" (سورة الحجرات: 12)، إذ كرّر ههنا لفظ (الظن)،³ والثاني أسماء تكرار المعنى، وقد رأى أنّ ذلك يكون مع

¹ المصدر نفسه، 183/1-185.

² المصدر نفسه، ص 186-189.

³ المصدر نفسه، ص 189-191.

إجمال الأول وتفصيل الثاني،¹ وجعل من أمثله قولك: شعاري:

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم²
 وقوله تعالى: "دَعَوْهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَعَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ" (سورة يونس: 10)، والثالث أسماء تكرار المطمع، وقد ذكر
 له أنواعاً عدة،³ منها التكرار للتأكيد، وقد جعل من أمثله في القرآن الكريم قوله
 تعالى: "وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدِ بَيِّنَاتٍ لِّتَفَرَّقُونَ" (سورة الروم: 14)، وقوله تعالى: "وَيَوْمَ
 تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِدِ يَحْضَرُ الْمُبْطِلُونَ" (سورة الجاثية: 27)، ومنها التكرار للتذكير
 بعد طول المطمع، وقد جعل من أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: "وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ
 مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ
 مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ" (سورة البقرة: 89)، وقوله تعالى: "ثُمَّ
 إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَعَفُورٌ
 رَّحِيمٌ" (سورة النحل: 110)، ومنها الإشارة إلى المطمع دون تكرار له، وقد جعل
 من أمثلة ذلك في القرآن الكريم قوله سبحانه وتعالى: "قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ
 فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ" (سورة يونس: 58)، ومنها التكرار مع تعديل طفيف،
 وقد جعل من أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: "مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا
 مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّن
 اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ" (سورة النحل: 106)، وقوله تعالى: "فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ
 تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَ يُسَبِّحَ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۗ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا
 بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ . . ." (سورة النور: 36-37)، ومنها أخيراً التكرار بوساطة وصف

¹ المصدر نفسه، ص 191-192.

² ديوان المتنبي، ص 490.

³ مقالات في اللغة والأدب، 1/192-194.

المطلع، وقد جعل من أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: "فِيمَا نَقُضِهِم مِّبْثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَمَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٥٥ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّمَّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا آتِيَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ۝١٥٧ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝١٥٨ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ ۚ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ۝١٥٩ فَيُظَلَّمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ... (سورة النساء: 155-160).

الربط بالإحالة إلى مفهوم أو مذكور سابق: وهذا الشكل من الربط يأتي في رأي الدكتور تمام على أشكال أيضاً،¹ منها الربط بضمائر الأشخاص، وهنا يمكن أن نجد ثلاث قضايا أساسية: الأولى هي الكلام على شروط الإضمار، وخلاصة كلامه ههنا هي أن الإضمار في اللغة العربية يتقيد بشرطين: الأول هو المطابقة في اللفظ، والثاني هو المطابقة في القصد، فإذا اختل أحد الشرطين وجب الإظهار، وقد جعل من أمثلة ارتباط الإضمار بهذين الشرطين ما نراه في قوله تعالى: "وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ" (سورة ص: 24)، إذ أشار إلى أن بين لفظ (داود) والاسم الذي قام مقامه الضمير العائد على هذا اللفظ (داود) تطابقاً من حيث اللفظ ومن حيث القصد، وأن ذلك هو الذي أجاز الإضمار،² والثانية هي الكلام على مرجع الضمير، وخلاصة كلامه ههنا هي أن مرجع الضمير قد يكون موجوداً في الكلام، وقد يكون غير موجود، فيفهم من السياق، وقد ذكر من أمثلة هذه الحال الأخيرة قوله تعالى: "إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ۚ فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا ۚ عُرُبًا أَتْرَابًا ۚ" (سورة الواقعة: 36)، وقوله

¹ المصدر نفسه، 203-195/1.

² المصدر نفسه، ص 196.

تعالى: "وَأِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جَمِيلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ" (سورة فاطر: 18)، إذ ليس هناك مرجع ظاهر للضمير الدال على جمع الإناث في الفعل (أَنْشَأْنَهُنَّ) في الآية الأولى¹ ولا مرجع ظاهر للضمير الدال على المفرد الغائب المذكور في الفعل (كان) في الآية الثانية، والثالثة هي الكلام على المسافة بين الضمير ومرجعه، وخلاصة كلامه ههنا هي أنّ الضمير قد يعود على مرجع قريب منه، وقد يعود على مرجع بعيد، وقد جعل من أمثلة هذه الحال الأخيرة قوله تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلسَّالِئِينَ ۖ إِذْ قَالُوا... (سورة يوسف: 7-8)، إذ رأى أنّ واو الجماعة في الفعل (قالوا) لا تعود على لفظ (السَّالِئِينَ)، وهو قريب، بل تعود على لفظ (الإخوة)، وذلك على الرغم من بعده.²

ومن أشكال الربط بالإحالة عند تمام حسان أيضاً الإشارة إلى المرجع، وقد ذكر أمثلة عدة لهذا الشكل من الربط في النص القرآني، منها، على سبيل المثال لا الحصر، الربط باسم الإشارة (ذَلِكَ) في قوله تعالى: "وَلِيَأْسَ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ" (سورة الأعراف: 26)، والربط باسم الإشارة (أُولَئِكَ) في قوله تعالى: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ" (سورة البقرة: 39).

ومن تلك الأشكال عنده أيضاً الربط بالموصول، إذ رأى أنّ الاسم الموصول قد يساعد على تحقيق الربط في الكلام، وأورد أمثلة عدة لذلك من القرآن الكريم، من مثل الربط بالاسم الموصول (مَنْ) في قوله تعالى: "قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا" (سورة العنكبوت: 32)، والربط بالاسم الموصول (الَّذِينَ) في قوله تعالى: "وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَابٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ" (سورة الأنعام: 7)، والربط بالاسم الموصول (أَل) في قوله تعالى: "وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ

¹ المصدر نفسه، ص 197.

² المصدر نفسه، ص 197-198.

مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ" (سورة الشعراء: 173).

ومن تلك الأشكال عنده أيضاً الربط بأداة التعريف، ومن أمثلة ذلك عنده في كتاب الله العزيز ما نراه في كلمة (الْمَأْوَى) من قوله تعالى: "وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ" (سورة النازعات: 40-41)، إذ التقدير عنده: مأواه، وما نراه في كلمة (الْمَنَابِ) من قوله تعالى: "ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَنَابِ" (سورة آل عمران: 14).

ومنها أخيراً ما أسماه الربط بالوصف، وقد قصد بالوصف ههنا اللفظ الواصف للرجع بحيث يدلّ عليه وليس اسماً له،¹ وقد ذكر أمثلة عدة لهذا الربط في القرآن الكريم، نكتفي بإيراد اثنين منها: الأول هو ما نراه في قوله تعالى: "وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكِئَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ" ٣٠ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ٣١ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ... (سورة البقرة: 34-36) من استخدام لفظ الشيطان في النهاية مقام لفظ إبليس الذي ورد في البداية، والثاني هو ما نراه في قوله سبحانه وتعالى: "فَتَلَوَّهُمْ لَعْنَتُهُمْ وَأَعَادَتْ لَهُمْ أَسْمَانًا كَالَّذِي كَانُوا يُسْتَعْتَبُونَ" (سورة التوبة: 14) من استخدام عبارة (قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ) مقام ضمير الخطاب الذي كان مستعملاً قبل ذلك.

جهود تتمام في مجال دراسة الالتحام في النص العربي

الواقع أنّ تتمام حسان قد عرض رأيه في هذا المجال في موضع واحد فقط من كتاباته، وذلك الموضع هو بحثه المسمّى (العلاقات المفقوطة والعلاقات الملمحوظة في النص القرآني) المتضمن في كتابه (البيان في روائع القرآن)، ثم في كتابه (اجتهادات

¹ المصدر نفسه، ص 203.

لغوية)؛ إذ نجد تمام حسان في هذا البحث يفرق بين أربع عشرة علاقة معنوية في فضاء النص العربي، وهذه العلاقات الأربع عشرة، هي:

علاقة السببية: وقد رأى أنّ المسبب مقدّم على السبب في نطاق هذه العلاقة،¹ وقد جعل من أمثلتها في النص القرآني الكريم قوله سبحانه: "وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰ وَالسَّلٰوٰى كُلُّوْا مِنْ طَيِّبٰتِ مَا رَزَقْنٰكُمْ" (سورة البقرة: 57)، وقوله سبحانه: "قَالُوا اذْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشْبَهَ عَلَيْنَا" (سورة البقرة: 70)، وقوله سبحانه: "وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَانْتَحٰذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرٰهِيْمَ مُصَلِّينَ" (سورة البقرة: 125)، إذ رأى أنّ التقدير في المثال الأول هو: أنزلنا لتأكلوا من طيبات ما رزقناكم، وأنّ التقدير في الثاني هو: لأنّ البقر تشابه علينا، وأنّ التقدير في الثالث هو: لتتخذوا من مقام إبراهيم مصلى،²

علاقة التفسير: وقد أسماها أيضاً العلاقة التفسيرية،³ وهو يعني بها قيام جملة في النص بالكشف عن المقصود بجملة سابقة أو عنصر سابق،⁴ وقد جعل من أمثلة ذلك في النص القرآني الكريم قوله سبحانه وتعالى: "إِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُوْنَ" (سورة البقرة: 6 من)، وقوله سبحانه وتعالى: "فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيْمُ" (سورة البقرة: 37-38)، وقوله سبحانه وتعالى: "وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيٰوةٍ وَمِنَ الَّذِيْنَ أَشْرَكُوْا يَبُوْذُ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعْمَرُ أَلْفَ سَنَةٍ" (سورة البقرة: 96)، وقوله سبحانه وتعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيْبٌ أُجِيْبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ" (سورة

¹ اجتهادات لغوية، ص 301.

² المصدر نفسه، ص 301-302.

³ البيان في روائع القرآن، 1/409.

⁴ اجتهادات لغوية، ص 302.

البقرة: 186)، وقوله سبحانه وتعالى: "قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ" (سورة الإخلاص)، إذ رأى أن جملة (لَا يُؤْمِنُونَ) في المثال الأول قد جاءت لتفسر التسوية، وأن جملة (أَهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا) في المثال الثاني قد جاءت لتفسر الكلمات التي تلقاها آدم عليه السلام من الرب سبحانه، وأن جملة (يَوْمَ أَحَدَهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ) في المثال الثالث قد جاءت لتفسر شدة حرصهم، وأن جملة (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ) في المثال الرابع قد جاءت لتفسر مدى قربه سبحانه وتعالى من عباده، وأن جمل (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ^٢ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) في المثال الخامس قد جاءت لتفسر معنى الصمدية.¹

علاقة التفصيل: وتأتي هذه العلاقة في الكلام مقترنة بإجمال،² وقد جعل من أمثلتها في القرآن الكريم قوله تعالى: "ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلِكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ" (سورة البقرة: 285)، وقوله تعالى: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتَنَلَّى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ، يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحْلُوا شَعِيرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَئِدَ وَلَا ءَاَمِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا مِّنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ، حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ" (سورة المائدة: 1-3)، وقوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَلْتُوُكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْهُ ذِكْرًا^٣ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا^٤

¹ المصدر نفسه، ص 302-303.

² المصدر نفسه، ص 303.

فَاتَّبَعَ سَبَبًا ٥٥ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَعْرَبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَعْرَبُ فِي عَيْنِ حَمِيَّةٍ" (سورة الكهف: 83-86)؛ إذ رأى أنّ المثال الأول ينطوي على موضعي تفصيل: الأول هو قوله تعالى (كُلُّ ءَامَنٍ) الذي جاء ليوضح إجمال قوله (وَالْمُؤْمِنُونَ)، والثاني هو قوله تعالى (بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ) الذي جاء ليوضح إجمال قوله (بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِ)، وأنّ المثال الثاني قد انطوى على موضع تفصيل واحد، وهو ذكر المحرمات الذي جاء ليوضح إجمال قوله (إِلَّا مَا يَتَنَبَّأُ عَلَيْكُمْ)، وأنّ المثال الثالث قد انطوى على موضع تفصيل واحد أيضاً، وهو ذكر قصة ذي القرنين الذي جاء ليوضح إجمال قوله (سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنهٗ ذِكْرًا)¹.

علاقة الحوار: وقد جعل من أمثلة ذلك في النص القرآني قوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ٦٧ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانُ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ٦٨" (سورة البقرة: 67-68)، وقوله تعالى: "يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ" (سورة البقرة: 189)، وقوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ" (سورة البقرة: 219)، وقوله تعالى: "وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَدَىٰ" (سورة البقرة: 222).

علاقة الإضراب: وقد أسماها أيضاً علاقة النقض والإبطال²، وهي تقوم على إبطال كلام سابق يغلب أن يكون بالمثل الخبرية وقد يكون بغيرها³، وقد أورد أمثلة عدة لها من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١٢" (سورة البقرة: 11-12)،

¹ المصدر نفسه، ص 303-304.

² البيان في روائع القرآن، ص 412.

³ اجتهادات لغوية، ص 305.

وقوله تعالى: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ ۗ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ ۗ" (سورة البقرة: 13)، وقوله تعالى: "وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَىٰ ۗ تِلْكَ ءَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۗ" (سورة البقرة: 111-112)؛ إذ يتجلى الإضراب في المثال الأول في قوله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ)، وفي المثال الثاني في قوله تعالى: (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ)، وفي المثال الثالث في قوله تعالى: (بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ) 1.

علاقة الإلزام: وقد قصد بهذه العلاقة استعمال عبارات خبرية أو مصادر منصوبة أو نحو ذلك مما يفهم منه الإلزام بالحكم²، ورأى أن هذه العلاقة تتحقق في القرآن الكريم بعبارات مختلفة³، منها عبارة (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ)، وقد ذكر أمثلة عدة لذلك في هذا النص الكريم، من مثل قوله تعالى: "الَّذِينَ مَرَّتَانٍ فِيمَا سَاءَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِحٍ بِإِحْسَانٍ ۗ وَلَا يَجِدُ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا مِمَّا ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَن يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ فَإِن خِفْتُمُ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۗ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۗ" (سورة البقرة: 229)، وقوله تعالى: "فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِن بَعْدِ حَتَّىٰ تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يَتَرَاجَعَا إِن ظَنَّا أَن يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ ۗ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۗ" (سورة البقرة: 230)، وقوله تعالى: "يَأْتِيهَا النَّجِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ

¹ المصدر نفسه، ص 305-306.

² البيان في روائع القرآن، ص 416.

³ اجتهادات لغوية، ص 306.

وَلَا يَجْرُجَنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَدْحِشَةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ، لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ١ (سورة الطلاق: 1)، ومنها أيضاً عبارة (كِتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ)، وقد جعل من أمثلة ذلك في النص القرآني قوله تعالى: "حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٢ ۖ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْلِفِينَ ۖ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرْضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٢٣" (سورة النساء: 23-24).

علاقة الالتزام: وقد رأى أن البيان القرآني يعبر عن هذه العلاقة بطريقتين¹: الأولى هي استعمال لفظي (بَلَّغَ) و(وَعَدَ) مجتمعين، وقد جعل من أمثلة ذلك قوله تعالى: "فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ١٧ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَتُرْزَأُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ١٨ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ١٩ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرَانٍ وَتَعْنَى وُجُوهُهُمُ النَّارُ ٢٠ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ٢١ هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ ۗ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ٢٢" (سورة إبراهيم: 47-52)، وقوله تعالى: "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكُتُبِ ۗ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ۗ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعَالِينَ ٢٣ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ٢٤ ۗ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ غَابِغِينَ ٢٥" (سورة

¹ المصدر نفسه، ص 307-310.

الآيآء: 104-106)، والثانية هي استعمالها متفرقتين، وقد جعل من أمثلة استعمال لفظ (بَلَّغَ) قوله تعالى: "وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ" ١٠ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَؤُا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرُونَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الْفَاسِقُونَ" ١١ (سورة الأحقاف: 34-35)، أما اللفظ الثاني فقد أورد أمثلة عدة لاستعماله في القرآن الكريم،¹ منها ما اقترن فيه هذا اللفظ بلفظ (حَقٌّ)، من مثل قوله تعالى: "وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سُدَّخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَن أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا" ١٢ (سورة النساء: 122)، وقوله تعالى: "فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَمِيِّ وَالْإِبْكَرِ" ١٣ (سورة غافر: 55)، وقوله تعالى: "وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفِ لَكُمَا أَتَعَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلِكُ ءَامِنِينَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ" ١٤ (سورة الأحقاف: 17)، ومنها ما اقترن فيه هذا اللفظ بلفظ (الصِّدْقُ)، من مثل قوله تعالى: "أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ" ١٥ (سورة الأحقاف: 16)، ومنها ما اقترن فيه هذا اللفظ بلفظ (مَسْئُولٌ)، من مثل قوله تعالى: "لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْئُولًا" ١٦ (سورة الفرقان: 16)، ومنها ما اقترن فيه هذا اللفظ بلفظ (مَأْتِي)، من مثل قوله تعالى: "جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا" ١٧ (سورة مریم: 61)، ومنها ما اقترن فيه هذا اللفظ بلفظ الجلالة (الله)، من مثل قوله تعالى: "يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِ لِلْكَتُوبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَعْلِينَ" ١٨ (سورة الأنبياء: 104)، ومنها ما اقترن فيه هذا اللفظ بلفظ (لَا يُخْلِفُ)، من مثل قوله تعالى: "فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ

¹ المصدر نفسه، ص 307-310.

ذُو أَنْتِقَامٍ^{١٧} " (سورة إبراهيم: 47)، وقوله تعالى: "لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرْفٌ مِّنْ فَوْقَهَا غُرْفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ^{١٨}" (سورة الزمر: 20)، ومنها أخيراً ما اقترن فيه هذا اللفظ بلفظ (غَيْرُ مَكْذُوبٍ)، من مثل قوله تعالى: "فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعَدَّ غَيْرُ مَكْذُوبٍ^{١٩}" (سورة هود: 65).

علاقة الملابس: وقد حددها الدكتور تمام بنقطتين: الأولى هي أنها تعبر عن اتفاق أمرين أو شركتهما في الزمان أو المكان، والثانية هي أنها تتمثل نحويًا بالعلاقة التي تقوم بين الفعل والحال،¹ وجعل من أمثلتها في القرآن الكريم قوله تعالى: "وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ كَلُومًا وَاشْرَبُوا مِنْ رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ^{٢٠}" (سورة البقرة: 60)، وقوله تعالى: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ وَلِذَٰلِكَ كَانَ أَعْيُنَنَا عَلَىٰ الَّذِينَ هُمْ يَكْفُرُونَ إِنَّهُمْ يَبْتَلُونَكُمْ وَلَكُمْ فِيهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لِيَذِلَّ الْفَاسِقِينَ^{٢١}" (سورة المائدة: 15)، وقوله تعالى: "وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ^{٢٢}" (سورة يوسف: 69)؛ إذ رأى أنّ المثال الأول ينطوي على علاقة ملابسية بين انفجار العيون والعلم بالمشارب، والثاني ينطوي على علاقة ملابسية بين محيء الكآب ومحْيء الرسول، والثالث ينطوي على علاقة ملابسية بين القول والإبواء.²

علاقة الشرط: وقد أسماها أيضاً العلاقة الشرطية،³ وجعل من أمثلتها في النص القرآني قوله تعالى: "وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْعَىٰ فِي خَرَابِهَا^{٢٣}"

¹ المصدر نفسه، ص 310.

² المصدر نفسه، ص 310.

³ البيان في روايع القرآن، ص 413.

أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ^{١٤} (سورة البقرة: 114)، وقوله تعالى: "قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ^{١٥}" (سورة الأنعام: 46)، وقوله تعالى: "قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَىٰ أَحْسَنِٰٓئِٔ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ^{١٦}" (سورة التوبة: 52)، وقوله تعالى: "قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا^{١٧}" قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ^{١٨}" (سورة طه: 125-126)، وقوله تعالى: "قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عِبِيدِينَ^{١٩}" قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ^{٢٠}" (سورة الأنبياء: 53-54)، إذ رأى أن التقدير في المثال الأول هو: من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه لم يدخل هذه المساجد من بعد إلا خائفاً، وفي الثاني هو: إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم فلن يعيده إليكم غيره، وفي الثالث هو: إن كنتم لا تتربصون بنا إلا خيراً فنحن تتربص بكم العذاب، وفي الرابع هو: إن كان ذلك كذلك فقد استحقته بما فعلت، وفي الخامس هو: إن كانوا عبدوها فقد ضلوا كما ضلتم¹.

علاقة الإنكار: وقد جعل من أمثلة ذلك في النص القرآني قوله تعالى: "ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا" (سورة البقرة: 275)، وقوله تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا" (سورة المائدة: 64)، وقوله تعالى: "وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ^{٢١}" ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ" (سورة البقرة: 84-85)، وقوله تعالى: "هُوَ الَّذِي يُسِرُّكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا

¹ اجتهادات لغوية، ص 311.

جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَخْرَجَتْنَا مِنْ هَذِهِ لَتَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ « فَلَمَّا أَنْجَلَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » (سورة يونس: 22-23)؛ إذ رأى أنّ المثال الأول ينطوي على إنكار لقولهم: "إِنَّمَا أَلْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا" ، والمثال الثاني ينطوي على إنكار لقولهم: "يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ" ، والثالث ينطوي على إنكار لما قاموا به من عدم الالتزام بما واثقوا الله عليه، والرابع ينطوي على إنكار لما في موقفهم من التراجع عن العهد الذي قطعوه أمام الله سبحانه.¹

علاقة الترتيب والتعقيب: وأكثر ما تبدو هذه العلاقة في توالي الأقوال في الحوار،² وقد ذكر لها أمثلة عدة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: "أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبرَهيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ ءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبرهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبرهيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا" (سورة البقرة: 258)، وقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" (سورة البقرة: 30).

علاقة الإجابة على سؤال وارد: وقد أورد أمثلة عدة لهذه العلاقة في النص القرآني؛ منها قوله تعالى: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" (سورة البقرة: 186)، وقوله تعالى: "قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا" (سورة العنكبوت: 32)، وقوله تعالى: "أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَادْخُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ" (سورة النمل: 17) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ

¹ المصدر نفسه، ص 312.

² البيان في رواع القرآن، ص 414.

يُسَبِّحَنَّ بِالْعُثَيِّ وَالْإِشْرَاقِ^{١٨} وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلُّ لَهُ^{١٩} أَوَّابٌ^{٢٠} وَشَدَدْنَا مُلْكَهُرَ وَءَاتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ^{٢١} (سورة ص: 17-20)؛ إذ رأى أن قوله تعالى في المثال الأول: (أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ) يمثل إجابة على سؤال تقديره عنده: ما معنى هذا القرب؟؛ وقوله تعالى في المثال الثاني: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا) يمثل إجابة على سؤال تقديره عنده: كيف تهلكون قرية يقيم فيها نبي؟؛ وقوله تعالى في المثال الثالث: (إِنَّهُ أَوَّابٌ...)) يمثل إجابة على سؤال تقديره عنده بم يذكر داود؟¹

علاقة الموقف: إذا كان الدكتور تَمَّام قد رأى في أحد المواضيع من دراساته أن للموقف الذي يحيط بالنص قيمة كبيرة في فهم معناه لا تقل عن قيمة مكوناته اللغوية ذاتها،² فإنه في هذا الموضوع يراه وسيلة مهمة من الوسائل التي يمكن للبدع أن يعتمد عليها في تحقيق الترابط المعنوي بين عناصر نصه ويمكن للمتلقي أن يعتمد عليها في فهم هذا الترابط.

والواقع أن هذا الرجل لم يكتفِ بالوقوف عند حدود هذا القول النظري، بل إنه قد حاول أن يدعمه بأثلة عدة من النص القرآني، نذكر منها قوله تعالى: "يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ^{١٠٥}" (سورة المائدة: 105)، وقوله تعالى: "وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ^{١١٦} مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتَ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتَ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَقَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ^{١١٧}" (سورة المائدة: 116-117)، وقوله

¹ المصدر نفسه، ص 418-420.

² مقالات في اللغة والأدب، 2/65-86.

تعالى: "وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ" ^{١٢} قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ^{١٣} (سورة القصص: 62-63)، وقوله تعالى: "وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا تَمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ"؛ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْحَٰجِئًا أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ^{١٤} (سورة سبأ: 40-41)؛ ففي كل هذه النصوص رأى الدكتور تمام أنّ الموقف هو العنصر الوحيد المسؤول عن تحقيق الترابط وعن فهم هذا الترابط، فلولاه ما جاءت الجمل في كلّ نص من هذه النصوص بهذه الصورة من القصر وانعدام الروابط اللفظية، وما كان في وسع المتلقي أن يشعر بأنّ هذه الجمل تمثل وحدة مترابطة العناصر ¹.

علاقة التناص: ومن علاقات الترابط المفهومي بين أجزاء النص عند الدكتور تمام أيضاً علاقة التناص؛ إذ رأى أنّ هذه العلاقة تحتل مكانة في مجال فهم بعض عناصر النص ببعضها الآخر، وأنّ علماء تفسير القرآن الكريم قد أدركوا ذلك منذ القديم فقالوا: القرآن يفسر بعضه بعضاً، ولكنه أخذ عليهم أنّ جهودهم في هذا الميدان لم تكن دقيقة دائماً، وقد استدلّ على ذلك بما قالوه في تفسير الآيات من 13 إلى 27 من سورة (يس)؛ إذ رأى أنّ هؤلاء المفسرين قد أهملوا ما بين آيات القرآن الكريم من علاقات التناص، فقالوا: إنّ القرية هي إنطاكية، وإنّ المرسلين هم صادق وصدوق وشلوم أو شمعون، وقد أرسلوا بأمر من سيدنا عيسى عليه السلام هداية أهل أنطاكية، ولو أنهم اعتمدوا على التناص الذي يلاحظ بين هذه الآيات وبعض الآيات الواردة في قصة سيدنا موسى عليه السلام لاختلف الأمر عندهم، ولرأوا أنّ ما تحكيه هذه الآيات يمثل جزءاً حقيقياً من قصة سيدنا موسى عليه السلام التي وردت في مواضع كثيرة من كتاب الله، إذ تكون القرية المقصودة في هذا المقام هي

¹ اجتهادات لغوية، ص 313-314.

أرض الكانة، مصر، ويكون المرسلون هم موسى عليه السلام وهارون عليه السلام والرجل الصالح الذي جاء من أقصى المدينة يسعى ودعا الناس إلى الإيمان برسول الله عزّ وجلّ.¹

الخلاصة

لقد حاولنا في هذا البحث أن نقدم- جهد الاستطاعة- دراسة مركزة لجهود الدكتور تَمَام في مجال الدرس اللساني النصي العربي، وقد اخترنا أن يكون ذلك في مجالين فقط من مجالات هذا الدرس، وهذان المجالان هما السبك Cohesion والالتحام Coherence، أما النتائج التي توصلنا إليها من جراء ذلك، فيمكن أن نوجزها على النحو التالي:

1. إن تَمَام حَسَّان قد أولى جانبي السبك والالتحام في النص العربي عناية كبيرة تجلّت في محاولته الكشف عن أشكال الربط في هذا النص، من مثل الربط بالأداة، والربط بإعادة عنصر لفظي، والربط بالإحالة إلى مفهوم أو مذكور سابق، كما تجلّت في محاولته الكشف عن العلاقات المعنوية في فضاء هذا النص، من مثل علاقة السببية، وعلاقة التفسير، وعلاقة التفصيل، وعلاقة الحوار، وعلاقة الإضراب، وعلاقة الإلزام، وعلاقة الالتزام، وعلاقة الملابس، وعلاقة الشرط، وعلاقة الإنكار، وعلاقة الترتيب والتعقيب، وعلاقة الإجابة على سؤال وارد، وعلاقة الموقف، وعلاقة التناص.

2. إنه، على الرغم من إفادته مما قاله دي بوجراند في شأن وسائل السبك Cohesion ووسائل الالتحام Coherence في النص اللغوي،² لم يطبق ما قاله هذا الأخير في هذا الشأن تطبيقاً حرفياً، بل إنه قد اكتفى من ذلك بما يناسب

¹ المصدر نفسه، ص 315-319.

² النص والخطاب والإجراء، ص 103.

النص العربي، ثم أضاف إليه أموراً أخرى لم يذكرها دي بوجراند، استمدها من خصوصية هذا النص.

3. إنَّ دراسته هذه لا يمكن أن تكون نهاية القول في مجال الحديث عن سبك النص العربي والتحامه، لكنها، في المقابل، يمكن أن تكون قاعدة مهمة لمن يريد أن يتوسع في دراسة هاتين الظاهرتين في هذا النص؛ فهي تقدم الكثير من الحقائق في هذا المجال.

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. اجتهادات لغوية لتأم حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2007م
3. البيان في روائع القرآن لتأم حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2، 2000م
4. ديوان المتنبي، علق حواشيه وفسر كلماته اللغوية سليم إبراهيم صادر، دار صادر، بيروت، لبنان، 1926م.
5. مقالات في اللغة والأدب لتأم حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2006م
6. مقالات في اللغة والأدب لتأم حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط1، 2006م
7. النص والخطاب والإجراء لروبرت دي بوجراند، ترجمة الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، مصر، ط2، 2007م

جهود علماء شبه القارة الهندية في الدراسات الصوتية

- د. ضياء القمر آدم علي¹



إنَّ علم العربيَّة من أسمى العلوم قدراً، وأنفعها أثراً؛ إذ هو المرقاة إلى فهم كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ؛ ولهذا حظيت الدِّراسات اللُّغويَّة- قديماً وحديثاً- بمنزلة كبيرة في صفوف المعنّين بالعربيَّة وعلومها؛ فقد بذل رجالٌ مخلصون من سدنة اللُّغة وحفظتها- في المشرق العربيِّ ومغربه- جهوداً محمودةً، ومساعيَ جبارةً في دراسة الجوانب اللغويَّة.

وفي شبه القارة الهندية- كما في غيرها من الأقطار- ظلَّت اللغة العربية موضعَ احترامٍ وتقديرٍ، ولعلمائها نشاطٌ ملهوسٌ وعنايةٌ فائقةٌ بالعربية لغةً، ونحواً، و صرفاً، واشتقاقاً، ودلالةً؛ ولهم تراثٌ ضخمٌ يستحقُّ الوقوف عنده وتدوينه؛ إذ بدأ اهتمامهم بالعلوم اللغويَّة؛ منذ أن دخل الإسلام فيها؛ حسبما تشير إليه المصادر التاريخيَّة.

وإذا كان هذا هو دأب علماء القارة في الاهتمام بهذه العلوم؛ منذ القرن السابع حتى العصر الحديث؛ فإنه من الحق أن يُشار إلى قلة حظهم في الشهرة بين علماء العربية من مشرق الوطن الإسلامي إلى مغربه؛ فمؤلفاتهم اللغويَّة لم يكتب لها من الذبوع والانتشار ما كُتِب لمؤلفات علماء العربية في الأقطار الأخرى، ولم تُذكر آراؤهم واجتهاداتهم، أو مؤلفاتهم في كُتب غيرهم من اللغويين؛ في حين نجد آراء علماء العربية ماثورةً في المؤلفات الهندية المختلفة؛ سواء كانوا من القدماء، أو من المتأخرين،

¹ أستاذ اللغة العربيَّة وآدابها بكلية اللغة العربيَّة والدراسات الإسلاميَّة بالجامعة المحمديَّة، مالاغاون، مهاراشترا، الهند

وسواءً كانوا في المشرق العربيّ أو في مغربه.

وكما هو معروفٌ لدى الباحثين اللغويين أنّ الدراسات اللغوية تشمل جوانبها الأربعة: الدراسات الصوتية، والصرفية، والنحوية، والدلالية.

وخصّصتُ هذا المقال وما سأتبعه لإبراز ما للعلماء الهنود من خدماتٍ جليّةٍ ومساعي جبارةٍ؛ في الدراسات الصوتية؛ وذلك بعرض مؤلّفاتهم، ومناهجهم، وتمييز آرائهم ونظراتهم، واختياراتهم وترجيحاتهم، واعتراضاتهم وانتقاداتهم، وإبداعاتهم وابتكاراتهم، وإضافاتهم وزياداتهم، والكشف عن اتجاهاتهم اللغوية الصوتية.

تعريف "الصوت" - لغةً واصطلاحاً: "الصوت" - لغةً: الجرس، صوت فلانٌ بفلان تصويماً؛ أي: دَعاه. وصاتَ يَصُوتُ صوتاً؛ فهو صائتٌ؛ بمعنى: صائِحٌ، وكلُّ ضَرْبٍ من الأغنيات صوتٌ من الأصوات، ورجلٌ صائتٌ: حَسَنُ الصَّوتِ شديدهُ، ورجلٌ صَيِّتٌ: حَسَنُ الصَّوتِ، وفلان حَسَنُ الصَّيْتِ: له صَيِّتٌ وِدِكٌ في النَّاسِ حَسَنٌ.¹

أما "الصوت" - في الاصطلاح - فقد حاول العلماء المعنيون بدراسة اللغة تحديده ما يعنيه "الصوت"؛ فوضعوا تعريفاتٍ لهذا المصطلح تباينت بين قديمهم وحديثهم، ومن بين القدماء ابن سينا؛ الذي عرّف الصوت بأنه "تموج الهواء، ودفعه بقوة وسرعة من أيّ سببٍ كان".² وعرّفه ابن جنيّ بأنه "أصواتٌ يعبرُ بها كلُّ قومٍ عن أغراضهم".³

أما المحدثون فمنهم إبراهيم أنيس؛ الذي عرّف الصوت بأنه "ظاهرةٌ طبيعيةٌ ندرك أثرها؛ دون أن ندرك كنهها".⁴

ومن المعروف لدى اللغويين أنّ الدراسات الصوتية تشمل الدراسة الصوتية القديمة؛

¹ ينظر: كتاب العين، 2/158

² ينظر: أسباب حدوث الحروف، ص 7

³ ينظر: الخصائص، 1/266.

⁴ ينظر: الأصوات اللغوية، ص 3.

التي يطلق عليها اسم "علم التجويد"، والدراسة الصوتية الحديثة؛ التي يطلق عليها اسم "علم الأصوات" بفروعها المختلفة. وإن كان هذا العلمان قد اتخذتا في درسهما مسارين مختلفين؛ اختص الأول بقراءات القرآن الكريم؛ فأصبح يُدرّس في قسم القرآن، واختص الثاني بكلمات اللغة العربية عامةً، فأصبح يُدرّس في قسم اللغة العربية؛ مع أنّ العَلمين- في الحقيقة- من وادٍ واحدٍ، ويؤولان إلى أصلٍ واحدٍ؛ وذلك لأنّ علماء كلّ من "علم التجويد" و"علم الأصوات" بينوا- في مؤلفاتهم- الحالات الصوتية المختلفة، والتغيرات؛ التي تطرأ على الصوت في أثناء النطق، وأوضّحوها حالات الإدغام، والغنة، والإمالة، وبينوا أسبابها وأحكامها، وعرفوا الوقف، وذكروا أقسامه وأحكامه، وبينوا ظاهرة المدِّ وأنواعه وأحكامه، وغير ذلك من الظواهر الصوتية؛ مثل: الإعلال، والإبدال، والإشمام، والإخفاء، والإظهار، وكلّ المسائل الصوتية؛ التي ترتبط وتندخل فيما بينها.

أما "علم الأصوات الحديث أو المعاصر" فيتمّ- إلى جانب ذلك- بموضوعاتٍ أخرى؛ بعضها يتعلّق بعلم الأصوات النطقيّ؛ مثل آليّة إنتاج الصوت اللغويّ، والمقطع الصوتيّ، والنبر والتنعيم، وبعضها يتعلّق بعلم الصوت الفيزيائيّ، وعلم الصوت السمعيّ، وبعض هذه الموضوعات يحتاج إليه دارس علم التجويد- أيضاً.

ظهور التأليف في الأصوات عند العرب: يعود تاريخ الاهتمام بالصوت إلى عهد تقعيد علماء العربية القواعد وتأسيسهم النحو؛ بل يكاد يسبق ذلك. ولعلّ خير أبي الأسود- حين وضع رموز الحركات- يجلي شيئاً من هذه الأوليّة؛ وهو أنّه جاء "إلى زياد؛ فقال له: أبغني كتاباً يفهم عني ما أقول؛ فجيء برجلٍ من عبد القيس؛ فلم يرض فهمه؛ فأتيَ بآخرٍ من قرشيّ؛ فقال له: إذا رأيتني قد فتحت في الحرف فانقط نقطة على أعلاه، وإذا ضممت في فانقط نقطة بين يدي الحرف، وإذا كسرت في فاجعل النقطة تحت الحرف، فإن أتبع شيئاً من ذلك غنةً فاجعل

النقطة نقطتين؛ ففعل؛ فهذه نقط أبي الأسود"¹، ومن هنا نشأت ألقاب الحركات في العربية، وعدت من أكثر ألقاب الأصوات توفيقاً.

ثم مضى علماء العربية يؤلفون في النحو والصرف والمعجم مشوبين بأحكام الصوت وعلله؛ فالخليل بن أحمد الفراهيدي هو من ألف أول معجم في العربية؛ وهو كتاب "العين"؛ الذي بُني على أساس صوتي، وصدّر المؤلف بمقدمة صوتية تعد أول دراسة صوتية منظمة، وصلت إلينا في تاريخ الفكر اللغوي عند العرب.^{2,3}

ثم تلاه كتاب سيويه؛ الذي تضمن دراسات صوتية، أوفت على الغاية دقة وأهمية، وتوعدت بتنوع مادتها؛ فكان منها ما يتعلق باللهجات والمقايسة بينها، والاستدلال لها، ومنها ما يعرض للقراءات، ومنها ما يتحدث عن ظواهر صوتية، كأحكام الهمز؛ من التحقيق والتسهيل، والإمالة والفتح، وما يتعلق بهما من أحكام، والإعلال، والإبدال، والتعليل الصوتي لهما، ثم تابعت كتب النحو واللغة بعد سيويه نحو نحو، وتفوق أثره؛ في تخصيص حيز للدراسات الصوتية، مرددة تعبيراته ومصطلحاته في كل ما يتعلق بخارج الحروف وصفاتها.

وهكذا اختلطت بحوث الصوت بالنحو والصرف إلى حدٍّ ضاع فيه كثير من معالمها أو كاد، غير أنها عادت؛ لتبرز على نحو واضح في علم آخر نشأ في رحاب القرآن الكريم؛ خدمة له، وصوناً لترتيبه وتلاوته، وحفظاً لوجه أدائه؛ وهو علم التجويد؛ وأول من صنّف فيه- على ما يبدو- موسى بن عبيد الله بن خاقان؛ صاحب "القصيدة الخاقانية" في التجويد.⁴

¹ ينظر: مراتب النحويين، ص 10-11.

² ينظر: التفكير الصوتي عند الخليل

³ ينظر: الكتاب، 117/4، 135، و259/2، 267

⁴ ينظر: الأصوات اللغوية، ص 3.

أما علم الأصوات؛ فظهرت بوارد التأليف فيه في العربية على يد المستشرقين في النصف الأول من القرن العشرين، لكن أول مؤلف كتب بالعربية- في العصر الحديث- هو كتاب "الأصوات اللغوية"، للدكتور إبراهيم أنيس؛ الذي صدرت طبعته الأولى في القاهرة سنة 1947م،¹ ثم توالى المؤلفات فيه، وتكاثرت بعد ذلك.

وإذا انتقلنا إلى شبه القارة الهندية لنسجل ما شهدته الدراسات الصوتية من بواكير ونشاطات؛ فنجدها تبدأ منذ أن بزغت شمس الإسلام في ربوعها؛ حيث أقبل المسلمون الهنود على القرآن الكريم كل الإقبال تعلمًا وتعليمًا، درسًا وتدريسًا، تحفيظًا وتلقيًا، ومن ثمّ أنشئت الحلقات القرآنية، ومدارس تحفيظ القرآن الكريم، وكان التركيز- بصورة خاصة- على الفنون والتخصصات ذات الصلة بالقرآن الكريم؛ مثل: التجويد، والقراءات القرآنية. ويذكر المؤرخ ضياء الدين البرني أنّ مهرة القرآن الكريم- في فني القراءة والتجويد؛ في هذه البلاد- هم أمثال: علاء الدين المقرئ،² والخواجه زكي،³ وغيرهما ممن عرّ نظيرهما في مناطق معروفة بالعلم؛ مثل: العراق، وخراسان، وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي،⁴ إلا أنّ هذه البواكير والنشاطات في ذاك العهد المبكر لم تدوّن في صحيفَةٍ، ولم تسجّل في كتابٍ، ولم تصل إلينا معلومات عنها.

فإذا تصفّحنا كتب الثقافة الإسلامية لشبه القارة نجد أنّ أول مؤلف في الدراسات الصوتية في شبه القارة يرجع إلى القرن السابع الهجري، حيث ظهر فيه عالم لغوي فدّ تصدّى لتأليف كتبٍ جمّة في فنونٍ مختلفة؛ من بينها: علم التجويد؛ ألا وهو: الصّغاني؛

¹ ينظر: المدخل إلى علم اللغة، ومناهج البحث اللغوي، ص 19.

² هو: علاء الدين المقرئ الدهلوي، أحد العلماء المبرزين في القراءة والتجويد، في عهد السلطان علاء الدين الخلاجي. زهة الخواطر، 177/2.

³ هو: زكي الدين المقرئ الدهلوي، وكان ابن أخت الوزير حسن بن أبي الحسن البصري. ينظر: زهة الخواطر، 160/2.

⁴ ينظر: تاريخ فرشته، 145/2.

الذي ينسب إليه كتابٌ في التجويد،¹ ثم استمرت - بعد ذلك - عناية العلماء والمعلّمين والمؤلّفين والمحقّقين بهذا العلم وقواعده وأحكامه، وتعليماته وتوجيهاته؛ حتى تكوّنت بذلك مكتبةٌ واسعةٌ فيه.

إنّ الدراسات الصوتية في شبه القارة الهندية تناولت بشرح قضاياها ومسائلها وأحكامها كتب في علم التجويد، وكتبٌ في النحو والصرف واللغة.

أما أهمّ مؤلّفات علم التجويد التي عولجت فيها مسائل الأصوات فهي ما يلي:

1. شرح الشاطبية، للشيخ محمد بن من الله الصديقي الكاكوري (ت1002هـ).²
2. الدرّ الفريد في القراءة والتّجويد، للشيخ عبد الحقّ الدهلوي (ت1052هـ).³
3. حلية القاري، للسيد أحمد الحسيني (ت1105هـ).⁴
4. زينة القاري، للهولوي كرامت عليّ الجونفوري (ت1290هـ) بالأردنية.⁵
5. رغائب الألباب، لرضا علي بن سخاوت البنارسي (ت1312هـ) بالفارسية.⁶
6. فوائد مكّية، للقاري عبد الرحمن المكي (ت1349هـ) بالأردنية.⁷
7. جمال القرآن، لأشرف عليّ التّهانوي (ت1362هـ) بالأردنية.⁸

¹ ينظر: الإمام الصّغاني، وكتابه مشارق الأنوار، إعداد: إفتخار أحمد بن محمد إسماعيل كاكور مقال منشورٌ على الشّبكة العنكبوتية (ملتقى أهل الحديث) بتاريخ: 2006/8/31م الساعة العاشرة، على الرابط: www.ahlehadeeth.com

² هذا الشرح يقع في سبعين جزءًا بالفارسية، وبعض أجزاء منه مطبوع. ينظر: نزهة الخواطر، 626/5

³ لم أقف على هذا الكتاب.

⁴ طبع الكتاب في مطبعة نولكشور سنة 1178هـ.

⁵ طبع الكتاب عدّة مرّات؛ وهو متداول.

⁶ طبع الكتاب سنة 1349هـ في مكتبة مجتباي، دلهي.

⁷ الكتاب مطبوع؛ وهو متداول بين الطلبة والمدرّسين.

⁸ الكتاب مطبوع؛ وهو متداول بين الطلبة والمدرّسين.

8. خلاصة التجويد، لضياء الدين أحمد الإله آبادي، (ت 1371هـ) بالعربية.¹
أما كتب النحو والصرف واللغة التي تناولت مسائل وقضايا ذات صلة بالدراسات الصوتية فن أهمها:

1. الشوارد، للصغاني؛ حيث تحدّث فيه المؤلّف عن التغيّرات الصوتية؛ كالحذف، والإبدال، والإعلال، والإدغام، والإمالة؛ التي تطرأ على الكلمة.
2. شرح الفصول الأكبرية، لعلي أكبر الإله آبادي؛ خصّص المؤلّف جزءاً كبيراً منه للحديث عن المباحث الصوتية، وما يتعلّق بها من القضايا؛ كالإمالة، والإبدال، والإدغام، وبين بين، والحذف، والردّ، والقلب، والتحرك، والإسكان، كما تحدّث عن مخارج الحروف وصفاتها.²
3. وسيط النحو، للشيخ تراب علي بن نصره الله الخير آبادي؛³ حيث خصّص الفصل الثامن من الكتاب للحديث عن الإمالة، والفصل التاسع لالتقاء الساكنين، والفصل العاشر للوقف.
4. فقه اللسان، لكرامت حسين الكنتوري، وتعرّض المؤلّف فيه لبعض المباحث والقضايا الصوتية؛ كنشأة الألفاظ من أصوات، وأسباب كثرة البدل في العربية، وكون الأصوات السينية والرائية أسبق في الوجود على غيرها، ثمّ الأصوات الأصلية، والمصادر الأصلية، وما طرأ عليها- بعد ذلك- من تغييرات بالاشتقاق اللغويّ والصرفي.⁴

¹ والكتاب مطبوع ومتداول. وينظر لمزيد من المؤلفات في هذا الباب: الثقافة الإسلامية في الهند، ص 174-175.

² ينظر ص 96-256

³ ينظر: ص 370-378.

⁴ ينظر: مقدّمة فقه اللسان (الفهرسة).

5. كتاب المبين، للسيد محمد سليمان أشرف (ت1358هـ) بالأردنية، وقد تحدّث فيه عن مخارج الأصوات العربية، وصفاتها في الباب الأول والثاني من كتابه، وعلاقة الصوت المفرد والمركب بالمعنى.

أما علم الأصوات الحديث- في شبه القارة الهندية- فلم ينل اهتماماً كبيراً، وعنايةً فائقةً؛ كما نالت فروع الدراسات اللغوية الأخرى: النحوية، والصرفية، والمعجمية؛ ولذلك لا نرى تأليفاً مستقلاً في هذا العلم؛ لعدة أسباب:

الأول: يرى علماء العربية- في شبه القارة- أنّ المباحث الصوتية؛ كالإدغام، والغنة، والإشمام، والرّوم، والوقف، والإبدال، وغيرها، أشدّ التصاقاً بعلم التجويد؛ الذي يتعلق بالآيات القرآنية وكلماتها وألفاظها فحسب، ولا تمتدّ إلى غير ألفاظ القرآن الكريم، ولذلك أصبح هذا العلم وما يتعلّق به من المباحث مقصوراً في تدريسه على حلقات تحفيظ القرآن الكريم.

الثاني: أنّ هذا العلم لم يظهر في أرض العرب إلّا في وقت متأخّر، لا يربو على أكثر من قرن، وأغلب الظن أنّ أول كتاب في هذا اللون- كما سبق- كتاب "الأصوات اللغوية" للدكتور إبراهيم أنيس؛ الذي كانت طباعته الأولى في سنة 1947م، كما لم يظهر في شبه القارة إلّا في وقت قريب لا يتجاوز ثلث القرن؛ حيث نجد بعض البحوث والمقالات والأطروحات العلمية؛ ذات الصلة بالأصوات؛ كُتبت لنيل الدرجات العلمية (الماجستير، والدكتوراه) في بعض الجامعات الهندية؛ ومن تلك البحوث:

- الكمية في الأصوات الصامتة في اللغة العربية، للباحث: أحمد مسعود عيسى العزّابي، تحت إشراف الدكتور محمد ثناء الله الندوي بجامعة علي كره، سنة 2005م.
- دراسة صوتية عن الهمزة وإبدالها، للباحث: عبد المتين أشرف، تحت إشراف البروفيسور فضل كبريا الصديقي، بجامعة بنه.

- تشكيل المقررات الدراسية للأصوات العربية لطلاب مرحلة "البكالوريوس" بولاية آسام، للباحث: محمد جهانغير عالم، تحت إشراف الدكتور سيد راشد نسيم الندوي، بجامعة اللغة الإنجليزية سنة 2007م.

الثالث: ومن أسباب عدم الاهتمام والعناية بعلم الأصوات أن قسم اللغة العربية في الجامعات الهندية- منذ إنشائه حتى الآن- يركز على تدريس المواد المتعلقة بالأدب العربي، وعلى فن الترجمة من العربية إلى الإنجليزية والعكس، ولا يزال القسم ضعيف العناية بجوانب اللغة ذاتها: صوتية، صرفية، ومعجمية، ودلالية، ولأجل هذا لا نكاد نجد مادة من المواد المرتبطة بالأصوات؛ داخلية في المقررات الدراسية في مراحلها المختلفة: (البكالوريوس)، و(الماجستير)، و(الدكتوراه).¹

هذا ما يتعلق بالدراسات الصوتية؛ تاريخها، وظهورها، وبعض مؤلفاتها في شبه القارة الهندية؛ التي عرضت في بعض صفحاتها مسائلها وقضاياها وأحكامها.

أما المناهج التي سلكها علماء هذه المؤلفات فاخترت لبيانها ثلاثة مؤلفات؛ إذ أراها تعدّ من أهم المؤلفات في هذا الباب.

الأول: فقه اللسان، للكنطوري (ت 1335هـ) بالعربية.

الثاني: فوائد مكية، لعبد الرحمن المكي (ت 1349هـ) بالأردنية.

الثالث: جمال القرآن، للشيخ أشرف علي التهانوي (ت 1362هـ) بالأردنية.

وقبل أن أتعرض لمناهج المؤلفين في مؤلفاتهم أودّ أن أقدم التعريف بالمنهج لغة واصطلاحاً.

التعريف بالمنهج لغة: قال ابن فارس: "النون، والهاء، والجيم، أصلان متباينان؛ الأول: النهج: الطريق، ونهجه لي الأمر: أوضحه؛ وهو مستقيم المنهاج، والمنهج: الطريق - أيضاً،

¹ للاطلاع على المقررات الدراسية في مراحل الدراسات العليا، ينظر: الباب الثاني، والثالث، والرابع من كتاب: واقع اللغة العربية في الجامعات الهندية، لإرشاد أحمد.

والجمع: المناهج. والآخِر: الانقطاع، وأتانا فلانٌ ينهج؛ إذا أتى مبهوراً، منقطع النفس" ¹، وتكاد تُنفق المصادر على أنّ مادّة (نَهَجَ) وما تصرّف منها يرجع أصلها إلى الطريق الواضح، وأنّ النهج، والمنهج، والمنهاج، بمعنى واحدٍ، ويجمع كلُّ منها على: (مناهج) ².
أما (المنهج) اصطلاحاً فقد عرّف بعدة تعريفاتٍ منها:

- أنّ المنهج العلميّ في التأليف، هو: "فن التّظيم الصحيح، لسلسلة الأفكار العديدة؛ من أجل الكشف عن الحقيقة؛ حين نكون بها جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين؛ حين نكون بها عارفين" ³.
 - أنّه هو "خطواتٌ منظّمة، يتّخذها الباحث في البحث العلميّ؛ لمعالجة مسألةٍ أو أكثر، ويتّبعها؛ للوصول إلى نتيجة" ⁴.
 - أنه هو: "الطريق المؤدّي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفةٍ من القواعد العامّة؛ التي تهيمن على سير العقل، وتحدّد عمليّاته، حتى يصل إلى نتيجة معلومة" ⁵.
- وهذه التعريفات وغيرها يمكن أن تُقيد بأنّ المنهج العلميّ هو: خطواتٌ منظّمةٌ يتّبعها الباحث، تتعلّق بالنّواحي العلميّة والشكليّة؛ كالوصفيّة والتاريخيّة والمقارنة، والتوثيق، وإيراد المصادر، وغيرها من القضايا؛ التي يتحقّق بها الهدف من إجراء البحوث العلميّة.
- أولاً: منهج المؤلف في كتاب "فقه اللسان": التعريف بالكتاب:

كتاب "فقه اللسان" بالعربية في ثلاثة مجلداتٍ؛ خصّص المؤلف الجزء الأوّل منها

¹ مقاييس اللّغة، 158/3.

² ينظر: المفردات في غريب القرآن، ص 508.

³ مناهج البحث العلميّ لعبد الرّحمن بدوي، ص 4.

⁴ ينظر: الصّحاح في اللّغة والعلوم، تجديد صحاح العلامّة الجوهريّ في المصطلحات العلميّة والفنيّة للمجامع والجامعات العربيّة، 614/2.

⁵ أصول البحث العلميّ ومناهجه للدكتور أحمد بدر، ص 32.

لحديث عن القضايا الصوتية، وما يتعلق بها من أحكام، فبدأه بمقدمة، ثم عقد فصولاً؛ لبسط الحديث عن المسائل المتعلقة بالأصوات.

أما المقدمة فأبدى فيها الغرض المقصود من تأليف هذا الكتاب.

أما الفصول فقد عقد لكل منها عنواناً، ثم سرد تحته قضايا لغوية - في أكثر الأحيان؛ وهذه أهم فصول:

فصل¹: في أصل اللغة العربية: ذكر المؤلف فيه أنّ العربية من اللغات السامية، وأنها تتقدم على العبرانية والسريانية؛ مع ذكر دلائل التّقدم.

فصل²: في خواصّ المفردات من الحركة، والوزن النوعي، والسلامة، والتفاوت في عدد العلاقات، والجذب وغيرها، وبيان معنى الجمود والسّيلان والبخارية.

فصل³: في تأليف الحيوانات من قطرات المادة الأولى.

فصل⁴: في امتياز المدركة من سائر البدن.

فصل⁵: في أنّ الاسم والفعل والحرف فرقٌ ممتازة من الصّوت.

فصل⁶: في الإدراك وفي درجاته.

فصل⁷: في تفاوت المدركات والمدركات.

وساق المؤلف فيه عدّة مسائل لغوية؛ أهمها: (1) تغير الأسباب الخارجيّة الحواسّ والمحمسوسات، (2) الاختلاف في الأبدان والطّبائع يحدث بمعاملة الأسباب الخارجيّة والداخلية، (3) اختلاف الأسباب يحدث الاختلاف في أدوات الكلام والسّماع، (4) تفاوت الأسباب هو السّبب الأوّل لاختلاف الألسنة، (5) الاستعانة بإحضار السّبب الخارجيّ هي الدلالة، (6) الدلالة تقريب بين المدلول والمدلول إليه، (7) خصال الدلالة، (8) إحضار الأوصاف منحصر في التمثيل،

(9) التمثيل: إما تمثيل الصورة أو تمثيل الصوت، والأول هو التصوير، والثاني هو التصويت، (10) امتياز التصوير في النحت، والنقش، والخط، (11) كون الحروف في بدو نشأتها صور الماديات، (12) أسامي الحروف السريانية أسام ماديات، (13) الخط السرياني مأخوذ من الخطوط العربية واليونانية وغيرهما، (14) كانت الألفاظ عند حدوثها أصواتاً حاكيةً للمسموعات، (15) لا يدلّ صوتٌ على جسمٍ بدون أن تكون بينهما مناسبة، (16) المناسبة وجود صوتٍ مع ذلك الجسم، (17) دلالة الصوت بالذات على الصوت الملازم للجسم، ثم على الجسم، ثم على صفاته، ثم على المعقولات، (18) المماثلة بين الحاكيات والمحاكيات غير تامة، (19) الفرق بين الحكاية بالتصوير والتصويت، (20) التصويت قاصرٌ في الحكاية، (21) طول الاستعمال يحكم الملازمة بين الصوت الدال والجسم المدلول إليه، (22) الأسباب الداعية إلى ترك الحركات والرمزات، (23) البحث في تقدّم الاسم على الفعل وضعاً، كالبحث عن تقدّم المادة على القوة، (24) الصوت هو المادة الأولى للألفاظ، (25) يمكن بيان نسب بعض الألفاظ، ولا يمكن بيان نسب الجميع لأمر، (26) المراد بالألفاظ الثقيلة، (27) رأي الحكيم إسبنسر في حدوث اللغة، (28) لا بدّ من بيان كيفية حدوث المادة الأولى للغة.

فصل: في المادة الأولى للغة: وتناول المؤلف فيه عدّة مسائل، أهمها: (1) أنّه لا تمتاز الأصوات المختلفة إلا إذا حدثت في الأذن قوّة إدراكها، (2) السامعة في الأقوام العالية تدرك الفرق بين السين والشين وغيرهما، (3) يتخيّل في الصدمات صوتٌ سينيٌّ، أو رائئٌ، أو نونيٌّ، أو مكرّرٌ، وغير ذلك، (4) الأصوات السينية والرائية وغيرهما؛ كالقطرات من المادة الأولى، (5) امتياز الصوت المعين في صوت حرفين، (6) الداعي إلى كثرة الأصول الثلاثية في الساميات، (7) صورة الصوت المتصل في الحكاية ومرتبها، (8) كيفية حدوث الثلاثي المضاعف والرباعي المضاعف، (9) توفيق حالات المادة الأولى من اللغة بحالات المادة الأولى من الحيوان.

فصل: في بيان التغيرات الطارئة على المصدر الأصلي: وتحدث المؤلف فيه عن عدة مسائل لغوية؛ منها: (1) تقسيم الاشتقاق إلى الصرفي واللغوي، (2) البدل من الاشتقاق اللغوي، (3) كثرة البدل في العربية، وسببه، والأمثلة عليه، (4) البدل في السريانية والعبرانية، (5) من الاشتقاق اللغوي: القلب، والداعي إليه، (6) الفرق بين العربية واليافنيات في الاشتقاق الصرفي، (7) المادة الأولى للاشتقاق الصرفي، (8) حروف (أمان وتسهيل) صور الإعراب.

فصل: في الاشتقاق اللغوي؛ الذي به يصير المصدر الأصلي رابعياً وخماسياً: وساق المؤلف فيه الحديث عن مسائل؛ أبرزها: (1) القائل بالكون في المختبرات مضطراً إلى القول بأن الأسط من الأبنية أصل، والباقي فرعه، (2) أمثلة حصول الرباعي والخماسي من الثلاثي.

فصل: في أن الاشتقاق اللغوي لا قياس فيه، وأن المشتقات اللغوية لا تكون على أوزان موضوعية. وجاء الحديث فيه عن مسائل؛ منها: (1) أمثلة الكلمات الموزونة بأوزان عديدة، (2) أصول العلاقات؛ التي بها ينتقل اللفظ من الحقيقة إلى المجاز.

فصل: في بيان الطريقة المرسومة لجمع اللغات في كتب اللغة: تحدث المؤلف فيه عن مسائل؛ أبرزها: (1) اعتناء القدماء بالظاهر أكثر من اعتنائهم بالباطن، (2) الجمع المكاني مما لا بد منه في اللغة، ولكنه قاصر في أمور.

فصل: في بيان الأسلوب؛ الذي ينبغي مراعاته لجامع اللغات: وتحدث المؤلف فيه عن عدة قضايا؛ أهمها (1) الأسلوب؛ الذي اختاره في ذكر بعض المصادر، (2) أمور ترشد المؤلف إلى الأسلوب المختار، (3) الترتيب؛ الذي رتب فيه المعاني.

أما المجلدان الآخرا فتحدث المؤلف فيهما عن المصادر الأصلية، وما تفرع عنها من المصادر الفرعية، وكيفية حدوث المصادر الفرعية عن الأصلية، والعلاقة بين معاني الأصلية ومعاني الفرعية، والمناسبة بين الكلمات ومعانيها.

ويمكن استخلاص منهج المؤلف في الكتاب من النقاط التالية:

أولاً: بدؤه كتابه بمقدمة خالية من الحمد والثناء لله، والصلاة والسلام على النبي؛ كما هو دأب المؤلفين القدامى والمحدثين؛ وإنما دخل في الحديث عن الغرض المقصود لتأليف الكتاب؛ فقال: "أريد أن أذكر- في هذه الوجيزة- ماهية اللسان العربي، وحديث تكوّن مصادرها، وأن أنسب المصادر، وأترجمها ممبّزاً بين المصادر الأصلية والفرعية، وبين المعاني الحقيقية للمصادر ومشتقاتها، والمعاني المجازية لها؛ باحثاً عن أسباب"¹.

ثانياً: يباشر النقل عمّن سبقه من اللغويين، ولا يأتي بتوطئة، تشعرنا بالمقصود من عقد الفصل، ومن الأمثلة على ذلك قوله: "فصل: في أصل اللغة العربية:

قال يوسف داود الموصلي في كتابه: "في نحو العربية" أن اللغة؛ التي تستعمل في هذه المدينة، وفي معظم البلاد الغربية الجنوبية من آسيا، وفي مصر، وسائر البلاد الشمالية من إفريقيا، وفي غير ذلك من الأمصار، تسمى اللغة العربية نسبة إلى العرب"².

ثالثاً: يرحّح في المسائل الخلافية ما يراه راجحاً، ويضعّف قول الآخرين، ومن الأمثلة على ذلك قوله: "قد اختلف المذاهب في القول: أي من جميع هذه اللغات السامية هي الأصلية؟ لأنه لا شك في أن كلّها نبتت من أصل واحد؛ فزعم كثير من القدماء أن أقدم هذه اللغات وأمن هي العبرانية، وزعم كثير- ولا سيما المتأخرين من المشرقيين- أن أقدمهن هي السريانية، ولكن الرأي الصحيح دون غيره- على علمي- وهو أن العربية هي أقدم من سائر اللغات السامية، وأقرب كلّهن، وأدلة ذلك كثيرة، ونحن نذكر- ههنا- أخصّها"³.

رابعاً: يلاحظ أن المؤلف- في كثير من الأحيان- يورد الاعتراض، ثم يجيب عنه،

¹ فقه اللسان، 1/1.

² المصدر السابق، 4-3/1.

³ المصدر السابق، 5/1.

ومن الأمثلة على ذلك قوله: "لعلّ معترضاً يعترض قائلاً: كيف يمكن أن تكون العربية أصل اللغات: السامية، والبرانية، والسريانية من فروعها، ونحن نعلم أنّ اللغة العبرانية كانت مكتوبةً، منذ الأحقاب القديمة، وقد كتب فيها أول كتاب، وصل إلى عهدنا من دون سائر اللغات، والسريانية كانت شائعةً في الدول الكثيرة..."

فنجيب أنّ هذا كله لا يُبين أنّ اللغة العربية أحدث من العبرانية والسريانية فقط؛ بل إنّها لم يكن لها علومٌ وكتبٌ، إلّا بعدها بكثيرٍ من الأجيال؛ فإنّ العرب كانوا موجودين في بلادهم، منذ الدهور القديمة؛ فكانوا إذا يتكلمون بلسانهم منذ الدهور القديمة، ولولم يقرؤوا ويكتبوا؛ مثلها السريان والعبريون كانوا في بلادهم منذ سنين كثيرة. لا، بل نقول: إنّ من المحتمل أنّ العرب والسريان والعبرانيين كان لهم جميعاً - في الأصل - لغةً واحدةً..."¹

خامساً: ومن أسلوب المؤلف أنّه يحيل المسألة إلى ما سبق، أو إلى ما يأتي بقوله: "ذكرت في موضعها"، أو "لأسباب مذكورة"، أو "سيأتي تفصيلاً - إن شاء الله"، ومن أمثلة ذلك قوله:

"أخذ قدماء السريانيين صناعة الخطّ بالصُّور من أهل مصر؛ أسامى حروفهم أسامى مادّيّات موجودةٍ في الخارج، بأوهم بيت، وجيمهم جمل، ودالهم يد، وسينهم سن، وعينهم عين، وقافهم قحْف، ونونهم نون؛ أي: سمك، وكذا الباقي من حروفهم، كانت بأوهم؛ التي تسمى في السريانية: "بيت" بمعنى: البيت تصويراً للبيت بأربعة جدران وباب، وكاتبها كانت - في أول الأمر - دالّةً على بيتٍ معيّن، ثمّ على نوع البيت، ثمّ لأسبابٍ - ذكرت في موضعها - قامت مقام علامة، تدلّ على الصوت؛ الذي يبتدئه اسم البيت"².

¹ المصدر السابق

² المصدر السابق، 65/2.

سادساً: أنه يتعرّض لمعنى الكلمة بالعبرانية والسريانية، بعد الذكر بالعربية، وهذه ظاهرة عامة، تُلاحَظ في الكتاب كلّهُ، ومن الأمثلة على ذلك قوله: "السّير: الذّهاب في حديث حذيفة: "تساير عنه الغضب"؛ أي: سَارَ وَزَالَ، سار القوم يسرون... وسير: في العبرانية: الغليان، والبلّبة، والقدر لمكان الغليان.

وسير- في السريانية: السّيف؛ وهو النسيج من الخوص، وقد يراد به نفس الخوص، وسير- أيضاً- الشّسع، و-أيضاً- القدّ، و-أيضاً- السّدي من الثّوب، و(سير) أيضاً- الثّراب الرّقيق، أصله: القدّ، ثمّ الشّسع، ثمّ الخوص، وأمّا الثّراب الرّقيق فلا أدري العلاقة¹.

سابعاً: يعقّب العلماء القدامى فيما قالوه؛ حيث إنّه ينقل كلام العلماء، ثم يعقّب بقوله: "أقول، ومن الأمثلة على ذلك قوله: كهف عنّا: مضى وأسرع، والنّون زائدة؛ كذا في "القاموس".

أقول: كهف مأخوذ من: كنف؛ لأنّ معنى: كنف عنه: عدل؛ وهذا بعينه موجود في: كهف، والقول بأنّ النّون زائدة يشير إلى أنّ أصله: كهف؛ وهذا وهم؛ لأنّه لا يوجد العدول عن شيء في معاني: كهف، و-أيضاً- لا يستعمل: كهف عنّا².

وقوله:- أيضاً:

"الرّشّف- كما في: "القاموس": الماء القليل يبقى في الحوض؛ وهو وجه الماء، الذي ترشّفه الإبل بأفواهها، والرّشيف ك(أمير): تناول الماء بالشفّتين، ورشّفه يرشّفه- كنصره وضربه وسمعه- رشفاً: مصّه؛ كارتشفه وترشّفه ورشّفه.

أقول: لا ريب في أنّ الهمرشفة مأخوذة من: الرّشّف؛ الذي هو مصدرٌ أصلي؛ وضع بحكاية صوتٍ يسمع عند الرّشّف، واشتقاق الهمرشفة من: الرّشّف من غرائب آثار

¹ المصدر السابق، 135-134/2.

² المصدر السابق، 118/1.

البدل والقلب، إلا أنه ليس بأشدَّ غرابةً من حدوث الإنسان من المادة الحيوانية، الأولى أصل الهرشفة: الخرقرة الرأشفة؛ صار تلفظها بالإدغام: أَرَأَشَفَه على وزن: أفاعله، ثمَّ يبدل الألف بالهاء صارت: هَرَأَشَفَه على وزن: هفاعله، ثمَّ بتغيير الحركات، وسقوط الألف، ونقل الشدة من الفاء إلى اللام، صارت: هَرَشَفَه على وزن: هَفَعَلَه، وغير خاف على الناقد المتأمل أن القول بأنَّ الهرشفة مأخوذة من: الرشف خير من أن القول بأنها كلمة موضوعة على حدة غير مشتقة من الثلاثي¹.

ثامناً: يدعّم المؤلف ما يختاره من أقوال في مسائلٍ خلافيةٍ باستشهاده بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأشعار العرب؛ وهذا أسلوبٌ عامٌ يلاحظ في الكتاب كله.

تاسعاً: يعتني ببيان المصدر الأصلي، وما يتفرع منه من مصادر؛ فهو يذكر مصدرًا يعده أصلياً، ثمَّ يدرج تحته مصادرَ يعدها فرعيةً مشتقةً منه، ومن الأمثلة على ذلك قوله: "جر: مصدرٌ أصليُّ؛ يحكي صوتاً يُسمع عند جرِّ غصنٍ يابسٍ ذي شوكٍ على الأرض..."².

ثمَّ يأتي بعدة مصادرٍ، مثل: جنن، كمن، جنى، زنا، جرم، سر، صار، ويعدُّ كلا منها مشتقةً ومتفرعةً عن ذلك المصدر الأصلي.

ولكن ما المصدر الأصلي؟، وكيفيته حدوثه؟، وما المصدر الفرعي؟، وكيفيته تفرعه منه؛ هذا ما سنتحدث عنه في المقال الذي يتبع.

بعد عرض نماذج الكتاب، ومناهج المؤلف فيه يتّضح لنا أن الكتاب يشير إلى سعة اطلاع مؤلفه على العلوم العقلية، والفلسفة اليونانية، علاوةً على العلوم اللغوية خاصةً ما يتعلّق منها بالأسرة السامية؛ فليس الكتاب بحثاً في مصادر العربية وحدها؛ بل هو

¹ المصدر السابق، 1/118.

² المصدر السابق، 2/5-1.

بحثٌ شيقٌ في اللغات السامية؛ مما يضيف إلى قيمته العلمية؛ وهذا في ذاته فريدٌ في شبه القارة؛ التي تسيطر عليها علوم لغاتها الآرية؛ ولذلك قال عبد الحي الحسني عنه: "لعله متفردٌ في علماء الهند لهذا الصنف"¹.

وقد ساعد الكتاب وصاحبه في الوصول إلى هذا الأوج من المجد شغله في منصب أستاذ القانون بجامعة إله آباد، وجامعة عليكره، التي حملت مشعل التجديد اللغوي العربي في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين في شبه القارة؛ كما ساعده -أيضاً- عمله قاضياً بالمحكمة العليا بإله آباد؛ حيث إنه استفاد من الحجج القانونية، والاستدلال العقلي؛ الذي نمي شخصيته، وترك انطباعاته في تأليف الكتاب.

ويمكننا أن نخلص مما سبق من بيان جوانب أسلوب المؤلف في تصنيف كتابه إلى أن منهجه كان يقوم على الوصف والتحليل؛ أي أنه كان قريباً من المنهج الوصفي الحديث.

الكتاب الثاني: فوائد مكّية؛ وهو باللغة الأردية لعبد الرحمن المكي؛ وبناه مؤلفه على مقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

ففي المقدمة ذكر حقيقة التجويد.

وفي الباب الأول خمسة فصول: الأول: في حكم الاستعاذة والبسمة، والثاني: في بيان مخارج الحروف، والثالث: في بيان صفات الحروف، والرابع: في بيان الصفات اللازمة، والخامس: في بيان الصفات المميزة المزيّنة.

والباب الثاني يحتوي على ثمانية فصول: الأول: في بيان التفخيم والترقيق، والثاني: في أحكام النون الساكنة والتنوين، والثالث: في أحكام الميم الساكنة، والرابع: في بيان حرف الغنة، والخامس: في أحكام هاء الضمير، والسادس: في بيان الإدغام، والسابع: في أحكام الهمزة، والثامن: في بيان أداء الحركات، وكيفيةها.

¹ ينظر: الثقافة الإسلامية في الهند، ص 28.

والباب الثالث مشتمل على أربعة فصول: الأول: في اجتماع الساكنين وأحكامه، والثاني: في أحكام المدِّ، والثالث: في مقادير المدِّ، والرابع: في أحكام الوقف.

والخاتمة مشتملة على فصلين: الأول: في بيان أنه لا بدَّ للقارئ والمقارئ أن يعرف أربعة علوم، هي علم التجويد، وعلم الوقف، وعلم الرسم، وعلم القراءات المتواترة، والثاني: في حكم التنغني واللهجات.¹

ويمكن أن يستخلص منهج المؤلف في الكتاب مما يلي:²

أولاً: بدء المؤلف كتابه بمقدمة بدأها بالحمد والثناء لله - عزَّ وجلَّ - والصلاة والسلام على النبي المصطفى - صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر فيها حقيقة التجويد، وحكمه، والآثار المترتبة على تركه، فيقول: "اعلم أن قراءة القرآن الكريم بالتجويد حتمٌ لازمٌ، لولم يُقرأ القرآن الكريم بالتجويد لُيعدُّ قارئه مخطئاً، ثم إذا أخطأ، فغير حرفاً مكان حرف، أو زاد حرفاً ونقص، أو أخطأ في حركة، أو سكت متحرِّكاً، أو حرَّك ساكناً فيعدُّ قارئه مخطئاً".³

ثانياً: أنه يدخل في ذكر المقصود بعد عقد الفصول مباشرة، ولا يأتي بتمهيدٍ ولا بمقدمةٍ تشعر بما يوضح مقصود الباب أو الفصل، ومن أمثلة ذلك قوله:

"الفصل الثالث: في بيان الصِّفات: معنى الجهر: الشِّدة، والقراءة بصوت قويٍّ، وضده همسٌ؛ أي القراءة بصوت خفيٍّ، وحروفه عشرة؛ مجموعها: فحَّته شخص سكت، وما سواها مجهورَةٌ، وللشِّدَّة ثمانية حروفٍ مجموعها: أجد قط بكت،

¹ ولهذا الكتاب شروحٌ عديدةٌ من أهمها: التعليقات المالكية، للشيخ المقرئ عبد الملك، والحواشي المسماة بـ"فوائد مرضية" للشيخ المقرئ محبِّ الدين الإله آبادي، والحواشي المسماة بـ"توضيحات مرضية" للشيخ المقرئ محمد شريف.

² النصوص، التي أسوقها منه بالأردية، وقت ترجمتها إلى العربية.

³ فوائد مكيَّة، ص 8-9.

ينحسب الصوت عند إسكانها".¹

وقوله في التفخيم والترقيق: "الفصل الأول: في بيان التفخيم والترقيق: الحروف المستعلية تفخّم دائماً، والحروف المستفلة ترقّق، إلا أنّ الألف، ولام لفظ الجلالة، والراء تفخّم أحياناً، وترقّق أخرى، وتفخّم الألف؛ إذا كان قبلها حرف مفخّم، وترقّق؛ إذا كان قبلها حرف مرقّق، وتفخّم لام لفظ الجلالة (الله)؛ إذا كان قبلها ضمة أو فتحة، وترقّق؛ إذا كان قبلها كسرة؛ مثل: (الله)".²

ثالثاً: يأتي بعد القاعدة العامة ب"فائدة"، يذكر فيها ما استثني عن القاعدة، أو ما يعدّ زيادةً على القاعدة، ومن أمثلة ذلك قوله- بعد أن ذكر أنّ مخارج الحروف أربعة عشر: "فائدة: هذا (أربعة عشر مخرجاً) مذهب الفراء، وعند سيويوه ستة عشر مخرجاً؛ لأنّه أسقط مخرج الجوف؛ الذي هو مخرج حروف المدّ الثلاثة، ووزّع حروفه على مخارج الحلق واللّسان والشّفتين، وعند الخليل سبعة عشر مخرجاً؛ لأنّه أثبت مخرج الجوف في مكانه، وجعل حروف المدّ ثابتةً فيه لم توزّع، وكذلك أثبت لكلّ من اللّام والنون والراء مخرجاً مستقلاً".³

وقوله في بيان التقاء الساكنين:

"الفصل الأول: في بيان التقاء الساكنين: التقاء الساكنين على قسمين: الأول على حدّه، والثاني على غير حدّه. الأول: أن يكون الساكن الأول حرف مدّ، والساكن في كلمة واحدة؛ مثل: (دابة)، (الآن)، والتقاء الساكنين هذا جائز، والتقاء الساكنين على غير حدّه لا يجوز، إلا في حالة الوقف، والتقاء الساكنين على غير حدّه: هو أن لا يكون الساكن الأول حرف مدّ، ولا الساكن في كلمة واحدة، فإذا

¹ المصدر السابق، ص 18

² المصدر السابق، ص 27.

³ المصدر السابق، ص 17.

كان الساكن الأول حرف مدّ فيحذف؛ مثل: "وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ... وإذا لم يكن الساكن الأول حرف مدّ حُرِّك حركة الكسر؛ مثل: "إِن أَرْتَبْتُمْ"²... إلا إذا كان الساكن الأول ميم جمع فيضمُّ؛ مثل: "عَلَيْكُمْ الصِّيَامُ"³، وإذا جاء حرف ساكن بعد "من" الجارة تفتح النون؛ مثل: "مِنَ اللَّهِ"⁴.

فائدة: في: "يُنْسِ الْأَسْمُ"⁵ من سورة المحرّات، وردت بعد "يُنْسِ" لام مكسورة، بعدها سين ساكنة، والهمزة التي قبل اللام، وبعدها همزة الوصل؛ فلذا حذفت، وكسرت اللام؛ بسبب التقاء الساكنين.

فائدة: الكلمة المنوَّنة؛ أعني الكلمة التي في آخرها ضمتان، أو فتحتان، أو كسرتان، تقرأ فيها نون ساكنة واحدة، ولا تكتب؛ ويسمى مثل هذه النون نوناً منوَّنةً؛ يحذف هذا التنوين في الوقف، إلا إذا كان المنون تنوين فتحة؛ فتقلب ألفاً؛ مثل: "بصيراً"، أما في غير الوقف، فإن كان بعدها همزة الوصل؛ فتحذف، ويصير هذا التنوين كسرةً، بسبب التقاء الساكنين على غير حدّه، وتكتب نوناً صغيرةً في أكثر المواضع، على خلاف القياس؛ مثل: "بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ"⁶.

ويمكننا أن نخلص ممّا سبق إلى أنّ منهج المؤلّف في الكتاب كان قريباً من المنهج الوصفيّ كذلك.

الكتاب الثالث: (جمال القرآن) للشيخ أشرف التهانوي، وهو أول كتاب في علم

¹ سورة البقرة: 43.

² سورة المائدة: 106.

³ سورة البقرة: 183.

⁴ سورة البقرة: 61.

⁵ الآية: 11.

⁶ سورة الصافات: 6.

التجويد باللغة الأردية في شبه القارة الهندية، وقد نقلت هذه الرسالة إلى اللغات المختلفة؛ منها: العربية، والفارسية، والبنغالية، والغجراتية.¹

وتشتمل هذه الرسالة على أربع عشرة لمعة: ففي الأولى ذكر المؤلف حقيقة التجويد، وفي الثانية حكم ترك التجويد، وفي الثالثة أحكام التعود والبسمة، وفي الرابعة مخارج الحروف، وفي الخامسة ساق الحديث عن الصفات اللازمة، وفي السادسة عن الصفات العارضة، وفي السابعة ذكر أحكام تفخيم لفظ الجلالة وترقيقه، وفي الثامنة أحكام ترقيق الراء وتفخيمها، وفي التاسعة أحكام الميم الساكنة، وفي العاشرة أحكام النون الساكنة، والتنوين، والنون المشددة، وفي الحادية عشر أحكام المد، وفي الثانية عشرة قواعد الهمزة، وفي الثالثة عشرة أحكام الوقف، وفي الرابعة عشر تعرض لمسائل شتى.

أما منهج المؤلف في الكتاب، فيمكن استخلاصه مما يلي:²

أولاً: بدأ المؤلف كتابه بمقدمة بدأها بالحمد والثناء على الله - عز وجل - ثم بين فيها أهداف تأليف الكتاب، واسم الكتاب، وأسماء الموضوعات؛ التي تطرق إليها، وذكر أن المواد العلمية؛ التي نثرها فيه؛ إما أن تكون قد أخذها من كتاب؛ فذكر اسم الكتاب، وإما أن تكون من عنده؛ فلم يذكر اسم الكتاب.

ثانياً: يعتني بتعريف المصطلحات المتعلقة بالأصوات، في كثير من الأحيان، ومن أمثلة ذلك قوله في تعريف الهمس: "الهمس: هو صوت لين وخفيف، والحروف؛ التي توجد فيها هذه الصفة تسمى مهموسة، ومفهوم هذه الصفة: أن يتوقف الصوت عند النطق بهذه الحروف بلين ومرونة، يستمر النفس، وينخفض الصوت، ومثل هذه الحروف عشرة؛ مجموعها: (حُثُّه شخص سكت).

¹ وله شروح كثيرة، وقد شرحه الشيخ المقرئ محمد طاهر الرحيمي شرحاً وافياً؛ باسم "كمال الفرقان شرح جمال القرآن"، وكذا شرحه الشيخ حسن باشا؛ باسم "أنوار القرآن".
² النصوص التي أسوقها بالأردية، وقت بترجمتها إلى العربية.

وأما الجهر فهو: الإعلان والظهور، والحروف؛ التي توجد فيها هذه الصفة تسمى مجهورةً، ومفهوم هذه الصفة أن يتوقف الصوت عند النطق بهذه الحروف بقوة؛ بحيث يخبس النفس، ويكون في الصوت نوعٌ من ارتفاع، وجميع الحروف غير المهموسة مجهورةً، والجهر والمهمس كلاهما صفتان متضادتان.¹

وقال عند التعريف بالاستعلاء: "الاستعلاء هو الارتفاع والعلو، والحروف؛ التي توجد فيها هذه الصفة تسمى مستعليةً، ومفهوم هذه الصفة: أن يرتفع أقصى اللسان عند النطق بهذه الحروف إلى الحنك الأعلى، ولأجل هذا تكون هذه الحروف مفتحةً؛ وهذه سبعة حروف؛ مجموعها: حُصَّ ضغَطِ قَطْ.

والاستفال: هو الانخفاض، والحروف؛ التي توجد فيها هذه الصفة تسمى مستفلةً، ومفهوم هذه الصفة أن لا يرتفع أقصى اللسان إلى الحنك الأعلى، ولأجل هذا تكون هذه الحروف مرققةً، وجميع الحروف سوى المستعلية مستفلةً؛ وهذان الاستعلاء والاستفال صفتان متضادتان.²

ثالثاً: يتناول المؤلف قضايا وظواهر كثيرةً بالتعليل اللغوي؛ فعندما يتحدث عن مخرج الواو والياء والألف يقول: "المخرج الأول: جوف الفم، يخرج منه الحروف التالية: الواو إذا كانت ساكنةً، وقبلها حرفٌ مضمومٌ ك"المَغْضُوبِ"³، والياء إذا كانت ساكنةً، وقبلها حرفٌ مكسورٌ؛ ك"دَسْتَعِينِ"⁴ والألف غير المهموزة إذا كانت ساكنةً، وقبلها فتحةٌ ك"صِرَاطِ"⁵... والألف والواو والياء؛ التي مر ذكرها- فيما أعلاه-

¹ جمال القرآن، ص 15.

² المصدر السابق، ص 16-17.

³ سورة الفاتحة: 7.

⁴ سورة الفاتحة: 5.

⁵ سورة الفاتحة: 6.

تسمى حروف المدِّ، والحروف الهوائية، أما الاسم الأول؛ فأطلق عليها؛ لأنها تقبل المدِّ، وستعرف عنها في اللمعة الحادية عشرة، وأما الاسم الثاني فأطلق عليها؛ لأنها تخرج مكتملةً على الهواء".¹

رابعاً: الإحالة: يحيل المؤلف المسألة إلى ما يأتي، أو إلى ما مضى، ولا يكررها، ومن أمثلة ذلك قوله عند الحديث عن الرّاء الساكنة في الوقف: "تفخّم الرّاء وترقّق، بالنظر إلى الحرف قبل الرّاء عندما تسكّن الرّاء سكوناً تامّاً؛ كما هو الضابط العام للوقف، ولكن هناك- أيضاً- طريقةٌ أخرى للوقف؛ وهو أنّ الحرف؛ الذي يوقف عليه، لا يسكّن تامّاً؛ وإنما تنطق حركة الحرف نطقاً خفيفاً؛ وهذا ما يسمى روماً؛ وهو لا يكون إلا في الكسرة والضمة، وسيأتي بيانه مفصلاً في اللمعة الثالثة عشرة- إن شاء الله".²

ويقول في اللمعة الثالثة عندما يتحدث عن قواعد النون الساكنة والمشددة: "قد كتبت- في بداية اللمعة الثالثة- أنّ التنوين يدخل في النون الساكنة؛ فانظر هناك..

القاعدة الأولى: إذا كانت النون مشددة؛ فلا بدّ فيها من الغنة، وفي هذه الحالة تسمى حرف الغنة؛ كالميم المشددة، أعد النظر في القاعدة الأولى من اللمعة التاسعة.

القاعدة الثانية: إذا جاء حرفٌ من الحروف الحلقية بعد النون الساكنة والتنوين فلا بدّ من إظهار في النون، أعد النظر في المخرج الأوّل، والثاني، والثالث، والرابع من اللمعة الرابعة".³

خامساً: يعنى المؤلف- في كثيرٍ من الأحيان- بعقد "تنبيه"؛ وذلك أنه يذكر أصولاً عامّة، ثم يأتي بالأمثلة توافقها، ثم يعقد تنبيهاً؛ لينبه القارئ أو المتعلّم على الأمثلة الخارجة عن تلك الأصول والضوابط العامّة، أو ينبّه إلى احتمال أمرين بجواز كلّ

¹ جمال القرآن، المصدر السابق، ص 8-9.

² المصدر السابق، ص 27.

³ المصدر السابق، ص 29.

منهما، ومن أمثلة ذلك قوله في قواعد الراء:

"القاعدة الثالثة: إذا كان الحرف قبل الراء غير متحرِّكٍ، أي: كان ساكناً- وهذا لا يكون إلا في الوقف؛ كما سوف ترى في الأمثلة- فانظر إلى ما قبل الحرف الساكن؛ فإن كان مضمومًا، أو مفتوحًا فاقراً الراء مفتوحة؛ مثل: "لَيْلَةُ الْقَدْرِ"،¹ و"بِكْرُ الْعُسْرِ"؛² حيث إنَّ الراء ساكنةٌ، والدَّال والسِّين- أيضًا- كذلك، والقاف والعين مضمومةٌ؛ لذلك تفتح الراء، وإن كان ما قبل الحرف الساكن مكسورًا ترقق الراء؛ مثل "ذِي الذِّكْرِ"؛³ لأنَّ الراء والكاف ساكنتان، والدَّال مكسورةٌ؛ لذلك ترقق الراء. تنبيهٌ أولٌ: إذا كان الحرف الساكن قبل الراء الساكنة ياءً؛ فلا ينظر إلى ما قبل هذه الياء، وقرأ الراء مرققةً على كلِّ حالٍ، ولا تبالِ بحركةٍ قبل الياء؛ مثل: خيرٌ، وَقَدِيرٌ.

تنبيهٌ ثانٍ: وفقًا للقاعدة الثالثة ترقق الراء في: مِصْرٌ⁴ وَعَيْنَ الْقَطْرِ⁵ عند الوقف، لكنَّ القراء رققوا ونغموا؛ لذلك يجوز قراءتها بكلِّ من الوجهين، ولكنَّ الأرجح أن تعتبر حركة الراء نفسها؛ فالأولى في الْقَطْرِ أن تفتح الراء؛ لأنَّها مفتوحةٌ، والأولى في مِصْرٍ، أن ترقق؛ لأنَّها مكسورةٌ.

تنبيهٌ ثالثٌ: وفقًا للقاعدة الثالثة تفتح الراء في وَالِيلٍ إِذَا يَسَّرَ⁶ من سورة الفجر،

¹ سورة القدر: 3.

² سورة البقرة: 185.

³ سورة ص: 1

⁴ سورة يوسف: 99.

⁵ سورة سبأ: 12.

⁶ الآية: 4.

ولكنَّ بعض القراء رَجَّحَ أن تَرَقَّقَ، ولكنَّ هذه الرواية ضعيفة؛ لذا الأرجح أن تَضَخَّمَ الرَاءُ؛ وفقاً للقاعدة¹.

خامساً: إذا وُجِدَ خِلافٌ بين العلماء في مسألةٍ ما نُجِدُهُ يَرَجِّحُ وَيَضَعِفُ، وخير مثالٍ على ذلك ما مرَّ آنفاً في التنبيه الثالث.

بهذه النماذج من أسلوب المؤلفين يتضح لنا أنَّ منهج علماء شبه القارة الهندية- في تأليفاتهم في الأصوات- لم يختلف عن مناهج علماء العرب في تأليفاتهم فيها؛ فكلما أقبلوا يلبون ثقافتها وحضارتها أقبلوا يأخذون منهجها ومسلكها في التصنيف والتأليف؛ فلا نرى من خلال التعرض لمنهج التأليف عندهم ما يعدُّ من إضافاتٍ وزياداتٍ لم يسبقها علماء العرب، ولا نرى أيَّ اختلافٍ في منهجهم عنهم.

¹ جمال القرآن، المصدر السابق، ص 27

المصادر والمراجع

1. أسباب حدوث الحروف لابن سينا، تحقيق: محمد حسان الطيان، ويحي مير علم، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، د.ت.
2. الأصوات اللغوية للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة نهضة مصر، 1975م.
3. أصول البحث العلمي ومناهجه للدكتور أحمد بدر، وكالة المطبوعات الكويت، 1982م.
4. الإمام الصَّغَانِيّ، وكتابُه (مشارك الأنوار) إعداد: افتخار أحمد بن محمد إسماعيل كاكِر، مقال منشور على الشبكة العنكبوتية (ملتقى أهل الحديث).
5. البحوث الجامعية في الجامعات الهندية حول الأدب العربيّ للدكتور جمشيد أحمد التّدوي، مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، 1436هـ.
6. تاريخ فرشته لفرشته ترجمة مولوي محمد فدا علي، دار الطبع جامعه عثمانية دكن حيدرآباد، 1932م.
7. التّفكير الصّوّتيّ عند الخليل للدكتور حلبي خليل، دار المعرفة الجامعية الإسكندرية، ط1، 1988م.
8. الثقافة الإسلامية في الهند لعبد الحي الحسني، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، 2015م.
9. جمال القرآن لمولانا أشرف علي التهانوي، مكتبة البشرية للطباعة والنشر، كراتشي، باكستان، 2011م.
10. الخصائص لأبي الفتح عثمان بن جنيّ، تحقيق: محمد علي النّجّار، المكتبة العلمية، د.ت.
11. الصّحاح في اللغة والعلوم، تجديد صحاح العلامة الجوهري في المصطلحات العلمية والفنية للمجامع والجامعات العربية، إعداد: نديم مرعشلي، وأسامة مرعشلي، دار الحضارة العربية، بيروت، ط1، 1974م.

12. العين لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د. مهدي الخزومي، ود. إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، د.ت.
13. فقه اللسان لكرامت حسين الكنتوري، مطبع نولكشور، لكناو، الهند، 1915م.
14. فوائدمكية لمولانا عبد الرحمن مكّي، مكتبة البشرى للطباعة والنشر، كراتشي، باكستان، 2007م.
15. الكتاب لسبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، مكتبة الخالجي، القاهرة، 1988م.
16. المدخل إلى علم اللغة، ومناهج البحث اللغويّ للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخالجي القاهرة، ط2، 1405هـ.
17. مراتب التحويّن لعبد الواحد بن علي أبو الطيب اللغوي، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، 2009م.
18. المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دار الشامية، دمشق، بيروت، ط1، 1412هـ.
19. مقاييس اللغة لأحمد بن فارس زكري القزويني، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، 1399هـ.
20. مناهج البحث العلميّ لعبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، 1978م.
21. نزهة الخواطر لعبد الحيّ بن نضر الدين بن عبد العليّ الحسينيّ، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ.
22. واقع اللغة العربيّة في الجامعات الهندية لإرشاد أحمد، المجلس الهندي للعلاقات الثقافية، 2005م.

الشيخ غلام نقشبند الكهوسوي اللكنوي

- القاضي أبو المعالي أظهر المباركفوري¹

ترجمة من الأرودية: د. سيد محامد الهاشمي²

لقد أنجبت مدينة جونبور التي كانت تسمى "شيراز الهند"، آلاًفاً من العلماء والفضلاء، والأعلام والشخصيات، فكانت قراها وأريافها عامرة بفضلهم وجهودهم بالمدارس والزوايا، وكانت هذه المناطق تضاهي بغداد وقرطبة.

وكانت الفترة بأكملها من عهد سلاطين الأسرة الشرقية من جونبور إلى عهد الإمبراطورية المغولية عهد الربيع العلي، ولا سيما عصور السلطان إبراهيم شاه الشرقي، وشاهجهان، وأورنك زيب عالمكير الزاهرة التي كانت للعلم والعلماء فيها صولة وجولة ورونق وبهاء، وقد أولى أورنك زيب عالمكير اهتماماً خاصاً بعلماء جونبور ونوابها في أيام ولاية عهده وإمبراطوريته حتى تحوّلت هذه المنطقة كلها إلى معدن العلم وحديقة المعرفة.

وقد صورّ الشيخ خير الدين محمد الجونبوري هذه الفترة الزاهرة بأزهى كلماته، فقال: "كان الإمبراطور أورنك زيب عالماً يعمل بعلمه، وعاملاً يعمل على بصيرة، وكان يقيم للعلماء وزناً كبيراً، ويقدرهم حقّ تقدير، وقد اهتمّ بهم منذ أن كان وليّ العهد، أصبحت جونبور مأوى العلماء، وموتلاً للعلم والفضل في زمنه مثل عصور سلاطين الشرق وذلك لكثرة العلماء وطلاب العلم، وعندما تولّى عالمكير الحكم، أرسل إلى والي جونفور أمراً سلطانياً للبحث عن ظروف المدرّسين والمشايخ بهذه المنطقة، وألحّ

¹ كاتب ومحقق هندي له مساهمات جليلة عن العلاقات بين الهند والعرب أبرزها "رجال السند والهند".

² أستاذ مساعد، قسم الدراسات العربية، جامعة اللغة الإنجليزية واللغات الأجنبية، حيدرآباد

عليه بالتأكيد والتهديد أن لا يتأخر في إشعاره بأحوال هذه الفئة الخاصة، وهكذا، أصبحت هذه المنطقة في زمن الإمبراطور عالمكبير بستاناً من العلم، حيث تمّ تجديد المدارس الدينية القديمة في كافة المدن والقرى المجاورة لمدينة جونبور، وتمّ بناء العديد من الزوايا ومراكز التصوف في أرجائها، وانتشر جوّ التعلم والتعليم في كلّ حيّ من أحياء مدينة جونبور، وتمّ إنشاء المدارس الدينية في أماكن مختلفة، فكان مير أبو البقاء، والسيد مبارك، والملاّ حفيظ يدرّسون في حيّ "المفتي"، والشيخ أمير الدين في حيّ "شاه مدار"، ومير عبد الباري في حيّ "درية"، ونجل الملاّ محمود في حيّ "سبأه"، وكانت هناك مدرسة في كلّ حيّ من أحياء جونبور، حيث كان المعلّمون يدرّسون الطلاب، كما كانت هناك زوايا في كلّ زقاق حيث كان المشايخ يتولّون تربية الناس على الإيمان والأخلاق¹.

على هذا المنوال، كان المثات من العلماء والمشايخ يعملون في أوساطهم بهذه الديار الشرقية من الهند في عصر عالمكبير، فكان من بين معلّمي هذا العصر الحافظ أمان الله البنارسي (1133هـ)، والقاضي محبّ الله البيهاري (1119هـ) والملاّ قطب الدين الشمس آبادي (1121هـ)، والشيخ أحمد بن أبي سعيد المعروف بالملاّ جيون الأميوشي (1130هـ)، والسيد سعد الله السلوني (1138هـ)، والقاضي عصمة الله اللكنوي (1113هـ)، والشيخ غلام محمد اللكنوي (1136هـ)، والشيخ غلام نقشبند الكهوسوي اللكنوي (1126هـ) وغيرهم، وكلهم كانوا معاصرين، حتى أصبحت هذه الديار الشرقية كلها "دار العلم" بأنشطتهم العلمية والتعليمية، وكان من بينهم الشيخ غلام نقشبند الكهوسوي- رحمه الله-، الذي كان صاحب شخصية متميزة بسبب إنجازاته التعليمية والتربوية.

كان الشيخ من قرية "كهوسي" (Ghosi) الكائنة بالمنطقة الشرقية من مديرية أعظم كره

¹ تذكره علماء هند، ص 51.

الجنوبوري خليفة الشيخ شاه عبد القدوس (ت 12 شوال 1052هـ) مدة من الزمن، حتى أصبح خليفة الشيخ الجنوبوري. ورد في كتاب "انتصاح عن ذكر أهل الصلاح": "وكان من خلفاء الشيخ شاه عبد القدوس الجنوبوري (1052هـ) اثنان: الأول: ديوان عبد الرشيد الجنوبوري، والثاني: قدوة العلماء عمدة العرفاء الشيخ عطاء الله الجنوبوري والد الشيخ غلام علي نقشبند، وكان خليفة الشيخ حسام الدين المانك بوري كذلك".¹

وكان الشيخ عطاء الله قدوة العلماء في العلم والمعرفة، وكان ضليعاً بالفقه، وأصول الفقه وعلم الكلام، والأدب والعربية وغير ذلك مثل أبيه، وامتاز بالورع والتقوى، وصل به الجذب الروحي أخيراً إلى لكناؤ، فحضر مجلس الشيخ بير محمد الجنوبوري اللكنوي (ت 1085هـ)، هجر وطنه "كهوسي" واستقر في لكناؤ، وتوفي في 5 ربيع الآخر 1063هـ² وكان من بين تلاميذه الشيخ مير محمد شفيح الدهلوي (ت 1109هـ) الذي كان من أشهر علماء عصره، وهو الذي قام بدور هام في تربية الشيخ غلام علي نقشبند وتكوين شخصيته، وسيأتي ذكره مفصلاً، وجاء في كتاب "أصول المقصود": "كان والد الشيخ غلام نقشبند خليفة الشيخ بير محمد اللكنوي قدوة العلماء الشيخ عطاء الله علامة زمانه، وتلميذاً رشيداً للشيخ الملا محمود الجنوبوري في العلوم الظاهرة، أخذ البيعة في سلسلة "بندكي" (العبودية)، وتلقى الخلافة للبيعة في السلسلة القلندرية من الشيخ عبد القدوس، توفي في 5 ربيع الآخر 1063هـ، وقبره في لكناؤ".³

الولادة والنشأة: ولد الشيخ غلام نقشبند في كهوسي في 19 ذي الحجة 1051هـ قبل إقامة والده في لكناؤ، جاء في نزهة الخواطر: "ولد لإحدى عشرة بقين من ذي

¹ انتصاح عن ذكر أهل الصلاح، ص 16.

² نزهة الخواطر، 285-274/5.

³ أصول المقصود، ص 86.

الحجة سنة إحدى وخمسين وألف بقرية كهوسي¹، ووفقاً للشيخ آزاد البلكرامي، فإن الأب أطلق على ابنه اسم غلام نقشبند بإشارة روحية، قضى أيام صباه في كهوسي، وترعرع في البيئة المنزلية، الدينية والعلمية والروحية، ولما بلغ 11 أو 12 سنة من عمره توفي والده، فرباه تلميذ والده النجيب مير محمد شفيح تربية حسنة، وعلمه فأحسن تعليمه.

مبشرات منامية في زمن طلب العلم: يروي الشيخ غلام نقشبند أني رأيت النبي ﷺ في المنام ذات ليلة في بداية أيام دراستي أنه ﷺ يفكّ زرّ اللباس من صدري بيده المباركة، وقد فتح الله عليّ في نفس المنام تعبير هذه الرؤيا أنّ الله يشرح صدري لأبواب العلم².

تلقي الشيخ التعليم والتدريب الكاملين من البداية حتى النهاية في خدمة مير محمد بعد وفاة والده عام 1063هـ، وفي سن الثامنة عشر من عمره تخرج في جميع العلوم والفنون السائدة آنذاك، وبعد تخرجه درس قليلاً لدى مرشد والده بير محمد الجونيوري اللكنوي للحصول على البركة، ونال منه شهادة التخرج، وكان الشيخ يبلغ من العمر إذ ذاك 21 عاماً، وقد كتب آزاد البلكرامي: "من بداية دراسته إلى النهاية بذل قصارى جهده لاكتساب الفضائل لدى تلميذ والده الشيخ المير محمد شفيح، وفي سن الثامنة عشر من عمره حقّق النجاح في كافة العلوم والفنون، وقرأ فاتحة الفراغ من تحصيله على شيخ شيخه الشيخ بير محمد اللكنوي"³.

أساتذته: وهكذا جاء في سبحة المرجان باختصار، وهذا يعني أنّ الشيخ من مواليد 1051هـ، وقد ظل في تربية أبيه 11 أو 12 سنة، وبعد وفاة والده في عام 1063هـ

¹ المرجع السابق، 213/6.

² مآثر الكرام، 213/1.

³ مآثر الكرام، 13/2، وسبحة المرجان، ص 78.

رافق المير محمد شفيع ست أو سبع سنوات، يدرس ويتعلم، حتى أكمل المراحل التعليمية السائدة آنذاك، وكان في الثامنة عشر من عمره، ونال الشهادة حين كان عمره 21 سنة، وذلك لدى الشيخ بير محمد عام 1072هـ، ويدل ذلك على أن له أستاذين علاوة على والده. وحسب تصريح زهة الخواطر، فإنّ الشيخ غلام محمد "قرأ على الشيخ بير محمد اللكنوي القدوري، وشرح الجعيني، وجزءًا من البيضاوي".¹

1. الشيخ بير محمد الجونفوري اللكنوي: ولد الشيخ بير محمد بن أولياء في 26 من شهر رمضان عام 1027هـ في قرية تسمى "ماندياهو" (Marhyāhūn) التابعة لجونبور، توفي والده في طفولته، فربّاه عمه، ذهب إلى مانيك فور، وتلقى تعليمه الابتدائي من معلّمي تلك القرية، وهنا التقى بالشيخ عبد الله سيّاح الدكني، وتلقّى منه التربية الروحية والطريقة الصوفية، ودخل في دائرة مريديه، ثم جاء إلى لكّاؤ، ودرس بقية الكتب المدرسية على القاضي عبد القادر اللكنوي (ت 1077هـ)، ثم التحق بالشيخ عبد الله سيّاح مرة أخرى، وبدأ يتعلم منه الطريقة الجشّية، وبلغ فيها درجة الكمال في خدمته، حتّى الشيخ عبد الله سيّاح على أن يبذل قصارى جهوده في الأشغال العلمية والتعليمية، ثم ينخرط في سلك الطريقة، فسافر إلى دهلي على توجيه الشيخ بير محمد، وأكمل الكتب الدراسية من الشيخ حيدر، وهنا لقي مرة أخرى الشيخ عبد الله سيّاح، وقد أجاز الشيخ بير محمد في كافة الطرق والسلاسل الصوفية، و"عوارف المعارف"، و"الجواهر الخمسة"، وبعد إكمال العلوم الظاهرة والباطنة عاد إلى لكّاؤ. اشتغل بالتعليم والتدريس والإرشاد والتلقين، وعدّ من مشاهير مشايخ الديار الشرقية في القرن الحادي عشر، ومن تصانيفه المشهورة: حاشية الهداية، ومجموعة الفتاوى، وسراج الحكمة، وحاشية هداية الحكمة، والمنازل الأربعة، واستفاد منه كثير من العلماء

¹ زهة الخواطر، 213/6.

والمشايخ، ومن أبرزهم الشيخ عطاء الله والد الشيخ غلام نقشبند.

توفي في 14 جمادى الآخر عام 1085هـ في لكناؤ، ودفن على تلّ على شاطئ نهر كومتى، أصبح يعرف فيما بعد باسم تل الشيخ بير محمد شاه.

2. المير محمد شفيح الدهلوي: ولد المير محمد شفيح بن محمد مقيم الحسيني الدهلوي في لاهور، توفي والده في صغر سنه، فانتقل من بلده مع أمه، وعمه محمد طاهر إلى جونور، وبايع الشيخ جلال الدين الحسيني الحسين بوري، وأقام بجونور مدة، وعندما ولي تحرير السوانح لمحمد طارق اللكنوي، انتقل معه إلى لكناؤ، وقرأ بعض الكتب الدراسية على القاضي عبد القادر اللكنوي (ت 1077هـ)، ولقي الشيخ بير محمد الذي كان مرجعاً للعلوم، فكث في خدمته مدة، ثم أشار عليه أن يعود إلى جونور فرحل إليها وقرأ سائر الكتب الدراسية على أساتذة تلك البلدة ثم رجع إلى لكناؤ، وأخذ الطريقة عن الشيخ بير محمد المذكور، وصحبه مدة، ثم ذهب إلى كوركهبور، وكان عمه محمد طاهر قد عين هناك، واعترف بفضله فدأى خان أمير تلك البلدة، خلال هذه الفترة أشار عليه شيخه بير محمد أن يذهب إلى دلهي، ويستقر بها، لينفع الخلق، فسافر إليها، وكذلك ذهب فدأى خان إلى دلهي وبني لنفسه مدرسة وزاوية نغمة، وجاء إلى لكناؤ عند وفاة شيخه بير محمد سنة 1085هـ، وأجلس على مسنده "تلميذه الشيخ غلام نقشبند"، وسافر إلى الحجاز، فحج وزار، ثم رجع إلى دلهي، وتوفي بدلهي في 8 محرم 1009هـ.¹

شموليته: كان الشيخ غلام نقشبند يجمع بين العلم والمعرفة، والشريعة الإسلامية والطريقة الصوفية السليمة في شخصيته الفذة، وكان يعتبر من أبرز وأعظم علماء عصره في العلوم الدينية والعلوم العقلية والعلوم الأدبية والنحو واللغة والشعر العربي وأيام العرب والشعر والأدب، فكان مدرساً ومعلماً، ومرشداً وموجهاً، ومصنفاً وشاعراً

¹ راجع: نزهة الخواطر، 6/319.

في وقت واحد، وأصبح مرجعاً لطلاب العلوم وطلاب الفيزوس، وذلك لمكارمه وأمجاده، فقد كتب آزاد البلكرامي في مآثر الكرام: "هو علامة جامع بين علوم العجائب والغرائب التي توصل الإنسان إلى الله سبحانه وتعالى وأسرار العلوم المخفية"،¹ وقال في سبحة المرجان: "هو أوحّد الزمان، والجامع بين العلم والعرفان"،² وفي "تذكره علماء هند": "كان نابغة عصره، جامعاً بين الشريعة والطريقة"،³ ويكتب صاحب زهه الخواطر: "الشيخ العالم الكبير العلامة، كان من كبار الأساتذة، لم يكن في زمانه أعلم منه بالنحو واللغة والأشعار وأيام العرب وما يتعلق بها، متوفراً على علوم الحكمة".⁴

وقد انتهى من تحصيل العلوم وإكمالها، وكان في الحادية والعشرين من عمره عام 1072هـ، وأصبح خليفة للشيخ بير محمد بعد وفاته عام 1085هـ، ثم اشتغل بالتعليم والتدريس والإرشاد والتوجيه، وقبل ذلك قضى 12 أو 13 سنة في الأخذ والعطاء في المجال العلمي، وقام بخدمات علمية وتربوية مكان مرشده منذ 1085هـ إلى وفاته في 1126هـ على مدى 40 عاماً.

وفاة الشيخ بير محمد وخلافة الشيخ غلام نقشبند: وكانت خلافة الشيخ غلام نقشبند إثر وفاه الشيخ بير محمد ذات يمن وبركة لحياته العلمية والدينية؛ لأنه لقي قبولاً عاماً بعد ذلك، وقدم الشيخ المير محمد شفيح تلميذ والده وأستاذ الشيخ غلام نقشبند نموذجاً رائعاً للإخلاص والإيثار يعتبر مثلاً يحتذى به للعلاقة بين الأستاذ والطالب في هذه الدنيا، وفيه عبر ودروس لأساتذة هذا الزمان وتلاميذهم.

فقد كتب آزاد البلكرامي تفصيل ذلك في مآثر الكرام وسبحة المرجان أنّ خلفاء الشيخ بير محمد ومريديه اتفقوا على أن يكون المير محمد شفيح خليفة له بعد وفاته

¹ مآثر الكرام، 213/1.

² سبحة المرجان، ص 78.

³ تذكره علماء هند، ص 158.

⁴ زهه الخواطر، 213/6.

بلكاؤ، يقول البلكرامي: "أجمعوا على أن يجلس في مكانه المير محمد شفيع، وهو كان من كبراء المريدن، وكان وقت وفاته بدھلي، فجاء منها إلى لکنؤ، وأراد أن يجلس الشيخ غلام نقشبند على سجادة الشيخ، وما أخبر عن إرادته أحدًا، حتى الشيخ غلام نقشبند، وعين يومًا، وجمع فيه مشايخ البلدة وأعيانها، ومهد المير سجادة الشيخ بيده قدام صف الأكابر، وأخذ بيد الشيخ غلام نقشبند، وأجلسه عليها وهنأه، فتبع الحاضرون المير، وهنأوا الشيخ".¹

ويقول في مآثر الكرام: "ويمكن معرفة مكانة الشيخ غلام نقشبند من أن المير محمد شفيع كان يعتبره جديرًا بالخلافة؛ ومن ثم أجلسه مكان شيخه، وجعل نفسه تابعًا له، وقد رفع الشيخ غلام نقشبند من قيمة المكان، وأكسبها رونقًا وبهاء، وكان مرجعًا لطلاب العلوم الظاهرة والباطنة، فقد أثرى العالم بالكمال العلمي والروحي من خلال بركات توجيهاته، وتنتهي إليه سلسلة دروس أغلب علماء ذلك العصر".²

ويكتب في سبحة المرجان: "ومن ههنا يعرف علو منزلة الشيخ حيث وجده المير أهلاً للسجادة، وآثره على نفسه في الجلوس عليها، فزيناها الشيخ بالتمكن، ونفع خلقًا كثيرًا بالتدريس والتلقين، وسلسلة الأكثرين من علماء العصر تنتهي إليه".³

وقد صرح صاحب نزهة الخواطر أيضًا بخلافة الشيخ غلام النقشبند في ترجمته، لكنه كتب في ترجمة المير محمد شفيع أنه أجلس على مسند مرشده محمد آفاق البياري، وهذا يبدو مخالفًا للواقع.

العلاقة الخاصة بالمير محمد شفيع وتقديره واحترامه: إنَّ الشيخ المير محمد قام بتربية نجل أستاذه اليتيم الشيخ غلام نقشبند، وتعليمه بصدق ووفاء، حتى أصبح الطالب

¹ سبحة المرجان، ص 78.

² مآثر الكرام، ص 214.

³ سبحة المرجان، ص 78.

ذائع الصيت محبباً لدى الناس، ولكنه ظلّ وفيّاً لأستاذه ومربيّه، وجازى الإحسان بالإحسان في حياته وبعد مماته، حتى كان يقرأ الفاتحة على ضريحه ويقدم له الثواب، وقد كتب آزاد البلكرامي: "كان محل إقامة المير محمد شفيع دلهي، وزاويته مشهورة هناك، كان يزوره الشيخ غلام نقشبند في حياته، وبعد وفاته، يكسب البركات بذلك".¹

وقد أثنى الشيخ نقشبند على المير محمد، وله في مدحه قصيدة، مطلعها:

خليليّ، هل هاتان دارة جُلجلِ ودارة سلمى في قفانٍ عَقنقلِ
إنّ رافة الأستاذ على تلميذه، وتقدير التلميذ لأستاذه يعتبر واسطة العقد في الإفادة والاستفادة الدينية والعلمية، وبهذه العلاقة العلمية الحميمة الخالصة تُغذى العملية التعليمية، والعلاقة الوطيدة بين الشيخ غلام وأستاذه المير محمد شفيع أفضل مثال على ذلك.

التدريس والإفادة: كان للشيخ غلام نقشبند شهرة مستفيضة بين أقرانه ومعاصريه في الخدمات التعليمية، وكثرة التلاميذ، وسعة نطاق أعماله، فكان هناك عدد كبير من العلماء والفضلاء والمشايخ في الشرق، الذين كان لهم اهتمام بالتعليم والتلقين، ولكن الشيخ غلام نقشبند يمتاز بينهم بجهوده التعليمية والتدريسية، وهي سمة خاصة وسمعة مميزة له، وقد مرّ قول البلكرامي بالإحالة إلى سبحة المرجان: "ونفع خلقاً كثيراً بالتدريس والتلقين، وسلسلة الأكثرين من علماء العصر تنتهي إليه".

وجاء في تذكره علماء هند: "عاش الشيخ حياته بأكلها حافلة بالعبء في إفادة الطلاب وتعليمهم، وحققت مجموعة كبيرة من الفضلاء بتربيته الخاصة نجاحاً باهراً، وسلسلة تعلم معظم علماء الهند تنتهي إليه"²، وذكر صاحب نزهة الخواطر مآثره التعليمية

¹ مآثر الكرام، 214/1.

² تذكره علماء هند، ص 158.

والتدرسية بكلمته الجامعة إذ قال: "كان من كبار الأساتذة".

حل الشيخ غلام نقشبند بعد وفاة شيخه بير محمد مكانه، واشتغل على مدى أربعين عاماً بالشؤون التعليمية، وهذه المدة هي عصارة حياته العلمية، وقد جددت كثرة ورود الطلاب في دروسه ونشاطاتهم عهد الشيخ القاضي شهاب الدين الدولت آبادي، وتخرج لديه مئات من العلماء و الفضلاء، ونالوا قبولاً واسعاً في مناطقهم، لكن الملاً نظام الدين (ت1161هـ) مؤسس المنهج الدراسي النظامي المتبع في المدارس الإسلامية بالهند امتاز من بينهم، فكان خير خلف لخير سلف، انتشرت سلسلة الشيخ التعليمية بواسطته في كافة أرجاء الهند.

الرأفة والمحبة مع الطلاب: كان الشيخ غلام نقشبند معلماً عطوفاً، كان يسره ويثبج صدره الاعتراف بفضل تلاميذه وتشجيعهم وثخذ همهم، ويدعو لرقيمهم وازدهارهم، ويتني لهم نجاحهم وعلو مكانتهم، ومن المعلوم أنّ هذا الحب يفيد الطلاب كثيراً، ومن الأمثلة على ذلك أن: "المير عبد الجليل كان تلميذاً ذائع الصيت للشيخ، وكان يعترف بعلمه وفضله صراحة، ويثني عليه ثناء عطرأ، يقول البلكرامي في ذكر مير عبد الجليل: "كان الشيخ غلام نقشبند يثني عليه دائماً"، ثم أورد قصة، وهي أنّ الشيخ غلام نقشبند رسم دائرة تاريخية، وأرسلها إلى تلميذه المير عبد الجليل، ولم يكتب طريقة استخراج التواريخ والأرقام من الحروف الأبجدية، ولكن المير تعرّف على طريقة رسم الدائرة التاريخية، ورسم خطة شبيهة بها، وأرسلها إلى أستاذه، فابتهج بها الأستاذ، وكتب في الرد عليه: "صاحب المدارج الإنسانية ومجمع الفيوض الربانية المير عبد الجليل! وصل كتابك الحافل بالحب والوفاء، المتضمن ذكر وصولك إلى بلكرام، وتعيينك على عمل توزيع الرواتب في الجيش، والمراسلة، وهذا ما أثبج صدري، أحمد الله على أنك قدمت إلى هنا، اعتبر هذا الفقير إلى الله مخلصاً لك، ولا تحسبه غافلاً عن التذكر والدعاء، كتب الله لك الرقي في العلم والمعرفة للأبد، والشيء الثاني الجدير بالذكر هو

وصول خريطة الدوائر المبهرة، وأنا قاصر البيان في مدحها، والحقيقة أنك سامق الذرى، لا نظير لك، أدام الله نفعك، فإنك ذكي بالطبع، ومتوقد الذهن، فقد رسمت الخريطة بنفسك، والخلاصة أنّ كمالك يفوق الخيال، ووصفه بالكتابة، والثالث أنني مشتاق إلى رفقتك، سنح الله هذه الفرصة بخير وعافية".¹

ويمكن إدراك مدى عطفه وحنانه على تلاميذه بخطابه هذا، وكيف كان يعترف بفضائلهم ومكارمهم بقلب كبير.

تقدير الشيخ من قبل الملك شاه عالم: عاصر الشيخ ثلاثة سلاطين من المغول، فقد ولد في عهد شاهجهان (1036-1098هـ)، وفي نفس العهد تم تعيينه خليفة للشيخ بير محمد، ومدرساً في مدرسته بلكاؤ بعد الانتهاء من تحصيل العلم، وكان عهد عالمكير (1098-1118هـ) عهد أوج درسه وإفادته، كما كان عهد شاه عالم بن عالمكير (1118-1124هـ) استمر إلى ما قبل وفاة الشيخ بسنتين، وبعد ذلك بدأ تضاول سلطة المغول، كان شاهجهان وعالمكير، وعالمكير بالأخص، يقدران العلماء والفضلاء كثيراً، ولكن لم نثر على علاقة لهما بالشيخ غلام نقشبند، إلا أنّ علاقته مع الملك شاه عالم مما ورد تصريح بذلك، وذلك أنه زاره بعد ما سمع عن عبقرية الشيخ ونبوغه العلمي، قدره تقديراً بالغاً.

جاء في مآثر الكرام: "زاره شاه عالم، واستقبله بالحنفاة والتكريم"²، وفي سبحة المرجان: "وكلفه شاه عالم بن السلطان عالمكير الملاقاة، وأقبل عليه في نهاية التعظيم والمداراة"³، ولم يذكر صاحب السبحة مكان اللقاء، أكان دلهي أم لكناؤ، ولكن جاء في نزهة الخواطر أنه كان في لكناؤ، يقول صاحب النزهة: "شاه عالم بن عالمكير

¹ مآثر الكرام، ص 259 (ذكر المير عبد الجليل البلكرامي).

² المصدر نفسه، ص 259 (ذكر المير عبد الجليل البلكرامي).

³ سبحة المرجان، ص 78.

الدهلوي لقيه بمدينة لكهنؤ، وأكرمه غاية الإكرام،¹ ويبدو أنّ هذا اللقاء كان محدوداً على التكريم المؤقت، ولم يقبل منه الشيخ إقطاعاً أو منصباً.

الشدة في الأمور والقضايا الشرعية: نشأ الشيخ غلام نقشبند في بيئة دينية وعلمية صافية، فكان جده قاضياً لقرية "كهوسي"، ومريداً للهير علي عاشقان السرائميري، وكان جامعاً بين الشريعة والطريقة، وكان والده يجمع بين النبوغ في العلوم النقلية والعقلية والمكانة المرموقة في الورع والتقوى، وكان ينتسب إلى الشيخ عبد القدوس النظام آبادي والشيخ بير محمد اللكنوي انتساباً روحياً وإحسانياً، وخلاصة القول أنّ أسرة الشيخ كانت "مجمع البحرين" للعلم والمعرفة، متمسكة بأوامر الشريعة ونواهيها بشدة، وكان الشيخ نفسه قد بلغ درجة الكمال في العلوم الباطنية بالإضافة إلى كونه عالماً معروفاً، ومدرّساً شهيراً، وكان لا يراعي أبداً في الأمور الشرعية، إلا أنه كان يتمتع بجانب المهابة في علوم الدين بجلال الإحسان والتصوف، ينكر على التقصير الشرعي بشدة، ولكن لا يدخر وسعاً في المداراة والتسامح بعد التوبة، فجاء في مآثر الكرام: "كان ينصرف إلى الحفاظ على الشريعة بقلبه وقالبه، يستشيط غضباً على من يصدر منه عمل مخالف للشرع، ويكثر رأفته ورحمته عليه لو وفق للتوبة والرجوع إلى الله عملاً بـ"الحب في الله والبغض في الله".²

وفي سبحة المرجان: "وكان الشيخ حامياً لحمى الشريعة الغراء، وحارساً لبيضة الملة البيضاء"، وذكر في مآثر الكرام وسبحة المرجان أنه ورد مجلسه يوماً واحداً من الدراويش الأحرار من قيد الشريعة، فعتب عليه الشيخ وقال: لا ترزق هذه الطائفة رؤية وجه الله تعالى، ولا شفاعة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الدراويش: مهلاً يا شيخ! سوف نرزق الرؤية والشفاعة كليهما، وأتم لا تحصلون منهما على شيء.

¹ نزهة الخواطر.

² مآثر الكرام، ص 214.

فسأله الشيخ عن السبب؟ فقال: أنت ما حمت في عمرك حول الإثم، فيدخلك الله الجنة غداً من غير مؤاخذه، ونحن قوم آثمون، يحكم الله تعالى بإحضارنا في حضرته، ويقدم النبي صلى الله عليه وآله وسلم علينا لشفاعتنا، فرق له الشيخ وعطف عليه.¹ ولا يعني ذلك أنّ الشيخ رضي بذلك، والحقيقة أنه لا يجوز ارتكاب شيء يغضب الله تعالى اعتماداً على رحمة الله وشفاعة النبي المختار ﷺ.

شعره: كان الشيخ غلام نقشبند شاعراً قديراً، وأديباً أريباً، وكان عالماً معروفاً في العلوم اللغوية والأدبية، وماهراً في الشعر العربي، يحتلّ مكانة مرموقة بين "أعلام الشعر العربي في الهند"، كان شاعراً مجيداً في اللغة العربية، يوجد طابع قديم على شعره، شعره بعيد من شوائب العجمة وانعكاساتها، وله قصيدة تتضمن ثلاثين بيتاً في مدح أستاذه المير محمد شفيح ومناقبه وفضائله، ينسج فيها على منوال معلقة الشاعر الجاهلي امرئ القيس المشهورة، ويمكن تقدير مستوى الشيخ في الشعر وذوقه الرفيع من خلال هذه القصيدة، وإليك قصيدته:

خليلي، هل هاتان دارة جلجل	ودارة سلمى في قفاف عقنقل
عليها سواري المزن سحت مطيرة	فمّحت مبانها محوح المهلهل
أربع الحبيبة صار للوحش موطناً	فيا عجباً من صنع دهر محول
أمنزل سلمى هل تفرج غمّي	وتكشف عما ظعن ذات التدل
على أيّ أرض خيّم ذات هولة	تهول بوجه كالضحا متهلل
فبند غداة البين قد بتّ في الهوى	بصدر جويّ أو بقلب مقتل
أعيني مهلاً عبرة الوجد والجوى	أنكجا أزمعما اليوم مقتلي
وهل ينفع المبكي عيوناً ذوارفاً	إذا وجهت سلمى ركاب التبتل

¹ مآثر الكرام، ص 215، سبحة المرجان، ص 79.

حبيب إذا ما جود الغنج عينها لها عارض تبريقه غير عارض
إلام تمنيني وفيك تلون مواعيد عرقوب تقرمط بينها
له همة عليا تتوف على السما بجيل جليل من شفيح كاسمه
لزهره زهراء ووردة حيدر لنور به الأفلاك والأرض نورت
إذا ما هداة الناس عدت فراسهم وبيننا سبيل الحق يمشون ظلمة
معارفه جلت معاليه قد علت لديه علوم لا يرام فناؤها
ولم يؤثر الدنيا الذي نعيمها لقد دام بالرحمن حظ شهوده
تجلى له في كل آن تجلياً ومن سره قد ذاق يعلول طاهر الس
شفيحي ليوم الحشر حزني وموئلي لكل عصام واعتصامي بفضله
مآثره لا يهدين بعدها؟ يطوف حوالبه المكارم والعلی

فما الحي فيه واجد أو موئل؟
أسيل صقيل حسنه كالكسجنجل
وحتام تلهيني بوعد مخيل
كقرمطة النحلان نحل المنول
ومجد مجيد نيله لم يسهل
ومن جدّه خير الوری خير مرسل
ويهزأ خلقاً عطر دار التجمل
وتشويد تسويد وشرق مكلل
وهاديهم المقدام من كلّ أمثل
إذا انبلجت شمس هداة فتجمل
أشم جبال يا لفخم مفضل
وأسرار لوح في الأساریر تجتلي
وينعم عند الله أحسن مفضل
تجني جنا العرفان غير معلل
لديه تجلي الطور لم يتجمل
سراير منه فهو بالنور ممتلي
ووجهة قلبي غوث كلّ مؤملي
كفاني قواماً ذات يوم التجلجل
ومحصى الحصا محصى الرمال وجندل
طواف حجاج حول بيت مهجل

تلاميذه: يحتل الشيخ غلام نقشبند مكانة مرموقة في التعليم والتدريس، وكانت حلقة درسه مشهورة، تلمذ عليه كثير من كبار العلماء، وإليه تنتمي سلسلة معظم العلماء الهنود، كان عالماً قديراً في الفقه وأصوله، والأدب العربي، والحكمة والفلسفة، واستفاد من حلقاته الدراسية خلق كثير على ما روى آزاد البلكرامي، قام بتدريس العلوم الإسلامية على مدى 40 عاماً منذ 1085هـ إلى 1126هـ، وقرأ عليه آلاف من الطلاب، ونورد هنا نبذة من تراجم أبرز تلاميذه:

1. الملاً نظام الدين اللكنوي: كان الملاً نظام الدين بن الملاً قطب الدين شهيد السهالوي اللكنوي من أنجب تلاميذ الشيخ غلام نقشبند، الذي انتشر منهجه الدراسي بواسطته في كافة أرجاء الهند، ومن هذه الناحية كان الملاً نظام الدين خليفة الشيخ نقشبند ووريثه العلمي. انتقل إلى لكناؤ بعد استشهاد والده، وقرأ على الشيخ الملاً قطب الدين الشمس آبادي والحافظ أمان الله البنارسي وغيرهما أولاً، ثم قرأ على الشيخ غلام نقشبند في لكناؤ، وتخرج في حلقة درسه بعد قضاء مدة في خدمته، وأخذ الطريقة، وتربيتها وتلقيها عن الشيخ عبد الرزاق الهانسوي، والمير إسماعيل البلكرامي، ثم تصدّر للتدريس بعد التخرج في فرنكي محل، لكناؤ، وأفاد الهند كلها إفادة علمية، "فكان أستاذ الدنيا، ومحور الزمان" بمعنى الكلمة كما قال آزاد البلكرامي، فقد ذكر في كتابه "مآثر الكرام": "اشتغل الشيخ بالتدريس والتصنيف طوال عمره، ونال قبولاً وثقة في ذلك، فأكثر العلماء الهنود اليوم ينتمون إلى الشيخ انتماء التلمذة والتلقي، ويعتبرون ذلك مفخرة لهم، فكل من يضيف سلسلته العلمية إليه يعدّ من العلماء البارزين، وكثير من العلماء قرأوا على غيره، ولكنهم أكلوا دراستهم وقرأوا فاتحة الفراغ على الشيخ نظام الدين، حتى يعتبروا من العلماء الموثوق بهم".¹

توفي الشيخ الملاً يوم الأربعاء في 9 من جمادى الأولى عام 1161هـ في لكناؤ،

¹ مآثر الكرام، ص 220 (ذكر الملاً نظام الدين).

وانتشر تلاميذه في الهند كلها، وكان هناك عدد من تلاميذه في المناطق المجاورة لموطن أستاذه الشيخ غلام نقشبند، على رأسهم الشيخ محمد أحسن الجرياكوتي، والشيخ غلام فريد المحمدابادي، كان الشيخ محمد أحسن بن محمد إكرام بن محمد سلطان أحمد العباسي في جريا كوت، تلقى التعليم الابتدائي هناك، ثم انتقل إلى لكناؤ في خدمة الملاّ نظام الدين، وتخرّج على يده بعد قراءة العلوم السائدة آنذاك، كان عالماً نبياً بالغ الذكاء، وكانت له مهارة تامة في العلوم العقلية، ذهب إلى دلهي بعد إكمال الدراسة، واكتسب سمعة علمية هناك، حتى أحبه كثير من الأمراء، حسده بعض معاصريه، ووضعوا له السم في طعامه.¹

أما الشيخ غلام فريد فولد في محمد آباد، وتلقّى تعليم الكتب الدراسية من الملاّ نظام الدين بعد الذهاب إلى لكناؤ، ومنه استفاد في الطريقة والروحانية، ثم عاد إلى وطنه، وعاش حياة بسيطة في الزهد والقناعة، كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً، يكسب قوته بيده، كان إنساناً وقوراً صالحاً، لم يتزوج طيلة حياته، يأكل من الطعام الذي كانت أمه تطبخه، وكان الأمر الذي يلفظه يتحقق، له قوة تأثير خارقة، طلب منه النواب فضل علي خان أمير بلدة غازي بور أن يدعو له بعد أن فتح جزءاً من مدينة أعظم كره، وسمي حيّ من أحياء المدينة على اسمه "فريد آباد"، وكان من بين تلاميذه نجل أستاذه الشيخ غلام نقشبند الذي، سيأتي ذكره.

2. المير عبد الجليل البلكرامي: ومن أشهر تلاميذ الشيخ المير عبد الجليل بن سيد أحمد الحسيني البلكرامي الذي كان من كبار العلماء، قرأ الكتب الدراسية الابتدائية على المير سعد الله البلكرامي برفقة المير طفيل محمد الأترولي البلكرامي، وبعد إكمال المرحلة المتوسطة من دراسته في قرى الديار الشرقية حضر درس الشيخ غلام نقشبند، ومن هنا أكمل المراحل التعليمية، كانت له خبرة تامة في

¹ تذكره علماء هند، ص 176-177.

الحديث والتفسير، واللغة العربية وآدابها، والتاريخ والموسيقى، وكانت له ذاكرة قوية، حفظ "القاموس"، أضحى القواميس العربية وأشهرها، وكان أستاذه الشيخ نقشبند يعجبه الثناء على تلميذه وتحييده، وكانت بينهما مراسلات ومكاتبات.

رحل المير عبد الجليل في البداية بغية تحصيل العلم والدراسة برفقة المير طفيل محمد إلى آكره، حيث قابل النواب فضائل خان رئيس الكتاب الرسمي السابق الذي كان قد زهد في الدنيا وانعزل عنها بعد الاستقالة من الوظيفة الملكية، وبعد أيام تمّ تعيين شاه حسين خان سركار رئيس الديوان بلكاؤ، وبهذا الصدد جاء إلى آكره من الدكن، فانتقل المير عبد الجليل والمير طفيل محمد معه من آكره إلى لكاؤ، وقد منحهما شاه حسين خان الإعفاءات والامتيازات، وفي هذه الأيام حظي المير عبد الجليل بشرف التلمذة على الشيخ غلام نقشبند، تولى منصب مدوّن الأحداث في الجيش من زمن عالمكير إلى زمن فرخ سير، كان ماهراً في اللغات العربية والفارسية، والهندية والتركية، وله مؤلفات في كل لغة من هذه اللغات، توفي في 23 ربيع الآخر سنة 1138 هـ في دلهي، ودفن في بلكرام.¹

3. السيد فريد الدين البلكرامي: السيد فريد الدين البلكرامي يعرف بسيد بدلي. في 1113 هـ حضر حلقة دروس الملا جيون الأميثوي برفقة قادر البلكرامي فتلقّى عليه التعليم المتوسط ثم ألقى عصا التعليم لدى الشيخ غلام نقش فأتم ما بقي من قراءة الكتب الدراسية ونال الفراغ. توفي في 1121 هـ.²

4. الشيخ محمد قاسم الكاكوروي: الشيخ الصالح محمد قاسم بن عبد الكريم بن إله داد الحسيني الجونبوري الكاكوروي، ولد ونشأ بكاكوري، وفي لكاؤ تلمذ على الشيخ غلام نقشبند، ولازمه مدة من الزمان، وأخذ عنه الطريقة، ثم رجع إلى

¹ مآثر الكرام، ص 258-260.

² مآثر الكرام، ص 143، زهة الخواطر، 6/263.

كاكوري، وكان من المشائخ المعروفين في زمانه، وكان صاحب روحانية تذكر له كشوف وكرامات، ولما توفي والده انتقل إلى بجنور (من أعمال لكناؤ) فسكن بها، وتوفي فيها في 25 محرم 1105هـ¹.

5. السيد قادري البلكرامي: حفظ القرآن الكريم وتعلّم التجويد على والده السيد ضياء الله البلكرامي، وقرأ عليه الكتب الابتدائية، ثم درس عند الملا جيون الأميثوي مع السيد فريد الدين البلكرامي، وأما بقية الكتب فقرأها على الشيخ غلام نقشبند، سافر إلى الحرمين الشريفين بعد إكمال الدراسة، وسعد بالحج والزيارة مرة ثانية، ثم أخذ البيعة في السلاسل القادرية والرفاعية والشاذلية من مشايخ كربلاء وبغداد، وتوفي في بلكرام ليلة الخميس 13 ربيع الأول سنة 1145هـ².

6. الشيخ نور الهدى الأميثوي: ولد الشيخ نور الهدى بن مودود بن عبد الواسع العثماني في أميثي، وبعدما حفظ القرآن الكريم أتمّ الدراسات المتوسطة والعليا على الشيخ غلام نقشبند وغيره من العلماء، نال الفراغ من كافة العلوم في عمر لم يتجاوز 15 سنة، كان ذكياً حادّ الذهن وتقياً ورعاً، وكانت له رغبة شديدة في المناقشات العلمية. أمضى عمره كله في التدريس وتربية الطلاب مثل شيخه. توفي في 13/ رجب 1133هـ³.

7. المفتي شرف الدين اللكنوي: المفتي شرف الدين بن محي الدين بن صدر الدين بن محمد الأعظمي اللكنوي، تلقى العلم من والده زماناً، ثم تلقى دروساً من تفسير البيضاوي على الشيخ غلام نقشبند، وأخذ عنه الطريقة، ثم تقرب إلى عالمكير فنال منصب "جيش ذات أربع مائة جندي"، فاستقل به إلى أيام محمد شاه، ثم أضيف إلى منصبه ثلاثة آلاف جندي، وكان نائب حاكم بيهار فدائي

¹ زهة الخواطر، 346/6.

² مآثر الكرام، ص 144-145، سبعة المرجان، ص 253.

³ زهة الخواطر، 397/6.

خان. له مصنفات عديدة، منها: حاشية على شرح المواقف، وحاشية على تفسير البيضاوي. توفي في ذي الحجة سنة 1133هـ.¹

مؤلفاته: كان الشيخ نقشبند مؤلفاً قديراً بجانب كونه معلماً ومدرّساً، وله مؤلفات في مختلف العلوم والفنون، ذكر أصحاب ترجمته من مؤلفاته أسماء الكتب التالية:

1. أنوار القرآن، وفيه تفسير ربع القرآن مع الحواشي	2. فرقان الأنوار
3. تفسير سورة الأعراف مع الحواشي	4. تفسير سورة مريم
5. تفسير سورة طه	6. تفسير سورة محمد
7. تفسير سورة يوسف	8. تفسير سورة الرحمن
9. تفسير سورة عم مع الحواشي	10. تفسير سورة الكوثر
11. تفسير سورة الإخلاص	12. تفسير آية "الله نور السماوات والأرض"
13. تفسير آية "إنا عرضنا الأمانة"	14. تفسير آية "أفحسبتم"
15. تفسير آية "ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً"	16. تفسير آية "الرحمن على العرش استوى"
17. تفسير آية "كلوا واشربوا"	18. لامعه عرشيه (في مسألة وحدة الوجود)
19. شرح القصيدة الخزرجية (في علم العروض)	

وقد كتب آزاد البلكرامي بعد ذكر أسماء هذه الكتب "وغير ذلك"، وهذا يدل على أن للشيخ مؤلفات علاوة على المذكورة أعلاه.²

وفاته: أجمع أصحاب ترجمته على أن وفاته كانت في أواخر رجب سنة 1126هـ في لكناؤ،

¹ نزهة الخواطر، 105/6.

² مآثر الكرام، ص 216، سبحة المرجان، ص 78، تذكرو علماء هند، ص 185، نزهة الخواطر، 452/7.

الملا نظام الدين مخططاً للمناهج الدراسي النظامي

- العلامة شبلي النعماني¹

ترجمة من الأردوية: د. محمد معتمم الأعظمي²

إنّ المنهاج الدراسي لتعليم اللغة العربية الموجود في جميع أنحاء الهند اليوم يُعرف بـ"النظامية" ولكن يدهشنا أنّ معظم الناس لا يعرفون متى وُضِعَ هذا المنهاج الدراسي ومنَ واضعها؟ ونُسبَ إلى نظام الملك وزير الدولة السلجوقي في مقال حديث، وأما العلماء القدامى فهم يعرفون أنّ مخطّطه الملا نظام الدين اللكناوي، لكنهم لا يعلمون أكثر من هذا.

ونظراً للدرجة التي بلغها الملا نظام الدين والسمعة التي نالها من أجل هذا المنهاج التعليمي كنت أتطلع منذ مدة بعيدة إلى معرفة ظروفه التفصيلية، ولكن تسجيل سير كبار العلماء لم يكن رائجاً، فلم أكن أتوقع تحقيق أمنيّتي، وقد ذكره مير غلام علي آزاد جملاً في كتابه "سبحة المرجان"، وهو غير كاف. وبعد بحث طويل وجدت كتباً للشيخ ولي الله الفرنكي محلي (محشي صدر) ناقش فيه حياة الملا رحمه الله لكن الأحوال الحقيقية قليلة جداً، إنّما هو ديوان لمعجزاته وعاداته وهو غير مناسب لزمنا هذا.

ومع ذلك، في سياق "لا يدرك كله لا يترك كله" أقدم عرضاً موجزاً لسيرته الذاتية للقارئ.

أحوال العائلة: مقاطعة شهيرة من أعمال لكناؤ كثيرة السكان هي "سهالي" والتي

¹ أحد أعلام الهند في السيرة والتعليم والشعر

² نائب مدير تحرير المجلة ومدرس، قسم اللغة العربية وآدابها، سيوري فيديا ساغر، بنغال الغربية، الهند

تقع على بُعد 8 أميال من لكناؤ ولشيوخها أَسرتان مشهورتان من المسلمين؛ أنصاريون من سلالة أبي أيوب الأنصاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وعثمانيون من سلالة عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وكان الملائ من سكان هذه البلدة وينتمي إلى العائلة الأنصارية. كان والده الملائ قطب الدين عالماً موثقاً به، وكان حلقة قبله العلماء في دول الشرق. وكان بين الأنصاريين والعثمانيين عداوة منذ زمن طويل، وفي مرة من المرات هجم العثمانيون على دار الملائ وقتلوه وحرقوا داره عام 1103هـ¹ ولأنه قُتِلَ بريئاً، منحه الناس لقب "الشميد"، فأينما ورد اسمه في كتب العلماء، فإنه يسجّل بهذا اللقب، وكان له أربعة أبناء، وكان الابن الأكبر مرتبطاً ببلاط الملك "عالمغير" في دلهي حينئذ بينما كان الشيخ محمد سعيد والشيخ محمد أسعد والملائ نظام الدين موجودين في الدار. وبعد استشهاد الملائ قطب الدين، غادروا سهالي مضطرين وذهبوا إلى مدينة لكناؤ، ولكن لم يجدوا لهم مأوى هناك، وخلال عهد الإمبراطورية التيمورية كان قسم تسجيل الوقائع نشيطاً للغاية، فتصل كلّ حادثة بحذافيرها في البلاد إلى البلاط الملكي، فأطلع مسجّل الحوادث في لكناؤ البلاط على الفور على هذه الحادثة، وأصدر البلاط مرسومًا ملكيًا بإعطاء أبناء الملائ قطعة منزل مع العمارة المتعلقة في حي فرنكي محل، وتاريخ الخبر 14 شعبان 37 للهوكب الملكي الموافق عام 1105هـ، وتاريخ صدور المرسوم الملكي هو 11 شوال 38 للهوكب الملكي. سنقتبس بعض العبارات من هذا المرسوم الملكي فيما بعد.

سبب الاستقرار في لكناؤ: إنّ الملائ نظام الدين- كما ذكرناه آنفًا- كان ابن خمس عشرة سنة حينئذ، فذلك لا يوجد اسمه في المرسوم الملكي بل لأخويه الكبيرين، ولا يزال هذا المرسوم الملكي موجوداً في هذه العائلة، ولقد رأيتُ مرة في لكناؤ، فأكتب كلماته

¹ سبعة المرجان، ص 76

الأساسية بهذه المناسبة وختم "عالمغير" موجود في أعلى المرسوم:

مرسوم "عالمغير": وهذا هو النص في ذيله: "درين وقت ميمنت اقتران فرمان والا شان واجب الإذعان صادر شد كه يك منزل حويلي فرنگي محل با متعلقه آن واقع بلدة لكهنؤ، مضاف به صوبه أوده كه از مكنة نزولى است، برائے بودن شيخ محمد أسعد و محمد سعيد پسران ملاً قطب الدين شهيد حسب الضمن مقرر فرموديم، بايد كه حكام و عمال ومصديان مهمات حال واستقبال و جاگير داران و كردريان آنرا بنام مشار إليها معاف و مرفوع القلم دانسته بوجه من الوجوه مزاحم و معترض نه شوند و اندرين باب سند مجدد نه طلبند".

مرقوم غره ذي قعدة سال سي وهفتم جلوس والا سنوشته شد

ترجمة: وفي الوقت نفسه، صدر مرسوم ملكي بتعيين قصر فرنكي محل ذي طابق واحد، في لكناؤ المجاورة لولاية أوده، وهي من سلالة مكلي، وذلك لحضور الشيخ محمد أسعد و محمد سعيد ابني الملا قطب الدين الشهيد حسب الضمان. يجب أن نقول إنّ الحكام والعمال والمسؤولين من الحاضر والمستقبل وأمرء الإقطاع وموظفيهم والشعب الكردي اعتبار هؤلاء الأشخاص متسامحين ولا يقاومون أو يعترضون بأي شكل من الأشكال. أيضاً، لا تطلب شهادة جديدة في هذا الصدد.

كتب غرة ذي القعدة المصادف للسابع والثلاثين للهوكب الملكي.

الجملة الأولى من النص على ظهر المرسوم الملكي هي:

"شرح ياد داشت واقع بتاريخ روز پنجشنبه، 14 شعبان المعظم 37 جلوس والا موافق 1105 هـ مطابق مرداد ماه بر ساله صدارت و مشيخت پناه فضيلت و كمالات دستگاه سزاوار مرحمت و احسان، صدر منيع القدر فاضل خان ونوبت

واقعه نویسی کترین بندگان درگاهِ خلائی پناه حسام الدین حسین قلبی میگردد که بعرض مقدس ومعلی رسید که شیخ محمد اسعد ومحمد سعید پسران ملا قطب الدین شهید ساکن قصبه سهالی بسبب شهادت پدر خود قصبه مذکور را گذاشته جلاوطن گردیدند وکدام مکانها سکونت ندارند انخ.

ترجمة: وجرت مذكرة يوم الخميس 14 شعبان 1105هـ الموافق لل37 الموكب الملكي على أساس شهر مرداد. يقول الشيخ الفاضل الكامل قابل الرحمة والعطف ناقل الوقعات الفقير حسام الدين حسين إنه تلقى بلاغاً عن نفي الشيخ محمد أسعد ومحمد سعید ابني الملا قطب الدين الشهيد، من سكان قصبه سهالی بسبب استشهاد والدهما، وليس لهما مكان للعيش فيه، إنخ.

تلئذ: في الوقت الذي استقرت فيه عائلة الملا قطب الدين في مدينة لكناؤ، كان الملا نظام الدين يبلغ الخامسة عشرة من عمره ويدرس شرح الجامي، ولم يكونوا قد استقروا بعد إلى ذلك الحين، لكن الملا لم ينتظر رغد العيش وواصل دراسته. وكتب غلام علي آزاد في "سبحة المرجان" "سافر إلى المناطق الشرقية واكتسب الفنون الدراسية في مدن مختلفة، وختم تحصيله في حوزة درس الشيخ غلام نقشبند اللكناوي وأخذ عنه بقية الكتب وحصل على شهادة الفضيلة وأقام بلكناؤ".¹ ولكن كتب الشيخ ولي الله في كتيب سيرته الذاتية، أنه قرأ الكتب البدائية في ديوه (ديوا) وفي المقاطعات، ولكنه درس الكتب النهائية في مدينة بنارس على يد الحافظ أمان الله البنارسي، والرواية الشهيرة في فرنكي محل اليوم تؤيد ذلك.

مع انتهاء التحصيل خلف الملا والده وفي غضون أيام قليلة في التدريس وأصبح مرجع العلوم في المنطقة الشرقية للهند.

¹ المصدر نفسه، ص 94

التصوف: بعد الانتهاء من العلوم الخارجية توجه الملائم إلى العلوم الباطنية، وفي ذلك الوقت كانت فيوض الشاه عبد الرزاق البانسوي منتشرة في جميع أنحاء بلاد الهند، وقدم الملائم إلى منزله وباعه، وكان الشاه غير مألوف بالعلوم الرسمية، لذلك فوجئ الجميع حتى اشتكى علماء فرنكي محل علانية إلى الملائم، وكان الملائم كمال أحد طلاب الملائم، لديه معرفة كبيرة بالعلوم العقلية، وكان ذكياً لا يمنح أحداً اهتماماً، وعلى مبايعة الملائم، سأل بوقاحة عن سبب مبايعته على يد شخص جاهل، ولم يصبر عليه بل قدم إلى الشاه وفكر في بعض القضايا الفلسفية الصعبة التي سيطلبها من الشاه، وبتهمه، والمشهور أن الشاه نفسه بدأ بهذه القضايا، وأجاب بوجوه مرضية للملائم كمال، وفي نفس الوقت خضع الملائم كمال ومن معه من العلماء بنفوسهم للشاه، وباعوه، وتوفي الشاه عام 1136هـ، وبعد موته أخذ الملائم نظام الدين الفيوض الباطنية عن السيد إسماعيل البلغرامي.

المرض والموت: كان الملائم يعاني من القرحة منذ البداية، لكنه لم يلتفت إلى العلاج، وفي نهاية حياته عندما بلغ 75 عاماً من عمره أصبح ضعيفاً جداً ولزم فراشه وبدأ يعيش في القسم الداخلي للمنزل، وبما أن الكثير من الناس اعتادوا زيارته، وكان يصعب على نساء بيته الحجاب كلما زارهم أحد، اقترح عليه الملائم أحمد عبد الحق أنه كان من الأفضل لو يستقر الشيخ في غرفة الاستقبال، ولم يرد الملائم، في اليوم التالي عندما جاء الشاه عبد الغني لعيادته فقرأ الملائم هذا البيت:

هر روز بينم تنگ تر سوراخ این غربالها

ترجمة: كل يوم أرى هذا الغربال تضيق سعة شبكته.

وبعد قراءته قال: حسناً اتبعوا ما أراه عبد الحق، فنهض وذهب إلى غرفة الاستقبال ومات بها.

كانت للملائم زوجتان، وربما كان الزواج الثاني لعدم إنجابه من الزوجة الأولى،

وعندما تفاقم المرض جاءت الزوجة الأولى إلى الملا وقالت: إن كنت قد قصرت في شيء فسامحني. فقال لم ترتكبي أيّ خطأ، ولكنني كنت مذنباً بزواجي عليك، فسامحيني لذنبني، وبعد فترة جاءت الزوجة الثانية وقالت: إنك راحل فلن تترك أبناءك؟ فتأثر كثيراً وطلب من الحضور أن يجلسوه، ثم قال إنّ نظام الدين سيرحل لكن الله سيبقى إلى الأبد.

تاريخ الموت: أخيراً، توفي في التاسع من جمادى الأولى يوم السبت 1161هـ وقت الظهيرة. والعبارة التي تحمل تاريخ الوفاة هي:

ملك بود و بيك حركت ملك گشت

الترجمة: كان ملكاً فأصبح ملكاً بقرة منه.

المادة العربية هي:

مال العاشق إلى المعشوق

الأخلاق والعادات: كان الملا غني النفس جداً ومتوكلاً منذ البداية، وقد وصلت شهرته في حياته إلى درجة أنه يمكنه الوصول إلى أيّ منصب إذا كانت لديه أدنى رغبة، ولكنه لم يتوجه إلى ذلك، وفي بعض الأحيان كان يقضي ثلاثة أيام دون أكل ويتحمل بمثابرة، لم يكن يلتقي بالأمراء والحكام على الإطلاق، وإن حضر إليه هؤلاء الناس لم يلفت إليهم، يقول الشيخ غلام محذوم إني كنت حاضراً عند الملا مرة وكنت مستلقياً على السرير بسبب المرض، وحضر أحد الأمراء النبلاء للقائه وحاولتُ النزول عن السرير احتراماً له، فقال الملا: لماذا تشعر تقلق عند رؤية كبار الناس؟ استلق بالراحة.

كان أحد السادات من أمراء الملك والذي كان في منصب هفت هزارى¹ وكان يحضر لزيارة الملا بين فترة وأخرى، طلب منه الانتظار قليلاً يوم الجمعة في عين

¹ يعني قائد سبعة آلاف جندي

وقت الصلاة ليتشرف هو أيضاً بالصلاة خلف الملائم، فانتظر الملائم لحظات ثم قال إن الصلاة لله وليست لأهل الدنيا، وقام للصلاة.

الإيثارة: ولكن هذه اللامبالاة والترفع كان خاصاً للأمرء والأثرياء وإلا فكان صاحب اللطف والتواضع، وصلت إلى إيراني وهو أبو المعالي سمعة الملائم وقدم إليه للقائه، وكان الملائم جالساً على حصيرة يلقي درسه، وكان الرجل قد رأى مجد العلماء الإيرانيين، ولم يلتفت إلى الملائم، وسأل عن مكان المولانا نظام الدين، فقال: لا أعرف حال المولانا إلا أن نظام الدين هو اسمي، وقدم الإيراني بعض المسائل الفقهية وسأل عن رأي أهل الحق (الشيعة) فيها، ففهم الملائم نيتته وأجاب حسب آراء الشيعة، فأعجب كثيراً، ثم قال ما رأي أهل الضلال (أهل السنة) فيها، فقدم الملائم آراء أهل السنة ففرح به وقال إني وجدته أكثر مما سمعته.

والشائع عن العلماء أنهم يسعون دائماً إلى الفخر والتميز بالمناقشات العلمية، وبالتالي فهم لا يسكتون في المناظرة أبداً أمام خصومهم، ولكن الملائم كان بريئاً تماماً من هذا العيب، وجاء رجل إلى الملائم لمناقشته فشرح الملائم المسألة فاعترض فسكت الملائم، وبدأ الرجل يعلن أنه أسكت الملائم نظام الدين، وتضايق طلاب الملائم فذهب طالب من طلابه إليه وأسكته بقوة خطابه، وعندما علم الملائم بالأمر اشتد غضبه حتى أنه أبعده ذلك الطالب عن حلقة التدريس وقال إنه لا يحب أن يساء إلى سمعة وشرف أي شخص بسببه.

المؤلفات: كتابات الملائم عديدة مثل "شرح مسلم الثبوت"، شرح منار المسمى بـ"صبح صادق"، و"حاشية صدر"، حاشية الشمس البازغة"، و"حاشية على الحاشية القديمة" وجميع هذه الكتب ذات جودة عالية ومشملة على التحقيقات الدقيقة جداً ولكن سمعة الملائم ليست بسبب هذه الكتابات، ولكن بسبب طريقة تدريسه، في زمن الملائم كانت الهند معمورة بالعلماء الكبار، وكانت لكل منهم

مدرسة منفصلة، مثل الملا محب الله البيهاري مؤلف "سلم ومسلم" المتوفى 1119هـ، والملا جيون مؤلف نور الأنوار المتوفى 1130هـ، وسيد عبد الجليل البلغرامي أستاذ غلام علي آزاد المتوفى 1122هـ مير غلام علي آزاد البلغرامي، والشاه ولي الله الدهلوي المتوفى 1174هـ ولكن تشرف من تلمذ على يد الملا بأن يقارنوا أنفسهم بهؤلاء العلماء الكبار، حصل الشيخ عبد العلي بن الملا على لقب "بحر العلوم" من قبل البلاد بأكملها والذي لا يزال مشهوراً إلى اليوم وفي الواقع لم يولد أحد من تراب الهند بهذا الاستيعاب منذ دخول الإسلام حتى اليوم، كان الملا كمال تلميذاً آخر للملا أخذ عنه الشيخ حمد الله وهو الذي يوجد شرحه "سلم" في المناهج هذه الأيام، كما كان الملا حسن نفوراً بكونه تلميذاً للملا.

وشاع منهج الملا حيث كان بالإمكان رؤية تلاميذه في كل مكان في الهند، وأصبح فرنكي محل من لكناؤ مركز العلوم والفنون، ولم تنقطع هذه السلسلة من المعرفة حتى يومنا هذا، وولد مئات من أصحاب الكمال ودفنوا تحت التراب. كتابات الملا مبین والشيخ ظهور الله والشيخ ولي الله والمفتي محمد يوسف والشيخ عبد العليم والشيخ عبد الحي الذي كان حياً في زمننا، منتشرة في جميع أنحاء البلاد، واليوم ما بقي اسم العلوم العربية أو رمزها ما هو إلا انعكاس وفضل لهذه الأسرة، ومن ينوي على تحصيل المعرفة في أي ناحية من الهند يتجه نحو فرنكي محل. حينما زرت دار الملا نظام الدين في عام 1896م، ورأيت مكان تدريسه الذي كان غرفة في الطابق العلوي اندهشت- الله أكبر- هذه كامبريدج الهند، هذا هو التراب الذي خرج منه عبد العلي بحر العلوم والملا كمال، وللأسف هذا المركز مهجور والناجى الوحيد هو الشيخ نعيم حفيد عبد العلي بحر العلوم والذي منحتة حكومتنا لقب "شمس العلماء".

خصائص هذا المنهج الدراسي: من أبرز معالم أحوال الملا منهجه المقرر والمعروف

ب"النظامية"، ومن سمات هذا المنهاج الدراسي ما يلي:

1. يتضمن المنهاج عدة كتب للعلماء الهنود، مثل "نور الأنوار" سلم، مسلم، رشيدية، والشمس البازغة، ولم يكن أي مؤلف من الهند من المنهج قبل هذا.
2. تم اختيار أصعب كتاب من كل فن.
3. كتب المنطق والفلسفة أكثر من كل علم.
4. يوجد كتاب واحد فقط للحديث وهو المشكاة.
5. جزء الأدب قليل جداً.

وكان أهم أمر أمام المَلَّا في هذا المنهج هو أن تصبح موهبة القراءة قوية جداً حتى يستطيع فهم أي كتاب لأي فن يريده بعد انتهاء المقررات الدراسية، ولا يمكن الإنكار أنه لو تم فهم كتب "المنهاج الدراسي النظامي" جيداً لا يبقى بعد ذلك كتاب عربي يصعب فهمه، وكان هذا غير ممكن مع طريقة التدريس القديمة.

ومن حيث الإيجاز فإن هذا المنهاج يرحح على المنهج القديم، حيث يمكن لطالب بمستوى متوسط إنهاء جميع الكتب الدراسية في سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة، لذلك معظم علماء فرنكي محل يتخرجون في نفس العمر.

الميزة الكبرى لهذا المنهاج هو أنه لوجود عدد قليل جداً من كتب الفقه فيه واستخدام الأدلة العقلية في ما هو موجود من كتب الفقه، لذلك لم يكن يتولد منه الجفاف والتعصب والاهتمام بالمظاهر الذي يميز الفقهاء السطحيين، ولهذا لم يؤلف كبار علماء فرنكي محل أي كتاب في المناقشات الدينية، وكان الأكثر إمكاناً أن ينشأ الخلاف بين الشيعة وأهل السنة في لكأؤ، ولكن هذا الصوت ارتفع من دهلي وأحاط بجميع البلاد وحدثت حالة من الاضطراب، وأصبحت

عبارات التحفة الاثنا عشرية رائجة على ألسنة المناظرين في المذاهب مثل الرجز، ولكن علماء فرنكي محل أبعدها أنفسهم عن هذه الفتنة، وهذا المنهج مع أمور أخرى دليل عظيم على عدالة وكرم الملائم نظام الدين، فالعلماء أقل ميلاً إلى الاعتراف بفضل معاصريهم، لكن الملائم أكرم علماء المعاصرين في ذلك الوقت بإدراج كتبهم في المنهج؛ ف"نور الأنوار" و"سلم ومسلم" من أعمال معاصريه، وأكبر إيثار الملائم أنه لم يدرج أي كتاب من تأليفه في المنهج الدراسي.

وبهذه المناسبة، من المهم الإشارة إلى أنّ المنهج الحالي المعروف بـ"النظامية" ليس في الواقع "النظامية" فقد أضيف إليه العديد من الكتب التي لم تكن موجودة في زمن الملائم نظام الدين. فمثلاً الملائم حسن، حمد الله، الحاشية، غلام يحيى، والقاضي مبارك. ورغم أننا بحاجة إلى الكثير من التعديلات والإضافات في المنهج الدراسي النظامي بما يتناسب مع متطلبات العصر، لكن لا نتطرق إلى هذا النقاش في هذا المقال. ونهيه على هذا.¹

¹ مع الشكر لمعارف علي كره فبراير 1900م

مدرسة العلوم بعلي كره تاريخها وأثرها في المجتمع

- أ.د. ظفر الإسلام الإصلاحي¹

ترجمة من الأردوية: محمد شفاء الرحمن²



الباب الرابع

الاجتماع الافتتاحي لمدرسة العلوم، وخطاب السير سيد الساحر

السير سيد أحمد خان من كبار الرجال في الهند الحديثة والذين سيذكرون دائماً من أجل خدماتهم القومية والوطنية بلا ريب. ونطاق خدماته واسع ومتنوع إلى حد يصعب العثور على نظير له في الهند. وكان الهدف من ذلك التطور القومي والوطني وخصوصاً التقدم التعليمي والاجتماعي والثقافي للمسلمين. وأبرز ما يرى من هذه الخدمات نشر التعليم الجديد وترويجه بين المسلمين. وتشهد وقائع حياة السير سيد على أنه بذل أوقاته، وقدراته، وثرواته وكل ما يملكه لإكمال حركته التعليمية، واجتهد في هذا السبيل كثيراً ولم يبال بنقد المعترضين، وكان لا يشكو من قلة الموارد قط، ولا تمنعه في هذا السبيل الشيخوخة ولا الضعف، ولا يضعف كلام الناقدين الشنيع عزيمته، ولم يهزم كلامهم الساخر همته.

وقد بدأ السير سيد سلسلة تعريف الناس بأفكاره التعليمية منذ فترة طويلة، وقد تأسست بعض المدارس الابتدائية بجهده وسعيه مثل مدرسة مراد آباد سنة 1859م،

¹ بروفيوسر متقاعد، قسم الدراسات الإسلامية، جامعة علي كره الإسلامية، علي كره، الهند

² باحث، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، الهند

ومدرسة غازي فور سنة 1864م، ولكنه بدأ بالاستعداد لإنشاء مدرسة منظمة حسب تصوره الخاص للتعليم والتربية في السبعينيات، وقد أعد الخطة الكاملة أثناء مكوثه في لندن (1869-1870م) بعد أن شاهد صفات المؤسسات التعليمية هناك، كما ذكر بنفسه في مقاله¹. وأرى من المناسب أن أوضح قبل بيان ما اتخذته من إجراءات لإنشاء مدرسة العلوم في علي كره، أن النظام التعليمي الذي خطط له للتدريس في هذه المدرسة كان يشتمل على كل من التعليم الديني والعصري، أو ما يسمى بالتعليم القديم والحديث، وإن كان يغلب عليه عنصر التعليم الحديث حسب متطلبات الوقت².

ويتضح هنا أن الأمور التالية لها أهمية خاصة في الاستعدادات التي قام بها السير سيد في جهات مختلفة قبل إنشاء مدرسة العلوم:

1. التأكيد على ضرورة التعليم الإنجليزي الحديث وأهميته عن طريق الخطابات والمقالات.
2. إزالة المخاوف والإشكالات فيما يتعلق بالتعليم الحديث وخاصة تعليم علوم الطبيعة، وتوجيه الناس إلى هذا التعليم والترغيب فيه.
3. توفير الوسائل المالية.

وقد بدأ السير سيد مهمته أثناء إقامته في لندن، وهناك أهمية خاصة في هذا الصدد لنشر الإعلان بعنوان: "التماس من المسلمين وحكام الهند للرقى التعليمي للمسلمين في الهند" وتقسيمه، وكان قد ذكر الحكومة آنذاك بمسؤولياتها في هذا الطلب مع توضيح أهمية التعليم الحديث³. ومن جهة ثانية أصدر "أخبار سينتيكك سوسائتي" في سنة 1866م ترجمانا للمجتمع العلمي التي اشتهرت لاحقاً باسم "Aligarh Institute Gazette"،

¹ مقالات سر سيد (مقالات السير سيد)، 188/12-189.

² انظر لدراسة أفكار السير سيد في هذه الموضوع: السير سيد والكلية المحمدية (M. A. O. College)، ص 33-52، وتهذيب الأخلاق، 10/34، أكتوبر 2015م، ص 43-49.

³ حيات جاويد، ص 169-170.

وكان من الأهداف الخاصة لإصدارها تعريف المسلمين الهنود بعلوم الطبيعة، وترغيبهم في العلوم، ولمواصلة هذا الهدف قام بإصدار مجلة "تهذيب الأخلاق" (وكان قد أعدّ تخطيطها أثناء إقامته في لندن) من 24 ديسمبر سنة 1870م، وكان من أهدافها الإصلاح الذهني والفكري للمسلمين، والحياة الأخلاقية وخاصة توجيه تياراتهم الفكرية نحو التعليم الحديث، وبالإضافة إلى ذلك فقد كانت هذه المجلة وسيلة من وسائل تعريف الناس بأفكاره التعليمية، وجعلها كذلك الأداة التي يتعرف بها على أحاسيس وتصورات أهل العلم والمفكرين من المسلمين، ولا شك أنّ دور "تهذيب الأخلاق" في هذا الصدد كان مفيداً ومؤثراً من هذه الناحية.

ولحالة ترغيب الناس في تعلم العلوم حاول السير سيد التعرف على مخاوف المسلمين وشكوكهم، وأن يعرف السبب الذي جعلهم يبعدون أولادهم عن المدارس والكلليات الحكومية، ولهذا الغرض تم تشكيل لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند في سنة 1870م. وكانت خلاصة ما جاء من عمل المسلمين نتيجة لجهود هذه اللجنة أنّ المسلمين يتنفرون عن تعليم اللغة الإنجليزية أو التعليم الغربي لأجل الشعور الديني، والثاني: أنّ نظام التعليم الراجح ينقصه الكثير، وغير نافع للمسلمين.¹ أما من ناحية توفير الوسائل المالية فقد أنشئت "خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين" في سنة 1872م، وكانت هذه اللجنة مكونة من 26 شخصاً من الأشراف وذوي النفوذ وكان مكتبها الرئيسي في مدينة بنارس، وتشكّلت لجان فرعية لها في الأماكن المختلفة مثل مرزا فور، وعلي كره، وكانغره وبتباله وغيرها، وتقرر إطلاق اتصال بالناس من مختلف فئات المجتمع في مناطق البلد المختلفة لتوفير الوسائل المالية.² ولا يخلو هذا الذكر من أهمية في توضيح نوعية مدرسة العلوم وميزاتها أنّ مؤسسها المحترم كان يوجه بالتأكيد على أمرين أثناء إعداد إنشائها وبعده أيضاً في

¹ نفس المرجع، ص 171.

² مقالات سر سيد، 190/12-191، 193؛ وحيات جاويد، ص 175.

خطاباته ومقالاته، الأول: أن هذه المدرسة ستُنشأ أو أنشئت لتوفير التسهيلات التعليمية للمسلمين خاصة، ولكن ستوفر فيها التسهيلات التعليمية للطلاب الآخرين أيضاً. والثاني: أن يهتم فيها بالتعليم الديني والعصري. وألقى السير سيد خطابه في برنامج حملة توفير الوسائل المالية بغورك فور في 31 يوليو سنة 1874م وتحدث بوضوح:

"وفي ظل هذه الحالة اقترحنا إنشاء مدرسة باسم "مدرسة العلوم للمسلمين أو الكلية المحمدية (M. A. O College)"، وإن كانت فرصة الدراسة فيها للهندوس والآخرين أيضاً، ولكن أساس المدرسة وضع للمسلمين خاصة... وأن يتعلم المسلمون في هذه الكلية العلوم الدينية والعلوم العصرية معاً".¹

وفي سنة 1872م تم استقطاب الآراء من أماكن مختلفة (والذي نشر في Aligarh Institute Gazette، 29/7، 19 يوليو 1872م) عن موقع مدرسة العلوم، وفي ضوء الآراء تم الإقرار على تأسيسها في علي كره.²

ووافقت لجنة صندوق المدرسة (الكلية) في اجتماعها (المنعقد في 25 فبراير سنة 1875م بمدينة بنارس) على إنشاء المدرسة، وعلى صرف تسع مئة وتسع وثمانين روبية شهرياً للمصروفات المدرسية، وبالإضافة إلى ذلك تم نشر الإعلان بطريقة رسمية في Aligarh Institute Gazette لإعلام عامة الناس على افتتاح المدرسة حيث سيتم افتتاحها في 1 يونيو سنة 1875م.³ وتم تغيير هذا التاريخ فيما بعد إلى 24 مايو ليناسب ميلاد ملكة بريطانيا، وطبقاً لهذا البرنامج انعقد الاجتماع الافتتاحي

¹ مكيال مجموعته لكچرز واسپيجز سر سيد (المجموعة الكاملة من المحاضرات والخطابات للسير سيد أحمد خان 1863-1888م، ص 161.

² جريدة Aligarh Institute Gazette، 48/7، 29 نوفمبر سنة 1872م، ص 752، ومقالات سر سيد، 191/12؛ والسير سيد أحمد خان وعصره، ص 320.

³ مقالات سر سيد، 193/12-194؛ و Aligarh Institute Gazette، 19/10، 7 مايو سنة 1875م، ص 284.

لتأسيس مدرسة العلوم تحت رئاسة الشيخ محمد كريم نائب المسؤول في علي كره¹ في 24 مايو سنة 1875م². والحقيقة أنّ هذا الاجتماع كان من أهم الاجتماعات في تاريخ المسلمين في الهند الحديثة والذي أحدث ثورة، ومهد الطريق في مضمار التعليم لكسر جموده. وكانت هذه المناسبة مناسبة الفرحة والسرور، وكان الحماس قد انتشر في كل جانب، ومن الجدير بالذكر أنّ التقرير الموجز لانعقاد هذا الاجتماع العظيم الافتتاحي والذي نشر في Aligarh Institute Gazette سمي بـ"البشرى المباركة" وكان مناسباً جداً، وقد عمّ الفرحة بهذه الشمعة الجديدة التي ستضيء درب العلم، وتمهّد الطرق للتعليم الديني والعصري معاً، ويجد أهل الهند اتجاهاً جديداً في مجال التعليم، وكانت كلمات "البشرى المباركة" التمهيدية مؤثرة ومثيرة للتفكير، ويتضح من كلماته بالإضافة إلى أهمية هذه المؤسسة أنّ افتتاحها كان فرحة وتشجيعاً للمسلمين في الهند، لاحظوا الجزء الابتدائي لـ"البشرى المباركة":

"هي من الأعمال العظيمة التي ليس لها نظير في الهند حالياً، وهي نموذج من النماذج الراقية التي ليس لها مثيل في الوقت الحاضر، أي أنها وسيلة من وسائل النجاح والفلاح ولقبت بمدرسة العلوم للمسلمين التي تجاوز صيتها حدود الهند الآن، ولا يشك أحد في علو مرتبتها، وإن لم تتجلى في صورتها الأصلية في ذلك الوقت، ولم يظهر أمام المسلمين بعد في الهند جمالها وصورتها اللامعة، ولكن من دواعي الفرحة والسرور والاطمئنان أن المدرسة الابتدائية أنشئت في 24 مايو في علي كره، وأقيم حفل التدشين نفحاً ورائعاً... وكانت جلسة الحفل العظيمة مليئة بالفرح، وقد شعر الجميع ببهجة عجيبة ملأت القلوب"³.

¹ انظر للمعلومات التفصيلية عن الشيخ محمد كريم في الباب السادس.

² ملحق Aligarh Institute Gazette، المشتمل على تقرير اجتماع افتتاح مدرسة العلوم للمسلمين في

علي كره، 22/10، 28 مايو سنة 1875م، ص 1.

³ Aligarh Institute Gazette، 28 مايو سنة 1875م، ص 338.

في البداية ألقى الشيخ محمد كريم رئيس الجلسة خطاباً موجزاً في الاجتماع الافتتاحي لمدرسة العلوم،¹ وبعد ذلك ألقى الشيخ محمد سميع الله خان، والشيخ محمد چراغ علي، والسيد محمد محمود، والسيد راجه جے كشن خطاباتهم،² (مضت خلاصة خطاباتهم في الباب السابق)، وفي نهاية الاجتماع ألقى مؤسس المدرسة السير سيد أحمد خان رحمه الله خطاباً مؤثراً، وكان هذا الخطاب ساحراً هز قلوب المستمعين، وترددت صدها في قلوب الناس، يتضح هذا جلياً من تقرير الاجتماع الذي تم نشره في Aligarh Institute Gazette:

"وفي النهاية ألقى الشيخ سيد أحمد خان بهادر خطاباً هزّ قلوب المسلمين، وكان هذا الخطاب مملوءاً بالسحر، فلم يستطع أي شخص استمع إلى هذه الكلمات أن يمتلك دموعه، وأن يمسك نفسه. وكان كلُّ يبكي كأنه يرى أحوال المسلمين المؤسفة بأَمِّ عينيه. وكان الأمل يقطر من كلِّ كلمة من كلماته، وتعبّر كلُّ فقرة من فقراته عن آهاته".³

وهذا نص الخطاب الساحر للسير سيد:

"رئيس الجمعية، وجميع الرؤساء، والإخوة المسلمين!

أهني اليوم ببالغ الفرح والسرور جميع الحضور الذين اجتمعوا في هذا المكان لبدء التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم للمسلمين بشعور وطني، ووحدة إسلامية، ولفلاح إخوانهم المسلمين دينياً ودنياً، ولا أهني الحاضرين في هذا الاجتماع فحسب، بل أهني الذين لم يحضروه أيضاً، ويعيشون في البلدان البعيدة عنا، ولا الذين يعيشون في المدن والبلدان في ظروف مواتية فقط، بل أهني الذين يعيشون في الخرابات في أحوال سيئة، ولا الأحياء في الدنيا فحسب، بل أولئك الشيوخ والأولياء الذين توفوا

¹ ملحق Aligarh Institute Gazette، 28 مايو سنة 1875م، ص 1.

² نفس المرجع، ص 3-4.

³ Aligarh Institute Gazette، 28 مايو سنة 1875م، ص 339.

قبل فترة طويلة وأصبحت عظامهم تراباً، ولكنهم سيكون على الأوضاع السيئة لشعبهم وأولادهم السيئة والتي يعيش فيها المسلمون اليوم، وهم عاجزون تحت التراب ولا يستطيعون عمل شيء، وأرواحهم مضطربة في قبورهم لرؤية هذه الأوضاع، ولا الذين مضوا من هذه الدنيا فقط، بل أيضاً أهني الأرواح التي خلقها الله تعالى وستأتي إلى هذا العالم في شكل المسلمين وتستفيد من جهودنا هذه. ولما تشكلت لجنة الراغبين لرفع مستوى تعليم المسلمين بالهند كنت سكرتيراً لها، وأنا أذكر ذلك اليوم الذي كان يقول فيه الإخوان الصالحون والمخلصون من أعضاء هذه اللجنة: هل يمكن أن نجمع بين المسلمين ورقيمم التعليمي معاً، ولكن هذه اللجنة أكلت جميع الأعمال التي بدأتها بجدية، وناقشت أسباب التخلف التعليمي بعناية فائقة، والموانع التي تحول في رفع مستوى تعليم المسلمين بشكل جيد، واقترحت إنشاء مدرسة العلوم لرفع مستوى تعليم المسلمين قبل انتهاء الاجتماع، وأنشئت لجنة أخرى خلفاً لها لجمع أموال وأرصدة لها باسم "لجنة خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين"، ولم يوجد أحد ذلك الوقت إلا اعتبر الأمر مستحيلاً، لدرجة أنّ المخلصين أيضاً كانوا يبتسمون بخيرية عند ذكر جمع التبرعات، ويعتبرون هذا الأمر جنوناً وغباء.

وأذكر أيضاً ذلك اليوم جيداً عندما رأيت ربطة روية النذر على ذراع صديقي، فسألته هل يوجد أحد أكثر حاجة من المسلمين؟ وهل يستحق أحد هذه الروبية أكثر من لجنة الصندوق المالي؟ فأثرت هذه الكلمات في قلب صديقي، وأعطاني القماش الأخضر الذي ربطت فيه روية النذر، ولما فتحته فإذا فيه روية وبيستان منصوريتان، فكانت هذه أول الأموال التي وضعت في خزانة لجنتنا، واليوم يوجد لدى اللجنة من الأموال والإيرادات حوالي ثلاث مئة وخمسين ألف روية، ووافقت اللجنة على صرف تسع مائة وتسع وثمانين روية شهرياً للمصرف على التعليم الابتدائي في مدرسة العلوم.

وأنا على يقين أنّ كل الناس يتفكرون في كيفية فلاح الشعب ولكنني أبين لكم بكل

أدب أنني قضيت فترة طويلة وأفنت جزءاً من عمري في هذا التفكير أيضاً، ولما تم اقتراح إنشاء مدرسة العلوم كنت أرى مشاكل ومصاعب في القيام بهذا العمل أكثر مما يرى الناس الآخرون، حيث أنّ المسلمين ينفقون أموالهم في ارتكاب المحارم واقتراف الذنوب والمعاصي ولا يرون بها بأساً سواء كانوا فقراء أو أثرياء مترفين إلا أنهم يرون التحيل بأنواعه المختلفة، والإتيان بحجج شرعية حين التصديق بأموالهم على مدرسة العلوم للمسلمين من كمال الإيمان والدين، ومن حيث أنّ فكرة المواسة والتعاطف لم تنشأ في المسلمين إلى اليوم، بل إن لم تكن فكريتي خاطئة إنها لم تتولد في جميع الأمم الآسيوية قط، وكنت أعتقد أنّ القيام بهذه المهمة شبه مستحيل، ولكن قلبي كان قوياً دائماً من أنّ الأعمال التي هي صعبة وشبه مستحيلة عندنا، أليست هذه الأعمال سهلة عند الله تعالى؟ عملنا هو المحاولة وإكماله بيد الله تعالى، وينبغي أن نقوم بعملنا، والله يتمه، وعلى هذا واصلت لجنة خزانة البضاعة جهودها، ولم تقنط من رحمة الله تعالى قط.

إنّ الانحطاط الذي يعاني منه المسلمون اليوم لم يزل يعيق هذه الجهود المبذولة، بل هذا الانحطاط أخذ شكلاً آخر، وخالف بعض الناس من شعبنا نفسه هذه المنفعة القومية، وأرادوا تدمير هذا الفلاح القومي من خلال التعذر الكاذب بمخالفة الشريعة، وهذا التعذر بمخالفة الشريعة كان خاطئاً وكذباً شنيعاً، ولينصفي المتواجدون في هذا الاجتماع أنّ ما نشره الناس في الجرائد وكتبوه في المجلات والرسائل كم كان كذباً واتهاماً، ومملوءاً بالخيانة، وكان من دواعي الفرح والسرور جداً لو كتبوا الحقيقة، ولكن الكذب والاتهام الذي تم نشره في تلك الجرائد والمجلات ولم يكن المقصود منه سوى إحداث الإعاقة في هذا الفلاح القومي وإلحاق الضرر به فكان هذا دليلاً واضحاً على انحطاط شعبنا وعلامة ظاهرة له. وكانت قلوبهم تعلم أنّ الكلمات التي كانوا يكتبونها كانت كذباً واتهاماً، ولكن مخالفة الرقي جعلتهم يكذبون ويكتبونه عن عمد، بغض

النظر أنّ ما كانوا يقولونه كان مرتبطاً بنفسه، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو أنّ ما علاقة نفسي وأفكاري سواء كانت صحيحة أم غير صحيحة بمدرسة العلوم التي تؤسس لفلاح المسلمين الديني والدينيوي؟، والتي اشترك فيها المتدينون والأتقياء الكبار، ولكن بدون جواب دائماً. وقلت في عدة اجتماعات علانية إذا كانت أعمالي سيئة فهل يعاقب الشعب كله لعمل شخص واحد؟ ويموت في مثل هذه الحالة السيئة، فالذي يظن نفسه أكثر تديناً وتقوى فليرحم شعبه، ويتعاطف معه ويواسه، ويستعد له، ويقم بهذا العمل القومي بنفسه، ولكنهم لم يكن في نيتهم القيام بالفلاح القومي، بل أرادوا تخريبه وتدميره، وليس عندهم لتحقيق هدفهم إلا أن يقوموا بتشهير الاتهام الكاذب بالنسبة إلى التعليم الشرعي، وليست لديهم طريقة أفضل من ذلك، ومن الممكن أنّ بعض الناس ظنوا هذه الاتهامات صحيحة، ووقعوا في شبهات، ولكن أظهرت إجراءات لجنتنا المخلصة وحسن النية التي تمّ القيام بها في باب التعليم الشرعي أظهرت على العالم كيف كانت اتهامات المعارضين لهذا العمل القومي كاذبة، ولم يكن لها أيّ أساس من الصحة. وقامت لجنة خزانة البضاعة علانية بفصل إدارة التعليم الشرعي عنها، وسلمتها إلى أشخاص متدينين وأتقياء والذين يعترف بتدينهم وأمانتهم المعارضون لنا أيضاً، بل لجنتنا رضيت بتسليم إدارة التعليم الشرعي إلى أولئك المعارضين بغاية الفرح والسرور، ولكن هؤلاء لم يرضوا بذلك أيضاً، لأنّ هدفهم لم يكن إصلاحاً، بل كان فساداً، وأما الشكوك والشبهات التي كانت في قلوب الناس بالنسبة للتعليم الشرعي فزالت الآن بإجراءات مطمئنة، ولم يبق هناك مجال للشك، فإن لم ينتبه هؤلاء الناس الآن أيضاً، فسيكون هذا من سوء حظ الشعب.

وقد بينّ الشيخ سميع الله خان جميع أحوال إجراءات المدرسة أمامكم بالتفصيل، وألقى صديقي الشيخ سيد چراغ علي خطاباً رائعاً عن هذا الاتحاد القومي الذي أظهره كلا الفرقتين من أهل السنة والشيعة للاتفاق على هذا العمل الخيري، وبينّ

فوائده. وألقى الشيخ سيد محمد محمود خطاباً فصيحاً ومؤثراً عن هذه المدرسة، والآن لا يبقى لي موضوع آخر لأتحدث فيه، ومع ذلك أريد أن أقدم أمامكم أمرين:

إن شعبنا في الهند مؤمن بالله وحده، وآمن بخاتم النبيين ﷺ، وآمن بكتاب الله وحده، ولكن للأسف قد انقسم إلى الشيعة والسنة، فننظر إلى حال شعبنا بأكله ونسأل: ما حال شعبنا؟ إنه أكثر الشعوب جهلاً، وفقراً، وعجزاً، ومن سوء حظنا إن لم نستنكر العصبية الذميمة التي توجد بين الشيعة والسنة في مثل هذه الحالة أيضاً، فإذا ستكون النتيجة؟ ونحن أقل قوة، ومالاً، وعدداً.

إن تركت الشيعة أهل السنة، وأهل السنة الشيعة، ونظر كل منهم إلى خسارة الآخر، فسوف يكون مصيرهم جميعاً الهلاك والدمار، ولكني أقول لكم مسروراً إن الشيعة وأهل السنة كلهم شركاء في هذا العمل القومي على حد سواء، وهذا وقت فرحتنا لأن قلوب قد تألفت، وكما أن الشيعة أكثر عوناً من أهل السنة في هذا العمل، واختلاف أهل السنة والشيعة تصور وهمي، وأنهم يؤمنون بنفس دين الإسلام الذي تؤمن به، وإن أهل السنة والشيعة إخوة ديناً، وبلداً، وشعباً، فإن شارك كل منهما في الفلاح القومي فلا حيرة فيه ولا عجب. وأكثر سروراً من ذلك هو أن إخواننا الهندوس أيضاً مشاركون في هذا العمل، ويساعدون برغبتهم، ومن الأمثال الشهيرة (في اللغة الأوردية) "إن الدم يصبح دماً واحداً في اثنتي عشرة سنة"، وأن الله تعالى قد جعلنا رفقاء على هذه الأرض منذ مئات السنين، نموت في هذه الأرض، ونحيا على نتائجها، ونشرب من ماء نهر الجانج، إن حياتنا ومماتنا معاً، وقد شاركوا في العمل الأخوي هذا بغاية من الجود والسخاء، وتبرعوا لإتمام العمل، وهذا فال مبارك للهند.

وأقدم بالشكر لصديقي القديم والوفي راجه جيه كشن داس بهادر سي - ايس - آي المحترم من صميم قلبي، فقد تحمّل مشاق السفر، وحضر من كانفور للمشاركة في فرحة إخوانه المسلمين، وشارك في هذا الاجتماع ليهنئنا تهنئة من القلب.

وأيضاً أشكر صديقي القديم بادت رادها كشن بهادر نائب المسؤول من صميم القلب، وهو صديقي قديم قدم الزمن، وشارك في هذه الجلسة الافتتاحية بحب أخوي، وأرجو للمحبة والوحدة التي هي من متطلبات الطبيعة البشرية وحضارتها أن تزداد يوماً بعد يوم بين المسلمين والهندوس الذين هم إخوة في الوطن، وأقول دائماً إنَّ في الهند شعبين، الهندوس والمسلمون، فإذا ارتفع، وتخلَّف الآخر، يصبح وجه الوطن كرجل أعور، إنَّما جمال وجه العروس يكمن في كون كلتا عينيها مشرقتين.

ومن دواعي الفرح والسرور أنَّ الهندود يحاولون الرقي بأنفسهم، ويعملون لفلاحهم، ويعمّمهم الخير بكل الطرق، والله ينصرنا في أعمالنا، آمين.¹

والحقيقة أنَّ هذا الخطاب التاريخي للسير سيد أشار إلى نقاط قيمة ومهمة وهي:

1. إنَّ افتتاح مدرسة العلوم كان مناسبة سعيدة للغاية، وذلك أنَّ المؤسسة كانت تخرج إلى حيز الوجود عملياً والتي تهتم برقي المسلمين الاجتماعي، وفي الواقع أنَّ هذا كان عملاً عظيماً قد بدأ لأجله السير سيد جهده وسعيه منذ سنوات، وضخّي من أجله بكلّ شيء (وقته وقوته وإمكانياته، ووسائله المالية).

ولذلك كان سعيداً جداً في مناسبة افتتاحها إلى حد أنه هنا من القلب الحضور وغيرهم والذين يعيشون في البلدان البعيدة جميعاً، حتى الشيوخ والسابقين الذين تواروا تحت التراب منذ فترة طويلة عاجزون ولا يستطيعون عملاً، ولكن أرواحهم مضطربة بالنظر إلى الأحوال السيئة لشعبهم وأولادهم، وأيضاً هنا الأرواح التي ستأتي في صورة المسلمين، وتستفيد من هذه الجهود المبذولة أي (مدرسة العلوم).

2. رأى السير سيد من الضروري قبل إنشاء هذه المؤسسة وفي جلستها الافتتاحية أيضاً أن يوضح أن ليس المقصود منها هو الرقي الديني والدنيوي، وبالطبع هذا لا

¹ ملحق Aligarh Institute Gazette، 28 مايو سنة 1875م، ص 6-8.

يمكن إلا إذا وضع فيها النظام التعليمي الذي يهتم بالتعليم الديني والعصري، ويشهد تاريخ هذه المؤسسة وبدون شك أنّ المؤسس المحترم قد اهتم بهذا منذ البداية اهتماماً بالغاً، والحقيقة أنّ امتزاج التعليم الديني والعصري من خصائص هذه المؤسسة وميزاتها، والمنظومة التي قدّمها الشيخ صفدر حسين في جلسة مدرسة العلوم الافتتاحية تشير إلى هذه الحقيقة:

ہے مدرسہ علی گڑھ میں ایک ہوا مقرر جس کو کیا ہے جاری اسلامیوں نے مل کر
 ہر علم و ہر زبان کی تعلیم ہوگی اس میں سب مدرسوں سے اچھی سب کالجوں بہتر
 انگریزی عام ہوگی تعلیم میں مگر ہاں مذہب کی ہوگی خاص تعلیم اے برادر
 تعلیم مذہبی ہی ہے جان مدرسہ کی ورنہ اثر نہ ہوتا اس کا کسی کے دل پر
 تعلیم دنیوی ہے بہر معاش دنیا تعلیم مذہبی ہے بہر نجات محشر¹

ترجمة: لقد تأسست بعلي كره مدرسة أنشأها المخبرون من المسلمين. إنها تدرّس كلّ علم ولغة أحسن وأفضل من كل مدرسة وكلية. ستكون لغة التدريس فيها الإنجليزية إلا أنّ تعليم أصول الدين ينال حظه الوافر. فإنّه (تعليم أصول الدين) روح هذه المدرسة وإلا فكيف قدّر لها ما نراه من تأثيرها على قلوب الناس. ولقد وجب تعليم العلوم الحديثة لكسب المعاش مع العلم بأنّ تعليم أصول الدين سبب لنيل النجاة يوم القيامة.

3. إن الأمر الذي يبدو مستحيلاً في ظاهره يصبح ممكناً، ويسهل الوصول إلى الهدف المقصود إذا كانت العزيمة قوية، والهمة عالية، والعاطفة صادقة، ولنا عبرة في موقف السير سيد عندما تتحمّل مسؤولية الرقي التعليمي للمسلمين، قال أصدقاؤه المقربون ورفقاؤه في اللجنة: "إن المسلمين ورفيقهم التعليمي" اجتماع

¹ حیات جاوید، ص 186، رقم الحاشیة: 1.

الضدين، وعندما تم تخطيط له عملياً، وبدأت حركة جمع التبرعات لإنشاء مدرسة العلوم، كان خواص الأصدقاء يستخرون منه ويرون هذه الفكرة جنوناً، ولكن لم تنزل قدم السير سيد، وظل ثابتاً في مهمته، ولا يزال يوضح فوائد التعليم الجديد بخطاباته وكتاباته، ويقوم بتوجيه الناس إليها، وقام بتشكيل "لجنة الراغبين في رفع مستوى تعليم المسلمين بالهند" التي درست قضية التعليم من جوانبها المختلفة، ثم أسّس "لجنة خزانة البضاعة لتأسيس مدرسة العلوم للمسلمين" لتوفير الوسائل المالية، ونتيجة لتلك الجهود والمسعى حانت الساعة المباركة لافتتاح المدرسة أي أن المستحيل أصبح ممكناً، وفي الواقع كان ذلك بركة لـ"نصرة الله تعالى، وهمة الرجال" وستأتي بعض التوضيحات في النقطة التالية.

4. وهذه النقطة التي استفدناها من خطاب السير سيد ثمينة وقيمة جداً، وهي أننا إن واجهنا المشاكل والصعاب عند بدء أي عمل من الأعمال المفيدة أو من المصالح العامة، أو قلة الوسائل، ولكن إن بدأنا هذا العمل بالتوكل على الله تعالى، وراجين منه النصر، واكتمال الأمور بإذنه، ومن الصعوبات والمشاكل التي ذكرها السير سيد رحمه الله في تأسيس مدرسة العلوم، الانحطاط الفكري للمسلمين، والأزمة الاقتصادية، وعدم اهتمام الأثرياء بالمساعدة المالية لنشر التعليم، وعدم اعتناء عامة المسلمين بالفلاح الوطني، وقد أعرب في هذا الصدد عن هذا الأمر بأنه واصل هو وأعضاء اللجنة جهودهم مع ذلك كله متوكلين على الله تعالى وموقنين بأنّ عمل الإنسان هو المحاولة، والإكمال بيد الله تعالى. وهو قادر على كل شيء، وكل عمل سهل عليه، ولم يقنط السير سيد من فضل الله تعالى وكرمه قط، وفي النهاية تحققت الأمنية، واكتمل العمل، أي تمّ عمل تأسيس مدرسة العلوم (ولله الحمد والمنّة) وأيضاً من العبرة أنّ الثروة الأولى التي حصلت عليها لجنة خزانة البضاعة كانت روية واحدة وبيستين منصوريتين، واستمرت الجهود مع التوكل على الله فاجتمعت لدى اللجنة عند افتتاح المدرسة

عوائد مالية قدرها حوالي ثلاث مائة وخمسين ألف روبية.

5. إنّ الأخلاق الحسنة وسعة القلب مع المعارضين والناقدين تجعل المعارضة غير مؤثرة، ويسهل بها الحصول على الهدف. وكان ممن عارضوا السير سيد أشخاص اتهموه بكل الطرق، ونسبوا إليه أموراً خاطئة ليخالفه الناس ويعارضوا حركته. وجعل باب الحوار مفتوحاً معهم دائماً، وطلب منهم أن يفكروا باطمئنان فيما يقولون أو يكتبون عنه، هل هو صدق أو كذب؟ وفي الواقع عليهم أن يتعاونوا معه في أعمال الفلاح الوطني (نشر التعليم وترويجه) بدلاً من المعارضة. وطلب السير سيد من المعارضين كما تشهد كلماته وإن كان معارضتهم في أفكاره وتصوراتهم واعتقاداتهم فذلك مفهوم ولا حرج فيه، ولكن معارضتهم للعمل الوطني (نشر التعليم أو تأسيس المدرسة) غير مفهوم. وإن كانت أفكاره (المؤسس) وتصوراتهم خاطئة أو أنهم قد تعرضوا لأيّ مصائب نتيجة لعمله، فهل من الصواب والحكمة أن يتركوا الشعب بأسره يتضرر من أجل ذلك؟، ويذروه في الأزمة والتخلف؟ فالذين يظنون أنفسهم أهل الدين والتقوى، وأنهم متعاونون مع الشعب حقاً وناصحون له فليتقدموا ويندروا أنفسهم للأعمال الخيرية. وفي الواقع أنّ السير سيد كان يحبّ مهمته (ترويج التعليم) حباً شديداً إلى حد أنه كان يستعد للتضحية بكل غالٍ ونفيس لأجلها، ولم يدع أفكاره كذلك تعترض هذا العمل. ولا يزال يحاول إزالة المخاوف والشكوك التي كانت في أذهان الناس بسبب بعض أفكاره الدينية كاملاً، لئلا يحول ذلك في إكمال مهمته الحقيقية. وفي هذا الصدد قال صراحة لمثل هؤلاء الناس أن يطمئنوا أنه لن يتدخل في الدراسات الإسلامية قطعاً (التي كانت من أسباب المخاوف) ولن يكتب عنها أيضاً. ويتوقف إعداد المناهج الدراسية وتعيين الدراسات الإسلامية على الآراء الصحيحة للعلماء، (وكان صادقاً في كلامه كما صرح بذلك في خطابه أيضاً) فليترك الناس معارضة المدرسة والمهمة التعليمية، وأن يتعاونوا معه في هذا العمل الخيري بشكل كامل، لأنّ هذا

العمل ليس إلا لفلاح المسلمين ورقمهم الاجتماعي، ولا يرتبط غرضه الذاتي بهذا. وفي الواقع نجد درساً كبيراً خصوصاً للمهتمين بالرقي القومي والوطني في هذه الأخلاق المثالية للسير سيد وسعة قلبه تجاه المعارضين والناقدين.

6. والنقطة المهمة التي تبضح من خطاب السير سيد وهي أن تأسيس مدرسة العلوم كان من الأمور السارة بحيث أنّ جميع أهل الهند تعاونوا فيه دون تفريق بين المذاهب والفرق، وأن السير سيد أعرب عن هذا الانطباع القيم معبراً عن سروره على هذا التعاون الجماعي حقاً بأن الاختلاف بين الشيعة وأهل السنة ليس له أهمية. وأنهم إخوة في الدين، والبلد، والشعب، فشاركهم في أعمال الفلاح الوطني ليست بمستغربة، بل المستغرب والسار هو أنّ الإخوة الهندوس شاركوا وتعاونوا فيها أيضاً بكل رغبة، ولم لا؟ بينما الحقيقة أنهم يسكنون في هذه الأرض معاً، ويقضون حياتهم على منتجاتها، ومماتهم في هذه الأرض، وماء نهر الجانج شرب لهم ولنا، ومن النقاط القيمة التي تظهر من هذا الجزء لخطاب السير سيد أنه عبّر عن اتفاق الجميع واتحادهم في هذا العمل الوطني (قيام مدرسة العلوم) بـ"القال المبارك للهند".

7. في الحقيقة أنّ العواطف والمشاعر التي أعرب عنها السير سيد في الجزء الأخير من خطابه ثمينة وقيمة للغاية، وهي أنّ المسلمين والهندوس مواطنون يرتبط فلاحهم ورقمهم ببعضهم البعض، وإن تقدم أحدهما وتخلف الآخر تأثر جمال وجه الوطن بأسره، ولذلك من الضروري في هذا أن يكونوا متعاونين في رقي بعضهم البعض، ويكونوا مجتهدين لفلاح أهل الهند بدون أيّ تفريق، ومن متطلبات العدل أن يكونوا متحمسين جميعاً لتقوية فرد الشعب وفلاحه الذي هو أكثر ضعفاً. ومن جهة ثانية فإن الأحاسيس التي أعرب عنها في هذه الجلسة عن العلاقات بين المسلمين والهندوس كانت في غاية الأهمية وذات معنى، وهي "كلهم ينتمون إلى البشرية، وهناك علاقة دائمة بين المسلمين

والهندوس، فليتحداً الجميع ويتجنبوا الذل والمهانة".¹

والحقيقة أنّ لب الانطباعات المذكورة للسير سيد وأهميتها ازادت أكثر في الظروف الحالية عند ازدياد الاختلاف والتشعب، والبغض والعنف في هذا البلد، ومن ينكر أهمية الرسالة وقيمتها التي أداها السير سيد إلى أهل الهند باختصار، وخلاصتها أنّ الفلاح الوطني والرفي سيتحقق بالفعل عندما يصبح كلّ منهم مشاركون ومتعاونون فيما بينهم، ويحبّ بعضهم البعض، ويشاركون في مصاعب ومشاكل بعضهم البعض بدون أيّ تفریق.

وبالاختصار فإنّ المشاعر والأحاسيس التي عبر عنها السير سيد في خطابه يتضح منها جيداً أنّ مناسبة افتتاح مدرسة العلوم كان مناسبة لإظهار الفرح والسرور، ولتهنئة بعضهم البعض.

والأمر الثاني أنّ أهمية دروس العزائم القوية، والهمة العالية، والغرض النقي والجهد الدائم للحصول عليه، وتقديم التضحية بكل أنواعها التي تظهر من خطابات السير سيد وكتابه وخطواته العملية لا تزال مسلمة حتى يومنا هذا. والشجرة التي غرسها السير سيد في 24 مايو سنة 1875م أصبحت مثمرة وذات نتائج قيمة الآن، ومن الضروري أن نكون مستعدين دائماً لبقاء هذه الشجرة وحفظها، وجعلها نضرة، ومثمرة، ولرقياً وفلاحها مع تلك العزائم والهمم العالية، والجهد الدائم، والسلوك العالي، والأخلاق الحسنة، والمدارة، والوفاء بالغرض النقي، والاتحاد، والأنس القلبي بهذه المؤسسة العظيمة، والذي أظهره السير سيد في كلّ مرحلة من حياته. أسأل الله تعالى أن يوفقنا له جميعاً، وجعلنا من القائمين بمتطلبات القرآن الكريم والسنة النبوية في كلّ شؤون الحياة، وفي كلّ الأمور، والله الموفق وهو المستعان. أمين ثم أمين.

¹ ملحق Aligarh Institute Gazette، 28 مايو سنة 1875م، ص 8.

الجامعة المللية الإسلامية

(حلقات متسلسلة لترجمة كتاب "قصة الجامعة" لعبد الغفار مدهولي)



- عبد الغفار المدهولي¹

ترجمة من الأردوية: د. هيفاء شاكري²

السنة التاسعة

من أغسطس 1928م إلى يوليو 1929م

كانت بداية المسرحيات الدرامية في السنة السابقة والذي كانت بشكل عاجل، اختارت شكلاً مستقلاً، وإذا نظرنا إلى عدد المسرحيات الدرامية التي عُرضت في تلك السنة بغض النظر إلى المسرحيات التي تم عرضها بمناسبة أهم الاحتفالات في الجامعة، لم يعرض مثلها في أية سنة أخرى. ولم يقتصر هذا العمل في المدرسة، بل اشتاق إليه طلاب الكلية أيضاً. بالإضافة إلى ذلك، قام الأساتذة أيضاً بعرض مسرحية درامية. وكنت أسكن مع طلاب الكلية حتى ذلك الوقت، أما الأصدقاء فكان لديهم شغف خاص بالجامعة.

وذات يوم، كان جميع الطلاب في الغرفة، فقال السيد امتياز:

"يا أستاذ هيا تقدم مسرحية درامية، يعني أن يقدم طلاب الكلية أيضاً مسرحية".

فقلت: ليست هناك مسرحية للكبار خالية من الدور النسائي.

¹ كان مدرّساً في مدرسة الجامعة المللية الإسلامية، نيو دلهي

² مشارك في التحرير وأستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المللية الإسلامية، نيو دلهي

قال عبد الكريم بشاوري: "لا بأس، قم بإجراء بعض التعديلات على مسرحية من المسرحيات الموجودة مما يحقق غرضنا.

إلى ذلك الحين لم تكن المسرحيات الدرامية قد كتبت لطلاب الكلية بوجه خاص، ثم كتب أساتذة حيدرآباد دكن والبروفيسور مجيب الرحمن عددًا من المسرحيات الدرامية لهذا الغرض، حيث لا يوجد دور نسائي. وفي ذلك الوقت لم أقدر أن أفعل الكثير، فأجريت تعديلاً على مسرحية للسيد آغا حشر وقدمتها لطلاب، وتم تقسيم الأدوار. واجهنا صعوبات أكثر في تدريب هؤلاء الطلاب الكبار مقارنة بتدريب الصغار. فكان الواحد منهم يخجل، والآخر يقول أخبرنا أنت، الآن أسمعك دون أداء، والأداء الحقيقي سيكون على خشبة المسرح. بينما قال أحدهم: كم هو عملي (دوري صغير)؟ درّبوا الآخرين. وكان هناك من يصرخ امتثالاً للمسرح، أما الآخر فيتمتم كأنه لا يملك لساناً. وبعد جهد كبير، استطعنا السيطرة عليهم. ومهما كانت المسرحية، استمتعنا كثيراً عندما دخل السيد حسين حسان، مدير مجلة "پیام تعلیم" إلى المحكمة، حاملاً مجموعة من الجرائد تحت ذراعه، وعلى عينيه نظارة بسيطة، وكان يحدق عبر النظارة. وكان دوره مدير صحيفة "پيسه". وقد حضر للإدلاء بشهادته في محاكمة. ولم تكن هناك أية حاجة إلى تدريبه على هذا العمل لأنه كُلف بلعب الدور الذي كان يمثل شخصيته في الحقيقة.

وقال الجميع، الآن لا ينبغي أن يتخلف الأساتذة كذلك. وقبل سنة، كتب البروفيسور وهاج الدين (حيدرآباد) للأساتذة، مسرحية جيدة اسمها "نكاح بالجبر"، وقد أقنع البروفيسور مجيب الأساتذة، ولعب بنفسه دوره في هذه المسرحية، ودرّب الآخرين أيضاً، وكان دوره دور الكاهن، وحدد لي دور العريس، وجعل السيد نيازي صهراً لي، والسيد كريم الله أخاً لزوجتي، ولعب السيد عليم دور تلميذ الأرسطو العلامة نجندي. فيما شارك اثنان من طلاب الكلية أيضاً، وسُمي السيد أنور خان بالحكيم الجلبي، والسيد نصير باسم جعفر. وكانت الزوجة محجة من البداية إلى النهاية لذا لم

يكن هناك جدل حول من يقوم بدور المرأة. والسيد مجيب يملك قدرة جيدة على تشكيل الممثلين. وكان انتخاب الممثلين جيداً أيضاً، وكان لدى السيد علم شهادة البكالوريوس في اللغة العربية، لذا كان يجيد نطق الكلمات بشكل صحيح حسب القواعد العربية. وكان دوره طويلاً حفظه جيداً. وكان من واجبات دوره بأن يعنف الشخص الذي ينطق أمامه أية كلمة بنطق غير صحيح أثناء الحوار.

وقال الأطفال الصغار أي من الصنفين الثالث والرابع، أنهم أيضاً يريدون أن يقدموا مسرحية، بشرط ألا يشارك فيها غيرنا. وكانت مسرحية "دمية ثريا" للكاتب غلام عباس مناسبة لهذا التمثيل. يشارك فيها صبيتان وصبي واحد. حيث تدعو صبية عمرها 7 سنوات، صديقتها إلى جلسة الشاي لتشهد بيت دميتهما، وأخوها الصغير البالغ من العمر ست سنوات يزعمها، بطرق مختلفة، ويحاول أكل المأكولات الشبيهة، فتخطر على بال أخته حيلة، فتجعله دمية متحركة بالآلات، وتقدم هذه الدمية الحية أنواعاً مختلفة من الألعاب والهرج عندما تأتي الصديقة. ويمكن تقديم هذه المسرحية التي تحتاج إلى أشياء بسيطة وهي المأكولات وأدوات الشاي وصندوق الدمى وستارة واحدة، وبمشاركة ثلاثة أطفال فقط، بسهولة في المدارس وكذلك البيوت. لغتها حلوة واجمل صغيرة وقصيرة، وكتبت هذه المسرحية بلهجة ينطقها الأطفال، والحركات التي يقومون بها في هذه السن المبكرة، ومن أبرز ميزاتها بأنها ليست مجرد حوار، وإنما يصاحبها أعمال وحركات، مما يزيد التمثيل استمتاعاً.

ولم تكن هناك صبيات في الجامعة آنذاك، لذا غيرت مسرحية "زميلات" إلى "أصدقاء". فلعبة الدمى يلعبها الأولاد البنات الصغار على حد سواء، لذا لم يشعر أحد بهذا التغيير. وكان الطفل مسعود (وهو البروفيسور في الجامعة العثمانية حالياً) يقوم بدور الدمية الحية. وكان السيد شاهد، من منطقة نغينه، يلعب دور الأخ الأكبر لمسعود. وكان السيد شفيق من منطقة قائم كنج، صديقاً لشاهد.

وتم عرض المسرحية الثانية باسم "حياة المدرسة" بمناسبة عيد الفطر. عندما كنت في

مرحلة التعليم الثانوي، كان هناك كتاب يسمّى (ناغناثان في المدرسة) ضمن المقررات الدراسية، وقد أعدت المسرحية بناء على هذه القصة. ومثل دور شخصية ناغناثان الساذج الطفل عرفان، ولعب كل من سراج من قائم كنج وشعيب أخو السيد سعد الأنصاري دور الطفلين الشقيين، وحاكي السيد طيب السيد كيلات، والسيد نبي أحمد دور صاحب البريد أحسن محاكاة.

وكانت هذه أول سنة، كُلفت فيها كل الصفوف بلعب دور تعليمي بمناسبة الاحتفال بيوم التأسيس. وكان السيد ذاكر حسين قد تحدّث مع الأساتذة قبل شهر في هذا الشأن وقدم اقتراحاته أمامهم، وهي:

1. يتعين على كلّ صف أن يقوم بإعداد شيء بالكتابة والقراءة، ليهديا للجامعة، ويمكن لصف واحد أن يقدم أشياء عديدة.
2. ستعرض هذه التحف يوم الاحتفال ليتعرف الأطفال والضيوف على أعمال بعضهم البعض.
3. يعرض أصحاب المكتبة فقط الكتب التي طبعت من قبل الجامعة.
4. يتم عرض مسرحية لتشغيل الأطفال.
5. يصدر أصحاب مجلة "پیام تعلیم"، عددًا ممتازًا لهذه المجلة، بحيث تكون معظم المقالات من إسهامات أساتذة هذه الجامعة وطلابها.

عندما عرف الطلاب ذلك فرحوا كثيرًا، وبدا كأنهم يستعدون للعيد. وقاموا بأعمال الكتابة والقراءة أكثر من قبل بسبب فرحة القيام بدور ما، بل يمكن القول إن شغف القراءة والكتابة كان يتزايد بشكل مستمر. قد زادت أنشطة الصفوف جمالاً وبهاء. واستغلّ الأطفال الأتقياء هذه الفرصة، وكانوا يعملون بكل حماس ونشاط. وكان هذا العمل مرتبطاً بجدّ ما، بواجبات كبار الطلاب أي من مرحلة التعليم الثانوي والكلية. وفيما يخص إطلاق هذه المبادرة، التي أطلقها السيد ذاكر حسين، كان يعلم بأن هذا

العمل لا يكون قوياً ومستمراً إلا إذا كانت جذوره راسخة، مما يعني أنه لا بد من تحسين مستوى المدارس الابتدائية، وكانت هذه الفكرة صائبة تماماً لأنّ الدارسين في مرحلة التعليم الثانوي ومرحلة الكلية يمرّون أولاً، بالمرحلة الابتدائية، إذا قاموا بالعمل بطريقة صحيحة في تلك المرحلة، فهذا الأمر يؤدي إلى تسهيل الأمور في المراحل القادمة. وقد بدأت أمانى أساتذة الجامعة، تؤتي ثمارها من السنة الحادية عشرة، وسيأتي ذكره في حينه. الآن أمامنا فعاليات الاحتفال بيوم التأسيس لعام 1928م.

ضمن فعاليات مواد التاريخ والجغرافيا، تم إعداد الخرائط القديمة والجديدة لحكومات المسلمين وخريطة عصر الملك تشاندر غوبت وخرائط ولايات ملوك راجبوت وخريطة سلطنة أشوكا. وكتب المقالات بعد مشاهدة القلعة الحمراء بدلهي، كما تم تدوين أحوال ما تبقى من مدارس دلهي القديمة بعد 1857م أو التي تأسست حديثاً، بعد التجول فيها ومشاهدتها. وقام طلاب الدراسات الإسلامية بجمع الأحاديث النبوية المعروفة، وعلقوا نصّ خطبة حجة الوداع للنبي الكريم ﷺ، بعد كتابتها بخط جميل. كما أعدّ طلاب اللغة الأردية نبدات عن خمسة من أشهر المؤلفين في اللغة الأردوية، وهم يمثّلون العناصر الخمسة للأدب الأردوي وقاموا برسم صورهم أيضاً. بينما قام قسم العلوم بوضع خطة الأعمال. وكان السيد منشي علي محمد خان من أفضل الخطاطين في الهند وكان مرتبطاً بالجامعة من البداية إلى النهاية، فقام الطلاب تحت إشرافه، بإعداد معلقات ومدونات جميلة ورائعة، يا لحظ الرسامين! لأنّ الطلاب الذين كانوا يجيدون فن الرسم، كانوا قد اعتبروا أنفسهم فنانين. وقام كل من طاهر علي ومسعود أختر وضمير الدين، برسم صور كأنها الحقيقة ل كبار القادة من البلدان الإسلامية وكذلك لأشهر الشخصيات الهندية. وقد زادت أعمال شعبه بخاري هذا التزيين رونقاً وبهاء، فقد قام بعمل درع خشبي جميل منقوش من الجهات الأربع ووضع في وسطه ختم الجامعة، بعد ضبطه وإضافة الألوان إليه. كما قدّم منتجات خشبية أخرى كذلك.

كيف كان لنا أن نجد قاعة جميلة في المباني المستأجرة، لذا تم وضع كل شيء في مخيم نُصب في الفناء، وعُقد الحفل في ركن من الفناء. وحضر الحفل جميع الشخصيات المشهورة مثل الدكتور الأنصاري، ومولانا أبو الكلام آزاد، ومولانا محمد علي، والزعيم موتي لال نهرو، وبانديت مدن موهن مالويه، ولاله لاجبت راي، وسري نواس آتغر، وستيه مورتى، وأين سي كيلكر، ومولانا ظفر الملك، ومسز ابني يسنت، والسيد آصف علي.

أولاً، نظمت المسابقة الخطابية بين طلاب الصف العاشر، ثم قام السيد بانديت مدن موهن مالويه برفع العلم الوطني، وبدأ الطلاب بإنشاد النشيد الوطني لحظة ارتفاع العلم. وكان الدكتور الأنصاري رئيس الجلسة حيث تولى منصب مدير الجامعة بعد وفاة المغفور له الحكيم أجمل. لم يكن صندوق أجمل التذكاري يتلقى التبرعات بشكل جيد، وقضى الأساتذة هذه السنة بصعوبات كبيرة، وكانت هذه الاحتفالات والأنشطة بغرض تحسين المستوى التعليمي للطلاب وإلا كان الوضع المالي للجامعة آنذاك سيئاً للغاية. وكان الزعماء غير مهتمين تجاه ترويج التعليم، وقد نفهم ذلك الوضع بمثل من يقوم بتربية شجيرات بشق الأنف لأجل المصلحة القومية، ويأتي شخص متجول ولا يكثر حتى بالاستفسار عن الأحوال، فلا يستاء أحد مما يقول البستاني عن الوضع في مثل هذا الموقف. وقال الدكتور ذاكر، بعد إبراز أعمال زملائه البستانيين، قولاً مريراً جعل الناس يعترفون بأخطائهم. إذ صرح الدكتور قائلاً:

الجامعة المللية هي بمثابة عائلة، يتعامل فيها الأساتذة مع الطلاب مثل تعامل أفراد الأسرة مع أحببتهم. وفي السنة الماضية، أصيبت هذه الأسرة بأزمة، وتوفي ولي أمر هذه الأسرة أي غاب عنا الحكيم أجمل خان، وقد تقدرود مدى الصدمة والحزن الذي أصابنا بوفاته، نحن في خضم مشاكل كبيرة. كان الحكيم يجده وقتاً بالرغم من انشغاله الشخصي وارتباطاته الوطنية والقومية، ليأتي إلى منطقة قروول باغ من منطقة بلي ماران ويقضي جزءاً من وقته الثمين في التحدث مع الأطفال الصغار في الجامعة.

وكان الحكيم أجمل الوحيد من بين زعمائنا الهنود، والذي كان يحظى بصلات شخصية مع عدد كبير من المواطنين، ولا يحظى بذلك أحدٌ غيره، ولكن رغم هذه العلاقات، لم يبد الشعب أيّ حماس تجاه تخليد ذكراه، وقد حدث تقصير من قبل الذين طلبوا المال كذلك، وصارت مهنة التدريس حقيرة الآن، بقدر ما كانت محترمة. كان تقديم التبرعات إلى المؤسسات التعليمية مصدر نخر واعتزاز ولكن تسوّلنا جعل هذه المهنة ذليلة ومهانة. وقد أمعنا النظر في سلوكنا وعقدنا العزم على المحافظة على هذه الذكرى بغضّ النظر عن المشاق والمتاعب التي قد نعاني منها حتى يتوجه الناس بأنفسهم في هذا الاتجاه. وتم تشكيل جماعة باسم جميعة التعليم الملي لتحقيق هذا الغرض النبيل، ومن شروطه لعاملي الجامعة إذا أرادوا الانضمام إلى عضويتها أنهم لن يستلموا أكثر من مائة وخمسين روبية بأيّ حال من الأحوال. ولا يأخذ أحد من أعضائها أكثر من خمس وسبعين روبية حالياً.

لا يمكن الحصول على الروبيات إلا بطريقتين، الضرائب والتبرعات، وأظنّ أنه علينا أن نجعل أنفسنا أكفاء على أساس أعمالنا، فترسل إلينا التبرعات. ومن الممكن أن نعتبروا كلامي من باب التفاخر والكبر، ولكنني شخص جُبلت على الطبيعة المتواضعة، إلا أنّ الظروف دفعتني إلى هذا التصريح، وآمل أن تصفحوا عني.

ألقي الدكتور ذاكر هذا الخطاب اللاذع من ناحية، ولكنه عندما حان موعد تقديم الشاي عند ختام الجلسة فبدأ يقدم الشاي إلى الناس بالحبة والمودة، ولم لا، فالعتاب لا يكون إلا لأقرب الناس من الأصحاب. وهكذا هي الحياة في هذه الدنيا. والدكتور ذاكر يتحدث حسب المكان والزمان، ما يجعله يؤثر في النفوس والقلوب. وستجدون في مواضع مختلفة من هذا الكتاب، اقتباسات صغيرة من خطابه التي ألقاها في الجلسات والاحتفالات المختلفة للمدرسة مثلاً في حفل التوديع، وحفل رابطة الاتحاد.

قدّم الأساتذة والطلاب مسرحيتين في الليل، وقد سبق ذكرهما في قصة هذه السنة

ضمن المسرحيات الدرامية.

وقبل فترة مضت، تأسس فرع من الجامعة في المدينة تحت إشراف الحافظ فياض أحمد. وتطوّرت هذه المدرسة تحت إشراف السيد فياض حسين الجامعي، مدير مجلة "هونهار". وقدم طلاب هذا الفرع ألبوماً من المعلومات العامة، وقدموا أمام الضيوف، عرضاً لكلمة "مبروك"، كانوا يحملون لافتات، تتحول إلى كلمات التهاني عند ممارسة حركات بدنية مختلفة.

كان عدد من الطلاب الأبيين يحصل على المنح الدراسية بسبب سوء الحالة المادية، ولكنهم قرّروا بأنهم سيؤدون جزءاً من تكاليف الدراسة عن طريق القيام بأعمال بسيطة. وأقيمت رابطة الكاسبين لتحقيق هذا الغرض. وكان هذا النظام موجوداً في بعض المؤسسات التعليمية في إنجلترا. لأنّ الاعتماد على الآخرين في سبيل الحصول على التعليم يجلب نوعاً من القلق وعدم الاطمئنان. أما إذا تعود المرء على الكسب فتزداد رغبته في ذلك مثل الأمور الأخرى.

كان الزعيم غاندي قد أرسل حفيده "رسيك لال" إلى الجامعة لتلقي التعليم، وعندما توفي جاء غاندي إلى الجامعة، وقال عندما شاهد الطلاب: "يكفي وجود هؤلاء الأطفال لتخفيف حزني".

"وكان غاندي يتحدث عن الجامعة كلما زار دلهي، ويؤكد أنه يجب أن تكون الجامعة نموذجاً حقيقياً لحياة المسلمين، وإذا احتاج شخص غير مسلم إلى المعلومات الصائبة عن الإسلام فلا بد أن يجدها كلها في الجامعة".

ذات مرة، مكث الشيخ سيد سليمان الندوي في الجامعة لمدة أسبوع، وألقى ثلاثة خطابات عن حقيقة الدين في رابطة الاتحاد. وألقى خطابات منفصلة أمام الطلاب والأساتذة لغرض توطيد العلاقات بين الجامعة والندوة.

وقد ترك الخطاب الذي ألقاه الدكتور ذاكر حسين بمناسبة التأسيس، أثراً كبيراً،

وبدأت المطالبات من قبل الولايات المختلفة، بإرسال الوفود إليها لجمع التبرعات، حيث قام كل من مولانا أبو الكلام آزاد، والدكتور أنصاري، ومولانا محمد علي، والدكتور ذاكر، وأساتذة الجامعة بزيارات إلى عدد من الولايات. وقد تجمعت مبالغ كبيرة في مدينة مدراس بسبب اهتمام السيد سبت جمال محمد والذي كان يدير على حسابه، مدرسة لترويج التعليم الديني لدى المسلمين في تلك الولاية. ومع ذلك فقد أولى الجامعة عناية خاصة، وليست الجامعة فقط، إنما مدّ يد العون مسروراً لكل من طلب التبرعات لرفاهية المسلمين.

وتطرق شيخ الجامعة في خطابه إلى جمعية التعليم الملى، وأرى من المناسب أن أذكر خلفية تأسيس هذه الجمعية وضرورة إنشائها. كانت الجامعة مديونة عند وفاة الحكيم أجمل خان، لو كان الحكيم خان حياً لكان قد دبر الأمور لتسديدها بطريقة ما، وكان العاملون في الجامعة مترددين فيما يفعلونه في هذا الصدد، وكانت الحيرة ماذا سيحدث الآن، فتولّى الدكتور الأنصاري مهام إدارة الجامعة، ولم يتحقق النجاح في جمع الأموال لصندوق الحكيم أجمل خان التذكاري، كما سبق ذكره في الجلسة الماضية..... وكانت هناك حاجة إلى 55 ألف روبية، وكانت القضية كيف يتم توفير هذا المبلغ. وقد كتب الدكتور ذاكر حسين خان رسالة إلى أمير الجامعة الدكتور الأنصاري عن الظروف المالية كلها لهذه الجامعة في 9 يوليو 1928م، وأبلغه بأنه نظراً إلى خطورة القضية وأهميتها، يتطلب الأمر إلى إيجاد حل لهذه القضية بأسرع ما يمكن. ولا يوجد لها إلا حلّين، أولهما أن يوفر أمناء الجامعة بمجهودهم، المبالغ المطلوبة للجامعة، وإذا لم يقدروا على ذلك، فعليهم أن يغلقوا الجامعة وأن يتخلوا عن مهامهم من ناحيتهم. ولكن قبل إغلاقها، عليهم أن يمنحوا الشعب فرصة ليتقدم إلى الأمم، فإن وجد الشعب أنّ هذه القضية نافعة ومفيدة فيمكن أن تتولى جماعة منهم مهام إدراتها، وهناك بعض أساتذة الجامعة، والذين نذروا حياتهم لترويج التعليم الوطني، وقد يجدون بعض الأشخاص من الأثرياء وأصحاب النفوذ في البلاد، الذين

لا يتعاطفون فحسب بل إنهم يكونون مستعدين لتقديم الإسهامات العملية أيضاً في إكمال المهام. ومن المناسب أن يسلم أمناء الجامعة هذه المهام والمسؤوليات إليهم ليقوموا بها حسب استطاعتهم ورغباتهم.

وأرسل المغفور له الدكتور الأنصاري رسالة الدكتور ذاكر حسين، وأحوال الجامعة بالتفصيل، إلى أمناء الجامعة، وأوضح في رسالته بأنني أعتقد أننا لا نستطيع جمع 55 ألف روية لتسديد القروض السابقة ومصارف السنة القادمة. وإن صحّ ظني هذا، فلماذا لانعلن بوضوح، عن عجزنا في إدارة الجامعة. قد يكون إعلاننا هذا مسيئاً نوعاً ما ولكنه مستند إلى الأمانة. وإذا لم نتخذ هذه الخطوة الآن فأخشى أننا سنضطر بعد فترة، إلى اتخاذ نفس الخطوة. وكل من يعتبر الجامعة حركة قومية هامة، ومن له رابطة قلبية بهذا العمل النافع، لن يجب الإعلان بأن الجامعة قد أغلقت. وهذه هي عاطفتي أيضاً. وأنا لا أريد أن أتخيل ذلك الوقت الذي لا تكون فيه الجامعة موجودة. ولكني على ثقة بأنه إذا تخيلنا عنها فليس من الضروري أن تنتهي الجامعة. بل إن هذه الخطوة قد تكون سبباً في منح حياة جديدة لمؤسستنا الغالية. وقد تحدثت مع الدكتور ذاكر حسين عن هذا بقدر من التفصيل، بأننا إذا تخيلنا عن الجامعة فما الحل؟ والخطط والاقتراحات التي قدمها أماننا، تقدّم مثلاً يبعث على العزم والثبات، ويستحق كل الشناء والتقدير. إنه يفكر في تشكيل جماعة باسم جمعية التعليم المالي، لا ينضم إليها من أصدقائه إلا من يتعهد بالعمل على ترويج التعليم الوطني بأي حال من الأحوال. ويتعين على هذه الجماعة أن تغلق على نفسها أبواب الحصول على الثروة، ولتقم بأعمال ترويج التعليم الوطني مقابل الراتب الذي يكفيهم لقوت يومهم. ويتعهدون بالألا يستلموا مبلغاً أكثر من المحدد، حتى أنهم يفكرون في خدمة الجامعة بدون أي تعويض إذا لم تتوفر لدى الجامعة موارد كافية للعام القادم، حتى لا يزداد عبء الديون على الجامعة. وإنني على ثقة كاملة بأنهم سيجدون عدداً كبيراً من الأصدقاء والأنصار لصالح الجامعة بسبب إخلاصهم وعزيمتهم. لذا نستطيع أن نسلم

مستقبل الجامعة إلى أيديهم دون قلق". كما أوضح الدكتور الأنصاري في ذلك الخطاب أنه قد قرّر عقد اجتماع استثنائي لأمناء الجامعة في 25 يوليو 1928م. ويرجى من الأمناء النظر في الأمور كلها بشكل جيد، وأن يشاركوا في الاجتماع لدعم القرار من خلال تقديم آرائهم. وفي حال عدم المشاركة في الاجتماع، يرجى منهم إرسال آرائهم قبل انعقاد الاجتماع".

وأرسل الدكتور الأنصاري هذه الرسائل إلى كبار الشخصيات، ومن ناحية أخرى، كتب الدكتور ذاكر حسين رسالة إلى زملائه الذين كانوا قد ذهبوا إلى بلداتهم لقضاء العطلة، ليطلعهم على هذه الأحوال كلها، موضحاً بأنّ الديون قد تراكت على الجامعة، ولا توجد لديها موارد مالية. وثمة خشية بأن تغلق أبوابها. فهل تريدون المحافظة على هذه الحركة أو جزء منها؟. ولا يمكن مواصلة الحركة إلا إذا كنتم مستعدين لمواجهة كل أنواع المصائب والمشاكل. وتم إرسال هذه الخطابات إلى العاملين في الجامعة وكبار الشخصيات في نفس الفترة. ولم يرد عليها معظم أمناء الجامعة، ومن ردّ منهم قال: "يبدو أنه لا يمكن أن تسير الأمور بهذه الطريقة، ولا نستطيع فعل شيء، فأغلقوها". بينما كتب الشباب الذين كانوا يعملون في الجامعة، أننا سنواصل العمل، ونحن مستعدون مع كافة الشروط، أن ننضم كأعضاء إلى الجامعة التي ستدير أمور الجامعة. وفي النهاية انعقد اجتماع أمناء الجامعة. تقرر فيه تسليم الجامعة إلى العاملين فيها.

وقام الشباب العاملون في الجامعة، بتشكيل رابطة باسم جمعية التعليم الملي، وتعهدوا بأن يخدموا الجامعة لمدة عشرين عاماً على الأقل، وأن لا يتقاضوا مرتباً شهرياً يزيد عن 150 روبية، وفيما يلي أسماء الذين وقعوا، في المرة الأولى، على وثيقة التعهد للعضوية:

1. الدكتور ذاكر حسين خان، 2. البروفيسور محمد مجيب، 3. الشيخ أسلم الجيراجبوري، 4. الشيخ خواجه عبد الحي، 5. الحافظ فياض أحمد، 6. إرشاد

الحق، 7. المعلم بركت علي، 8. سعد الدين أنصاري، 9. سعيد أنصاري، 10. شفيق الرحمن قدوائي، 11. حامد علي خان.

إضافة إلى الذين وقّعوا على هذه الوثيقة، قام الأساتذة الآخرون أيضاً، بتخفيض مرتباتهم لتتخفف نفقات الجامعة، ولكي يمكن تجنب صعوبات الشؤون المالية للجامعة، قد بارك الله في أعمال هؤلاء الشباب. وكانت أمامهم مشاكل وقضوا أيامهم بعسر وصعوبة. ولكن الأوضاع تغيرت تدريجياً، وتقدّم الناس بمعوناتهم المالية والمعنوية. ووصلت إلى الجامعة مبالغ باهظة من قبل حكام البلاد وأصحاب الخير بدون شروط. ولكنها اعتمدت بشكل رئيسي، في هذا الاتجاه، على المبالغ الصغيرة التي كانت تأتي من قبل المتعاطفين مع الجامعة.

وفيما يلي تفاصيل الجلسات التي عقدت لوضع الضوابط الخاصة بإنشاء جمعية التعليم المالي: انعقدت جلسة استثنائية لأمناء الجامعة في سكن مدير الجامعة الدكتور الأنصاري. وكان معظم الأمناء قد أرسلوا اقتراحاتهم وآراءهم ككتابة في دعم الاقتراح المقدم من قبل شيخ الجامعة. وأطلعوه على التخلي عن الجامعة. وقد وافق من حضر الجلسة، بعد تفكير ومناقشة على الاقتراح الذي نص على تسليم الجامعة إلى مجلس التعليم المالي، لينضم إلى المجلس جميع الأساتذة الذين يتعهدون بخدمة الجامعة لفترة زمنية طويلة مقابل مبلغ أقل من راتب معين، وكذلك كل من يتعهد من الأمناء الحاليين بتقديم مبلغ قدره 600 روبية سنوياً على الأقل، أو بالمساعدة في جمع هذا المبلغ عن طريق التبرعات. وأطلع مدير الجامعة جميع الأساتذة والأمناء على هذا القرار، وبعد تسلم تعهدات الراغبين في الانضمام إلى هذه الجمعية بموجب الشروط، عقد المدير جلسة لوضع الضوابط والشروط لهذه الجمعية، وفيما يلي تفاصيلها:

عقدت جمعية التعليم المالي بدلهي جلسة في 30 سبتمبر 1928م، في مكتب الجامعة الملوية، شارك فيها كل من المولوي محمد أسلم، والخواجه عبد الحي، والحافظ فياض

أحمد، والمعلم بركت علي، والمولوي سعد أنصاري، وسعيد أنصاري، وشفيق الرحمن، وإرشاد الحق، والدكتور ذاكر حسين.

وتم انتخاب المولوي أسلم رئيساً للجلسة باقتراح الدكتور ذاكر حسين وبدعم من الحافظ فياض أحمد، حيث وافقت الجلسة على الدستور الأساسي لجمعية التعليم الملي، والذي يشتمل على 10 بنود. وفيما يلي بعض الأمور الخاصة بتلك البنود:

1. سيكون اسم هذه الجمعية جمعية التعليم الملي بدلهي. سيتمثل غرضها الرئيس في ترويج التعليم الصحيح في البلاد ولاسيما في المجتمع المسلم على أساس المبادئ الوطنية والمالية. ستلتزم الجمعية دوماً بالمبادئ التالين لأجل تحقيق هذا الغرض:

1. لا تكون للجمعية أيّ علاقة بالحكومة الهندية الحالية حتى تحقق الهند استقلالها، ولن تطلب ولن تقبل الجمعية أي دعم وتبرع ولا أي نوع من المعونة من قبل الحكومة.

2. نتعامل الجمعية مع جميع أديان العالم معاملة التسامح.

ستعمل الجمعية لتحقيق أغراضها، وتحافظ على بقاء وتطوير الجامعة المليية الإسلامية، دلهي.

3. ستشمل هذه الجمعية على نوعين من الأعضاء. (1) العضو الدائم (2) العضو المساعد.

4. يكون العضو الدائم من يوافق على التعهد المذكور أدناه.

أنا..... ابن..... أتعهد بأنني لمدة عشرين سنة، مادمت حياً (أي الفترة التي ستكون الأقل منهما) سأخدم جمعية التعليم الملي، ولن استلم مبلغاً يزيد عن 150 روبية شهرياً كترتب شهري مقابل خدمتي. وسأكون متقيداً بأغراض الجمعية

وبدستورها دائماً. كما سأكون ملتزماً بكافة الضوابط والقواعد التي سيتم وضعها بموجب الدستور من حين لآخر.

التوقيع

تمت الانتخابات التالية بالإجماع:

رئيس الجمعية: الدكتور مختار أحمد الأنصاري

وكيل الجمعية: الدكتور ذاكر حسين

أمين الجمعية: سبت جمنا لال بجاج

أربعة أعضاء للمجلس الإداري: (1) الشيخ أسلم (2) خواجه عبد الحي (3) محمد مجيب (4) شفيق الرحمن القدواي.

وهكذا تبدأ المرحلة الثالثة من تطور الجامعة.

الهند وثقافتها في كتابات جبرا إبراهيم جبرا:

"تأملات في بنیان مرمری" نموذجاً

- د. عظمت الله¹

ملخص المقال

يتناول هذا المقال أبرز ما كتبه الأديب الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا عن الهند وثقافتها والمعالم الأثرية الكائنة على أرض الهند كما يلقي الضوء الخاص على الانطباعات التي أبداهها الأديب جبرا في كتاباته، تجاه المعالم الأثرية وميزات العمارة التي تطوّرت في عصر الملوك المغول في الهند. وذلك من خلال سرد اقتباسات كتاب الأديب: "تأملات في بنیان مرمری" على وجه الخصوص. ألّف الأديب هذا الكتاب بعد أن زار الهند في كبر سنه، وشاهد بأمّ عينيه، الهند وما تمتاز به علماً وثقافةً وحضارةً وعمراً، فاندھش الأديب اندھاشاً شغلت الهند مكاناً مرموقاً في كتابات هذا الأديب العملاق.

ويتحدث المقال أيضاً عن الحياة العلمية لهذا الأديب بإيجاز، لتتعرف على مكانته في مجال العلم والأدب بجانب الاطلاع على ما كتبه هذا الأديب الموهوب عن وطننا الحبيب وثقافتنا الغالية.

المدخل: تمتاز الهند عن دول العالم، باحتضانها ثقافات متنوعة ومعالم أثرية نادرة وتراث علي غني منذ قديم الزمن، بما أسبغ الله تبارك وتعالى عليها من توافر مناهل العلم والثقافة. كما يقول الشاعر العربي خليل جبران:

¹ أستاذ ضيف، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليّة الإسلاميّة، نيودلهي

ما الهند إلا روضة كانت لأرقى الخلق مهدا
وطن الرؤى أبد الأبد ومعهد الأنوار عهدا
وبفضل هذه النعم، اكتسبت الهند مكانة مرموقة في كتابات الأدباء والكتّاب،
وظلت الهند دوماً، وجهة مفضلة لدى سياح العالم، بحيث إنهم يشتاقون دائماً إلى
زيارتها فرادى وجماعات. مما دفعهم إلى تسجيل ذكرياتهم وانطباعاتهم مما استرعى
انتباههم من الحضارة والثقافة ومناظر المدن والأنهار، وما شاهدوه من الآثار والمباني
والمعالم الأثرية على أرض الهند. ومن أشهر المعالم الأثرية في الهند التاج محل، ضريح
قرينة الملك المغولي شاه جهان، والذي بناه تذكراً لقرينته المرحومة ممتاز محل. ونال
هذا المبنى إعجاباً وتقديراً بالغين من قبل السياح والزوّار عبر العالم. حتى خط يراع
عدد لا بأس به من الكتّاب والأدباء مقالات ومذكرات لا تنسى ولا تقدر بثمن، عن
الهند وثقافتها، وتتضمن قائمة هؤلاء الكتّاب، الأديب الفلسطيني جبرا إبراهيم جبرا
الذي يعدّ من أبرز أعلام الأدب العربي الحديث، وهو كاتب غريز الإنتاج، وأديب
متعدد المواهب، ذاع صيته في مصاف كبار المثقفين العرب، ويحلوننا التعرف على
إنجازاته الفريدة وحياته الحافلة بالعبء والإبداع.

ترجمة موجزة للأديب جبرا

ولد الأديب جبرا إبراهيم جبرا في عام 1920م في مدينة بيت لحم بفلسطين في أسرة
مسيحية فقيرة، وتلقى التعليم الابتدائي في موطنه، ثم سافر إلى بريطانيا لنيل التعليم
العالي. وبعد إكمال التعليم، عاد جبرا إلى فلسطين وعاش فيها. ولكن بعد النكبة
الفلسطينية في عام 1948م توجه إلى بغداد لكسب الرزق، واستقر هناك حتى توفي
بها في عام 1994م¹ عن عمر يناهز 74 سنة.

1 مجلة النجم: <https://alnigm.com/%D9%88%D9%81%D8%A7%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%A7%D8%AF%D9%8A%D8%A8->

وترك هذا الأديب العملاق خلفه إرثاً أدبياً هائلاً، إذ يربو عدد مؤلفاته على 60 إنتاجاً أدبياً بما فيها الرواية والقصة والشعر والنقد والمقالات والأعمال المترجمة، لذا تعتبر شخصية جبرا من أكثر الأدباء العرب إنتاجاً وتنوعاً.

وقد بدأ الأديب جبرا حياته الأدبية بكتابة القصة القصيرة التي نشرت في مجلة الهلال والأمالي، حتى أصبح من أبرز وأشهر الروائيين في الأدب العربي، كما قدّم إسهامات قيمة في مجالات الأدب المختلفة، بما فيها الرواية والقصة والشعر والنقد والترجمة، إذ ترجم جبرا أبرز الكُتاب الغربيين للقراء العرب من أهمها ترجمة رواية "الصخب والعنف" لوليم فوكنر التي نال عليها فوكنر جائزة نوبل.

تزوج جبرا في 1952م بلبيعة برقي العسكري التي تعرف عليها في 1951م وهي انت فتاة عراقية كردية مثقفة،¹ فرزق بولدين وهما سدير وياسر. والجدير بالذكر أنّ جبرا قد أسلم على يد القاضي عبد الحميد الأتروشي قبل بضعة أيام من زواجه. لذا عند وفاته، تمت مراسم التشييع والتدفين على الطريقة الإسلامية.²

زيارة جبرا إبراهيم جبرا للهند وانطباعاته عن ثقافتها

زار هذا الأديب عدداً من البلدان الغربية مثل لندن وأمريكا ثم إيطاليا وروسيا وغير ذلك، حيث كان يفضل السفر إلى دول الغرب وليس إلى البلدان الآسيوية مثل الهند والصين وما إلى ذلك.

ولكن عندما زار الأديب جبرا جمهورية الهند في كبر سنه، وشاهد بأعينيته الهند

%D8%A7%D9%84%D9%81%D9%84%D8%B3%D8%B7%D9%8A%D9%86%D9%8A-%D8%AC%D8%A8%D8%B1%D8%A7-%D8%A7%D8%A8%D8%B1%D8%A7%D9%87%D9%8A%D9%85-%D8%AC%D8%A8

2 عمر رضا، جبرا إبراهيم جبرا وإسهامه في الرواية العربية، رسالة الدكتوراه المقدمة إلى قسم اللغة العربية آدابها في الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، عام 2018م، ص 73.

² <https://www.nedalshabi.ps/?p=60675> .

وما تمتاز به هذه البلاد علماً وثقافةً وحضارةً وعمراً في تاريخ الحضارات والثقافات العالمية، وبما تحظى به من ثقافات قديمة ومتنوعة ولغات عديدة. فاندھش هذا الأديب اندھاشاً حتى شغلت الهند مكاناً مرموقاً في كتابات هذا الأديب العملاق.

لذا، قرّرت أن أحاول نقل كل ما كتبه الأديب الفلسطيني جبرا عن الهند وثقافتها وتقاليدها وكذلك انطباعات هذا الأديب العملاق تجاه الهند ومدنها الشهيرة مثل آگره ومومباي، ولاسيما عن ملوك المغول، وكذلك أهم المباني والقلاع التي شيدها المغول على أرض الهند، فيما خص جبرا إبراهيم كتاباً له باسم "تأملات في بنيان مرعي"، كعنوان الكتاب، وذلك باب ضمن أبواب الكتاب المذكور، ويضم هذا الباب 20 صفحة، تناول الأديب فيه، تاريخ الأبراطورية المغولية وما قام به الملوك المغول من بناء المباني والعمارات الشائخة والمساجد والضرائح على أرض الهند. حيث إنه أشار ضمن تاريخ مدينة آگره، إلى بعض الملوك الهندوكيين أيضاً.

وفي البداية، يعرب الأديب عن إعجابه واندھاشه بفن العمارة والهندسة التي تحتضنها الهند في طولها وعرضها، معترفاً بأنه كان مغرماً بالأسفار إلى بلدان الغرب مثل باريس وغير ذلك، ولكن عندما زار جبرا جمهورية الهند وشاهد بأمر عينيه، فن العمارة والتصميم المعماري والهندسة المعمارية التي تم تشييدها على أيدي الملوك المغول بسبب شغفهم ببناء المباني الشائخة، ذكر الكاتب بعد رؤية هذه المعجزات المعمارية، قول الغربيين الذين يكتبون في سرد قصص الهند عن سحر الشرق، ويكتب الأديب ما يلي:

"قبل أيام عدت من سفرة إلى باكستان والهند: ثلاثة أسابيع من حركة مستمرة شاهدت فيها إسلام آباد، ولاهور، ثم نيودلهي وجايپور وخاجوراهو، وآكرا وبومباي... وأنا المعتاد على الأسفار دوماً باتجاه أقطار الغرب، وما شاهدته في شبه القارة الهندية من عمارة وفن أفهمني للمرة الأولى ما معنى أن يتحدث الغربيون عن

سحر الشرق.... حتى أنني شعرت بأن الهنود ربما كانوا، في يوم ما، أعظم النحاتين، وأعظم المعمارين، في التاريخ الإنساني".¹

تدلّ كتابات جبرا على أنه معجب بمبنى التاج محل، بما يحمل هذا المبنى في طيه، رموز العشق والحب والجمال حتى أصبحت أحزان العشق مهرجاناً والموت مناسبةً تذكاريةً، فيقول:

"هذا الضريح تراه لأول مرة، كما رأيته، على الناحية البعيدة منك، من خلال بوابة كبيرة من الحجر الأحمر، فتحسب أنك فوجئت بوهم مستحيل: إنه طيب أبيض يكاد لا يستقر على الأرض بين خضرة حدائقه المسترسلة، التي تتخللها أسواق جارية كأنها أنهار الجنة، ورخام ناصع نحتته يد ساحرة ليبدو تجسيدا لجمال لا يوجد إلا في خيال محموم.....وتحس في صدرك ذلك الشد الرائع بين السماء والأرض.. فلا تستطيع الجزم هل أنت سماوي وجد مستقره في عالم الفضاء أم أرضي ينطلق نحو خلود ما".²

"هذا المبنى العجيب: الذي لا ينال من وقعه في النفس كونك تراه مع آلاف من الناس، فهم يزورونه كل يوم حشوداً، كأن أحزان العشق هي مهرجان، وكأن زيارة الحبيبة في ضريحها بعض من وقد الحب، وكأن الموت من خلال البنيان المرمرى إنما يهب الحث طاقة تمنع عنه الموت".³

وقد أشار الأديب في هذا المؤلف، إلى النقاط البازة التي يتضمنها هذا المبنى الرخامي، منوهاً بأن التاج محل بُني باستخدام الأحجار الكريمة والياقوت والعقيق التي اشتهرت بها الهند، حيث يسرد الكاتب أيضاً بأنه يطلق فيه صيحة خافتة: الله أكبر، ويروي صوت الكلمتين داخل أعلى القبة لأكثر من عشرين ثانية. ويتذكر الأديب أن

¹ تأملات في بيان مرمرى، ص 95

نفس المصدر، ص 96²

نفس المصدر، ص 97³

هذا المبني يعكس بداخله وخارجه الحضارة العربية الإسلامية بحد ما:

"وقد عاد بي هذا المثلن إلى إحدى الأفكار الأساسية في الرؤية الإبداعية العربية، التي كانت ولا ريب فاعلة في تخطيط تاج محل..... وفيما بينها، الدور الأول لتحفيزه نحو الإدراك والتركيب والإبداع - بدءاً بمكعب الكعبة في مكة المكرمة، واستمراراً بمثلن مبني "قبة الصخرة" في بيت المقدس، وهكذا مروراً بكل ما أنتجت الحضارة العربية الإسلامية، من عمارة وزخرفة وشعر وموسيقى"¹.

"وواقع الأمر أنّ ثمة صلة مهمة بين تاج محل وبين بغداد العربية، تتخطى المثلن الذي شيد عليه. فقد تبين من الوثائق المعاصرة لبنائه، رغم ما قيل عن أثر المهندسين العجم في عملية التخطيط، أنّ أحد المعماريين المهمين الذين ساهموا في التخطيط والبناء، كان عربياً من العراق، يدعى واجد البغدادي"².

زد على ذلك، أنّ الكاتب يشير في ذكر الحداثق وتصميم دوران المياه في مثل هذه المباني بما فيها التاج محل، كأنها جنات تجري من تحتها الأنهار، حتى أورد هذا الأديب في هذا الخصوص، اقتباساً لمؤرخ في وصف حداثق قلعة دلهي:

"وكان للحداثق والمياه دورها الأساسي في التصميم والتنفيذ لها، كما في كل ما بناه هؤلاء الأباطرة. فهي أولاً مستوحاة من حداثق الجنة وأنهاها وكما وصفها القرآن الكريم، وكان العرب من قبلهم قد استوحوها... تلك القمة المتميزة التي نعرفها في قصر الحمراء و"جنة العريف" في غرناطة، بالأندلس وهناك نقش في إحدى حداثق قلعة دلهي، مؤرخ في عام 1648، ومنسوب إلى شاه جهان، يقول:

"الحداثق لهذه المباني هي كما الروح للجسد، وكما المصباح للمجتمعين. أما السواقى الصافية، وفاؤها الرقاق ولكل من يرى بعينه المرآة التي تعكس صورة الدنيا، ولكل

¹ نفس المصدر، ص 101

نفس المصدر، ص 102²

حكيم عاقل هو الكاشف عن الخفي من الدين¹.

ومن جهة أخرى، تطرق الكاتب إلى سرد جانب أخروي، عندما يكتب أنّ الزوار قد يهرون بما يرون من آيات من القرآن الكريم، مكتوبة على بنیان هذه العمارة التي حاول فيها المهندسون جلب رموز الإسلام ولم يهتموا بقدسية المسجد أو المصلی:

ويكتب في هذا الشأن: "ولئن يهر الزوار بمجموعهم بما يرون من هذه الكتابة مدركين، أنها آيات من القرآن الكريم دون أن يستطيعوا قراءة لها.. وهو النص الذي اختاره الأمبراطور شاه جهان ليكلل به بنيانه، ويبارك به جثمان زوجته الحبيبة:

[كلا، إذا دكت الأرض دكًا دكًا، وجاء ربك والملك صفاً صفاً، وحيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان، وأنى له الذكرى، يقول ياليتني قدّمت لحياتي، فيومئذ لا يعذب عذابه أحد، ولا يؤثّق وثاقه أحد، يا أيها النفس المطمئنة، ارجعي إلى ربك راضية مرضية، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي]"²

وفي نفس السياق، يكتب الكاتب في مكان آخر:

"ولا ريب في أنه، يوم اختار من سورة الفجر، تلك الآيات الكريمة التي تنذر المرء بآخرته: وحيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى، يقول ياليتني قدمت لحياتي.. كان قد تأمل طويلاً في الآيات التي سبقها: "ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد"³، آخر الآيات الكريمة، ولا بد أنه توقف طويلاً عند قوله تعالى: (فصبّ عليهم ربك سوط عذاب، إن ربك لبر المرصاد"⁴).

كما يحس الكاتب خلفية العائلة المغولية التي اهتم معظم ملوكها بنقش أو كتابة بعض

¹ نفس المصدر، ص 107

² سورة الفجر: 21-30، ذكرها المؤلف في كتابه: تأملات في بنيان مرمری، ص 98-99.

³ سورة الفجر: 6-8.

⁴ سورة الفجر: 14

⁵ تأملات في بنيان مرمری، ص 112

الآيات القرآنية على أبواب المباني والعمارات الشاخنة التي بنوها في عصورهم في طول الهند وعرضها، إذ يكتب:

"ولعل شاه جهان.. تذكر ما كان قام به جده قبل حوالي ستين سنة عما قد نقش في أواخر حياته على الباب العالي، باب النصر، الذي ابتناه في فاتح بور، بعد أن هزم الفوجرات في عام 1602م: وما الدنيا إلا جسر للعبور، فاعبر ولا تبن عليه. من يأمل لساعة من الزمن. فله أن يأمل حتى الأبد، ما الدنيا إلا ساعة واحدة، فاقضيها ضارعاً، وغير ذلك لا تراه العين".¹

وفيه عبرة لأولي الابصار: وبعد مطالعة كتابات هذا الأديب العلاق بدقة، التي تتعلق بالمعالم الأثرية الكائنة على أرض الهند، نجد أنّ الانطباعات التي أدلى بها الكاتب في هذا الشأن، تنطق عن الجوانب المختلفة من حياة الإنسان بما فيها الذوق الإنساني والطابع الديني ثم الطابع الأخرى بجانب الإبداع، إذ يرى الكاتب هذه المعالم ولاسيما التاج محل صورة عاكسة لفن العمارة الإسلامية، بما توجد في المعالم، صور مثل المكعب والقبة وما إلى ذلك. ويمكن القول إنّ الكاتب حاول تصوير عمارة التاج محل على نحو يذكرنا العالم الأخرى وصورة عاكسة من جنة النعيم. وذلك ميزة أسلوب الكاتب التي تميزه عن الأدباء الآخرين.

¹ نفس المصدر، ص 113/112

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. البئر الأولى- فصول من سيرة ذاتية لجبرا إبراهيم جبرا، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2009م.
3. تأملات في بنیان مرمری لجبرا إبراهيم جبرا، رائد رئيس بوكس، لندن، 1989م.
4. شارع الأميرات- فصول من سيرة ذاتية لجبرا إبراهيم جبرا، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، 2007م.
5. القاق وتجميد الحياة لعصام الأعرج، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1995م.
6. مجلة النجم الإلكترونية.

الهند وثقافتها في كتابات علي الطنطاوي

- د. محفوظ الرحمن¹

ملخص المقال

يتناول هذا المقال حياة الأديب الإسلامي الأستاذ علي الطنطاوي وأسرته بالإيجاز وما سجّله من انطباعات ومشاهدات عن الهند وثقافتها في كتابه الشهير "ذكريات" وكتبه الأخرى. زار الأستاذ علي الطنطاوي الهند مرتين في حياته وسافر إلى مدنها المختلفة وشاهد فيها المعالم الأثرية والأشياء الأخرى. فيلقي هذا المقال الضوء على ما كتب علي الطنطاوي عن حكومات المسلمين عبر العصور والأحداث التي وقعت في الهند بعد سيطرة الاستعمار البريطاني على الهند وظلم الإنجليز على المسلمين وجهودهم لاستقلال البلاد وبالإضافة إلى ذلك يتناول هذا المقال وصف المدن والآثار التاريخية والملابس الهندية التي تلبس المرأة الهندية في المجتمعات المختلفة والأشياء الأخرى التي وصفها الأديب في كتابه "ذكريات"، وبعض الشخصيات الهندية البارزة في بعض مؤلفاته.

المدخل: إنّ العلاقات بين الهند والعرب قديمة جداً، فقد عرف العرب الهند قبل ظهور الإسلام من أجل رحلاتهم التجارية، ثم تحوّلت التجارة إلى تبليغ الدين الخفيف، والدعوة إلى الله، ومن ثم إقامة الحكومة فيها، وحتى برزت في شكل الزيارة للآثار التاريخية الموجودة فيها.

ولقد وجدنا كثيراً من الرحّالة والكتّاب العرب الذين زاروا الهند ووصفوها في كتاباتهم من مثل السيرافي وابن بطوطة. وكذا قام العديد من أدباء العرب في العصر الحديث بزيارة بلادنا العزيز وكتبوا عنها، وفي مقدمتهم معالي الشيخ محمد بن ناصر

¹ أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي، الهند

العبودي وسعادة الأستاذ عبد الله بن الحقييل.

ومن بين هؤلاء الزوّار العرب نجد اسماً لامعاً كان جامعاً بين الأدب والدين وصدرت من قلبه كتب ورسائل عديدة وسار بذكره الرّكان في مختلف أنحاء العالم الإسلامي ألا وهو الأستاذ علي الطنطاوي الذي زار كثيراً من البلدان وسجّل مشاهداته في كتابه "ذكريات". ويشتمل هذا الكتاب على ثمانية مجلدات، وهو كموسوعة مترامية للأماكن المختلفة، في الشرق والغرب، جامعاً بمختلف القارات والمدن والقرى، والجوامع والمساجد والجامعات والمدارس، والدور والمنازل والأنهار والبحار والبحيرات، والشوارع والحدائق وغيرها، ولقد تحدّث الأستاذ علي الطنطاوي في ذكرياته هذه عن الأماكن الهندية وبعض مدنها وأبرز شخصياتها. وكذا شرف الأستاذ الطنطاوي شخصياتنا الجليلة بذكر جميل في كتابه التاريخي "رجال من التاريخ". فوّد في هذا المقال الوجيز أن نذكر نتفاً من أخبار حياته كما نقتبس أقواله وانطباعاته وأوصافه للهند وأهاليها وما تميّزت به.

ترجمة موجزة للأستاذ الطنطاوي: ولد الأستاذ علي بن مصطفى الطنطاوي في دمشق (سوريا) سنة 1327هـ/1909م في أسرة علمية أصلها من مدينة طنطا في مصر وهي تميّز بالتمسك بالدين والسنة، ونشأ وترعرع على الصلاح والتقوى، وحصل على العلوم الإسلامية، وبرع فيها، ولاسيما في اللغة العربية وآدابها.¹

وكان جدّه الشيخ محمد بن مصطفى عالماً أزهرياً وخبيراً في الفلك والرياضيات. وقد انتقل بعلمه من مصر إلى ديار الشام في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.² أما أبوه الشيخ مصطفى فكان أميناً للفتوى، ثم رئيساً لمحكمة النقض في دمشق.

عاش الطنطاوي حياة حافلة مديدة زادت على تسعين عاماً، ومارس مهناً متعددة

¹ مجلة الأدب الإسلامي، 34/9، ص 132.

² نفس المصدر، ص 132

منها التجارة والتعليم وإمامة المسجد والصحافة والقضاء ثم انتهى إلى التدريس الجامعي.¹ وترك لنا أكثر من أربعين كتاباً حول الموضوعات المختلفة.

كتابات الأستاذ الطنطاوي عن الهند وحكم المسلمين فيها: كتب الأستاذ علي الطنطاوي عن سكان الهند وتاريخ حكومات المسلمين فيها والهجوم عليها عبر التاريخ من قبل الملوك فيقول عن الهند: "هذه القارة التي يعيش فيها خمس سكان الأرض والتي تحوي من الأديان واللغات ضعف ما في أوروبا وأمريكا، وقارة الهند بلد الماضي البعيد الحافل بالأحداث، وبلد الحضارات والمجد التالد، بلد العجائب والغرائب ... لقد فتحنا ثلاث مرات: مرة على يد القائد العربي الشاب محمد بن القاسم، ومرة على يد الملك الافغاني السلطان محمود الغزنوي، والثالثة على يد الفاتح المغول المسلم بابر حفيد تيمور لنك".²

مما لا شك فيه أن الأستاذ علي الطنطاوي كاتب إسلامي يعتبر الهند أندلساً كبرى بعد انتهاء دور حكومات المسلمين منها ويتحدث في أسلوبه القصصي أن كيف يقضي مسلمو الهند حياتهم في هذا البلد، ويشعرون بالقلق واليأس والحزن بعد مشاهدة الآثار التاريخية التي بناها ملوكهم في العصور المختلفة في مدينة دلهي والمناطق الأخرى للبلاد فيقول: "إن الراية الإسلامية انطوت بعد ما ظلّت الهند أكثر من ثماني مائة سنة، إن للإسلام في الهند أندلساً كبرى يقف المسلم في آثارها، في دلهي ولكنؤ وعلغراه ... وعلى المساجد التي لم يعد يسيطر عليها أهلها، على القلاع التي خلت من جنودها، على العروش التي غاب عنها أصحابها، على الآثار الإسلامية الضخمة، على مسجد قبة الإسلام (الذي يدعونه مسجد قوة الإسلام)، على منارة قطب، على القلعة الحمراء، على المسجد الجامع ... وكل ذلك في دلهي، على تاج محل القريبة من دلهي، يقف

¹ نفس المصدر، ص 132

² ذكريات، 5/202

السير سيد أحمد خان وجامعة عليكره ومحاولة السير سيد أحمد خان لتعليم المسلمين، وكذا تحدّث عن تأسيس حزب المؤتمر، وحزب الرابطة المسلمة.¹

وكتب الأستاذ الطنطاوي عن الأحداث وظهور الخلاف بين المسلمين والهندوس في الهند وخاصة في منطقة بنغال التي انقسمت في شرق بنغال (أي منطقة بنجلاديش اليوم) وغرب بنغال (أي ولاية بنغال في الهند اليوم) فيقول:

"وتوالى الأحداث، واتسعت شقة الخلاف بين المسلمين الذين تنبوا قليلاً وبين الهندوس، وعاد إليهم الثقة بأنفسهم وجاءت سنة 1905 ميلادية، وظهر الخلاف على أشده في البنغال التي يعمر شرقها (أي منطقة بنجلاديش اليوم) المسلمون، ويسكن غربها الهندوس، واستجاب الإنجليز للواقع فقسموها إدارياً بين الطرفين".²

وكذا تناول الكاتب تاريخ الخلافة في الهند بالإيجاز التي قامت بدور كبير في استقلال البلاد من الاستعمار البريطاني، وذكر تاريخاً موجزاً لتقسيم البلاد.³

وصف الأماكن والمدن الهندية في كتابات علي الطنطاوي: زار علي الطنطاوي أربع مدن للهند في عام 1954م وهي ممبئي وكولكاتا ودلهي ولكناؤ. وكتب عن بعضها في كتابه وحينما نقرأ نجد أنّ الكاتب يبين تاريخ المدن وجغرافيتها ويبدو أننا نشاهدها أمام عيوننا. لما جاء الطنطاوي مدينة دلهي طاف المدينة كلها وشاهد الآثار التاريخية، ثم كتب عن مدينة دلهي تحت عنوان "دلهي: الفردوس الإسلامي المفقود". فيذكر تاريخها ورجالها وعلمائها وشوارعها والملوك المسلمين الذين تركوا آثاراً تاريخية فيها بأسلوب قصصي بديع: "إنها دلهي كما كتبت لا دلهي كما يقول الناس، ولقد زرتها وبقيت فيها أمداً، وجلت في شوارعها وحارتها، ولقيت من رجالها

¹ نفس المصدر، 207/5

² نفس المصدر، ص 207-208

³ نفس المصدر، ص 209

وعلمائها، وقرأت الكثير عنها... إنها المدينة التي لبثت ثماني مئة سنة وهي دارة السلام، وسدة الملوك المسلمين الذين ملؤوا الهند مصانع وآثاراً، وأترعوها مساجد ومدارس وقبائباً، والتي أقاموا فيها صرخ مجد أرسوه على جذور الصخر، وساموا به شم الذرى، وباروا به الزمان في طريق الخلود. المدينة العظيمة التي عاش فيها أبنا لنا حاكمين، ثم ثووا ثراها خالدين".¹

وكذا نجده يقارن بين نيودلهي ودلهي القديمة وما يوجد فيهما من الآثار والأماكن والأشياء الأخرى فيقول: "دلهي التي تجمع الزمان من طرفيه والأرض من جانبيها: ففيها القديم والحديث، فيها الشرق والغرب جميعاً، فهي من هنا المدينة الأسوية التي تحتجب وراء الأسوار العالية وتواري خلال الأزقة الضيقة. وهي من هناك المدينة الأوروبية السافرة المتبرعة. ففي دلهي القديمة سحر الشوق وروحانيته، وفي دلهي الجديدة روعة الغرب وحضارته".²

ومما لا شك فيه أنّ التاريخ عند الأستاذ الطنطاوي هو أكثر موادّ ارتباطاً بالمكان في بضع صفحات، ففي حديثه عن تاج محل يشير إلى عهد الإمبرطور شاهجهان الذي قام بتأسيس كثير من الآثار التاريخية والمساجد فيقول:

"ولئن عرف التاريخ رجالاً ملك الحبّ قلوبهم، بل منهم من ذهب بعقولهم، وعرف عباقرة من الشعراء العشاق خلدوا عواطفهم بقصائد بقيت وستبقى على طول الزمان، فإنّ حبّ شاهجهان لزوجته ممتاز محل قد خلّده بقصيدة من الرخام كلماتها من المرمر، طوع له الحجر اليابس حتى لان في يده فكان قصيدة ناطقة، تنافس بجمالها خوالد القصائد في آداب الأمم".³

¹ نفس المصدر، ص 213

² نفس المصدر، ص 213-214

³ نفس المصدر، ص 214

وكما وصف الطنطاوي المسجد الجامع لدلهي وروعته وجماله ودرجه وسوره العاليه وأبوابه وصحنه الكبير وشبهه الكاتب بصحن الجامع الأموي في الشام.¹

وحينما نقرأ كتبه نجد فيها التاريخ والجغرافيا والمعلومات المفيدة عن الأماكن والدور والشخصيات الذين قاموا بدور مرموق في إنشاء المباني التاريخية وتطور بلادهم.

ويتخذ الأستاذ الطنطاوي بعض الأماكن منطلقاً للنقد الاجتماعي. فيتحدث، مثلاً، عن مدينة دلهي وجمالها وآثارها التاريخية ويكي على الأشياء التي ترك الملوك المسلمون فيها هو يمر ذات يوم بمعد حيث كان الناس يجتمعون للعبادة وللقيام بطقوسهم الدينية فكتب: "وسمعت مرة أجراًساً قوية تجلجل بصوت حادّ يكاد يثقب طبالات الآذان، فتبعت الصوت فإذا أنا أرى بيتاً في وسطه غرفة، على بابها أصنام قبيحة التحت لها بدل اليدين أزواج كثيرة من الأيدي وكلها دخل البيت داخل صبّ الماء على رأسه حتى صارت أرض البيت كالبركة، ثم وقف الناس صفين عن طرفي الغرفة، وأنا أراهم من خارجها وأسمعهم يتبادلون الصياح العجيب بأصوات عالية، والأجراس تُقرع بشدة وعنف. فسألت فقالوا: إنّ البيت معد وهذه هي صلاة القوم فيه".²

وصف الملابس الهندية في كتابات علي الطنطاوي: تعتبر الملابس من أهم مظاهر الحياة اليومية في أي مجتمع من المجتمعات وتظهر منها العلاقات والتقاليد والثقافة. ولذلك وصف الكاتب الملابس الهندية في كتابه "ذكريات" حينما كان يجول الكاتب في أسواق دلهي فيقول: "وهي كمدن الهند جميعاً، معرض عجيب لكل ما يتصور الإنسان من ألبسة وأزياء، فأنت ترى امرأة قوية مسلمة قد لبست كيساً كيساً حقيقياً معلقاً برأسها، يُخفي كل شيء من جسمها حتى يديها، ويمس وجه الأرض فيستر قدميها، وأمام عيونها كوتان بمقدار العين قد أسدل الكيس عليهما، وأخرى تلبس الزي

¹ نفس المصدر، ص 219

² نفس المصدر، ص 218

البنجابي، وهو الزبي الشائع للمسلات ولا سيما في باكستان، وهو مؤلف من سروال طويل كسراويل المنامة (البيجامة)، فوّه قيص إلى الركبتيّن ومنديل (نخار) من قماشه يستر الرأس، وثالثة تلبس الساري، وهو قماش غير مخيط يلفّ لفاً على الجسد ليستر إحدى الكفتين وأكثر الظهر ويترك البطن حول السرة مكشوفاً، ويُعرف بالزبي البنغالي. وهو في الأصل لغير المسلمات، ولكنني رأيت بعض المسلمات يتخذنه. والساري أنواع منوعة وأشكال مشكلة، ومنه ما يبلغ ثمنه الآلاف.¹

وكذلك ذكر الأستاذ الطنطاوي ألبسة الشيخ وعلماء الهند أيضاً.²

زار الأستاذ علي الطنطاوي أربع مدن هندية في رحلته إلى الهند وكانت من بينها مدينة لكناؤ مدينة صديقه سماحة الشيخ أبي الحسن الندوي ولكن لما وصل الأستاذ الطنطاوي إلى لكناؤ فما وجد أحداً لاستقباله على المطار لأنّ صديقه وأصحابه كانوا ينتظرونه في المحطة ولم يقدروا أن يأتي الشيخ الطنطاوي بالطائرة، ولا يعرف الأستاذ الطنطاوي ومن كان معه اللغة الأردية والهندية فإنهما وقفا في فندق في مدينة لكناؤ حتى خرج الطنطاوي من الفندق والتقى بطالب لدار العلوم لدوة العلماء ثم وصل إلى ندوة العلماء ووصف الكاتب مناظر الفندق قائلاً: "وبلغنا الفندق، وكان من الفنادق الكبيرة، وله غرف واسعة جداً وأمامها سطح أوسع منها يُطل على منظر من أجمل المناظر التي رأيناها، تظللّه أشجار من أخصم ما رأيت في عمري من الأشجار، والقردة تلعب على أغصانها وتمرح فيها. ومن عجائب المناظر أن الوليد منها يتعلق ببطن أمه ثم تقفز به القفزة الهائلة من غصن إلى غصن".³

حبّ الأستاذ علي الطنطاوي لأرض لكناؤ: كان الأستاذ علي الطنطاوي يحبّ

¹ نفس المصدر، ص 217

² نفس المصدر، ص 217-218

³ نفس المصدر، 99/8

مدينة لکنؤ فقال في مقابلته التليفزيونية:

"كنت مرة في مقابلة إذاعية في الرأي (التليفزيون) فسألني المحدث (وأحسبه كان الأستاذ ماجد الشبل) عن المكان الذي أتمنى أن أقضي فيه بقية أيامي، قلت: إن لم أستطع أن أعود إلى بلدي، وبلدي دمشق، ولم أقدر أن أبقى بجوار بيت الله هنا في مكة، فإن أحب مكان إليّ هو لکنؤ، أن أقيم في معهد ندوة العلماء، فأجمع فيها بين الظل والماء وصحبة العلماء".¹

شخصيات الهند الكبيرة في كتابات علي الطنطاوي: كتب الأستاذ علي الطنطاوي عن عديد من الشخصيات الهندية بمن فيهم الملوك والعلماء الصالحون والكتاب الكبار في كتابه "ذكريات" كما تناول بعض الشخصيات بالوصف في كتابه "رجال من التاريخ" فمن الرجال الذين كتب عنهم في كتابه "رجال من التاريخ" في مقدمتهم الملك الصالح الحلیم مظفر الكجراتي الذي كان من ملوك أحمدآباد، فتحدث عن إخلاصه وعدله، وذكر في هذا الكتاب الإمبرطور المغول أورنك زيب، وكتب في الجزء الثاني لهذا الكتاب عن السلطان قطب الدين أيبك والسلطانة رضيه التي ملكت الهند لأربع سنوات.

وألّف الأستاذ علي الطنطاوي كتاباً صغيراً عن حياة أحمد بن عرفان الشهيد وجهوده في الدعوة إلى الإسلام والجهاد في سبيل الله. فيقول في كتابه: "كان السيد أحمديريد جهاد الكفار والحرب لإعلاء كلمة الله، لعلها تكتب له الشهادة، وما كل قتال جهاداً، ولا كل موت في المعركة شهادة، إنما المجاهد من حارب بقصد إعلاء كلمة الله، والشهيد من مات في هذا الجهاد، فلما رأى مير خان يحارب للغلبة والغنائم تركه".²

ويكتب الأستاذ علي الطنطاوي عن دعوته في البلاد بعنوان "بريلي ولكنؤ" يقول: "أقام مدة في بلدته (رائ بريلي) وكان معه الشيخ إسماعيل والشيخ عبد الحي وخلق

¹ نفس المصدر، ص 106

² أحمد بن عرفان الشهيد، ص 19-20

من العلماء والمشايخ، يمشون معه، ويحضرون مجلسه، ويدعون دعوته. ثم رحل إلى لكتنؤ، فتابعه الناس فيها أفواجاً، وأقبلوا عليه، وتلقاه الوزير معتمد الدولة بالترحيب والإكرام وضيفه وعرض عليه خمس آلاف دينار فأبأها.¹

وخلاصة القول: ظهر من هذه الدراسة الوجيزة للغاية أنّ العرب تجاراً كانوا أم رحّالة أم دعاة وحاكمين قد شغفوا حباً ببلادنا العزيزة (الهند) فزاروها وسجّلوا تاريخها وصفوا آثارها وأطروا رجالها وفي قليل من الأحيان اعتبروها وطناً لهم أحبّ إليهم من مسقط رؤوسهم. وأما الأستاذ الطنطاوي فقد خلف من خلال كتبه ورسائله صوراً جميلة من تاريخ الهند وأماكنها التاريخية وشخصياتها البارزة وملابسها وثقافتها بأسلوب أدبي ممتع للقارئ، وهي تدلّ على مهاراته الفنية وجدة أسلوبه كما توفرّ معلومات مفيدة لمن يودّ الحديث عنها أو زيارتها.

¹ نفس المصدر، ص 24

المصادر والمراجع

1. أحمد بن عرفان الشهيد لعلي الطنطاوي، دارالفكر، دمشق، سورية، ط3، 1997م
2. ذكريات لعلي الطنطاوي، الجزء الأول، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 1985م
3. ذكريات لعلي الطنطاوي، الجزء الثامن، دارالمنارة للنشر والتوزيع، جدة، د.ت.
4. ذكريات لعلي الطنطاوي، الجزء الثاني، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 1985م
5. رجال من التاريخ لعلي الطنطاوي، المجلد الثاني، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، د.ت.
6. روائع الطنطاوي لإبراهيم مضواح الألمعي، دارالمنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط1، 2000.
7. صور وخواطر لعلي الطنطاوي، دار المنارة للنشر والتوزيع، جدة، ط4، 1998م.
8. مجلة الأدب الإسلامي، المجلد التاسع، العدد الرابع والثلاثون والخامس والثلاثون، 1423هـ-2002م.
9. مجلة البعث الإسلامي، المجلد الرابع والأربعون، العدد الثامن، جمادى الأولى 1420هـ-أغسطس 1999م

أساليب الحوار عند الشيخ أحمد ديدات

- حسام محمد عفيف الديرشوي¹

المقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد:
فإن الدعوة إلى الله تعالى مهمة الأنبياء والرسل ومن أكرمهم الله تعالى بالقيام بها، وما أجلها من مهمة يقوم بها العبد في سبيل إعلاء كلمة الله تعالى والدعوة إليه، وكما أمرنا الله تعالى في القرآن الكريم بالحوار، وقد سخر الله تعالى لهذه المهمة الجليلة رجالاً كانوا بحق مثلاً رائعاً وقوياً في التضحية والقيام بهذه المهمة على أكمل وجه، ومن هؤلاء الرجال الذين من الله عليهم بالقيام بهذه المهمة، وهو الشيخ أحمد ديدات، رحمه الله تعالى، فأثرت الكتابة عن منهجه في الحوار والدعوة، باعتباره من أقوى من قام بالوقوف في وجه أهل الكتاب، ودحض افتراءاتهم، بالدليل القاطع من كتبهم ومقدساتهم، فكان سداً منيعاً أمام دعواتهم. فجاء هذا البحث متضمناً للسير والقليل من الوسائل والأساليب التي اتبعها الشيخ ديدات في حوارهِ ومناظراتهِ مع أهل الكتاب، وقد اقتبست مادة البحث من مبحث في كتاب (الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة للطالب حمزة مصطفى ميغا)، وكان دوري في البحث اقتباس هذه الأساليب والوسائل التي اتبعها الشيخ ديدات في منهجه في العمل الإسلامي مع ذكر بعض الأمثلة من كتبه والتعليق عليها أحياناً فجاء هذا البحث المتواضع بهذا الشكل والذي أرجو الله أن يوفقني فيه. والله من وراء القصد

¹ ماجستير العقائد والأديان من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر

سيرة وأعمال الشيخ أحمد ديدات

وقبل أن نخوض في صلب الموضوع نعتبر من المناسب أن نتحدث قليلاً عن سيرة وأعمال الشيخ أحمد ديدات. فالشيخ أحمد حسين ديدات ولد عام 1918م في بلدة (تادكيشنار) بولاية (سوارات) الهندية. هاجر إلى جنوب إفريقيا في عام 1927م ليلحق بوالده. بدأ دراسته في العاشرة من عمره حتى أكمل الصف السادس، ولكن الظروف المادية الصعبة أعاقت استكمال دراسته. عمل في عام 1934م بائعاً في دكان لبيع المواد الغذائية، ثم سائقاً في مصنع أثاث، ثم شغل وظيفة (كاتب) في المصنع نفسه، وتدرج في المناصب حتى أصبح مديراً للمصنع بعد ذلك. في أواخر الأربعينات التحق الشيخ أحمد ديدات بدورات تدريبية للهندسة في صيانة الراديو وأسس الهندسة الكهربائية ومواضيع فنية أخرى، ولما تمكن من توفير قدر من المال رحل إلى باكستان عام 1949م، وقد مكث في باكستان فترة منجماً على تنظيم معمل للنسيج. تزوج الشيخ أحمد ديدات وأنجب ولدين وبناتاً. اضطر الشيخ أحمد ديدات إلى العودة مرة أخرى إلى جنوب إفريقيا بعد ثلاث سنوات للخيلولة دون فقدانه لجنسيتها، حيث أنه ليس من مواليد جنوب إفريقيا. وقد عرض عليه فور وصوله إلى جنوب إفريقيا استلام منصب مدير مصنع الأثاث الذي كان يعمل فيه سابقاً.

في بداية الخمسينيات أصدر كتيبه الأول: "ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم؟"، ثم نشر بعد ذلك أحد أبرز كتيباته: "هل الكتاب المقدس كلام الله؟". في عام 1959م توقف الشيخ أحمد ديدات عن مواصلة أعماله حتى يتسنى له التفرغ للمهمة التي نذر لها حياته فيما بعد، وهي الدعوة إلى الإسلام من خلال إقامة المناظرات وعقد الندوات والمحاضرات. وفي سعيه الخيث لأداء هذا الدور العظيم زار العديد من دول العالم، واشتهر بمناظراته التي عقدها مع كبار رجال الدين المسيحي أمثال: كلارك، جيمي سواجارت، وأنيس شروش. أسس معهد السلام لتخريج

الدعاة، والمركز الدولي للدعوة الإسلامية بمدينة (ديربان) بجنوب إفريقيا. ألف الشيخ أحمد ديدات ما يزيد عن عشرين كتاباً، وطبع الملايين منها لتوزع بالمجان بخلاف المناظرات التي طبع بعضها، وقام بإلقاء آلاف المحاضرات في جميع أنحاء العالم. ولهذه الجهود الضخمة مُنح الشيخ أحمد ديدات جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام عام 1986م (بالمشاركة)¹.

أساليب الحوار عند الشيخ أحمد ديدات

تنوّع المجالات وتعدّد الأنشطة: لقد تنوّع النشاط الحواري للشيخ ديدات من كتب ومنشورات ومطبوعات وتسجيلات مرئية ومسموعة، وكان هذا النشاط والتركيز عليه عاملاً رئيسياً لشهرته ورواجه،² والآن المكتبات والانترنت مليئة بها، سواء كتبه ومنشوراته الورقية والإلكترونية وتسجيلاته الصوتية والمرئية وموقع اليوتيوب الشهير مليء بحواراته ومناظراته، ويكفي أن تكتب جزءاً من اسمه وستظهر مئات النتائج الدالة عليه ومثال على ذلك من موقع يوتيوب مادة حوارية له تحت عنوان (أحمد ديدات مع مصرية مسيحية حوار أكثر من رائع). ومثال آخر من مناظراته مع القس سواجارت، حيث بدأ القس سواجارت المناظرة بمقدمة وقال: "وأريد الآن أن أبدأ هذه الليلة، بعبارة من الكتاب المقدس أختلف أنا والسيد ديدات- حول صحتها- بصورة أو بأخرى، ولكنها من أعز الكلمات، إن لم تكن أعزها في كلمة الرب، إلى عالم المسيحية.

وهي من إنجيل القديس يوحنا 3: 16: (لأنه هكذا أحبّ الله العالم، حتى إنه وهب ابنه المتفرد الوحيد). (يو 3: 16).

مستر ديدات: ابنه المتفرد الوحيد The only begotten son وسوف أستخدم هذا

¹ هذه حياتي، سيرتي ومسيرتي، ص 5-6.

² الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 1/541

النص أساساً أنطلق منه إلى حديث قصير سأحاول طرحه هذه الليلة، وأرجو أن نخني هاماتنا جميعاً سائلين الرب أن يبارك عملنا هذا الذي نقوم به".¹

البساطة والوضوح: تميز أسلوب الشيخ ديدات بالبساطة والوضوح وهما ميزتان مهمتان اتسم بهما أسلوبه الحوارية، منذ بداية عمله في الحوار الإسلامي مع غير المسلمين، ولازمه هذا الأمر في جميع مراحل عمله الدعوي، وكان يراعي حال المخاطبين حوله ومن يحاول التأثير فيهم بحواراته ومناظراته، وهو ما جعله يحافظ على نسقه المتميز بالبساطة والوضوح،² ومثال على ذلك: عندما تم سؤاله بما يلي: "إذن ما العمل في ظل هذا الواقع العصيب؟"

الأستاذ ديدات:

أحد موقفين، إما أن نجتهد وأن ندعو إلى الإسلام ونتمسك بإسلامنا. أو نقف مكتوفي الأيدي كما هو الحال الآن لكي نحولنا إلى النصرانية، ونحن أصحاب الحق والدين الذي يجب أن يظهر وينتشر "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ" (سورة التوبة 33).

عن أي دين، النصرانية، اليهودية، البوذية، الهندوكية، الشيوعية، هو الدين الذي يجب أن يهيمن على كل من سواه".³

وأيضاً ذكر المترجم علي الجوهري في كتاب مناظرتان في استكھولم للشيخ ديدات معقياً على أسلوب الشيخ:

أولاً: يتضح من هذه المناظرة في استكھولم الأسلوب الهادي الرصين الذي يغلب

¹ المناظرة بين وسواجارت وديدات، ص20-21.

² الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 541/1

³ بين الإنجيل والقرآن (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)، ص9

على أداء العلامة أحمد ديدات بينما يلجأ الطرف الآخر إلى الانفعال، والمبالغة في الإلقاء في محاولة يائسة للتأثير على الجماهير.

ثانياً: يتضح من المناظرة الأسلوب العلمي الذي يتبعه العلامة أحمد ديدات، لم يلقِ أيّ ادعاء جزافاً، بل قدّم بين يدي أيّ ادعاء ما يثبت صحته من نصوص كان يحدد موضعها بدقة اعتماداً على الذاكرة.¹

من خلال متابعتي لمحاورات الشيخ ديدات ومناظراته، لاحظت هاتين السمتين بارزتين في أسلوبه الحوارية، فكان منطلقاً في كلامه، بسيط العبارات، عظيمة المعاني. واضحة المعالم، من غير تكلف أو ابتذال، وكأن الكلام ينزل من فيه مجرى الماء بدون توقف.

الأسلوب العصري في حواراته: الشيخ ديدات كان دائماً يحاول جاهداً إلى مجارة عصره والارتقاء بأسلوبه ودعوته إلى مستوى الإمكانيات العصرية المتوفرة في وقته، وكان يقوم بتوظيف كافة الإمكانيات المتوفرة في سبيل وصول رسالته إلى العالم كافة لخدمة الدين الإسلامي الحنيف، وكان يقوم بتطوير نشاطه لأجل الوصول إلى هدفه المنشود، وليسهل عليه إقناع محاوريه بأسلوب عصري يتواءم واحتياجات أهل عصره. واستخدام الأجهزة المرئية والمسموعة، ونشر الكتب وترجمتها إلى لغات عدة.

البعد عن التطرف ونبذ العنف: من خلال استقراء وملاحظة أسلوب الشيخ ديدات في عمله الإسلامي أنه كان ينبذ العنف ويعرض عن الإكراه، وكافة أنواع الضغوط والقسر والإجبار، وكان شعاره رحمه الله تعالى (لا إكراه في الدين)، وهذا ما عرف عنه أنه كان يدعو إلى السلم وكان ضد العنصرية، وكان الحوار سبيله إلى الدعوة، وكان يعتمد على الوسائل العلمية والتقنية الحديثة والوسائل الإعلامية.²

¹ مناظرتان في استكهولم بين داعية العصر: أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد: استانلي شوبيرج، ص 6.

² الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته، 1/542.

وقد أدرك رحمه الله تعالى وهو في مجتمع ذي أقلية مسلمة، في مجتمع غير مسلم، أنه يجب ألا يقع تناقض بين الدين والوطن، لأنه لو حصل التناقض فردده إلى عواقب وخيمة ومخاطر تنجم عنه قلاقل وخوف حول إمكانية الاستمرار في العمل الإسلامي والدعوي، حيث تنقلص فرص الحرية الدينية وإمكانية الاستمرار في العبادة والطاعات، ومما يؤدي ذلك التناقض إلى انعدام فرص الحوار والدعوة. وحيث إن الوطن الذي يستطيع الإنسان أن يعيش عليها، فإنها تستحق الموت لأجلها، ولكن الدولة التي لا تستطيع عبادة الله عليها بحرية، ولا تستطيع تأدية فرائض دينك بحري بك الهجرة عنها¹.

كما حدث للمسلمين عندما هاجروا من مكة المكرمة إلى الحبشة فراراً بدينهم، والحوار الذي دار بين المسلمين وملوكها حول نوبة عيسى ومريم العذراء.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: حيث سخر الشيخ ديدات كل جهوده إلى تطبيق هذه القاعدة القرآنية تطبيقاً عملياً جدياً جلياً، من خلال أنشطته وعمله في مجال الدعوة الإسلامية، وقد قام بإنشاء المركز الدولي للدعوة الإسلامية في جنوب إفريقيا والتي ستكون منارة للهداية وللدعوة إلى الإسلام.²

يقول الشيخ أحمد ديدات في حديثه عن المركز الدولي للدعوة الإسلامية: "بدأنا المركز عام 1958م برصيد مالي مقداره (ثلاث جنهيات ونحس شلنات، ومن هذه البداية المتواضعة انطلقنا، وتوسعنا والحمد لله. ونحن حالياً نملك المبنى الذي به مقر المركز، وقد تخلصنا من كل الديون، واشترينا مبنى آخر سنجهزه بقاعة ضخمة للجمهور، ولدينا محلات ودكاكين كثيرة تدر علينا دخلاً وعائداً، وعملنا في تطور وتقدم. ونحن نتميز بأنواع خاصة من العمل والنشاط، فنحن نستغل مسجد الجمعة

¹ المصدر نفسه، 1/543.

² المصدر نفسه، 1/544.

(بديربان لجذب الزوار، ولذلك فإننا نعلن عن مسجد) الجمعة (بديربان في النشرات السياحية التي توزع على السياح، حيث نقول: زوروا أكبر مساجد النصف الجنوبي للكرة الأرضية، وإذا رغبتم في جولة سياحية مجانية مصحوبة بمُرشد سياحي، اتصل برقم: (3060026) كان هذا رقم تليفوننا القديم، ولقد اعتاد الناس على الاتصال بنا وزيارتنا، والسبب هو أن السائح لا يعرف الفرق بين المسجد والمعبد، فبالنسبة للسياح هما لفظان مترادفان لشيء واحد، وحينما يأتون فإننا نشرح لهم ما يرونه ويلبسونه، ونزودهم بالمطبوعات والمواد الإسلامية مجاناً. إن أحد أنشطتنا الرئيسية التي نقوم بها هو توزيع مطبوعاتنا وكتبنا، وشرح الإسلام ومخاطبة الناس في كل القطر، من خلال المحاضرات حول الموضوعات المختلفة، لنحث المسلمين على تنشيط الدعوة الإسلامية، ولنشد من عضدهم في مواجهة التبشير المسيحي، ولنمكثهم من التصدي لهم، وشرح الإسلام والتعريف به".¹

الجدية وصرامة الالتزام بالوقار: يتمتع الشيخ ديدات بحضور قوي وجدية وهيبة ووقار، وكان صارماً في عمله الإسلامي، وكان شخصيته القوية تعكس الجدية والصرامة في ميادين الحياة وعمله الإسلامي في الحوار والدعوة.

"ذات مرة بينما هو في مداخلة حساسة في أحد المؤتمرات الإسلامية إذ تفجر الحضور بالضحك مما حدا به إلى العصف هاتفاً بجدية وصرامة، حيث قال: "لا داعي للضحك فليس هناك ما يدعو للضحك لو عرفتم ماذا يفعل هؤلاء، هذه هي المشكلة مع المسلم فإنه يأخذ الأمور الخطيرة وكأنها نكت، وبسبب ذلك نهزم دائماً".²

وهكذا لاحظت من خلال متابعتي لمناظراته حيث يكون جاداً في كلامه صارماً لا يضحك ولا يستهزئ أبداً، إنما يمزح أحياناً إذا اقتضى الأمر ذلك، حيث إنه بأسلوبه

¹ هذه حياتي، سيرتي ومسيرتي، ص 21.

² الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 545/1.

الصارم والجاد يعطي انطباعاً لدى الطرف الآخر أنه جدي في كلامه ولا يقبل منه التهرب وصارم في حديثه ولا يقبل منه التصنع.

الصدق في القول والإخلاص في العمل: إن الإسلام يأمرنا بالصدق في كل أفعالنا وأقوالنا، وهو أساس العمل الدعوي والإسلامي، وقد كان الشيخ ديدات في عمله الإسلامي صادقاً عميقاً الصدق في أقواله وأفعاله، وكان مخلصاً ومحجاً لعمله ورسالته، فكان يقتدي بالصادق الأمين صلى الله عليه وسلم في تعامله مع غير المسلمين، وسخر جُل جهوده لتنبية المسلمين وتحفيزهم للعمل بإخلاص في كل مناحي الحياة وخصوصاً الدعوة الإسلامية، حيث ضرب أروع الأمثلة في الصدق والإخلاص في مجال الدعوة الإسلامية، وخير دليل على ذلك الإذن بحقوق نشر منشوراته للجميع، حيث كان هدفه من هذا العمل لكل من يجهل حقيقة الدعوة إلى الحق،¹ وأيضاً تركه لوظيفته في سبيل الدعوة. وقام بإنشاء مؤسسات دعوية لخدمة دعوته ورسالته، وكان ينتقل من بلد لبلد لكي يقيم الحجة على غير المسلمين ولكي يثبت المسلمين، وقام بتوزيع ما يقارب العشرين مليون نسخة من رسائله وأشرطته المرئية والمسموعة، وما يقارب الأربعمائة ألف نسخة من ترجمة معاني كتاب الله تعالى من خلال المركز العالمي للدعوة الإسلامية، ولم يتوقف عن الدعوة حتى وهو طريح الفراش لمدة عشر سنوات تقريباً نتيجة المرض الذي ألم به إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى رحمه الله تعالى.²

طابع النزوع إلى المقارنة: اعتمد الشيخ ديدات على المنهج الحواري المقارن كثيراً على غلب على مجمل أسلوبه وعمله الإسلامي، فكان يعتمد إلى إجراء إحصائيات وكشوفات مقارنة بين ما يقوم به الدعاة المسلمين والمنصرين وما يبذلونه من جهد كل

¹ المصدر نفسه، 545/1.

² وارتحل الفارس أحمد ديدات ومضات من حياته وشيء من عوامل نجاحه، فيصل بن علي البعداني، مجلة البيان، العدد 216، الناشر: المنتدى الإسلامي، 2005، ص 107.

في سبيل ما يؤمن به. وكان يورد المقارنات في حواراته ويوازن بينها في نطاق القضايا التي يطرحها في تلك المناظرات والحوارات.¹

مثال 1: كان يعتمد إلى إجراء عمليات إحصائية لبعض الألفاظ العقدية التي وردت في الإنجيل، مقارنة بين تكرار لفظ "ابن الإنسان" كنية عيسى المسيح عليه السلام ولفظ "ابن الله" فكانت النتيجة [38] مرة ذكرت لفظة "ابن الإنسان" مقابل [13] مرة ذكرت لفظة "ابن الله".²

مثال 2: المقارنات الإحصائية، مثل المقارنة بين تكرار اسم عيسى عليه السلام وذكر اسم محمد عليه الصلاة والسلام فكانت النتيجة اسم عيسى عليه السلام ذكر [25] مرة وذكر اسم محمد عليه الصلاة والسلام [5] مرة.³

مسلكه عملي أكثر من كونه خطاباً نظرياً: كان الشيخ ديدات يعتمد على الجانب العملي في نشاطه الدعوي أكثر من الاعتماد على الأقوال والأفكار النظرية، وهذا ما يبرر نشاطه الدعوي، فضلاً عن قلة صلته بالثقافة الإسلامية، ولكن شغفه العظيم بممارسة الدعوة دفعه إلى تعويض هذا النقص بالعمل في مجال الدعوة، وبسبب عمله المخلص واندفاعه ونشاطه وهيمته العالية جاءت شهرته ونجاحه في مجال الدعوة، وجعلته محل احترام وإشادة وتقدير.⁴

وكما هو ملاحظ بأن الشيخ ديدات كان متخصصاً في مقارنة الأديان وخصوصاً الديانة النصرانية، حيث اطلع على جميع الأناجيل الموجودة، بكافة طبعاتها الجديدة والقديمة، وكان حريصاً على قراءتها والتعمق فيها والمقارنة بينها، فوجد فيها الكثير من الفروقات والاختلافات والتي وصلت حدّ حذف الكثير منها والزيادة أحياناً، وقد

¹ الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 546/1.

² منهج الأستاذ أحمد ديدات رحمه الله في الدعوة إلى الله، ص 43.

³ المصدر نفسه، ص 43.

⁴ الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 547/1.

حرص الشيخ ديدات على التعمق في عقائد النصرانية¹، وأخذ يطلع على جميع ما فيها، إلى أن حفظها وتمكن منها، فكان حجة على النصراري في محاورتهم ومناظرتهم ودحض اقتراءاتهم.

كما نرى في مناظراته المشهورة مع القس جيمي سواجارت والقس أنيس شروش وغيرهما، فكان يقارن ما هو موجود في كتبهم وما هو موجود في القرآن الكريم، كان رحمه الله تعالى سيفاً من سيوف الله على أعداء الإسلام.

قرآنية المسلك العام: حفظ الشيخ ديدات القرآن الكريم منذ نعومة أظفاره، واستطاع توظيف القرآن الكريم في كل محاوراته ومناظراته، لذلك ترى أن للقرآن الكريم تأثيراً عليه، حيث ترَكَ جُلُّ عمله الإسلامي ومضمون حواراته ومناظراته على الجانب العقدي والأخلاق وذلك اقتداء بالقرآن الكريم²، وأهم ما يميزه أنه كان يجب على كثير من التساؤلات والاستفسارات التي يلقيها عليه جمهور المستمعين له من القرآن الكريم، حيث اتخذ الشيخ ديدات القرآن الكريم مسلماً ومنهجاً في كل حواراته، وقد اتخذها منطلقاً يعتمد عليه في جميع قضاياها الدعوية والحوارية، فكان القرآن الكريم الجوهر الأساس لعمله الإسلامي، وقد أكثر من الاستدلالات الواضحة والصریحة من القرآن فجاءت ردوده مفحمة ومسكتة لكل محاوريه، وقد قام بنشر أعداد هائلة من ترجمات معاني القرآن الكريم باللغة الإنجليزية في كل الأرجاء، وقد استنبط من الآيات القرآنية مقولات قد صاغها بطريقة تجذب بقوة نحو القرآن الكريم، وكان القرآن الكريم رفيقه في كل حواراته ومناظراته، وكان القرآن الكريم يعلو فوق كل الرؤوس، وهذا ما جعل البعض يلقبونه بخادم القرآن الكريم لكثرة اعتماده عليه في كل أعماله الإسلامية، منها استمد وانتقى منهجه العام ومسلكه الخاص، فكان بحق

¹ مناظرات أحمد ديدات مع أهل الكتاب، رضوان جمال الأطرش، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، الجامعة الإسلامية، ع 50، 2018، ص 250.

² الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 547/1.

خادماً للقرآن الكريم.¹

التآزر بغير المسلم في خدمة الإسلام والمسلمين: كان الشيخ ديدات أحياناً يستغل غير المسلمين في سبيل تحقيق مصلحة أو دعم لقضية من القضايا الإسلامية، وكان يستثمر ويستغل ممكن كان لهم قوة ونفوذ في مجال الدفاع عن القضايا الإنسانية العادلة، كما فعل مع النائب الأمريكي بول فندلي عندما تعاون معه في عقد مؤتمر ليكشف حقيقة القضية الفلسطينية، وفضح أفعال وأعمال الصهاينة المنتهكة واعتداءاتهم الدموية بحق الشعب الفلسطيني. كما قام بنشر وترجمة بحث قام به أستاذ الفلسفة في جامعات الهند وهو الدكتور رام كرشنة راو عن الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، وقد حاول الدكتور رام كرشنة راو أن يكون محايداً في مؤلفه، فقام بعرض فضائل الرسول صلى الله عليه وسلم وردّ على بعض الشبهات التي أثارها المستشرقون والحاقدون حول الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو كتاب صغير يعرض الكثير من المواقف والجوانب الهامة في حياة الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام، ويستخلص الكثير من العبر من مسيرة النبي صلى الله عليه وسلم ويكشف عن جوانب من شخصية النبي عليه الصلاة والسلام باعتباره المثال الأسمى والقُدوة الأعظم للعالمين.²

الإيمان بجديوى الحوار والدعوة إليه: كان الشيخ ديدات يثق ثقة تامة في فاعلية وجديوى الحوار منذ أن دخل هذا المجال الذي تهيأ له وأعدّ العدة ومارسه بكل علم بختلف جوانبه وأساليبه وفنونه، وكان يدعو دائماً إلى استقرارية العمل الدعوي والحواري.

وكان يستدل دائماً بالمقولة: (أقول إن قدر الإسلام هو أن يلحق الهزيمة بكل إيديولوجية عن طريق الفكر).³ واتخذها مسلماً له ومارس الحوار والعدة بكل فنونه وأخلص النصح فيه والتمسك به، وفي ذلك يقول: (في هذه المعركة المستمرة مع

¹ المصدر نفسه، 547/1.

² أحمد ديدات، محمد (صلى الله عليه وسلم) المثال الأسمى، ترجمة: محمد مختار، سنة 1992م.

³ الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 133/1

اليهود ومع النصارى، نحن نحارب ضدّهم بالفكر وهذا ما يطلبه منا، أن نخوض هذه المعركة الفكرية، وهو يعدنا ويقول: ليظهره على الدين كلّهُ... سواء كانت اليهودية أو المسيحية أو الهندوسية أو الشيوعية وأيّ معتقدات أخرى، فالإسلام سيعلوها جميعاً... ويسحقها جميعاً¹. ومما لا شك فيه أن الشيخ ديدات كان واثقاً من أن الناس لديهم عقول لها القدرة على تمييز الحق من الباطل، وكان القرآن الكريم بمثابة البوصلة التي يهتدي بها، فكانت الدعوة القرآنية عاملاً مشجعاً له للتفرغ لهذا العمل بكل نشاطاته وجوانبه المختلفة. وقد تهيأ لهذا العمل وكوّن شخصية حوارية من خلال المنهج الذي سار عليه ورسمه وأعدّ نفسه إعداداً ذاتياً، وكان يستعدّ أتم الاستعداد للحوار، وحفظ الكتاب المقدس تقريباً، وكان يستشهد بنصوص من الكتاب المقدس من حفظه وذاكرته ويوردها بدقة متناهية مع ذكر مواطنها وأماكنها وضبطها بالأرقام في الكتاب المقدس².

في مناظرة العصر مع الدكتور أنيس شروش، قال أحد المستمعين: "إنجيل يوحنا بالأصحاح الرابع عشر" فقال له الشيخ ديدات أين في الأصحاح الرابع عشر، فردّ عليه قائلاً: "أنا هو الطريق والحق والحياة" فكرر الشيخ ما قاله وصحّحها له بأنها في الأصحاح العاشر الجملة الثلاثين.

فأقرّه المستمع بالتصحيح، وصفق له الحضور على مقدرته على حفظه للكتاب المقدس. وقرأ أيضاً من ذاكرته نصاً من الإنجيل: "أنا والأب واحد" (يوحنا 10: 30)³ كان الشيخ ديدات يمتلك ذاكرة قوية ومقدرة على الحفظ، وذلك لإخلاصه وجهه لدعوته واستعداده القوي وعزمه على إيصال هذه الدعوة لكل الناس، لإعلاء كلمة الله تعالى.

1 المصدر نفسه، 549/1

2 المصدر نفسه، 549/1-550.

3 مناظرة العصر بين العلامة أحمد ديدات والقس الدكتور أنيس شروش بقاعة ألبرت بلندن، ص 71.

الفصل بين الحوار والدعوة: إنّ الدارس لفكر الشيخ ديدات وعمله الإسلامي سواء الحوارية أو الدعوية، فإنه ومن خلال الإمعان والتدقيق سيلاحظ بأنّ الشيخ ديدات يفرق في بين الحوار والدعوة، حيث إنه من خلال عمله الحوارى يحاول الوصول إلى عمق العقيدة التي يؤمن بها خصمه ليذكر بها بينان عقيدته ويبين بطلانها ويقنعه بفسادها، وكشف الحقيقة له وللآخرين، دون التطرق إلى البديل الإسلامي وحيث إنه يركّز في حواراته على إثبات بطلان عقيدة خصمه وإقناعه، ولكنك تجده خارج العمل الحوارى لا ينفك يقوم بالدعوة بأعلى مستوى وبكافة الإمكانيات والوسائل المتاحة.

وحيث نرى بأن نشاطه الحوارى منفصل عن نشاطه الدعوى، دون تقصير في أيّ منهما، ففي نشاطه الحوارى لا يكتفئ اثنان على صدقه وإخلاصه وإتقانه لهذا الفن، ومما لاشك فيه بأن الحوار والدعوة عند الشيخ يكملان بعضهما البعض، ولا يمكن غض النظر عن المؤسسة الإسلامية التي أنشأها الشيخ ديدات والتي منها انطلق نشاطه الدعوى والمؤطر بمؤسسة تنظيمية تهتم بدراسة وتخطيط وتوجيه وتنظيم العمل الدعوى للشيخ ديدات، وإن هذا الطابع المؤسسى المنظم له تأثير كبير على قيمة وقوة ونشاط وتنظيم هذا العمل الإسلامى، والذي امتد عمله لما بعد ديدات، واستمر هذا العمل الدعوى على الدرب الذي رسمه وخطط له الشيخ ديدات رحمه الله تعالى.

ويظهر في عمله الإسلامى مبادراته بالحوار أو بالدعوة فكان كثير التنقل بين الأماكن المختلفة في العالم وذلك لتأدية واجبه الإسلامى وأداء الرسالة القرآنية في سبيل الدعوة إلى الله تعالى، وكانت غالب رحلاته ومبادراته الحوارية والدعوية تحمل في طياتها الترغيب من خلال توزيع مطبوعات إسلامية وخدمات مجانية لكل المدعويين، وكان يوزع نسخاً كثيرة من ترجمات معاني القرآن الكريم،¹ ويقول الشيخ ديدات: إن أحد أنشطتنا الرئيسية في مركزنا هو توزيع المطبوعات والمنشورات والكتب، ونقوم بشرح

¹ الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 552-551-550/1.

وافٍ للدين الإسلامي وذلك من خلال المحاضرات المختلفة، وأيضاً حثّ المسلمين على القيام بواجب الدعوة إلى الله تعالى، وكان للهرکز طاقم متكامل للقيام بواجب المركز، نذكر واحداً منهم وهو يتحدث عن مهمته في المركز، اسمي عبد الرحمن مهمتي هي اصطحاب السياح في جولة إلى أحد المساجد، وأقوم بشرح كل ما يتعلق بهذه الزيارة.¹ وكان مركزه الإسلامي يقوم بتلبية كافة الطلبات الواردة إليه من مختلف البلدان في العالم بهدف الحصول على كتبه وأشرطته الحوارية، وكان الشيخ ديدات صاحب همة عالية وكان يتنقل في مختلف مناطق العالم بهدف إيصال صوته ورسالته الإسلامية، فكان مثال الداعية الحق والصادق رحمه الله تعالى.

ظاهرة ابتكار المصطلحات الخاصة: قام الشيخ بابتداع مصطلحات خاصة تحمل معاني جديدة، وهذا دليل على قوة اطلاع الشيخ ديدات وسعة ثقافته وإلمامه بعلوم الأديان ومقارنتها، وقد استخدمها الشيخ ديدات في حواراته ومناظراته نذكر بعضاً منها باعتبارها كثيرة:

أ- العهد الأخير: والمقصود به في المعنى الخاص القرآن الكريم، وبالمعنى العام الدين الإسلامي، ويريد بذلك إثارة مسامع أهل الكتاب لهذا المصطلح القريب منهم، ولما له من سحر على مسامعهم ونفوسهم، باعتباره مصطلحاً ليس بغريب منهم وهو مصطلح قريب مما لديهم كالعهد القديم والعهد الجديد.

ب- البرمجة: وتعني عملية تغذية العقل والفكر بأفكار ومعتقدات خاطئة، قد تؤدي إلى اتخاذ مواقف قد تكون غير موضوعية أو غير واعية ومدركة لمختلف القضايا والأفكار والمعتقدات دون دراسة متمكنة أو معمقة ودون تحري صحة ووضوح الفكرة الواردة.

ت- كتاب البرقيات الإعجازية: ويقصد به القرآن الكريم وذلك للفت نظر الإعلاميين

¹ هذه حياتي، ص 21

والصحافة أثناء لقاءاته بهم.

ث- مرض الافتتان بالخصّة والعار: والمقصود منه الافتخار بالعيوب والفضائح والمجاهرة بالمعصية إن صحّ التعبير، كما فعل الحواريون حين سلّموا يسوع وهربوا، حين أقبل المتآمرون إليهم لأخذ يسوع وإدائته وصلبه على حسب زعمهم، وهل هناك وضاعة وحقارة أكثر من هذا؟¹

ج- انتصار الإسلام: والمقصود به الوعد الذي وعده الله تعالى في القرآن الكريم بانتصار الدين الإسلامي وإظهاره على الدين كله رغم أنف الحاقدين والمتآمرين والمعارضين والمعاندين لهذا الدين الخفيف، فكان لهذا المصطلح وقع في نفس الشيخ ديدات ومان يستخدمه كثيراً تفاقولاً وتبشيراً بانتصار الدين الإسلامي وعودته إلى ما كان عليه في عهد الرسول عليه أفضل الصلاة والتسليم وصحابته الكرام رضي الله عنهم.²

ح- المحمديون: ولفظ استشرافي لا يجوز تداوله لذلك كان الشيخ ديدات متحفظاً من لفظه، وكان يرفضه بشدة ولا يقبل به، ويقول في ذلك: "إن الغربي خبير في اختراع الأسماء، إن الرجل الأبيض يصف نفسه بأنه مسيحي لأنه يعبد المسيح، وهو يسمي من يعبد بوذا بالبوذي، وبنفس المنطق فإنه يسمي المسلم محمدي لاقتراضه أن أيّ المسلم يعبد محمداً، ولكن حقيقة الأمر أنه لا أيّ امرئ من الألف مليون مسلم في العالم يفعل ذلك". وهذا يدلّ على فطنته وحذقه الشديد في التعامل مع غير المسلمين والانتباه إلى كل كلمة يقولونها.³

الآداب الرفيعة والأخلاقيات الإسلامية السامية: كان الشيخ يتمتع بالعديد من الصفات الحسنة والأخلاق الطيبة، انعكست على عمله الإسلامي ونشاطه الدعوي

¹ الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة، 1/554.

² المصدر نفسه، 1/554.

³ المصدر نفسه، 1/555.

وتشكّلت بذلك السمات الأساسية لمنهجه بشكل عام في الحوار والدعوة، فقد غلب على طبعه التواضع، ورغم صلابته مواقفه الحوارية، إلا أنه كان متواضعاً والتي هي جزء من شخصيته والتي انعكست على منهجه بشكل عام، وهو ما جعله يؤمن بأن التواضع هو ما يرفع شأن صاحبه عند الله تعالى، فيكون أهلاً للتوفيق والنجاح، ومن أقواله: (إن التواضع صفة تأسر اللب)، وكان رحمه الله تعالى صبوراً جلدًا في خدمة الدين الإسلامي، رغم ما كان يتلقاه من رسائل تهديد من كثير من الفئات الدينية في العالم، ولكنه بتواضعه ورحابته صدره يلتبس لهم أعداراً باعتبارها من طبيعة العمل التي سخر نفسه لها، ويتجلى صبره من خلال التزامه بطبيعة عمله كداعية، ويظهر الأدب في مجمل نشاطه الإسلامي ومن خلال تسامحه مع من يناظرهم ويحاوهم، كما فعل مع الدكتور أنيس شروش حينما تنازل عن دوره وحقه في الحديث أولاً، حيث كان الدكتور شروش يلح أن يتحدث أولاً ومع ذلك جاءت القرعة لصالح الشيخ ديدات فما كان منه إلا أن تنازل لمناظره وهذا من رفيع أدبه وأخلاقه الحميدة، وكان الأدب ديدنه في حواراته وكلها مرّ بشيء قد يكون مفاجئاً للجمهور كان يخبرهم وينبهم لتخفيف الصدمة عنهم بما هو غير متوقع، وكان منصفاً وعادلاً مع خصومه، وكان يخلق جواً من التناغم والألفة بين الحضور بهدف استمالتهم والنفوذ إلى صميم أعماقهم للتأثير فيهم ومحاوله هدايتهم واقناعهم بصدق مبتغاه ورسالته.¹

الخاتمة: بعد جهد متواضع من إخراج هذا البحث بهذا الشكل البسيط أرجو من الله أن يوفقني فيه وأن يكون عملاً مقبولاً، لما رأيت فيه من إنصاف أن نعطي هذا الشيخ الجليل حقه في التحدث عنه بصفحات طوال لما له من تأثير في مجال الدعوة والحوار، ونحن كطلبة حوار أديان وحضارات وبعد أن سلكنا هذا الطريق والذي نرجو الله أن يوفقنا فيه أن نتبع سنن الأنبياء والرسل عليهم صلوات الله وسلامه في الدعوة والحوار وبكل من الله عليهم وسلكوا هذا الطريق ونقف في وجه أعداء

¹ المصدر نفسه، 558/1.

الأمة ونظهر هذا الدين كما أمرنا الله تعالى، وفي نهاية هذا البحث المتواضع هذا عرض لبعض الآراء في الشيخ أحمد ديدات رحمه الله تعالى:

يقول الداعية المعاصر محمد الغزالي عن الشيخ ديدات: (والمناظر الأول وهو الشيخ أحمد ديدات رجل يشبه العقاد في غزارة اطلاعه وطول بابه، وقوة عارضته، وسرعة بديته)، ويقول الأستاذ محمود غنيم وهو من المترجمين المعجبين بالشيخ ديدات: (والأستاذ أحمد ديدات الذي درس الكتب المقدسة القديمة دراسة وافية يقدم لنا منهجاً علمياً راقياً في مجادلة أهل الكتاب، فهو يناقشهم فيما يؤمنون به ولا يستطيعون إنكاره، ثم هو بعد ذلك يستخدم المنطق العقلي الرصين الذي لا يسع أيّ منصف راغب في الوصول إلى الحق غير متحامل ولا مكابر إلا أن يتفق معه ويخطو إلى جانبه في طريق الحقيقة المجردة إلى الهدى)، ويقول الأستاذ إبراهيم خليل أحمد والذي قام بترجمة كتب مهم للشيخ ديدات (هل الكتاب المقدس كلام الله؟): (وكأنني على موعد مع الداعية الإسلامي أحمد ديات، وشاء الله أن أجد بيم يدي كتيباته، يتصدى بها مواجهيه المبشرين بالحجج والأدلة الحاسمة من كتبهم ومقدساتهم، فما أن تناولت هذه الكتيبات إلا ولمست أنه يعبر عما يخالجي من فكر ومنهج أستطيع أن أدعو إلى سبيل الله بإذنه وتوفيقه على بصيرة في رحلتي المرتقبة بين العواصم الثلاث، باريس، بروكسل، جنيف، بمشيئة الله).¹

¹ المصدر نفسه، 1/566-568

المصادر والمراجع

1. بين الإنجيل والقرآن (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء) لأحمد ديدات، مكتبة ديدات 1، ترجمة وتعليق محمد مختار، المختار الإسلامي للنشر.
2. الشيخ أحمد ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة وأهم مجالاته التطبيقية الممكنة للطالب حمزة مصطفى ميغا، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، ط1، 2005م.
3. محمد (ﷺ) المثال الأسمى لأحمد ديدات، ترجمة: محمد مختار، سنة 1992م.
4. مناظرات أحمد ديدات مع أهل الكتاب لرضوان جمال الأطرش، مجلة الكلية الإسلامية الجامعة، الجامعة الإسلامية، ع 50، 2018م.
5. مناظرة العصر بين العلامة أحمد ديدات والقس الدكتور أنيس شروش بقاعة ألبرت بلندن، نقله إلى العربية: علي الجوهري، دار الفضيلة.
6. المناظرة بين وسواجارت وديدات، مكتبة ديدات 29، أحمد ديدات، ترجمة وتعليق رمضان الصفاوي، المختار الإسلامي للنشر والتصدير.
7. مناظرتان في استكھولم بين داعية العصر: أحمد ديدات وكبير قساوسة السويد: استانلي شوبيرج، نقله إلى العربية: علي الجوهري، دار الفضيلة.
8. منهج الأستاذ أحمد ديدات رحمه الله في الدعوة إلى الله لأحمد بن سليمان علي موسى، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الدعوة، كلية العلوم الإسلامية، 2015-2016م.
9. هذه حياتي، سيرتي ومسيرتي، أحمد ديدات، أعد للنشر: أشرف محمد الوحش
10. وارتحل الفارس أحمد ديدات ومضات من حياته وشيء من عوامل نجاحه، فيصل بن علي البعداني، مجلة البيان، العدد 216، الناشر: المنتدى الإسلامي، 2005م.

أبو عطاء السندي

(شاعر سندي متعرب في القرن الثامن للميلاد)

- الدكتور حافظ غلام مصطفى¹

ترجمة من الإنجليزية: الأستاذ أبو محفوظ الكريم معصومي²

أبو عطاء السندي على ما اقتضت هذه النسبة في نفسها كان منحدرًا من سلالة سنديّة؛ هو معدود في شعراء العصر الأموي ولعل معظم مشاهير الكّتاب في تاريخ الأدب العربي وفي التراجم والطبقات فوّها به في مؤلفاتهم وإن نجح مسعاهم قليلًا جدًّا فيما حدّثونا عن حياة هذا الشاعر وآثاره.

¹ الدكتور الحافظ غلام مصطفى (1919-1993م) ولد في الله آباد، تلقى التعليم الابتدائي على الطريقة النظامية ثم أجاز امتحانات هيئة الامتحانات العربية والفارسية لله آباد. بعد ذلك حصل على شهادة البكالوريوس من جامعة الله آباد كما نال شهادتي ماجستير في اللغة الأردوية وماجستير في اللغة الفارسية من نفس الجامعة، وأما ماجستير في اللغة العربية والدكتوراه فأتمهما من جامعة علي كره الإسلامية بعلي كره. تم تعيينه كأستاذ مساعد في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة علي كره الإسلامية في 1954م وجعل أستاذًا مشاركًا فيه في 1961م حتى تقاعد عن مهنة التدريس في 1977م ولم يجعل بروفيسورًا لعدم وجود مقعد فارغ لهذا المنصب في القسم. كانت له اليد الطولى على الشعر العربي الكلاسيكي وكان ماهرًا بعلم العروض ورجلًا صالحًا تقياً. كان يكتب بثلاث لغات: العربية والإنجليزية والأردوية. وله أربعة مؤلفات وهي: "الاتجاهات الدينية في الشعر العربي الجاهلي" (بالإنجليزية) و"إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام" (تحقيق وتعليق) و"ابن الفارض شاعر فريد للشعر العربي الصوفي" و"أدعية قرآنية" (بالأردوية). كانت له علاقة علمية وطيدة مع اللجان العلمية واللغوية للعالم العربي مثل مجمع اللغة العربية بالأردن والمجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية بالأردن ومؤسسة آل البيت للفكر الإسلامي بعمان (الأردن) والجمعية العالمية لإحياء التراث الإسلامي بالقاهرة. وسنفضّله عنه ذكرًا في مقال مستقل إن شاء الله تعالى. (الأعظمي-أ)

² كاتب ومحقق هندي معروف في العالم العربي. له بحوث جلييلة بالعربية والأردوية والإنجليزية.

الشاعر واقتصاص ما يروى له ويعزى، وهو أيضاً جمع فأوعى قسماً كبيراً للمستندات كما هو نفسه يقول: إنني لأجل ألا يزدوج أي مجهود إضافي بهذا الخصوص، تعهدت بهذا العمل أعني التدليل على الشواهد المتوافرة في الحواشي الضافية-- ولكن هذا الديوان لا يزال لسوء الحظ صغيراً جداً حتى أن فذلكة الأبيات لم تجاوز مئة بيت وعشرين بيتاً ولعل الأرباع الثلاثة منها توجد في كتاب الأغاني وحده.

مهما يكن فإنني أظن أن بعض الأبيات يمكن اقتصاص أثره في طوايا المؤلفات الضخمة لكار العلماء ولا بد لذلك أن تتصفح صحائف هاتيك الكتب من أولها إلى آخرها ولا تتكل على الفهارس الملحقة وحدها ومثال ذلك البيتان اللذان هجا بهما أبو عطاء معاصره الشهير أبا دلالة الشاعر فقد أغفلهما السيد بلوج وهما كما يلي:

ألا أبلغ هُدَيْتَ أبا دلالة فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة كان قرداً وخزيراً إذا وضع العمامة¹
كان الغرض الذي استهدفه السيد بلوج أن يوعى من شعر أبي عطاء ما تبدو في شتى الكتب ومن هنا لم يتصد للبحث عن حياة الشاعر وعصره وقيمة شعره ببيان حقيق بالاعتبار- ومما يتوضح أن على أساس هذه المادة القليلة لا يمكن لنا أن ندي إليكم بتحليل كلامه المنظوم بمزيد الإفادة والتفصيل كما لا يمكن أن تقدم أمام العيون صورة كاملة لحياة الشاعر بالاستناد إلى عدة حوادث فقط، ومهما كان فإذا أنعمنا النظر في الشؤون العامة للحركات الاجتماعية والسياسية والأدبية في عصره لما كان مستحيلاً أن نستنجح حتى من هذه البضاعة القليلة جداً بعض نتائج هامة وشيئاً ذا بال:

هذا المقال، أرجو من القراء أنهم يعتبرونه فقط مجهوداً متواضعاً بالنظر إلى نفس

¹ وفيات الأعيان، 77/2 (ترجمة أبي دلالة).

الاتجاه الآنف الذكر وليس من الممكن أن نقوم في هذا الصدد بدراسة واسعة مسبهة وكيفما كان فإنما يهمني أن نوضح في هذا الخصوص بعض نقاط هامة وفارقة.

كان اسم أبي عطاء بحسب بعض الروايات¹ "أفلح" على أن البعض الأخرى تسميه² "مرزوقاً" وإنما سمي أبوه "يساراً" فيما أجمعوا على ذلك.

وعلاوة على ذلك استطعنا أن نعرف بمراجعة المصادر الأصلية أن أبا عطاء تربى وتهذب بالكوفة ولكن في أي زمان ومكان ولد؟ ولماذا قدم الكوفة وكيف انتقل إليها؟ هذه الأمور كلها لا تزال غير معلومة تماماً وإن كان بعض المراجع المتأخرة تدل على أن الكوفة نفسها مسقط رأسه ولكن هذا الخبر غير جدير أن يعتد به أو يركن إليه؛ لأن المصادر الأصلية التي أحلنا عليها لا تذكر شيئاً يقاربه. وهذا الخبر سيجده الباحث مسطوراً في تاريخ الأدب العربي لبروكلمان الألماني ولكن لا يمكن له أن يقتصر أثر شيء يضاهي هذا الخبر في المراجع المذكورة هنالك.³

وفي هذا الخصوص ينبغي لنا أن نلقي نظرة خاطفة على تأريخ الصلات الوثيقة في ذلك العصر بين لغة الضاد وأهلها وبين القطر السندي.

إن العلاقات التجارية بين العرب والسند فيما يبدو ظهرت على مسرح الوجود منذ عهد عهد نهائياً.⁴ والعرب التجار قبل انبلاج فجر الإسلام بحقبة طويلة كانوا يرسون ببعض الموانئ في بلوچستان والسند بأثناء أسفارهم البحرية على طول سواحل البحر العربي وكانوا لوقت ما يقيمون بهذه البلاد السندية ويتعاطون التجارة بمساعدة أهالي السند المواطنين، وكذلك هذا الأمر يعدّ معقولاً أنه أمكن لبعض الأشخاص الأشداء

¹ كتاب الأغاني، 245/17

² الشعر والشعراء، ص 742

³ تاريخ الأدب العربي، 63/1

⁴ الأخبار الطوال، ص 326، وفتوح البلدان، ص 367

أو الأسرات السندية أن يزور أو تزور في وقت من الأوقات العراق أو بلاد العرب ثم أمكن لهذا الطارئ أن يتخذها مستوطناً ثانياً.

وفضلاً عن ذلك فكانت هناك مناشئ أخرى أساسية أيضاً للمواصلات المتبادلة فيما بين الشعبين فإن ملوك الفرس منذ حين إلى حين بسطوا أيديهم إلى بعض النواحي السندية واستولوا عليها وحشدوا بحافلهم الجرارة رجالاً مغاورين من طوائف السند الضارية بسفك الدماء كطائفتي الزط والميد¹ وبعض هؤلاء المحاربين ربما انتهزوا الفرصة للتحويل إلى بلاد العراق والعرب ثم إنهم ألقوا بها عصا التسيار فيما بعد.

يجدر بنا أن نتنبه إلى بعض الشواهد أنما ورد في الحديث أن عبد الله بن مسعود ذات مرة رأى مع النبي الكريم عليه أفضل الصلوات والتسليم أشخاصاً يمتازون بما لهم من هيئة خاصة وقد وصفهم عبد الله بأنهم تراؤا له كرجال الزط.² وذكر البخاري بسنده أن عائشة أم المؤمنين اشتكت مرة فاستحضر ابن أختها طبيباً زطياً ليداويها.³ وجاء فيما روى الطبري في تاريخه⁴ أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه لما تولى الخلافة استخدم لإدارة بيت المال بالبصرة رجالاً من الزط.

بالنظر إلى الأمور الآتفة الذكر ربما لا يُعدّ مخالفاً للعقل أن نقول، ولو بالحدس، إن بعض السنديين هاجروا إلى العراق والقطر العربي حتى قبل أن يتبلج النور الساطع للإسلام أو على الأقل بعيد الإسلام في وقت مبكر جداً.

أما جدود صاحبنا أبي عطاء فلا نحسب أنهم خرجوا من السند في هذه الأيام المبكرة ولكن يهمننا بقرب هذه المرحلة أن نذكر نقاطاً عديدة مما يتعلق بهذا الشاعر العربي

¹ فتوح البلدان، المرجع السابق، ص 368؛ وكتاب المعارف، ص 325، ويحج نامه، ص 16

² جامع الترمذي، أبواب الأمثال، ص 465.

³ الأدب المفرد، باب بيع الخادم، ص 51.

⁴ تاريخ الرسل والملوك، 178/5 وفتوح البلدان، ص 369.

لغة والسندي جرثومة فلا بد من الانتباه لها:

نقول بادئ ذي بدء أنّ أبا عطاء تكلم دائماً بلهجة نموذجية لأهل السند ومن هنا لم يقدر قط على أن ينطق بحروف عربية مخصوصة على وجه الضبط الصحيح فكان مثلاً كلّها تكلم بالعربية تلفظ بالزاي عن الجيم والسين عن الشين المعجمة وهلم جراً. ولا غرو أنّ هذا النقص المنطقي كان فيما يبدو أمراً طبيعياً رعى به كل سندي النجاد على الغالب فقد ذكروا كذلك عن أبي معشر نجيح بن عبد الرحمن،¹ وهو محدث شهير سندي الأصل معاصر لأبي عطاء- أنه كان ينطق بالعربية نطقاً مغلوّطاً فيه فكان مثلاً إذا قال: حدّثنا محمد بن كعب، نطق بالقاف عن الكاف وهكذا كان الأمر مع مكحول الشامي،² وكان مواطناً أيضاً لأبي عطاء وأكبر منه في السن.

لعل هذه الأمور المتقدمة تكفي للإشارة إلى أنّ صاحبنا أمضى زمن الطفولية في البيئة السندية والتحق بالناطقين بالضاد بعد أن أتقن لغة موطنه الأول بالضبط والدقة وبهذا الخصوص. وينبغي لنا أن نضع نصب عيوننا أنه أولاً وقبل كلّ شيء كان عبداً مملوكاً وقبل أن يتحرر تملك رقبته غير واحد من الموالى واحداً بعد آخر، فضلاً عن ذلك فإنه كان مطبوعاً على شجاعة جبلية حتى أنه ساهم مساهمة الجد والنشاط في المحاربات الطاحنة بين الأموية والمسودة العباسية.³

في ضوء هاتيك الاعتبارات أمكننا أن نحرز بأنه عند ما بدأت السند تفتح⁴ على يد القائد الشهير محمد بن القاسم الثقفي فرمما اتفق في أثناء ذلك أن سيق أبو عطاء إلى الكوفة في ضمن أسارى الحرب الذين جلبوا إليها ولعله كان إذ ذاك غلاماً لم يتجاوز

¹ معجم البلدان، 267/3 (السند).

² وفيات الأعيان، 367/4.

³ كتاب الأغاني، 245/17-248.

⁴ فتوح البلدان، ص 420.

العاشرة- وبناء على هذا التقدير يمكن أن نقدر سنّه تماماً نحو خمس وسبعين سنة وذلك ما لا يرفضه العقل.

ومهما يكن فإنما استوفى أبو عطاء حظه من التثقيف والتأديب، بالكوفة بين ظهراي العرب إلى أن تأتّى له عن ذاك جودة السليقة ونهاية المعرفة بأساليب اللغة العربية وآدابها لا جرم أنه اتصف من جهة الفطرة بقوة العارضة في نظم القريض وبناء على ذلك نجح في تنمية تلك الملكة المودعة فيه في وقت غير طويل حتى أخذ يقرض من الشعر باللغة العربية ما أكسبه الدسائع المتوافرة والجوائز المتكاثرة.

وعند ذلك وقع أبو عطاء فعلاً في ضغطة وارتباك فيقال إنه لما حاز أموالاً جمة كجائزة على قصائده إلى أن غني وقني فهناك ادعى عنبر بن سماك أحد مواليه أنه لا يزال قنّاً لابن سماك هذا وعندئذ ضاقت الأرض على صاحبنا بما رحبت، وأخيراً أشار عليه أعوانه المرافقون أن يتصالح مع ابن سماك على شروط يرتضيان بها فصنع أبو عطاء كذلك ووقعت المكتابة بينهما على أن يؤدي أبو عطاء أربعة آلاف درهم إلى عنبر بن سماك لتحرير رقبته رسمياً- ثم إنّ خلاّنه لم يألوا جهداً في جمع هذا المبلغ المحتم ولكن أبا عطاء لم يرض بذلك فارتحل مستقيماً إلى حر بن عبد الله القرشي ومدحه بقصيدة زهراء ولعله على هذه القصيدة أصاب من الممدوح ما لا يقدر ذاك المبلغ الخطير فأدى المال إلى عنبر وتحرر حسب الرسوم والنظامات.¹

والآن إنه نظم مقطوعة يهجو بها عنبر بن سماك، ولحسن الحظ انحدر إلينا من هذه المقطوعة عدة أبيات تمثل أمامنا أنموذجاً ناصعاً للشعر العربي وهي حقيقة أن نتلى عليكم فيما يلي:

إذا ما كنتَ متخذش خليلًا فلا تثقنْ بكل أخي إخاء

¹ الأغاني، 246-245/17.

وإن خيرت بينهما فلصق¹ بأهل العقل منهم والحياء
فإن العقل ليس له إذا ما تذوكرت الفضائل من كفاء
وإن النوك للأحساب غول به تأوي إلى داء عياء
فلا ثقفن من النوكي بشيء ولو كانوا بني ماء السماء
كعنبر الوثيق بناه بيت² ولكن عقله مثل الهباء
وليس بقابل أدباً فدعه وكن منه بمنقطع الرجاء³

ولعل صاحبنا في أثناء هذه الأيام أحسَّ بجد واهتمام أنه لا يسلم من الخطأ في النطق بحروف معينة يمرُّ بها لدى تسميحه وإنشاده القصائد وبسبب ذلك لا يفهم الناس كلامه تماماً بل ويضحكون عليه ويهزأون به، هذا من جهة وأما من جهة أخرى فكان أبو عطاء شديد الولوع بالشعر طبعاً فما استطاعت هذه العراقيل على كثرتها أن تكبس على غظامط نزعته الشعرية ثم إنه لم يكن قانطاً خائر النفس فما زال يكفر في اختيار خطة تساعده على مجاوزة ذاك الحاجز فصمَّ على اتخاذ رواية فصيح اللسان يصحبه وينشد بدائع قصيدة ويقصد ذلك نظم أبو عطاء قصيدة مدح بها سليمان بن سليم وهي قصيدة سلسلة سائغة ولكنها في الوقت نفسه عميقة التأثير نهائياً ومليئة بالتحريكة العاطفية ولا بأس بأن نمر ههنا بأبيات عديدة منها فدوتكم ما يقول:

أعوزتني الرواة يا ابن سليم وأبى أن يقيم شعري لساني
وغلى بالذي أجمعم صدري وجفاني لعجمتي لسلطاني⁴

¹ هكذا في الترجمة والصحيح في الأصل: فألصق، الأغاني، 329/17، ونهاية الأرب، 222/3 (أ)

² هكذا في الترجمة والصحيح في الأصل وهو: بناء بيت، الأغاني، 329/17، ونهاية الأرب، 222/3 (أ)

³ لهذه الأبيات وما يتلوها فيما بعد مع بيان المناسبات، راجع: الأغاني، 245/17-257، مجلة الثقافة الإسلامية (الدكنية)، 257-245/18، و23/136-150، يوليو 1949م.

⁴ ويروى: وغلا --- وشكاني من عجمتي شيطاني، أبو عطاء السندي، حياته وشعره لقاسم راضي مهدي، مجلة المورد، 291/2/9 (أ)

وازدرتني العيون إذ كان لوني حالكاً مجتوىً من الألوان¹
فضربتُ الأمور ظهرًا لبطن كيف احتال حيلة للساني²
وتمنيت³ أنني كنتُ بالشعر فصيحاً وبان بعض بناني
بعد هذا التمهيد العاطفي الذي لا بد أن يتغلغل في قلب كل رجل مرهف الشعور،
تقدم الشاعر إلى أن يعرض حاجياته الماسة على الممدوح بأرفق أسلوب وإنما طلب
منه غلاماً طلق اللسان يقدر على إنشاد القصائد بطلاقة وذلاقة وعندئذ أعطاه
الممدوح فتىً حديثاً مصقلاً وهو ذاك الفتى الذي سمّاه صاحبنا "عطاء" وتبناه ومن هنا
أصبح يعرف بكنية أبي عطاء، ومنذ الآن فصاعداً خدمه هذا الفتى عطاء، كالراوية
له فكان أبو عطاء كلما أراد أن ينشد شيئاً من قصيدة في بعض الحفلات ظلّ هو
سائكاً بنفسه وتقدم راويته عطاء فأنشد القصيدة بالنيابة عن مولاه.

نظم أبو عطاء فيما يبدو شيئاً كثيراً جداً في المدائح والتقاريز وأثنى فيها على مختلف
الشخصيات البارزة ولكن اثنين منهم استحقا الذكر بوجه خاص ولعلهما من أبرز
وأدوم الرجال الذين شملوا صاحبنا برعاية وعناية بالغتين هما يزيد بن عمر بن هبيرة
أمير العراق ونصر بن سيار أمير خراسان والمشرق. ولا غرو أنهما جميعاً كانا من
عظماء الرجال في عصرهما وكلاهما لم يزل حامياً لذمار أبي عطاء ومغدقاً عليه بنعم
وفيرة وكثيرة فكان أبو عطاء يحسب نفسه في بلاط أي واحد منهما من كما أنه كان في
عقر داره وعشيرته- وكان منذ حين إلى آخر ينظم في المديح والثناء عليهما غرراً ودرراً.
ومما يبدو لنا أنه في أكثر الأحيان لبث بالكوفة مع ابن هبيرة كما أنه شد الرحيل مراراً
كثيرة إلى نصر بن سيار بخراسان. إنه بقي متشبهاً بأذيال ذيك الأميرين الحفيين به

¹ ويروى: وازدرتني ---- أن كان --- حالكاً مظلماً من ---، المرجع السابق (أ)

² ويروى: وضربت ---- وحيلة لبياني، المرجع السابق (أ)

³ ويروى: فتمنيت، المرجع السابق (أ)

تماماً فلم يفارقهما طول حياتهما وكذلك بعد أن اخترمتها المنية رثاهما ببعض المراثي الجيدة المليئة بما يعرب عن عاطفة ولوعة رائختين في نفسه نحوهما. ومن ثمة بحق تعدّ هاتيك الشذرات المشجية في أروع مقطعات الشعر العربي.

عاش أبو عطاء في ظروف انقسمت بها الهيئة الاجتماعية للمسلمين تماماً إلى مختلف الفرق السياسية كالخوارج والعلوية والأموية¹ وهلم جرّاً وكان كل فرقة تنفاني في العمل لنفسها بجد وحماس بالغين في العراق وخراسان والشام وافتقرت إلى شذمة من الشعراء بما أنّ الشعر أفاد كل فريق كأجود الوسائل لنشر الآراء وتعميم الدعوة وكذلك لإثارة عواطف الجماهير واستفزازهم بالحزكشة. أما من جهة أخرى فإنّ الشعراء في أنفسهم احتاجوا إلى أن يقوم بتعزيد جانبهم أيّ ظهير فيحتفل بما أتيح لهم من موهبة شعرية كل محتفل. وذلك لأنهم كانوا لا يملكون شيئاً يغنيهم عن المعاش إلا ما حصل لهم برسم الجوائز والصلات على قصائد هم من عند الأعيان المهتمين بشأنهم كل اهتمام ومن هنا لعل مشاهير الشعراء أجمع كانوا إذ ذاك يخترطون بميوهم وأهوائهم في سلك أيّ فريق من هاتيك الفرق المتضاربة المختلفة الآراء في شتى ولايات العالم الإسلامي. فكأن وظيفة الشاعر أن يثني على ذوي الاهتمام بشعره وفنه ثناءً بالغاً ويهجو خصوم ممدوحه هجواً مريراً مقدعاً.

عثر جدّ صاحبنا أبي عطاء مع هبوط بني أمية عن حظوظهم السعيدة أنه ما زال ينصر ما يدعم قضيتهم في مجتد المبارات السياسية المعاصرة وكان ذلك فيما يتوضح غير موافق للتيارات الجارفة وقتذاك فإنّ الموالي أوالمعتقين للإسلام من الشعوب العجمية كانوا بوجه العموم يناوئون الدولة الأموية ورجال هذه الأسرة الحاكمة فقد كان الأمويون- فيما رماهم به أعداؤهم- منحرفين للغاية عن الحق في تفضيلهم للعرب على العجم فكانوا يعاملون أولئك الرعايا المعتقين للدين الإسلامي معاملة

¹ تاريخ الشعر العباسي، ص 222.

الإزراء بكل قساوة وما جنحوا قط أن ييأوا الأتجام والعرب منزلة سواء.

هما كان فإننا نجد صاحبنا أبا عطاء متحيزاً إلى فئة الحماة لبني أمية ويمكن العثور لنا على سبب ذلك في نزوحه إلى الموطن الأول. يقال إن يزيد بن عمر بن هبيرة الذي ولي إمارة العراق كانت أمه من بعض السلالات السندية وعلى ذلك يبدو أنه كيف أحس أبو عطاء بنوع قرابة "سلاية" منه وازداد على الأرح في توثيق علاقات حارة مع أسرة ابن هبيرة إلى أن وجد نفسه في بلاطه كما أنه كان بين ظهرائي عشيرته. وابن هبيرة هذا كان بلا امتراء من رؤس شيعة بني أمية وبار أنصار البيت الأموي. ومن هنا لم يستطيع أبو عطاء أيضاً إلا أن يتحزب للأموية طبعاً. وما كان أبو عطاء نصر الأمويين وانتصر لهم بنبوغته في الشعر فقط ولكنه في الواقع حارب عنهم وربما اتفق في أثناء بعض هذه المحاربات أن أبا عطاء وجد نفسه خلف رجل من بني مرة اسمه أبو يزيد وكان هو أيضاً مع أبي عطاء في الصف فيبينما يقتتلان عقر فرس أبي يزيد في معمعة القتال فالتفت هو إلى أبي عطاء وقال له: أعطني فرسك حتى أذود عنك وعن نفسي معاً وإلا هلكنا جميعاً. وهنالك نزل أبو عطاء عن فرسه وقدمها إلى أبي يزيد المري الذي ما إن ركبها إلا انفلت وحده تاركاً أبا عطاء خلفه مخذولاً عديم الحيلة.

حول هذه الحادثة قال أبو عطاء قصيدة فيما بعد ولا تزال عدة أبيات منها توجد للآن: وحسبنا منها أن نقل البيت التالي فقط الذي ينطوي على حكمة سامية:

رأيتُ مخيلةً فطمعتُ فيها وفي الطمع المذلةُ للرقاب

ويضاف إلى ذلك أن أبا عطاء نصح أيضاً للجمهور أن يظاهروا بني أمية ولا يخالفوهم.

وفي عصر مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية قويت شوكة الخوارج تحت قيادة ضحاك الخارجي بحيث إنهم استولوا فعلاً على الكوفة¹ وكان ممن تبع الخارجي هذا

¹ دائرة المعارف (ترجمة الضحاك).

عبيد الله بن عباس الكندي الذي قتل أخوه من قبل على يد ضحاك الخارجي هذا،
ومن ثم قال صاحبنا لعبيد الله يحرك فيه مشعر الآنفة:

قل لعبيد الله لو كان جعفر هو الحي لم يجنح¹ وأنت قتيل
ولم يتبع المراق والثأر فيهم وفي كفه غضب الذباب صقيل
إلى معشر أردوا أخاك وأكفروا أباك فإذا بعد ذلك تقول

ومهما يكن فالجموعة الباقية من شعره تحتوي أيضاً على قطعة قالها في هجاء بني أمية
والظاهر أنه لما سدّت عليه الأبواب كلها بانقراض الدولة الأموية فلم يبق أحد يكفله
ضامناً بمعاشه ومسعفاً بمرامه ولعله في هذه الفترة قاسى أيضاً ضيق اليد فاضطر
للخروج من الظروف القاسية إلى البلاط العباسي وبناء على ذلك ورد عنه أنّ
العباسية لما استولت على الخلافة فإنه نظم قصيدة في مدحهم وكان هذا المديح غير
تام طبعاً مالم يكن مقروناً بهجاء أعداء الأسرة العباسية (أي بني أمية خاصة)
ولذلك هجا أبو عطاء بني أمية بعد أن كانوا معضدين له بنوع خاص ولعله هجّاهم
كرهاً واضطراً ثم إنه قدّم إلى الخليفة العباسي ما قال في مديحه غير أن اتصاله
الوثيق ببني أمية كان أشهر من نار على علم فما زال إخلاصه لبني أمية أمراً مشبوهاً ولم
يؤذن له بالدخول على الخليفة في البلاط.

عندئذ، فيما يبدو، تراجع أبو عطاء وقال في هجاء بني العباس مقاطع عديدة والبيت
التالي بقية من بعض هذه الأهاجي:

فليت جور بني مروان عاد لنا وليت عدل بني العباس في النار²

¹ ويروى: ولم ينجح، الكامل في التاريخ، 336/5، والبيان والتبيين، 382/1 (أ)

² ويروى: يا ليت جور --- وأنّ عدل ---، الأغاني، 223/17، وسمط الآلي، ص 602، والحاسن
والمساوي، ص 246 (أ)

أشرنا من قبل إلى هذه الحقيقة أنّ المسلمين من الجنس العجمي عوملوا في عصر الدولة الأموية كرعايا الطبقة الثانية فما كادوا يستمتعون من الحقوق المدنية نفسها التي استمتع منها مواطنوهم من الجنس العربي¹ فانتهزت العباسية فرصة الانتفاع بهذه الحال ولأجل أن يكتسبوا معونة الرعايا كلهم وعدوا الجمهور بإقامة النصفة الكاملة في المعاملات كلها إما في الحقوق الاجتماعية وإما في الحقوق السياسية. ومن هنا لقب بنو العباس أنفسهم بحماة العدل ونبزوا الأمويين بالجائرين القساة. والبيت المتقدم هزأ فيه الشاعر بدعوى العباسيين وأعلن بالجهر أنّ عصر الأمويين حتى مع جورهم كان أكثر توفيقاً من عصر هؤلاء العباسية.

ونفس هذا الرأي أظهره أبو عطاء بوضوح أكثر في قطعة أخرى ومنها ما يلي:

أليس الله يعلم أنّ قلبي يحبّ بني أمية ما استطاعا
وما بي أن يكونوا أهلَ عدل ولكني رأيتُ الأمر ضاعا

لاغرو أنّ أبا عطاء كان من مشاهير شعراء عصره وكفانا تحقيقاً لمكانته البارزة أن نذكر بأن تفوقه في الشعر قد اعترف به الأجلاء من أدباء اللغة العربية الذين امتازوا بعلو مكانتهم في الأدب- يقول الناقد البصير عبد الملك بن قريب الأصمعي (ت 828 ميلادية): إنه كان بليغاً مصقّعاً. وهذا ابن قتيبة الدينوري (ت 889م) يقول: "كان جيد الشعر".² ويبدى البكري³ (ت 1093) رأيه فيه بما نصه "وهو مع ذلك من أحسن الناس بديهة وأشدّهم عارضةً وتقدماً"- وقال ابن خلكان في مستهل الترجمة لصاحبنا:

"إنه شاعر مشهور، وبعد أن ذكر أخباراً معينة عنه لاحظ بأنه شاعر مجيد، وبعض المقطعات النادرة من شعره توجد في كتاب الحماسة وبذلك انتهت الملاحظة التي

¹ تاريخ العرب، ص 232

² كتاب الشعر والشعراء، ص 842

³ سمط الآلي، ص 602.

قدّمها مع بيان ولوعه بشعر أبي عطاء وإنه لو لا مخافة التطويل وانخروج عن الموضوع لأورد بعض المقطعات الرائعة له.¹

في أثناء هذه الأيام التي عاش بها أبو عطاء كانت العراق تزدهر طبعاً بوجود عدد وفير للشعراء المفلّحين والعلماء المبرزين ولا بد أن أشير على سبيل المثال إلى بشارد بن برد² ومعن بن زائدة الشيباني³ وأنهما لم يعاصراه فحسب بل قضيّا بعض الأحيين في بلاد الأمير ابن هبيرة الذي أكنف أبا عطاء باستدامة فلعله طبعاً صحب ذينك الفحلين وأمثالهما وإن لم يصل إلينا بهذه المناسبة شيء جدير بالذكر. وكيفما كان فيبدو أنه لقي من الأدباء المعاصرين له احتراماً وتوقيراً فائقين.

يمكن أن نستدل ببعض الأبيات الشاردة لأبي عطاء وبما يدور حولها من الأقاصيص على علاقة وثيقة بينه وبين حماد الراوية الشهير ثم بينه وبين أبي دلامة الشاعر المعروف.

وذلك أنّ حماداً أو شك مرة أن يقع في أحبولة دبرها بعض حساده بأنه حرش أبا عطاء على أن يهجو حماد الراوية وإنما وقع في مجلس خاص حضراه مع غيرهما فبدأ حماد يهزأ بصاحبنا ويضحك على رطانته إلى أن حمي عليه أبو عطاء فلها أدرك حماد شدة غيظه خاف التبعة فاعتذر إليه على الفور وطلب منه الصّفح عما بدر منه.

وبمناسبة أخرى تشبه الأولى بالطبع يقول الراوي للقصة إن أهل المجلس كلهم تقريباً كادوا يتقهقهون ضحكاً منه بسبب لهجته المغلوطة ولكنهم مع ذلك كانوا خائفين منه حتى لم يتجرؤا على أن يتضحكوا وإنما أطبقوا الشفاه بكل جهد.

ويروى فيما دار بينه وبين أبي دلامة أنه ذات مرة هجا بغل أبي دلامة فقال:

¹ تاريخ الأدب العربي، ص 370

² وفيات الأعيان، 369/4 (ترجمة مكحول)

³ المرجع السابق، 340-231/4

أ بعل أبي دلامة مُتَّ هزلاً عليه بالسخاء تعولينا
دواب الناس تقضم ملخالي وأنت مهانة لا تقضمينا
سليه البيع واستعدي عليه فإنك إن تباعي تسمينا
فلما بلغ ذلك أبا دلامة خشي أن هذا الهجو يتفشى سريعاً فباع البغل حالاً وهجا
بنفسه البغل بكلمة طويلة ولا بأس أن نورد بيتاً منها فيما يلي:

فقلت بأربعين فقال أحسن إليّ فإنّ مثلك ذو سجال¹
هذا وبمناسبة أخرى رأينا أبا عطاء يهجو أبا دلامة هجاءً مريراً ولا ندري السبب لذلك
غير أنهما لم يكونا إذ ذاك على اتصال وديّ وإنما بقي من هذا الهجاء بيتان كما يلي:

ألا أبلغ هديت أبا دلامة فليس من الكرام ولا كرامة
إذا لبس العمامة كان قرداً وخزيراً إذا وضع العمامة²
كان أبو دلامة بلا شك شاعراً معروفاً وكان أيضاً شهيراً لمجونه وسلاطة لسانه وقوة
عارضته وارتجاله الشعر ولكنه مع ذلك سكت عن هذه الأهاجي التي قالها أبو عطاء
واستسلم لها.

هذه الأحاديث السابقة ترينا رأي العين بأن أبا عطاء احتل مكانة سامقة بين
اللوادعة المبرزين من معاصريه وهي أيضاً تشير إلى أنّ قصائده سارت بها الرجان
وكانت مألوفة جداً لدى الجماهير، أما سبب هذا الشيوخ والانتشار فلعل الباحث يعثر
عليه إذا تأمل في شعره من الناحيتين المادية والمعنوية.

ما زال الشعر الجاهلي يتخذ نموذجاً أمثل بالعموم حتى في عصر الدولة الأموية والشعراء

¹ دائرة المعارف، 292/4.

² وفيات الأعيان، 77/2.

في الغالب تنافسوا في الامتثال بهذا الشعر في كل من الأساليب والمعاني حتى إذا أشوا على الخلفاء وأبنائهم الأمراء الذين عاشوا تماماً بالعراق أو الشام عيشة متحضرة للدرجة القصوى، أشوا عليهم بأشياء تعدّ في خصائص الحياة البدوية كما لو أنهم كانوا متمدحين لبعض¹ شيوخ البدو. ومن هنا لم يستطع الجمهور في مختلف المديرية أن يقدروا قيمة هاتيك المدائح بل أنهم عجزوا أيضاً بالكلية عن فهم مغزاها وذلك لما كانت غالبية الجماهير في شتى الحواضر والأرياف عبارة عن غير الجنس العربي ثم إن العرب المجاورين لهذه الغالبية أيضاً كانوا متأثرين بدرجة عظيمة من الثقافة الأجنبية السائدة.

كيفما كان فإن الأسلوب الذي اختاره أبو عطاء في النظم يبدو ساذجاً نقياً للغاية وفي واقع الأمر يبدو بساطة الأسلوب مع الانسجام من معالم شعره الرئيسية. ولا غرو أنه كان شاعر الجماهير كما أنه استعمل اللغة المألوفة لدى العامة ومن هنا انتشرت منظوماته بسرعة فيما بينهم. وكان أبو عطاء نفسه عارفاً بما أتيج له من قبول لدى الجمهور وعلى ذلك يقول في غضون مديحه لسليمان بن سليم:

فاعتمدني بالشكر يا ابن سليم في بلادي وسائر البلدان²
ستوافيهم³ قصائد غرّ فيك سبابة في كل لسان

فعلاً حظي أبو عطاء بموهوبة فطرية لقرض الشعر، ومن هنا نظم أبياتاً ومقطعات بلا تحضير سالف، وبهذا الخصوص توجد شواهد عديدة تدلّ على أنه استطاع بسهولة جداً أن يرتجل القوافي بأية مناسبة وعلى أيّ بحر من الموازين المتنوعة. وربما قدر على أن يكلم الناس بكلام منظوم وعلى الأرحح كان معروفاً لنظم الشعر ارتجالاً فقد طلبوا منه في

¹ تاريخ الأدب العربي، ص 236.

² ويروى: ثم خذني بالشكر --- حيث كانت داري من البلدان، مجلة المورد، ص 291 (أ)

³ ويروى: سترى فيهم، المرجع السابق، ص 291 (أ)

بعض الأحيان أن يرتجل نظماً مقطوعاً على بحر حدوده اختياراً له أو لأي غرض آخر. ومثال ذلك ما ورد في بعض الروايات أنّ إبراهيم بن الأشتر أرسل إليه بالبيتين التاليين واقترح عليه أن يضم إليهما بيتين آخرين على هذا البحر من عند نفسه وهما:

وبلدة يزدهي الجنان طارقها قطعها بكاز اللحم معطاه
وهنا قد حلق النسران أو كربا وكانت الدلو بالجوزاء منتاطه
ولا شك أنّ هذا البحر عسير جداً غير أنّ أبا عطاء نظم بمنتهى السهولة بيتين آخرين
يلتزمان تماماً بالتوأمن المتقدمين لا من جهة البحر والقافية فقط بل ومن جهة المعنى
أيضاً فقال:

فانجاب عنها قيصُ الليل فابتكرت تسير كالفحل تحت الكور لطّاطة
في أبقى كلها حتّ الحداة لها بدت مناسمها هوجاء حطّاطة
هذا ولا يستدلن أحد بما تقدّم بيانه أنّ أبا عطاء أتى بشيء من اللهجات المحلية أو
العامة المبتذلة المغلوطة نهائياً ولا يخفى أنه استعمل فعلاً لغة بسيطة الجمال منسجمة
هي في الوقت نفسه وساذجة وصریحة ولم يستعذب قط لغة مصطنعة وعبارة مكلفة
أو الأساليب التقليدية والتراكيب القديمة وكان فعلاً قد شرب من روح اللغة العربية
فكاد لا يرتكب مخالفة للقواعد اللغوية:

ههنا يمنع تقييد هذا الحارث أنّه بينما كان راويته ينشد كلمة له في مدح سليمان بن
مجالد، إذ أخطأ في البيت الآتي:

فما فضلت¹ يمينك من يمين ولا فضلت شمالك من شمال
فإنه تلفظ بكهتي شمال ويمين مضمومتين فجعلها في حالة الفاعلية وكان ذلك لا محالة

¹ ويروى: قلت --- فقلت، المرجع السابق، ص 289 (أ)

خطأ فاحشاً فاهتاج أبو عطاء عندئذ وقال له: "ويلك فما مدهته إذًا إنما هزوته" - يريد "ويلك فما مدحته إذا إنما هجوته" ثم إنه لقن الراوية هذا البيت على الوجه الصحيح إلا أنه أنشد على الوجه الآتي:

فما فزلت يمينك من يمين ولا فزلت سمالك من سمال
هكذا أفسد البيت بتمامه لفساد اللهجة والتلفظ السقيم وسبب المستمعين أن يضحكوا
عليه ولكنه لم يستطع أن يصبر على غلطة نحوية.

ومهما كان، فإنّ الباحث ربما يعثر على شيء من زلاته في استعمال بعض الكلمات وخاصة في البيت التالي:

دواب الناس تقضم ملبخالي وأنت مهانة لا تقضمينا
فكلمة (دواب) جمع دابة مشددة الباء ولكن الوزن يقتضي التخفيف وكذلك حرف
النون ساقط والأصل (من المخالي) ومما يلزم الانتباه له أنّ كلمة (دواب) أو ما جاء
على وزنها ما لم يتبدل التخفيف بتشديدها لا يستعمل في أي تفعيل عروضي لأي
بحر من بحور الشعر العربي ما عدا التفعيل الأخير للشطر الأول على البحر
المقارب،¹ وبناء ذلك اضطر الشاعر أن يستعمل الكلمة في غير محلها الصحيح بنوع
طفيف ويقارب ذلك أنّ الشاعر بخصوص كلمة (من المخالي) تحرّج إلى حد ما من
المقررات النحوية محافظة على البحر ولعل ذلك يأتي في عداد المرخصات الشعرية
ويوجد مثال ذلك في كلام آخرين كثيرين.

ولا شك أنّ أبا عطاء أخطأ في البيت التالي:

أقام على الفرات يزيد حولاً فقال الناس: أيهما الفراتي

¹ كتاب الكامل، 16/1.

وذلك أنّ قافية البيت لا تتفق مع أخواتها الباقية تماماً لأن الروي فيها مكسور وأما ههنا فهو مضموم وهذا بلا ريب عيب من عيوب القوافي والعروض، ويسمّى الإقواء. كيفما كان فلا يصح الاستدلال بمثل هذه الأخطاء القليلة على أنّ صاحبنا لم يكن متضلّعاً باللغة العربية.

أما طرائف معانيه في الشعر فلا يمكن لنا بخصوصها أن نقول شيئاً بالقطع لما أننا نجد قسماً قليلاً جداً من شعره في متناول أيدينا على أنّ هذه البقية اليسيرة من شعره عبارة عن مقاطع جميلة معينة ومختلف أبيات شاردة وهي تشتمل غالباً على صنوف الشعر المتداولة كلها في عصر الشاعر أعني المدح والهجاء والثناء والغراميات والوصفيات وهلم جراً. ولكنها لا تكفي للدلالة على كفاءة الشاعر المطردة باعتبار تكفيره الشعري وكيفما كان فإننا نستطيع أن نستنبط من هذه المجموعة اليسيرة بعض النقاط البارزة.

فأولاً وقبل كلّ شيء يجب الانتباه إلى أن الشاعر مع أنه فيما يظهر يقتفى بالعموم نماذج تقليدية للشعر الجاهلي لا يكاد يحذو حذوها بالتدقيق والالتزام. فإنه أحياناً يجترئ فيخلع ربة الانقياد للقديم ويعرفنا بالتأملات الجدد والآراء المبتكرة. ثم إنه يستمد الهيئة الاجتماعية التي مارسها والشؤون السائدة حواله في اتخاذ الأشباح الفكرية. ولعله كان رجلاً عملياً ولذلك أحبّ أن يصف الحقائق المحسوسة للحياة ومشاهدات عينية المليئة بالحياة ولعل ذلك سبب آخر لشهرته لدى الجماهير ومثال ذلك أنه يقول يهجو العباسية الهاشميين:

بني هاشم عودوا إلى نخلاتكم فقد قام سعر التمر صاع¹ بدرهم
ونحو ذلك صادف مرة أنّ يزيد بن عمرو بن هبيرة أمير العراق فرق على الناس

¹ ويروى: صاعاً، الشعر والشعراء، 2/652، وسمط الآلئ، 1/602، والخزانة، 4/170 (أ)

دسائع ضخمة وهو مقيم بقرب ضفاف الفرات إلا أنه لم يمنح أبا عطاء بنقير ولا قطمير فنظم أبو عطاء بعد ذلك كلمة تحتوي على ما يلي:

أقام على الفرات يزيد حولاً فقال الناس: أيهما الفراتي
فيا عجباً لبحر بات يستقي جميع الخلق لم يبُلُّ لهاتي
فعند ذلك قال له يزيد: كم يبيل لهاتك يا أبا عطاء؟ قال: عشرة آلاف درهم. فأمر
يزيد ابنه أن يزن لأبي عطاء هذا المبلغ الخطير.

إن القطعة الآتية تشهد له بالوضوح بقوة الإبداع بالتكفير ولا غرو أن هذا الشاعر
اسم خلقة فيما يبدو بعقلية إبداعية ومن هنا كان يجب بالطبع أفكاراً جديداً وآراء
أصلية حتى أنه عندما اقتفى أثراً قديماً لم يقلد القدماء تقليد الأعمى ولكنه حاول على
الدوام أن يحدث شيئاً من التصرفات ويأتي بشيء جديد في ضمن ذلك، واتفق ذات
مرة في غضون المحادثة أن حماد الراوية أنشده البيت الآتي:

إذا كنت في حاجة مرسلًا فأرسل حكيمًا ولا توصه
يبدو هذا البيت حسنًا جدًا ولذلك بالعموم يمثلون به ولكن بالنظر إلى الحقيقة ليس
هذا المعنى الذي تضمنه البيت شيئاً معمولاً به على الدوام إذ ليس بوسع أحد مهما
امتاز عقلاً وفهماً أن يحيط بكل شيء علماً و يدعي بذلك كادت هذه النكتة لا
تتملص من عقلية أبي عطاء الإجرائية لذلك ما إن سمع صاحبنا هذا البيت إلا وردَّ
على صاحبه قائلاً: ما أسوأ هذا القول! فقال له حماد: وكيف كنت تقول، فهنالكَ
أجابه أبو عطاء: إنني نقلت هكذا وأنشده ما يأتي على البديهة:

إذا أرسلت في أمرٍ رسولًا فأفهمه وأرسله أديبا
وإن ضيَّعت ذاك فلا تله على أن لم يكن عِلْمَ الغيوبا
في ضوء التحليل الآنف الذكر لعني لا أكون مخطئاً إذا قلت إن صاحبنا أبا عطاء

حقيق بأن يكون معدوداً في طليعة المعرفين ببعض التصرفات القطعية في النموذج القديم للشعر العربي. وسيجد القارئ في هذه المجموعة الضئيلة من شعره أبياتاً رائعة يقع عليها الاختيار وبعض المقطعات تحتوي أبياتاً تظهر في الواقع كأقوال مليئة بالحكمة. وإنما يعجبني جداً أن أختم هذا المقال بالقطعة الرائعة التالية أوردتها صاحب الأغاني في ضمن الأصوات الشيقة لإبراهيم الموصلي (746-804م) أحد مشاهير المغنين العرب على أنه من صغار أقران أبي عطاء أيضاً وهي:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه شكى الفقر أو لام الصديق فأكثر
وصار على الأذنين كلاً وأوشكت صلات ذوي القربى له أن تنكرا
فسرّ في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا
ولا ترض من عيش بدونٍ ولا تم وكيف ينام الليل من كان مُعسرا
وما يدرك الحاجات من حيث تبتغى¹ من الناس إلا من أجدّ وشمراً²

¹ ويروي صدر البيت:

وما طالب الحاجات في كل وجهة

مجلة المورد، ص 284 (أ)

² مع الشكر لمجلة "ثقافة الهند"، 2-1/19 (يناير-مارس وأبريل-يونيو 1968م)

المصادر والمراجع

1. الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري، لايدن، 1913م، د.ط.
2. الأدب المفرد للبخاري، القاهرة، 1375هـ، د.ط.
3. تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (بالألمانية)، د.ت.
4. تاريخ الأدب العربي لحنا الفاخوري، لبنان، 1951م، د.ط.
5. تاريخ الأدب العربي لنيكلسون، د.ت.
6. تاريخ الرسل والملوك للطبري، طبعة الحسينية، القاهرة
7. تاريخ الشعر العباسي لأحمد الشائب، القاهرة، 1953م، د.ط.
8. الجامع للترمذي، لكناؤ، 1876م، د.ط.
9. حج نامہ، طبعة دلهي، 1939م، د.ط.
10. دائرة المعارف للبستاني، مصر، 1900م، د.ط.
11. سمط الآلي للبكري والميمني، القاهرة، 1936م، د.ط.
12. الشعر والشعراء لابن قتيبة، القاهرة، 1964م، د.ط.
13. فتوح البلدان للبلادري، القاهرة، 1323هـ، د.ط.
14. فيليب حتي، تاريخ العرب لفيليب حتي، د.ت.
15. كتاب الأغاني للأصفهاني، بيروت، 1959م، د.ط.
16. كتاب الكامل للهربد، القاهرة، 1355هـ، د.ط.
17. كتاب المعارف لابن قتيبة، غونتجن، 1850م
18. مجلة المورد الفصلية، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ، بغداد، المجلد: 9، العدد: 2، صيف 1980م
19. معجم البلدان لياقوت الحموي، بيروت 1957م، د.ط.
20. وفيات الأعيان لابن خلكان، القاهرة، 1948م، د.ط.

والدكتور أورتك زيب الأعظمي من العلماء الموقنين البارعين في الكتابة العربية وله مؤلفات كثيرة أشاد بها الأوساط العلمية، وله باع طويل وقدرة فائقة على الكتابة العربية والترجمة والتحقيق، كما له ذوق عالٍ في قرص الشعر العربي والفارسي، وقد طبع له إلى حد الآن قرابة سبعين كتاباً وترجمة من الهند وباكستان، والسعودية، ودمشق، وبيروت.

وكتاب "القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري" الذي أعرضه لكم طُبعَ في حلة قشبية وثوب رائع في 108 صفحة وهو حافلٌ بالمعلومات وجامعٌ لجميع المواد حول حياة القاضي أطهر، وتدللُّ صورة الكتاب على ذوق الدكتور العالي والعلمي وهو جدير بذلك.

يبتدئ الكتاب بتصدير رائع للمؤلف، عرّف فيه موجزاً بشخصية القاضي وأعماله التي ينفرد بها عن أقرانه وأمثاله من المؤلفين كما ألقى الأضواء على سبب تأليف هذا الكتاب، ثم شرع المؤلف في كتابه بمدخل وجيز يبلغ سعى فيه لبيان الهنود الأفاذا الذين مضوا لسبيلهم في نهاية القرن العشرين، ومن هؤلاء العلماء الأفاذا حقاً القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري.

ثم وَّزَع المؤلف الكتابَ إلى ستة أبواب رئيسية، وكلُّ بابٍ مقسومٌ في فصول عدة، أنهاها بثبت للمصادر، وفهرس للمحتويات.

فالفصل الأول للباب الأول، الذي ينطق عن أصله ومولده ونسبه، يذكر: أنّ القاضي عبد الحفيظ المعروف بـ"أطهر المباركفوري" ولد في الساعة الخامسة صباحاً، اليوم الرابع لشهر رجب سنة 1334 هـ المصادف للسابع من شهر مايو سنة 1916 م بالدار الواقعة فيما بين الحيين حيّ بوره صوفي وحي حيدرآباد بمباركفور، ولد القاضي أطهر ونشأ وترعرع بهذا الدار. (القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري، ص 11)

ثم يلقي الأضواء على أعمامه وإخوانه وخاصة على القاضي أطهر المباركفوري بأنه كان أكبر أولاد أبيه سنّاً وكان مولعاً وشغوفاً بالتحقيق والتدقيق منذ نعومة أظفاره، وكان

ويقول كذلك:

كچھ دنوں میں اور بدلے گی یونہی رسمِ قفس
اب تو کچھ آزادی آہ و نغال ہونے لگی

ترجمة: سيتغير تقليد القفص شيئاً في أيام مقبلة.

وذلك لأنّ شيئاً من آه الحرية وبكائها يسمع الآن. (المصدر نفسه، ص 66)

والباب الرابع من الكتاب يذكر صفات القاضي ومواهبه، فيبرز حليته الظاهرة والباطنة بأنه كان ضارباً إلى القصر، كثير اللحية، واسع الجبين، معتدل الجسم، لا نحيلاً ولا مفتولاً، أسمر اللون، قوي الذاكرة، وذكي الفؤاد.

ومن صفاته الحسنة الممتازة كونه بسيطاً متواضعاً حتى لم يكده يعرفه أحد، وإذا عزم على أداء خدمة لم يتخلف عن إتمامها، وكان صحيح الفكر في اتباع المذاهب الفكرية، وحميداً في الوطن والخارج حتى يشيد به ويحمده ويثني عليه كلّ أحد، وكان غيوراً في العلم والعمل، ومكرّم الكبار والصغار، ومراعياً لأولاده، ومعترفاً بالانتقاد عليه. ولقد تكابد المشاق مع شهرته الواسعة طول الحياة.

والفصل الثالث للباب الرابع يتحدّث عن أسلوب كتابته العربية فيقول الدكتور الأعظمي موضحاً مدى نبوغه في العربية ويعرض أمثلة عديدة من كتبه العربية:

"وبما أنّ القاضي أطهر كان يكتب، في معظم الأحيان، باللغة الأردوية فيمكن أن يثور في ذهن أحد منا سؤال عن عربيته، فنودّ أن نقطع دابر الشك عن هذا الجانب من ثقافة القاضي أطهر، ويحمل بنا أن نذكر بعض النماذج لكتابه العربية، فيقول وهو يصوّر شخص وشخصية شاعر العربية الهندي أحمد حسين الرسول فوري (1359هـ):

"كان رحمه الله أسمر اللون، طويل القامة، جميل الوجه، لطيف الثياب، حسن الهيئة، يحبّ الروائح الطيبة، أقلّ الناس تكلفاً، طلقاً، ضاحكاً مضحكاً، خادماً في الدار،

استعراض كتاب: "القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري" لمؤلفه: الدكتور أورنك زيب الأعظمي

- د. محمد البويسفي¹

لطالما أنتجت الهند علماء مسلمين عظاماً، تميزوا بالعلم الغزير والأخلاق العالية، وبالعباء والإبداع في العلوم الشرعية والعربية، وبالأصالة والرزانة العلمية. ولا غرو في ذلك لأنّ بلاد الهند خصبة معطاءة كريمة.

والكتاب الذي بين أيدينا اليوم هو لواحد من الباحثين المتميزين والمتألقين بالهند، ألا وهو الدكتور أورنك زيب الأعظمي، وهو مدير تحرير (مجلة الهند) الناطقة بالعربية، وأستاذ مساعد للغة العربية وآدابها في الجامعة المليية الإسلامية في نيودلهي. وعُرف عن الدكتور الأعظمي نشاطه العلمي على أكثر من صعيد، سواء في مجال الكتابة والتأليف أو الترجمة أو في مجال التعليم. صدرت له مجموعة من الكتب بالعربية، ومقالات علمية جمة في مجالات داخل الهند وخارجها، وتصبّ جهوده العلمية في خدمة اللغة العربية بصفة خاصة، وفي التعريف بعلماء الهند وقضايا المسلمين هنا. وساهمت كتابته باللغة العربية في التواصل بين العرب الهنود بشكل كبير.

أما الكتاب المدروس فهو "القاضي أبو المعالي أطهر المباركفوري"، في مئة وثماني صفحات، وصدر عن مركزي بليكيشنز بنيو دلهي، في نوفمبر 2020م، ويحكي سيرة وحياة عالم من علماء الهند في هذا العصر، ألا وهو القاضي أطهر المباركفوري، الذي عاش في القرن العشرين الميلادي (1916-1996م)، وكان من الذين نذروا حياتهم لخدمة الإسلام والدفاع عن قضايا المسلمين في القارة الهندية، أمثال الشيخ أبي

¹ جامعة القاضي عياض، المغرب

الحسن علي الندوي (ت1999م)، والشيخ أمين حسن الإصلاحي (ت1997م)، وقد عاش القاضي أظهر المباركفوري في مرحلة عصيبة من تاريخ المسلمين في الهند، مرحلة عرفت تقسيم البلاد، وما ترتب عنها أحداث ونتائج مؤثرة.

ويتكون الكتاب من ستة أبواب كل باب يتألف من فصلين أو أكثر. أما عن سبب تأليف الكتاب فهو عدم نشر أية مقالة علمية جادة باللغة العربية تُعَرِّفُ بسيرة وأعمال القاضي أظهر المباركفوري، وما كُتِبَ عنه لم يُوفِّه حقه، ولم يشف غليل المؤلف. فُهِجَ إلى المبادرة والكتابة عن حياة هذا العالم الجليل والتعريف به وبأعماله العلمية الجليلة.

والكتاب عبارة عن مقالات علمية سبق ونشرها المؤلف سنة 2014م بعنوان: "القاضي أبو المعالي أظهر المباركفوري"، ثم بعد ذلك أضاف إليها معلومات مفيدة حصل عليها خلال دراسته لحياة القاضي أظهر، حتى تشكّلت في صورة كتاب، فقام بنشره، تعميماً للفائدة، ووفاء لحق القاضي أظهر. وميزة الكتاب أنها باللغة العربية، والمستهدف بالكتاب فئة الناطقين بالعربية والباحثين العرب.

أما عن تفصيل محتوى الكتاب، فقد خصّص الباب الأول لبيان أصل ومولد القاضي أظهر، وخلفيته وتعليمه، تحدّث في الفصل الأول من الكتاب عن أصل ومولد القاضي أظهر ونسبه، فهو القاضي عبد الحفيظ بن الشيخ الحاج محمد حسن بن الشيخ الحاج لعل محمد بن الشيخ محمد رجب بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ إمام بخش بن الشيخ علي. هاجر جدّه الشيخ الحاج لعل محمد وطنه كرا مانكفور مع الشيخ الراجه السيد مبارك بن الراجه السيد أحمد الجشتي المانكفوري في عصر السلطان نصير الدين همايون وتوطن هذه البلدة الحديثة العهد التي قام بتأسيسها الشيخ الراجه السيد مبارك المانكفوري. فقد وُلِدَ الشيخ القاضي المعروف بأظهر في السابع من شهر مايو سنة 1916 ميلادية، بمباركفور. وكان أكبر أولاد أبيه مما أتاح له فرصة العناية والاهتمام الكبيرين من قبل أفراد العشيرة، حيث تربّت في بيت كرم وعلم، وفضل وعاش

طفولته مثل أقرانه وتمتع باللعب واللهو، ثم حمّله أبوه على طلب العلم والأدب، داخل الكُتّاب، فكان لهذا التوجيه نحو التربية والتعليم أثر بليغ على حياته فيما بعد، وكان لحسن التربية والتأديب أثرٌ على أخلاقه وسلوكه.

والفصل الثاني خصّصه للحديث عن خلفيته العائلية وأنّ عائلته كانت عُرُفت بشؤون القضاء، وأنه أخذ العلم منذ نعومة أظفاره من أمّه التي كانت عالمة، ونفس الأمر بالنسبة لجده، وكل ما أخذه من أدب وعلم يرجع إلى جهة خوّولته. وعرج في الفصل الثالث على مكان تلقيه العلوم والفنون والتي كانت في مباركفوري، في كتّابها ومعاهدها. ثم ارتحل إلى مرادآباد لإتمام دراسته الجامعية في الجامعة القاسمية. وبما أنه لم يكن بوسعه الانتقال إلى الخارج لتوسيع معارفه مثل الأزهر الشريف، فقد اهتم بجمع الكتب والاعتكاف على دراستها.

أما الفصل الرابع فأبرز فيه حبّ القاضي أظهر للعلم وشغفه باقتناء الكتب وجمعها رغم الصعوبات، وقد بدأ هذا الحب والشغف منذ المرحلة البدائية، فكان يحرص على شرائها أو إعارتها من زملائه، وكان ينسخ الكتب التي لا يقدر على شرائها، ولم يكن ليوقف عند شراء الكتب وتكديسها كما يفعل البعض، بل كان يقرأ ما يقتني من الكتب ويستفيد منها، وكان يقتطف منها مقولات يزين بها مقالاته، ومن عجيب فعله أنه كان يصليّ النوافل من وراء شراء كلّ كتاب.

أما الباب الثاني: فجعله خاصاً بالوظائف اشتغل فيها القاضي أظهر المباركفوري وتلاميذه، فتطرق في الفصل الأول إلى وظائفه التي شملت مجالي التدريس والصحافة، وفي عمله هذا قدم خدمة جليّة للثقافة الإسلامية في البلاد الهندية، سواء خلال تدريسه في المدارس والجامعات، أو من خلال عمله في الصحف والمجلات العلمية التي كتب فيها مقالات علمية قيمة في مجال العلوم الإسلامية.

أما الفصل الثاني فخصّصه لعضوية المجالس وتحرير المجلات، حيث اشتغل في هيئة

التحرير لعدد من الصحف والمجلات الهندية، وعمل مدير تحرير مجلة "الإحياء" في أعظم كره في الهند، ومدير تحرير مجلة رابطة الأدباء في مباركفور، ومدير تحرير جريدة "الأنصار" الأسبوعية الصادرة عن بهرائتش، ومدير تحرير جريدة "البلاغ" الأسبوعية الصادرة عن مومباي، ومستشاراً ثقافياً لإدارة إحياء التراث العربي التابع لوزارة الإرشاد والبناء بالكويت، وترأس جمعية علماء مهاراشترا بمومباي، وعضو مجلس الشورى لكل من دار العلوم تاج المساجد في بهوفال وندوة العلماء بلكاؤو، وغير ذلك من المهام العلمية والاستشارية للهيئات الإسلامية بالهند، وهذا يبرز جهده في خدمة الإسلام والقضايا الإسلامية، وانخراطه التام في هموم المسلمين في مرحلة عصيبة من تاريخ القارة الهندية في العصر الحديث.

والفصل الثالث خصّصه لتلامذته ومن استفاد منه. ولا غرو أن يكون له تلاميذ كثر خاصة وأنه كان مولعاً بالتدريس والتعليم ويمجد راحته في ذلك، ورغم هذا فلم يوفق في التدريس لمدة طويلة وبصورة منتظمة، وقد نثلهذ على يديه عدد من العلماء منهم أبو سعيد بزجي مدير تحرير مجلة "إحسان".

وجعل الباب الثالث للحديث عن مجالات القاضي أظهر العلمية والفنية، حيث بدأ الفصل الأول بالتأليف والتحقيق فذكر الكتب التي كتبها القاضي أظهر المبار كفوري، وشملت كتاباته المجالات الشرعية والأدبية، وفي الفصل الثاني خصّصه للعمل الصحفي الذي زاوله، ثم في الفصل الثالث ذكر النصوص التي ترجمها من وإلى اللغات: العربية والفارسية والأردوية، وفي الفصل الثالث ذكر اهتمام القاضي أظهر بالشعر منذ صغره حيث كان يقول الشعر وتُنشد قصائده في المجالس والمناسبات، وأغلب كتاباته الشعرية كانت باللغة الأردوية، ونضج شعره أكثر مع تقدّمه في السن.

وفي الباب الرابع تحدّث عن صفات القاضي أظهر ومواهبه، ففي الفصل الأول تحدّث الكاتب عن صورة القاضي أظهر وعن أخلاقه الرفيعة، حيث اتصف بالبساطة

والعزيمة القوية على أداء المهام المسندة إليه فقد كان يكتب المقالات والفتاوى بالموازاة مع تأليف الكتب والرسائل. وكان القاضي رحمه الله يتصف بسعة الفكر واستيعاب المخالف، وتقبل الانتقادات، وهذا ما جعله محموداً داخل الهند وخارجها.

أما الفصل الثاني فنخصه للحديث عن شظف العيش الذي عاشه القاضي رحمه الله تعالى حتى تكون عبرة للطلاب والباحثين الذين يعيشون اليوم في رغد وتوفر وسائل العلم لكنهم يزهون فيه. وفي الفصل الثالث تحدّث الكاتب عن أسلوب القاضي في كتابته بالعربية فرغم أن أغلب كتاباته كانت بالأردوية إلا أنّ كتابته بالعربية اتّسمت بالفصاحة والبلاغة والمتانة.

وفي الباب الخامس تعريف موجز بمؤلفاته ورسائله، بدأ الفصل الأول بالحديث عن ميزاته في التأليف والتحقيق بأنه كان يؤلف لهدف كبير هو خدمة الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم ينجر وراء الدعوات القومية أو المذهبية أو المصالح المادية، بل كان مخلصاً في كتاباته لدينه، ويختار الموضوعات الدقيقة المفيدة ولو كانت صعبة، ويرفع عن سفاسف القضايا والتفاصيل الجزئية.

أما الفصل الثاني خصّصه للتعريف بمؤلفاته ورسائله، وهي مؤلفات كثيرة أغلبها باللغة الأردوية، ومنها ما ترجم إلى العربية، مثل كتاب: "العرب والهند في عهد الرسالة" في 200 صفحة، وتمت ترجمته إلى اللغة العربية وصدرت من الهيئة المصرية بالقاهرة سنة 1973م. وكتاب: "العقد الثمين في فتوح الهند ومن ورد فيها من الصحابة والتابعين"، وهذا الكتاب ألف القاضي باللغة العربية في 335 صفحة، وهو كتاب يؤرخ للهند الإسلامية من أول الفتح الإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، وكتاب: "تدوين السير والمغازي" باللغة الأردوية أثبت فيه المؤلف أنّ السير والمغازي قد دونت في عصر النبي صلى الله عليه وسلم. وكتاب: "تقليد العلم وأصحابه في كافة طبقات المسلمين"، ويقول عنه الدكتور الأعظمي بأنه كتاب فريد ومهم في الموضوع بين فيه القاضي أظهر أنّ العلم ليس

بخاص طبقة معينة أو جيل خاص بل هي ثروة يأخذها من له رغبة ونشاط، وهو يجلي النظر الثاقب للقاضي والتصور التكاملي للجهود العلمية. ومن كتب القاضي المهمة والمشهورة في البلاد العربية كتاب: "رجال السند والهند إلى القرن السابع"، وهو في 328 صفحة، صدرت طبعته الأولى من المطبعة الحجازية بمومباي سنة 1958م، وتعهده القاضي اظهر بالتنقيح والزيادة حتى صدر في مجلدين في 588 صفحة، عن دار الأنصار بالقاهرة سنة 1978م. وله كتاب بالعربية أيضاً بعنوان: "الهند في عهد العباسيين" صدر من دار الأنصار بالقاهرة سنة 1979م. أما كتاب: "من القاعدة البغدادية إلى صحیح البخاري" فهو عبارة عن سيرة القاضي أظهر المباركفوري الذاتية التي قام بتأليفها باللغة الأردوية، كتبها القاضي ليعتبر بها العلماء ويقتدي بها طلاب العلم، وقد قام الدكتور الأعظمي مشكوراً بترجمتها إلى اللغة العربية حتى تعم فائدتها، ويتيسر على الباحثين العرب الاطلاع عليها، وهي منشورة على شبكة الألوكة بتاريخ 2015/10/12م. ومن الكتب المهمة التي ألفها القاضي أظهر والتي ضاعت نسختها الأم للأسف الشديد، والكتاب قام على تلخيص سبعة تفاسير أردوية موجودة بالهند واسم الكتاب: "منتخب التفاسير".

وهذا غيض من فيض حيث عدد الدكتور الأعظمي ما يفوق الخمسين كتاباً للقاضي أظهر المباركفوري، غطت مجالات شرعية وأدبية وثقافية، وتميزت أعماله العلمية بالاهتمام بالعلاقات العربية الهندية، فقد كان له همّ التقريب بين العالمين العربي والهندي، لما يجمعهما من دين وتاريخ وثقافة. وتوَّعت كتبه بين الجانب الأكاديمي التخصصي سواء في العلوم الإسلامية وتحقيق التراث، أو المجال الإصلاحية التربوي والدعوي، حيث كان له هم إصلاحية يروم نهضة الأمة الإسلامية وصحة شبابها.

وهذه الكتب تضاف إلى مقالات القاضي التي كتبها في مجالات شتى، والتي لو جمعت لكانت في خمسين كتاباً آخر وهذا يدل على غزارة قلبه وسعة فكره وثقافته.

وقد ساعده في ذلك مجال اشتغاله، حيث كان يشتغل في التعليم والعمل الصحفي ونخص هنا الصحف والمجلات العلمية والأكاديمية، وليس الإخبارية فقط.

أما الباب السادس فتحدث فيه عن موت القاضي وآراء الباحثين عنه، وخصّص الفصل الأول للحديث عن موت القاضي رحمه الله تعالى بسبب مرض كان يعاني منه، ولم ينفع معه دواء ولا طيب حتى عاجلته المنية الرابع عشر من يوليو سنة 1996 ميلادية. وبموته فقدت الأمة الإسلامية عالماً جليلاً وباحثاً نقاداً، صعب على نساء المسلمين ولادة مثله على الأقل حتى زمننا هذا، وهو زمن كثر فيه موت العلماء في الأقطار الإسلامية، ولم نر من يخلفهم في علمهم ومكانتهم وزهدهم وورعهم، وهذا أمر صعب لأنّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء..، فموت العلماء خسارة كبيرة، إلا أن يتدارك الله تعالى هذه الأمة برحمته، وأرى أنّ الساحة العلمية الإسلامية لا تبقى فارغة، عسى الله تعالى أن يهبئ جيلاً من العلماء الربانيين يجددون لهذه الأمة أمر دينها.

أما الفصل الأخير فنخصّصه لشهادات العلماء في القاضي أظهر المبار كفوري، فذكر عدداً من شهادات وآراء العلماء والباحثين في حقّ القاضي، وكلها كانت شهادة عرفان وتزكية للشيخ القاضي، تشهد له بالصلاح والتقوى والأخلاق الحميدة، وبالجهود العلمية التي بذلها في سبيل خدمة دينه وأمته ووطنه. وتأخذ شهادة محمد مبین المظاهري، أتمودجاً تشهد بجهود القاضي أظهر وبرايعته في المجالات العلمية المختلفة، وهي مما ساقه الدكتور العظمي في كتابه هذا الذي نحن بصدد استعراضه: "لقد كان الفقيه من عباقرة عصره. هو قام بجهود مشكورة ومآثر علمية وفكرية حول التاريخ والسير والتراجم والحديث والتفسير ومصطلحات الحديث وقد طبعت له مؤلفات كثيرة في الأردنية والعربية التي نالت تقديراً من أهل العلم والأدب وتمثّل الفكر الإسلامي الواعي المستنير --- ولا شك أنّ وفاته ليست خسارة لجامعة أو مدرسة

وطبقة خاصة بل هي خسارة فادحة عظيمة ومأساة كبيرة أليمة للعلم والدين والأدب".
وهذه وغيرها من شهادات ممن عاصره وخالطه وعرفه عن قرب، وهؤلاء العلماء شهداء الله في أرضه، ومن شهد له الناس بالصلاح فهو كذلك عند الله تعالى من الصالحين، ولا نزي على الله أحدًا. والقاضي أظهر رحمه الله تعالى، كان ممن كتب الله لهم القبول في الأرض، فلاقت كتبه وأفكاره قبولًا لدى الناس سواء داخل الهند أو خارجها، وهذا شأن المخلصين في أعمالهم يكتب اللهم لهم القبول. نسأل الله تعالى الإخلاص في القول والعمل. وختم الدكتور الأعظمي كتابه بلائحة المصادر والمراجع، لمن أراد تعميق الدراسة والبحث، والرجوع إلى المصادر والمراجع. ثم فهرس لموضوعات الكتاب.

والكتاب مهمّ وقيمّ في بابه، يُعرّف بعلم من أعلام الهند المعاصرين، وللباحثين الناطقين بالعربية خاصة، ويعتبر إضافة جيدة للمكتبة الإسلامية العربية، التي توثق لرجال الهند، وتحفظ ذاكرة الأمة، يقوي، هذا الكتاب، أواصر الأخوة الدينية والثقافية بين المسلمين العرب والهنود، وهي أحوج ما تكون للتقوية والتعزيز، وتجاوز الحدود الوهمية الحاجزة بين مكونات الأمة الواحدة. ولتمتين هذه الروابط والأواصر نحتاج لمثل هذه الكتابات التعريفية بأعلام الثقافة والفكر في العالمين العربي والهندي، ولأنشطة ثقافية وفكرية مشتركة خاصة وأنّ تقنيات التواصل تطوّرت وحطمت الحواجز وتخطّت الحدود، وتفعيل ترجمة الإبداعات سواء في اتجاه اللغة العربية أو الأردوية أو الفارسية. وتنشيط البعثات الثقافية والعلمية.

وفي الأخير أقول كلمة في حقّ المؤلف الذي هو الدكتور الأعظمي أنه يقوم بمجهود جبّار في خدمة اللغة العربية والثقافة الإسلامية، وجهوده في النهوض بد (مجلة الهند) الناطقة بالعربية شهادة على ما أقول، حيث ارتقى بهذه المجلة إلى مصاف المجلات العربية الرائعة في بلاد الهند.

الندوة الدولية الافتراضية

حول:

أدب السيرة الذاتية

عقدتها مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي
في 5-6/12/2020م

إعداد: د. عبيد الرحمن¹ ود. محمد أجمل²

نظم مركز الدراسات العربية والإفريقية، مدرسة الألسن، جامعة جواهر لال نهرو (نيو دلهي) بالاشتراك مع أكاديمية التميز بالهند ندوة دولية افتراضية حول "أدب السيرة الذاتية" في 5 و6 ديسمبر/كانون الأول 2020م، بإدارة الدكتور عبيد الرحمن، أستاذ مشارك بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو وتنسيق الدكتور محمد أجمل، أستاذ مساعد بالمركز ذاته، شارك فيها عدد كبير من الشخصيات العملاقة والأكاديميين المرموقين والأساتذة والباحثين والطلاب من مختلف الجامعات والكليات من الهند وجمهورية مصر العربية والمملكة العربية السعودية والمغرب ودولة الكويت والعراق، من أمثال الدكتور سامي سليمان أستاذ بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة، والبروفيسور زبير أحمد الفاروقي رئيس قسم اللغة العربية في الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي سابقاً، والدكتور إيهاب المقراني كلية الآداب بجامعة الفيوم (مصر)، والدكتور أيمن أحمد علي العوامري مدير مركز نور للبحث والاستشارات العلمية (القاهرة)، والدكتور واصفي

¹ أستاذ مشارك بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي

² أستاذ مساعد بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، نيو دلهي

ياسين عباس، قسم اللغة العربية بجامعة ملك خالد (السعودية)، وجيهان علي الدرمداش ناقدة أكاديمية (مصر)، والدكتور عبد المجيد رئيس القسم العربي بجامعة كالكوت، والدكتور صابر نواس سي أيم مدير أكاديمية التميز بالهند، والأستاذة سري طه حسين، الجامعة العراقية، والأستاذ إيهاب النجدي أستاذ مشارك بالجامعة العربية المفتوحة (الكويت)، والدكتور مصطفى عطية جمعة أستاذ الأدب العربي والنقد (الكويت)، والبروفيسور شفيق أحمد خان رئيس قسم اللغة العربية في الجامعة المليية الإسلامية سابقاً، والدكتور فضل الله شريف رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة العثمانية (حيدرآباد)، والدكتور تاج الدين المناني رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كيرالا وغيرهم كثيرون.

وقد اشتملت هذه الندوة على 9 جلسات فضلاً عن الجلسة الافتتاحية والختامية، قدّم خلالها الأساتذة والباحثون وورقاتهم البحثية التي يبلغ عددها 51 ورقة ككل. ونظراً لكثرة عدد المقالات وضيق الوقت، عقدت جلسات الندوة بصورة متوازية لمدة يومين.

استهلت الجلسة الافتتاحية في الساعة 02:30 ظهراً (حسب توقيت الهند) في القاعة رقم 1، برئاسة معالي مدير جامعة جواهر لال نهرو البروفيسور أم. جاغديش كومار. شرفها الأستاذ رشيد كهوس بجامعة عبد المالك السعدي (المغرب) بحضوره الميمون في هذه الجلسة كضيف شرف. وبهذه المناسبة، ألقى البروفيسور رضوان الرحمن رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو كلمة ترحيبية عبر من خلالها عن بالغ سعادته بحضور الضيوف الكرام والأساتذة الأجلاء والمندوبين الآخرين الذين تشرفوا بالمشاركة في هذه الندوة من مختلف الجامعات والكليات.

وبعد ذلك، ألقى البروفيسور عبيد الرحمن الطيب مدير هذه الندوة الافتراضية خطاباً حيويّاً عرّف من خلاله بهذه الندوة وأبرز أهمية السيرة الذاتية التي تحتل مكانة مرموقة لا في الأدب العربي فحسب بل في جميع آداب العالم الحية تقريباً. سرد المدير

أثناء خطابه أهم كتب السيرة الذاتية التي دمجها الأدباء والمؤلفون بمختلف لغات العالم خاصة بالعربية والأردية والهندية والفارسية والإنكليزية وغيرها من اللغات المحلية مثل البنغالية والتاميلية والآسامية على سبيل المثال لا الحصر.

وعقب ذلك ألقى البروفيسور أم. جاغديش كومار مدير جامعة جواهر لال نهرو كلمة افتتاحية عبر فيها عن شكره الخالص وامتنانه الوافر تجاه المسؤولين عن الندوة والقائمين عليها، وتحدث عن أدب السيرة الذاتية وأهميتها في حياة الأدباء والباحثين، حيث قال إنّ أدب السيرة الذاتية يعتبر من أهم الأجناس الأدبية التي تفتح عيون القراء وتصلق أذهانهم كما هي تحفهم على مطالعة حياة الآخرين حتى لا يركزوا على أنفسهم واستفادوا من تجارب أصحاب السير الذاتية. كما أشار معالي المدير إلى "قصة تجاربي مع الحقيقة" وهي السيرة الذاتية للمهاتما غاندي وأكّد على أنّ هذا الكتاب ترك آثاراً عميقة على معظم الكتاب والباحثين والقراء في الهند وخارجها لدرجة أنهم استلهموا بالزعيم الهندي المهاتما غاندي واستطاعوا أن يفهموا أفكاره.

ويليه البروفيسور السيد عين الحسن عميد مدرسة الألسن حيث عبّر عن مشاعره تجاه الندوة وأهمية أدب السيرة الذاتية في حياة الإنسان. فأدب السيرة الذاتية، على حد قوله، يمهّد للإنسان الطريق إلى التقدم والرخاء والازدهار ويجعله مثقفاً. وأثناء خطابه، عبّر العميد عن شغفه الكبير وحرصه البالغ على قراءة أدب السيرة الذاتية ووصف هذا الجنس من الأدب بأنه أكثر الأجناس الأدبية متعةً كما هو محبّب لديه كثيراً.

ثم ألقى الأستاذ رشيد كهوس بجامعة عبد المالك السعدي (المغرب) خطابه معرباً عن مشاعره الصادقة تجاه الندوة وسلّط الضوء على تاريخ أدب السيرة الذاتية عبر العصور. وهكذا، أوضح الأستاذ الفرق بين السيرة الذاتية والسيرة الغيرية بشكل جيد للغاية وأكّد أنّ السيرة الذاتية عبارة عن خلاصة تجربة ذاتية للكاتب وتشتمل على فترة تمتدّ منذ نعومة أظفاره إلى حين كتابة السيرة الذاتية، بينما تحتوي السيرة الغيرية على

وثائق تاريخية خاصة بحياة شخص آخر وتمتد فترته من طفولة ذلك الشخص إلى وفاته. وأخيراً، تقدّم البروفيسور مجيب الرحمن الندوي الأستاذ بمركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو، أصالةً منه ونيابة عن القائمين على الندوة بتوجيه أسى معاني الشكر والامتنان إلى الضيوف والأساتذة والطلبة والباحثين والحضور الكرام. وعقب الجلسة الافتتاحية، عقدت 9 جلسات أكاديمية متوازية على التوالي حسب الجداول يلي ذكرها، قدّم خلالها الأساتذة والباحثون مقالاتهم العلمية حول أدب السيرة الذاتية المكتوبة باللغة العربية والأردية والهندية والإنكليزية والكشميرية، وعقد بعضهم دراسة مقارنة بين السيرة الذاتية بالعربية والسيرة الذاتية باللغات الأخرى. وفي نهاية كلّ جلسة، خصّصت بضع دقائق للمداخلات وتقديم الاقتراحات وطرح الأسئلة من قبل الحضور، وقد استفاد من هذه الفرصة عدد كبير من الأساتذة والباحثين ووجهوا الأسئلة إلى مقدّمي المقالات للتوضيح وإزالة الشكوك.

أعرب الدكتور مجيب الرحمن الأستاذ بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو، في مقالته الأسبوعية في جريدة الرؤية عن آرائه حول الندوة بقوله: "عرضت البحوث المقدمة (51 بحثاً) تجارب متنوعة في فن السيرة الذاتية في الأدب العربي، والآداب الهندية كالأردية والبنغالية والكشميرية والإنجليزية وغيرها، وأوجه الشبه والاختلاف بينها، كما ناقشت تساؤلات في غاية الأهمية، منها: ما هي الفروق بين التاريخ والسيرة الغيرية والسيرة الذاتية، والذكريات والمذكرات؟، وما هي معايير ومواصفات السيرة الذاتية وشروط كتابتها؟، وما دور الصدق في مواجهة كاتب السيرة لنفسه؟، ولماذا تختلف السير الذاتية العربية عن غيرها في اللغات الأوروبية من ناحية قصورها في عنصر الاعتراف والبوح الشخصي؟، وما أهمية السير الذاتية في التوثيق التاريخي؟ وما قيمتها الأدبية؟، وما هي فوائدها".¹

¹ جريدة الرؤية، 13 ديسمبر 2020.

وتركزت المناقشات على عدد من السير الذاتية العالمية التي تمثل معلبة أدبية وفكرية مثل "قصة تجاربي مع الحق" للمهاتما غاندي، التي حكى فيها قصة تجاربه في ممارسة اللاعنف، و"أيام طفولتي" لطاغور، و"عصر العلم" لأحمد زويل، و"حياتي" لأحمد أمين، و"الأيام" لطف حسين، و"تقشير البصلة" لغونتر غراس، و"ذكريات" للشيخ علي الطنطاوي، و"رأيت رام الله" لمريد البرغوثي، وغيرها الكثير من السير الذاتية الشهيرة عالمياً.¹

عقدت الجلسات الأكاديمية التسع بترتيب متوازي في قاعتين مختلفتين وذلك عن طريق اقتراضي مما تأتي تفاصيلها في السطور التالية.

أقيمت الجلسة الأكاديمية المتوازية الأولى في القاعة الأولى بموضوع "السير الذاتية: دراسة أدبية وفنية" يوم السبت بتاريخ 5 ديسمبر 2020 بين الساعة 3:30 و5:00 مساءً، نسّق وترأسها الأستاذ الدكتور سامي سليمان، الأستاذ بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة القاهرة (مصر)، وقدمت خمس أوراق بحثية تالية في هذه الجلسة:

رقم التسلسل	المشاركة	المعهد/الكلية/الجامعة	عنوان المقالة
1	د. إيهاب المقراني،	الأستاذ بكلية الآداب، جامعة الفيوم، مصر	بلاغة السيرة الذاتية: قراءة في (حياتي) لأحمد أمين
2	د. أيمن أحمد علي العواميري،	مدير مركز نور للبحث والاستشارات العلمية، مصر، القاهرة	بنية السرد في كتاب (سيرة ذاتية) للأمير شكيب أرسلان
3	د. فضل الله	أستاذ مساعد بقسم اللغة	السيرة الذاتية "آب"

¹ المصدر نفسه.

	شريف، حيدرآباد	العربية بالجامعة العثمانية، الكاندلوي: دراسة فنية	بيتي" للشيخ زكريا
4	خليق الرحمن،	باحث بقسم اللغة العربية بجامعة كشمير	سيرة جبرا ابراهيم جبرا الذاتية: قراءة في الرؤية والتشكيل
5	محمد شفيق عالم،	باحث بمركز الدراسات العربية والافريقية، بجامعة جواهر لال نهرو، نيودلهي	دراسة تحليلية وفنية للكاتب "تربة سلامة موسى" لصاحبه سلامة موسى

وأقيمت الجلسة الأكاديمية الأولى في القاعة الثانية بموضوع "السير الذاتية: دراسة أدبية وفنية" بين الساعة 3:30 و5:00 مساءً، وترأسها الأستاذ الدكتور زبير أحمد الفاروقي، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية سابقاً، ونسق الجلسة الدكتور محمد قطب الدين، أستاذ مشارك بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو، نيودلهي، وقدّمت خمس أوراق بحثية في هذه الجلسة وهي كما يلي:

رقم التسلسل	المشاركة	المعهد/الكلية/الجامعة	عنوان المقالة
1	د. واصفي ياسين عباس،	قسم اللغة العربية، كلية العلوم والفنون، جامعة ملك خالد، تهامة، المملكة العربية السعودية.	قراءة نقدية في كتابات (هدى الدغفق) السيرية
2	جيهان علي الدمرداش	ناقدة أكاديمية مصرية، مقيمة في دولة الكويت	سيرة حياة الشاعرة فدوى طوفان فلسفة الحياة والإبداع

3	د. عبد المجيد	رئيس القسم العربي، جامعة كاليكوت	العناصر المشتركة بين أدب السيرة الذاتية والغيرية؛ دراسة نقدية
4	د. صابر نواز سي ايم	مدير أكاديمية التميز بالهند	القيم الثقافية والتربوية في أفكار الشيخ سلطان بن محمد القاسمي: قراءة في سرد الذات
5	بلال أحمد،	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو	تعلم اللغة العربية كما ينعكس في "كاروان الحياة" للقاضي المباركفوري

وبدأت الجلسة الأكاديمية المتوازية الثانية في القاعة الأولى، بين الساعة 6:00 و7:15 مساءً بعنوان "السير الذاتية: دراسة تحليلية ونقدية" ترأس الجلسة الأستاذ الدكتور عبد الماجد القاضي، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية، نيودلهي وقام بتنسيق الجلسة الدكتور سيد محمد طارق، أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية بكلية ذاكر حسين دلهي، نيودلهي وتم تقديم ست أوراق بحثية تالية في هذه الجلسة:

رقم التسلسل	المشاركة/	المعهد/ الكلية/ الجامعة	عنوان المقالة
1	أ.م.د. سرى طه ياسين،	الجامعة العراقية، كلية التربية للبنات	إحسان عباس في سيرته الذاتية حين يصبح الناقد مؤلفاً

2	د. أورنك زيب الأعظمي	أستاذ مساعد، بقسم اللغة العربية بالجامعة المليية الإسلامية	السيرة الطائرة لإبراهيم نصر الله: دراسة تحليلية
3	د. محمد منظر عالم	أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية، بجامعة بابا غلام شاه، راجوري جامو وكشمير	دراسة تحليلية للكاتب " الأمير شكيب أرسلان"
4	د. عبد الناصر علي	أستاذ ضيف بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو	"أنا ورومي" السيرة الذاتية لشمس تبريزي: دراسة تحليلية
5	محمد غلام سرور خان	باحث بقسم اللغة العربية، بجامعة ايفلو، حيدرآباد	أنا: عباس محمود العقاد: دراسة تحليلية ونقدية
6	محمد فهميم	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، بجامعة جواهر لال نهرو	شهاب نامہ لقدرت اللہ شهاب: دراسة تحليلية نقدية

وبدأت الجلسة الأكاديمية المتوازية الثانية في القاعة الثانية، بين الساعة 6:00 و7:15 مساءً بعنوان "السير الذاتية: دراسة تحليلية ونقدية" ترأس الجلسة الأستاذ الدكتور مجيب الرحمن، رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية بجامعة جواهر لال نهرو سابقاً وقام بتنسيق الجلسة الدكتور عبد المجيد إي، رئيس قسم اللغة العربية بجامعة كاليكوت (كيرالا) وتم تقديم ست أوراق بحثية تالية في هذه الجلسة:

رقم التسلسل	المشاركة/	المعهد/ الكلية/ الجامعة	عنوان المقالة
1	أ. د. إيهاب النجدي،	أستاذ مشارك بالجامعة العربية المفتوحة، الكويت	الاعتراف الذاتي بين الاستكباب والمرجعية: تجربة مجلة "الهلال" 1951م.
2	د. علي رضا،	رئيس قسم اللغة العربية، كلية بهانغر التابعة لجامعة كولكاتا	عباس محمود العقاد وسيرته الذاتية "أنا": دراسة تحليلية ونقدية
3	د. محمد أكرم	أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية بجامعة دلهي، دلهي	قراءة في السيرة الذاتية "بعد الخمسين" للدكتور محمود الربيعي
4	د. عبد الكريم	دكتوراه من الجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي	دراسة تحليلية لكاتب "هذه حياتي" لعبد الحميد جودة السحار
5	أحمد غني	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، بجامعة جواهر لال نهرو	شهاب نامه لقدرت الله شهاب: دراسة تحليلية نقدية

وتمت إقامة فعاليات اليوم الثاني، وذلك يوم الأحد بتاريخ 6 ديسمبر 2020م وبدأت الجلسة الأكاديمية المتوازية الثالثة في القاعة الأولى، بين الساعة 2:00 و3:30 ظهراً بعنوان "السير الذاتية: دراسة اجتماعية وثقافية". ترأس الجلسة الأستاذ الدكتور شفيق أحمد خان، رئيس قسم اللغة العربية وآدابها بالجامعة المليية الإسلامية (نيودلهي) سابقاً

وقام بتنسيقها الدكتور نعيم الحسن، أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية جامعة دلهي (نيودلهي) وتم تقديم ست أوراق بحثية في هذه الجلسة وهي كالتالي:

رقم التسلسل	المشاركة	المعهد/الكلية/الجامعة	عنوان المقالة
1	د. هيفاء شاكري	أستاذة مساعدة بقسم اللغة العربية، بالجامعة المليية الإسلامية	السيرة الذاتية لغسان كنفاني من خلال رسائله لغادة السمان
2	د. محمد عفان	أستاذ مساعد، بقسم اللغة العربية بجامعة بابا غلام شاه بادشاه، راجوري	جبرا ابراهيم جبرا مع أبيه في البئر الأولى : دور القصص والحكايات في تشكيل مفاهيم الخير والشر
3	د. عظمت الله	أستاذ ضيف، بقسم اللغة العربية، بالجامعة المليية الإسلامية	دراسة "أشياء من ذكريات طفولتي" للكاتب السوري حنا مينه
4	د. تجمل حق،	أستاذ مساعد، ورئيس قسم اللغة العربية في كلية مهنوش نندي بهوغي التابعة لجامعة كولكاتا	قراءة في كتاب "عصر العلم" لصاحب نوبل في الكيمياء أحمد زويل من منظور اجتماعي وثقافي
5	توصيف الرحمن	باحث بقسم اللغة العربية بالجامعة المليية الإسلامية	طاغور في كتابه "أيام طفولتي"

6	بريتي بهارتيا	باحثة بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو	"جوتن" لأوم براكاش بالميكي: قصة لدليت
---	---------------	---	---------------------------------------

وبدأت الجلسة الأكاديمية المتوازية الثالثة في القاعة الثانية، بين الساعة 2:00 و3:30 ظهراً بعنوان "السيرة الذاتية: دراسة اجتماعية وثقافية" وترأس الجلسة الأستاذ الدكتور ك. محمد بشير أحمد، قسم اللغة العربية بجامعة آسام، وقام بتنسيقها الدكتور سابق م. ك. رئيس قسم اللغة العربية ايم اي ايس كلية ممباد، كيرالا، وتم تقديم ست أوراق بحثية تالية في هذه الجلسة:

رقم التسلسل	المشاركة	المعهد/الكلية/الجامعة	عنوان المقالة
1	د. مخلص الرحمن	رئيس قسم اللغة العربية، كلية هيرالال باكات، بيربوم بنغال الغربية	تصوير الواقع الاجتماعي في "قصة حياة" للمازني
2	د. زرنغار	أستاذة مساعدة بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو	"خليها على الله" ليحيى حقي
3	توصيف أحمد،	مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو	سيدة الحقائق أم مشعلة الحرائق: نوال السعداوي خلال سيرتها الذاتية "أوراق حياتي"

4	أحرار الحق	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو	"البئر الأولى" و"شارع الأميرات": دراسة تحليلية
5	محمد عبد الواحد،	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو	لمحات من الاعتراف في أدب السيرة الذاتية: "تتشير البصلة" لغونترغراس نموذجاً
6	ريحان أنصاري	باحث بمركز الدراسات الإفريقية، بجامعة جواهرلال نهرو	الأوضاع الاجتماعية والمعيشية في المغرب العربي كما ينعكس في "الخبز الحافي"

أما الجلسة الأكاديمية المتوازية الرابعة فقد عقدت في القاعة الأولى بين الساعة 3:30 و5:00 مساءً بعنوان "السير الذاتية: دراسة تاريخية وسياسية" ترأسها الأستاذ الدكتور أشفاق أحمد من قسم اللغة العربية في كلية الآداب، جامعة بنارس الهندوسية ونسّقها الدكتور محمد سليم، أستاذ مساعد بمدرسة اللغات الأجنبية بجامعة إنديرا غاندي الوطنية المفتوحة (نيو دلهي) والأوراق البحثية التي تم تقديمها في هذه الجلسة يبلغ عددها الست وهي كما يلي:

رقم التسلسل	المشاركة	المعهد/الكلية/الجامعة	عنوان المقالة
1	د. مصطفى عطية جمعة،	أستاذ الأدب العربي والنقد، دولة الكويت	مالك بن نبي: التكوين ومقاومة الفكر الاستعماري
2	د. محمد	أستاذ مساعد بكلية	ملاحح شخصية غاندي في

قاسم العادل	ذاكر حسين بجامعة دلهي	ضوء سيرته الذاتية "قصة تجاربي مع الحقيقة"
3	د. محفوظ الرحمن	وصف الأماكن والمنظر في سيرة علي الطنطاوي الذاتية (ذكريات) دراسة تحليلية
3	د. محمد إرشاد الندوي	عصر الملك المغول محمد شاه في ضوء السيرة الذاتية للشيخ علي حزير اللاهجي
4	د. محمد ميكائيل	حياة في الإدارة للدكتور غازي القصيبي: دراسة موضوعية.
5	محمد صادق	ألم تقسيم الهند والحنين الثقافي (بالتركيز الخاص على السيرة الذاتية لانتظار حسين)
6	محمد غلمان	أدب السجون في سيرة "أحلام بالحرية" لعائشة عودة

والجلسة الأكاديمية المتوازية الرابعة عقدت في القاعة الثانية وجرت بين الساعة 3:30 و5:00 مساءً بعنوان "السير الذاتية: دراسة تاريخية وسياسية". ترأس ونسقها الدكتور فضل الله شريف، رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة العثمانية، حيدرآباد، وقدمت فيها خمس أوراق بحثية تالية:

رقم	المشاركة	المعهد/الكلية/الجامعة	عنوان المقالة
-----	----------	-----------------------	---------------

التسلسل			
1	د. محمد أجمل	أستاذ مساعد، مركز الدراسات العربية والإفريقية، بجامعة جواهرلال نهرو	دراسة اكتشاف الهند لجواهرلال نهرو
2	د. محمد ربحان	مدير مشارك لمجلة أقلام الهند	دراسة "ذكريات" للشيخ علي الطنطاوي من منظور تاريخي
3	فرحان أنصاري	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، بجامعة جواهرلال نهرو	ملاحح الحياة السياسية في مصر كما تنعكس في "البحث عن الذات" لمحمد أنور السادات
4	أبو حمزه	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو	فتاة الجيش، نصف العمر من النضال: دراسة تحليلية
5	زبير حسين	باحث بقسم اللغة العربية، بجامعة عالية، كولكاتا	غازي القصيبي وسيرته من خلال كتابه "الوزير المرافق" دراسة سياسية

والجلسة الأكاديمية المتوازية الخامسة عقدت في القاعة الأولى بين الساعة 6:00 و7:15 مساءً بعنوان "السير الذاتية: قضايا ومسائل ودراسة مقارنة" وترأسها الأستاذ الدكتور رضوان الرحمن رئيس مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهرلال نهرو وقام بتنسيقها الدكتور محمد أجمل، أستاذ مساعد بمركز الدراسات العربية

والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو. والأوراق البحثية التي قدمت في هذه الجلسة أربع كالتالي:

رقم التسلسل	المشارك/ة	المعهد/ الكلية/ الجامعة	عنوان المقالة
1	د. محمد سليم	أستاذ مساعد بجامعة إنديرا غاندي المفتوحة، نيودلهي	فلسفة الحياة ومعنى الوجود كما ينعكس في "سجن العمر" لتوفيق الحكيم
2	عادل حسن	باحث بقسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة المليية الإسلامية	مريد البرغوثي في ضوء كتابه الشهير رأيت رام الله
3	فضل الرحيم	باحث بمركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو	"حياتي" لأحمد أمين و"آب بيتي" لعبد الماجد الدراياآبادي، دراسة مقارنة
4	محمد عارف	باحث مركز الدراسات العربية والإفريقية، جامعة جواهر لال نهرو	السيرة الذاتية "آب بيتي" لعبد الماجد الدراياآبادي.

وفي الجلسة الختامية، شارك عدد لا بأس به من الأدباء والكُتاب والأكاديميين البارزين من الهند ومن الدول العربية وأعرّبوا عن انطباعاتهم تجاه هذه الندوة الافتراضية وهنأوا القائمين عليها على نجاحها، من أمثال البروفيسور زبير أحمد الفاروقي رئيس قسم اللغة العربية وآدابها في الجامعة المليية الإسلامية سابقاً، والدكتورة هيفاء شاكري أستاذة

مساعدة بقسم اللغة العربية بالجامعة المليية الإسلامية، نيو دلهي، والدكتورة هدى خليل، والدكتور سعيد الرحمن والدكتور نعيم الحسن الأثري وغيرهم.

وقبل اختتام هذه الندوة رسمياً، قدّم مدير الندوة البروفيسور عبيد الرحمن الطيب أسمى معاني الشكر والامتنان إلى الضيوف والأساتذة والطلاب والباحثين والحضور الكرام على مشاركتهم الفعّالة ودراساتهم القيمة، كما قدّم الدكتور محمد أجمل، منسق الندوة، كلمة الشكر إلى جميع مقدّمي البحوث والمقالات والحضور والضيوف المشاركين.

وفضلاً عن ذلك، لعب الفريق الفني المكوّن من الدكتورة سنديشا رايبا والدكتور سونو سايني والدكتور محمد أجمل والدكتور صابر نواز دوراً فعّالاً في إنجاح هذه الندوة إذ بذل كلُّ منهم قصارى جهودهم في تنسيق وإدارة الأعمال الفنية.

التاريخ الصغير للإمام البخاري

- الشيخ محمد حبيب الله الأعظمي المئوي¹

ألا يا أيها القوم العطاش بقدفد
عليكم بذا الماء المعين عليكم
فهذا غدیر مفعم من فرائه
وبشرى لمن يرتاد خوفاً بجهدہ
ومن يبتغي علم الحديث وسرده
فكل حديث في رجال وقرخه
فقد جاء نور من إله وفضله
فن يكتسب لله علماً فلا يضل
ومن يقترب مرضاة ربّ ومن يطع
فقد فاز في الدارين فوزاً علا به
فهذا كتاب في الرواة ونقدها
وتخریج مخطیها، وتبيين كذبها
وإظهار ضعف، والبيان اختلالها
وصححه فاهي الفؤاد غطمم

خلا ذا عن الماء الرواء وعن ند
فهذاك يروي كل عطشان والصدى
فطوبى لقوم نازل فيه في غد
وتنقيده من يخطي حديثاً ويهتدي
ويرتاض لله أعلى الممجد
ويظهر فيها من ضعيف وجيد
لمن يقتني أثر الحديث ويقتدي
ومن يفعل الحسنات لله يرشد
لأمر الإله، والرسول محمد
على كل جبار، عنيد، ومعتد
وجرح، وتعديل، وتوثيق نقد
وإملاال موت، ثم إملاء مولد
وقلة حفظ للإمام محمد
عراعر توم حين ما حشد الندي

¹ الشيخ محمد حبيب الله الأعظمي المئوي الملقب بـ"ملاً فاضل" من علماء القرن الرابع عشر الهجري، ولم نجد عنه أكثر من هذا.

تراه ربيعاً للعلوم وشمرت
وغيث غمام الحق إذ آت أرضه
وحبراً نطاسياً ذكياً حلاحلاً
ذوابة قوم من وجوه ذوي النهى
يظن إذا قام إلينا برحادس
وذا لودعي، يلبي، وأروع
قليل التشكي للهلمات فاجأت
يوح بسر محتفٍ بذكائه
مساعير حرب الخوض للدين والتقى
مقاديم في الهيجاء إذ يكره الوغى
له قدم قد ثبت الله للندي
فذلك شمس الحق للناس إذ عموا
وشارك في التصحيح من هو ماهر
فمن يكتسب لله علماً فلا يضل
وفي معضدات العلم أول نازل
يحل عقود العويصات بالخي
وقد حج بيت الله بالبر والتقى
ونال شمرايخ العلا بعلوه
بناصية المجد الموثل آخذ

لها سنة شهباء من غير قعدد
يفيض بأمطار كثير التوقد
وإن حمت البلوى ففسن التجمد
وخاطب أقوام على ظهر جلند
به ملكاً والناس في القول شهدي
وسيف حسام صارم للأندد
متى ما يرد ظهر المحامد يرصد
من المعضلات القاسيات لجهد
مقاهيم جيش للمقاهيم زهد
ذووا تجربات، ثم آووا المنجد
وقلب بذكر الله يمسي ويغتدي
لإظلام ليل الجور بالمترد
وفي طبع ذا التاريخ أول مغتد
وفي غمرات الفن آدم مسعد
ويصطاد وحشاً من أقاويل شرّد
فقد غاص في بحر غطم ومزبد
ومن هو في الإسلام للعز مرتد
وحاز فعلا القوم بالجد واليد
ومحرز فضل الدين طلاع أنجد

غزير سهاد الليل لله خاضعاً يطيل خشوعاً للإله الموحد
وما يفعل الخيرات إلا لوجهه ومن بات بالأعمال لله يحمده
غزير بأنفاس الكرام وسيد كريم أصيل في نجار ومحمد
عطوف على الهلاك بالمن والندی ومعطٍ لمن يبغي ومُجدٍ لمجد
وذو الفضل والخلق العظيم وذو العلى وحرزي ومولاي الكريم وسيدي
وذلك محي الدين والحق والهدى فيعلو به فضلاً على كلِّ صندد
فمنا جزى الله التقدير بسعيه ويوم عسير ضيق يوم مشهد
واني حبيب أعظمي ومذهبي ليعزى إلى النعمان والموِّ مولدي¹

¹ التاريخ الصغير، ص 247-248

المراسلات المتعلقة بالاشتراك في الطباعة والنشر توجه إلى:

عنوان البريد:

مولانا آزاد آئيديل إيجو كيشنال ترست، بولفور، بنغال الغربية رقم البريد: 731235

الهيئة الاستشارية

د. مثنى حارث الضاري (العراق)	د. سناء شعلان (الأردن)
د. صالح البلوشي (عمان)	السيد محمد دانش الأعظمي (البحرين)

هيئة التحكيم

د. بشري زيدان (مصر)	د. حسن يشو (قطر)
د. عامر خليل الجراح (تركيا)	د. محمد فضل الله شريف (الهند)

هيئة التحرير

د. أورنك زيب الأعظمي (مدير التحرير)	د. هيفاء شاكري (المشارك في التحرير)
د. محمد معتمم الأعظمي (نائب مدير التحرير)	محمد شفاء الرحمن المدني (عضو)

عنوان البريد الإلكتروني:

aurang11zeb@yahoo.co.in (1)

azebazmi@gmail.com (2)

موقع المجلة: www.azazmi.com

الاشتراك السنوي:

1000 روبية (للطلاب) 1500 روبية (للأساتذة والمكاتب)

ISSN No. 2321-7928

10: 01

Majalla-tul-Hind

(Arabic Quarterly Peer-Reviewed Journal)

(Vol.: 10, Issue: 01)

Editor

Dr. Aurang Zeb Azmi

Associate Editor

Dr. Heifa Shakri

Assistant Editor

Dr. Mohd Moatasim Azmi



Maulana Azad Ideal Educational Trust
Bolpur, West Bengal, India